وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس، رضى الله عنهما[١]: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾، يقول: يخاصم الصادق الكاذب، والمظلوم الظالم، والمهدى الضال، والضعيف المستكبر[٢].

وقد روى ابن منده فى كتاب «الروح»، عن ابن عباس أنه قال: يختصم الناس يوم القيامة، حتى تختصم الروح مع الجسد، فتقول الروح للجسد: أنت فعلت. ويقول الجسد للروح: أنت أمرت، وأنت سولت. فيبعث الله ملكا يفصل بينهما، فيقول [لهما][٣]: إن مثلكما كمثل رجل مقعد بصير وآخر ضرير، دخلا بستانا، فقال المقعد للضرير: إنى أرى هاهنا ثمارا، ولكن لا أصل إليها. فقال له الضرير: اركبنى فتناولها، فركبه فتناولها، فأيهما المعتدى؟ فيقولان: كلاهما. فيقول لهما الملك. فإنكما قد حكمتما على أنفسكما. يعنى: أن الجسد للروح كالمطية، وهو راكبه.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا جعفر بن أحمد بن عَوْسَجة، حدثنا ضرار، حدثنا أبو سلمة الخزاعى منصور بن سلمة، حدثنا القمى ـ يعنى يعقوب بن عبد الله ـ عن جعفر بن المغيرة، عن سعيد ابن جبير، عن ابن عمر[٤] [رضى الله عنهما][٥] قال: نزلت هذه الآية، وما نعلم فى أى شىء نزلت: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [قال][٦]: قلنا: من نخاصم؟ ليس بيننا وبين أهل الكتاب خصومة، فمن نخاصم؟ حتى وقعت الفتنة، فقال ابن عمر: هذا الذى وعدنا ربنا ـ عز وجل ـ نختصم فيه.

ورواه النسائى عن محمد بن عامر، عن منصور بن سلمة، به[٧].

وقال أبو العالية [فى قوله][٨]: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ قال: يعنى أهل القبلة.

وقال ابن زيد: يعنى أهل الإسلام وأهل الكفر.

وقد قدمنا أن الصحيح العموم، والله أعلم.

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٣٢) وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٥) ﴾.

يقول تعالى مخاطبا للمشركين الذين افتروا على الله، وجعلوا معه آلهة أخرى، وادعوا أن الملائكة بنات الله، وجعلوا لله ولدا ـ تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا ـ ومع هذا كذبوا بالحق إذ جاءهم على ألسنة رسل الله، صلوات الله [وسلامه][٩] عليهم أجمعين، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ أى: لا أحد أظلم من هذا؛ لأنه جمع بين طرفى الباطل،

---

(١) فى ت: «عنه». (٢) فى أ: «المتكبر». (٣) زيادة من أ.
(٤) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بسنده إلى ابن عمر». (٥) زيادة من أ. (٦) زيادة من أ.
(٧) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٤٧).
(٨) زيادة من ت، أ. (٩) زيادة من أ.

www.Quranpdf.blogspot.in

كذب على الله، وكَذَّب رسول الله، قالوا الباطل وردوا الحق؛ ولهذا قال متوعدا لهم: ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ وهم الجاحدون المكذبون.

ثم قال: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ قال مجاهد، وقتادة، والربيع بن أنس، وابن[١] زيد: ﴿الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ ﴾: هو الرسول.

وقال السدى: هو جبريل عليه السلام، ﴿ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ يعنى: محمدا ﷺ.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ قال: من جاء بلا إله إلا الله، ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ يعنى: رسول الله ﷺ.

وقرأ الربيع بن أنس: «الذين جاؤوا [٢]بالصدق» يعنى: الأنبياء، «وصدقوا به» يعنى: الأتباع.

وقال ليث بن أبى سليم، عن مجاهد: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ قال: أصحاب القرآن المؤمنون يجيؤون يوم القيامة، فيقولون: هذا ما أعطيتمونا، فعملنا فيه بما أمرتمونا.

وهذا القول عن مجاهد يشمل كل المؤمنين؛ فإن المؤمن يقول الحق ويعمل به، والرسول ﷺ أولى الناس بالدخول فى هذه الآية على هذا التفسير، فإنه جاء بالصدق[٣]، وصدق المرسلين، وآمن بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ هو رسول الله ﷺ، ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾: المسلمون[٤].

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ قال ابن عباس: اتقوا الشرك.

﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يعنى: فى الجنة، مهما طلبوا وجدوا، ﴿ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ . لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. كما قال فى الآية الأخرى: ﴿أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: ١٦].

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦)
وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ (٣٧) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ
كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ
الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَن يَأْتِيهِ
عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٤٠) ﴾ .

(١) فى أ: «وأبو». (٢) فى أ: «والذى جاء».
(٣) فى أ: «جاء بالحق». (٤) فى ت، س، أ: «قال المسلمون».

www.Quranpdf.blogspot.in

يقول تعالى: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ ـ وقرأ بعضهم: «عباده» ـ يعنى أنه تعالى يكفى من عبده وتوكل عليه.

وقال[(١)] ابن أبى حاتم هاهنا: حدثنا أبو عبيد الله[(٢)] ابن أخى ابن وهب، حدثنا عمى، حدثنا أبوهانئ، عن أبى على عمرو بن مالك الجنبى[(٣)]، عن فضالة بن عبيد الأنصارى؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «أفلح من هدى إلى الإسلام، وكان عيشه كفافا، وقَنَعَ به».

ورواه الترمذى والنسائى، من حديث حيوة بن شريح، عن أبى هانئ الخولانى، به[(٤)]. وقال الترمذى: صحيح.

﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ يعنى: المشركين يخوفون الرسول ويتوعدونه بأصنامهم وآلهتهم التى يدعونها[(٥)] من دونه؛ جهلا منهم وضلالا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ . وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ﴾ أى: منيع الجناب لا يضام، من استند إلى جنابه ولجأ إلى بابه، فإنه العزيز الذى لا أعز منه، ولا أشد انتقاما منه، ممن كفر به وأشرك وعاند رسوله ﷺ.

وقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ يعنى: [أن][(٦)] المشركين كانوا يعترفون بأن الله هو الخالق للأشياء كلها، ومع هذا يعبدون معه غيره، مما[(٧)] لا يملك لهم ضرا ولا نفعا؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ أى: لا تستطيع شيئا من الأمر[(٨)].

وذكر ابن أبى حاتم هاهنا حديث قيس بن الحجاج، عن حنش الصنعانى، عن[(٩)] ابن عباس مرفوعا: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يكتبه الله عليك لم يضروك، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشىء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك، جفت الصحف، ورفعت الأقلام، واعمل لله بالشكر فى اليقين، واعلم أن الصبر على ما تكره خيرا كثيرا، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا»[(١٠)].

﴿ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أى: الله كافىّ، عليه توكلت وعليه يتوكل المتوكلون، كما قال هود، عليه السلام، حين قال له قومه: ﴿إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ. مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ. إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٦].

---

(١) فى ت: «وروى». (٢) فى أ: «عبد الله». (٣) فى أ: «الحسينى».
(٤) ورواه الحاكم فى المستدرك (٤/ ١٢٢) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٨/ ٣٠٦) من طريق عبد الله بن وهب عن أبى هانئ به.
(٥) فى أ: «يدعون بها». (٦) زيادة من ت، أ. (٧) فى ت، س، أ: «ممن».
(٨) فى ت: «الأمور». (٩) فى ت: «حديثا بسنده إلى».
(١٠) رواه أحمد فى مسنده (١/ ٢٩٣) والترمذى فى السنن برقم (٢٥١٦) من طريق الليث بن سعد عن قيس بن الحجاج به، قال الترمذى: «حديث حسن صحيح».

www.Quranpdf.blogspot.in

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن عصام الأنصارى، حدثنا عبد الله بن بكر[(١)] السهمى، حدثنا محمد بن حاتم، عن أبى المقدام ـ مولى آل عثمان ـ عن محمد بن كعب القرظى، حدثنا ابن عباس[(٢)] [رضى الله عنهما][(٣)] ـ رفع الحديث إلى رسول الله ﷺ قال: «من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما فى يد الله أوثق [منه][(٤)] بما فى يديه، ومن أحب أن يكون أكرم الناس، فليتق الله»[(٥)].

وقوله: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أى: على طريقتكم، وهذا تهديد ووعيد. ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ أى: على طريقتى ومنهجى، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أى: ستعلمون غب ذلك ووباله ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أى: فى الدنيا، ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أى: دائم مستمر، لا محيد له عنه. وذلك يوم القيامة.

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (٤١) اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢)﴾.

يقول تعالى مخاطبا رسوله محمدا ﷺ: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ يعنى: القرآن ﴿لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ أى: لجميع الخلق من الإنس والجن لتنذرهم به، ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ﴾ أى: فإنما يعود نفع ذلك إلى نفسه، ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أى: إنما يرجع وبال ذلك على نفسه، ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أى: بموكل أن يهتدوا، ﴿إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢]، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

ثم قال تعالى مخبرا عن نفسه الكريمة بأنه المتصرف فى الوجود بما يشاء، وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى، بما يرسل من الحفظة الذين يقبضونها من الأبدان، والوفاة الصغرى عند المنام، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ. وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦٠، ٦١]. فذكر الوفاتين: الصغرى ثم الكبرى. وفى هذه الآية ذكر الكبرى ثم الصغرى؛ ولهذا قال: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، فيه دلالة على أنها تجتمع فى الملأ الأعلى، كما ورد بذلك الحديث المرفوع الذى رواه ابن منده وغيره. وفى صحيحى البخارى ومسلم من حديث عبيد الله[(٦)] بن عمر، عن سعيد بن أبى سعيد، عن أبيه، عن أبى هريرة، رضى الله عنه،

---

(١) فى أ: «بكير».
(٢) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بإسناده إلى ابن عباس».
(٣) زيادة من ت.
(٤) زيادة من ت، س، أ.
(٥) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٣/٢١٨) من طرق عن أبى المقدام به، ورواه ابن عدى فى الكامل (٥/٢٤١) من طريق شيبان عن عيسى ابن ميمون عن محمد بن كعب القرظى به.
(٦) فى أ: «عبد الله».

www.Quranpdf.blogspot.in

الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلْيَنْفُضْه بداخلة إزاره، فإنه لا يدرى ما خلفه عليه، ثم ليقل: باسمك ربى وضعت جنبى، وبك أرفعه، إن أمسكت نفسى فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»[١].

وقال بعض السلف [رحمهم الله][٢]: يقبض أرواح الأموات إذا ماتوا، وأرواح الأحياء إذا ناموا، فتتعارف ما شاء الله تعالى أن تتعارف، ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ التى قد ماتت، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى.

قال السدى: إلى بقية أجلها. وقال ابن عباس: يمسك أنفس الأموات، ويرسل أنفس الأحياء، ولا يغلط. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤) وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥)﴾.

يقول تعالى ذاما للمشركين فى اتخاذهم شفعاء من دون الله، وهم الأصنام والأنداد، التى اتخذوها من تلقاء أنفسهم بلا دليل ولا برهان حداهم على ذلك، وهى لا تملك شيئا من الأمر، بل وليس لها عقل تعقل به، ولا سمع تسمع به، ولا بصر تبصر به، بل هى جمادات أسوأ حالا من الحيوان بكثير[٣].

ثم قال: قل: أى يا محمد لهؤلاء الزاعمين أن ما اتخذوه[٤] شفعاء لهم عند الله، أخبرهم أن الشفاعة لا تنفع عند الله إلا لمن ارتضاه وأذن له، فمرجعها كلها إليه، ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

﴿لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: هو المتصرف فى جميع ذلك، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أى: يوم القيامة، فيحكم بينكم بعدله، ويجزى كلا بعمله.

ثم قال تعالى ذاما للمشركين أيضا: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ أى: إذا قيل: لا إله إلا الله ﴿اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ قال مجاهد: ﴿اشْمَأَزَّتْ﴾: انقبضت.

وقال السدى: نفرت. وقال قتادة: كفرت واستكبرت. وقال مالك، عن زيد بن أسلم: استكبرت. كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥]، أى: عن المتابعة والانقياد لها. فقلوبهم[٥] لا تقبل الخير، ومن لم يقبل الخير يقبل الشر؛ ولهذا قال: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ أى: من الأصنام والأنداد، قاله مجاهد، ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أى: يفرحون ويسرون.

---

(١) صحيح البخارى برقم (٦٣٢٠) وصحيح مسلم برقم (٢٧١٤).
(٢) زيادة من ت.
(٣) فى س: «بكبير».
(٤) فى ت: «ما اتخذوا».
(٥) فى ت: «بقلوبهم».

www.Quranpdf.blogspot.in

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦) وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤٨) ﴾.

يقول تعالى بعد ما ذكر عن المشركين ما ذكر، من المذمة لهم فى حبهم الشرك، ونفرتهم عن التوحيد، ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أى: ادع أنت الله وحده لا شريك له، الذى خلق السموات والأرض وفطرها، أى: جعلها على غير مثال سبق، ﴿عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أى: السر والعلانية، ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أى: فى دنياهم[١]، ستفصل بينهم يوم معادهم ونشورهم، وقيامهم من قبورهم.

وقال[٢] مسلم فى صحيحه: حدثنا عبد بن حميد، حدثنا عمر بن يونس، حدثنا عكرمة بن عمار، حدثنا يحيى بن أبى كثير، حدثنى أبو سلمة[٣] بن عبد الرحمن قال: سألت عائشة [رضى الله عنها][٤]: بأى شىء كان رسول الله ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته: «اللهم، رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدى من يشاء إلى صراط مستقيم»[٥].

وقال[٦] الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، وأخبرنا سهيل بن أبى صالح وعبد الله ابن عثمان بن خُثَيم، عن عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن عبد الله بن مسعود[٧] أن رسول الله ﷺ قال: «من قال: اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، إنى أعهد إليك فى هذه الدنيا[٨] أنى أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأن محمدا عبدك ورسولك، فإنك إن تكلنى إلى نفسى تقربنى من الشر وتباعدنى من الخير، وإنى لا أثق إلا برحمتك، فاجعل لى عندك عهدا تُوَفِّينيه يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد، إلا قال الله، عز وجل، لملائكته يوم القيامة: إن عبدى قد عهد إلى عهدا فأوفوه إياه، فيدخله الله الجنة».

قال سهيل: فأخبرت القاسم بن عبد الرحمن أن عونا أخبر بكذا وكذا؟ فقال: ما فى أهلنا جارية إلا وهى تقول هذا فى خدرها. انفرد به الإمام أحمد[٩].

وقال[١٠] الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لَهِيعة، حدثنى حُيَىّ[١١] بن عبد الله؛ أن

---

(١) فى أ: «دينا لهم». (٢) فى ت: «روى».
(٣) فى ت: «عن أبى سلمة». (٤) زيادة من ت.
(٥) صحيح مسلم برقم (٧٧٠).
(٦) فى ت: «وروى». (٧) فى ت، أ: «مسعود رضى الله عنه». (٨) فى أ: «فى الحياة الدنيا».
(٩) المسند (١/ ٤١٢) قال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١٧٤): «رجاله رجال الصحيح».
(١٠) فى ت: «وروى». (١١) فى ت: «يحيى».

www.Quranpdf.blogspot.in

أبا عبد الرحمن حدثه قال: أخرج لنا عبد الله بن عمرو قرطاسا وقال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا يقول: «اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت رب كل شىء، وإله كل شىء، أشهد أن لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك، وأن محمدا عبدك ورسولك، والملائكة يشهدون، أعوذ بك من الشيطان وشركه، وأعوذ بك أن أقترف على نفسى إثما، أو أجره إلى(١) مسلم».

قال أبو عبد الرحمن: كان رسول الله ﷺ يعلمه(٢) عبد الله بن عمرو أن يقول ذلك حين يريد أن ينام. تفرد به أحمد أيضا(٣).

وقال(٤) [الإمام](٥) أحمد أيضا: حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا ابن عياش(٦)، عن محمد بن زياد الألهانى، عن أبى راشد الحُبْرَانى قال: أتيت عبد الله بن عمرو فقلت له: حدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ. فألقى بين يَدَى صحيفة فقال: هذا ما كتب لى رسول الله ﷺ، فنظرت فيها فإذا فيها أن أبا بكر الصديق(٧) قال: يا رسول الله، علمنى، ما أقول إذا أصبحت وإذا أمسيت. فقال له رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر، قل: اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، لا إله إلا أنت، رب كل شىء ومليكه، أعوذ بك من شر نفسى، وشر الشيطان وشركه، أو(٨) أقترف على نفسى سوءا، أو أجره إلى مسلم».

ورواه الترمذى، عن الحسن بن عرفة، عن إسماعيل بن عياش(٩)، به(١٠)، وقال: حسن غريب من هذا الوجه .

وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا شيبان، عن ليث، عن مجاهد قال: قال أبو بكر الصديق: أمرنى رسول الله ﷺ أن أقول إذا أصبحت وإذا أمسيت، وإذا أخذت مضجعى من الليل: «اللهم فاطر السموات والأرض» إلى آخره(١١).

وقوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ وهم المشركون، ﴿ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ ﴾ أى: ولو أن جميع ملك الأرض وضعفه معه ﴿ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ ﴾ أى: الذى أوجبه الله لهم يوم القيامة، ومع هذا لا يُتقبل منهم الفداء ولو كان ملء الأرض ذهبا، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ أى: وظهر لهم من الله من العذاب والنكال بهم ما لم يكن فى بالهم ولا فى حسابهم، ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ أى: وظهر لهم جزاء ما اكتسبوا فى الدار الدنيا من المحارم والمآثم، ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أى: وأحاط بهم من العذاب والنكال ما كانوا يستهزئون به فى الدار الدنيا.

﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ

---

(١) فى أ: «على». (٢) فى ت، س: «يعلم».
(٣) المسند (٢/ ١٧١).
(٤) فى ت: «وروى». (٥) زيادة من أ. (٦) فى ت: «عباس».
(٧) فى ت: «الصديق رضى الله عنه». (٨) فى ت، أ: «أن». (٩) فى أ: «عباس».
(١٠) المسند (٢/ ١٩٦) وسنن الترمذى برقم (٣٥٢٩).
(١١) المسند (١/ ١٤).

www.Quranpdf.blogspot.in

فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٤٩) قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٥١) أَوَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢)﴾.

يقول تعالى مخبرا عن[1] الإنسان أنه فى حال الضراء يَضْرَع إلى الله، عز وجل، وينيب إليه ويدعوه، وإذا[2] خوله منه نعمة بغى وطغى، وقال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أى: لما يعلم الله من استحقاقى له، ولولا أنى عند الله تعالى خصيص لما خَوَّلنى هذا!

قال قتادة: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾: على خير عندى.

قال الله عز وجل: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ أى: ليس الأمر كما زعموا، بل [إنما][3] أنعمنا عليه بهذه النعمة لنختبره فيما أنعمنا عليه، أيطيع أم يعصى؟ مع علمنا المتقدم بذلك، فهى فتنة أى: اختبار، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾، فلهذا يقولون ما يقولون، ويَدّعون ما يَدّعون.

﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أى: قد قال هذه المقالة وزعم هذا الزعم وادعى هذه الدعوى، كثير ممن سلف من الأمم، ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أى: فما صح قولهم ولا منعهم جمعهم وما كانوا يكسبون، ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاءِ﴾ أى: من المخاطبين[4] ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أى: كما أصاب أولئك، ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ كما قال تعالى مخبرا عن قارون أنه قال له قومه: ﴿لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ . وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ . قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾[القصص: ٧٦ ـ ٧٨]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥].

وقوله: ﴿أَوَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أى: يوسعه على قوم ويضيقه على آخرين، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أى: لعبرا وحججا.

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ

---

(١) فى ت: «عن حال». (٢) فى ت: «فإذا».
(٣) زيادة من ت، أ. (٤) فى ت: «المخلطين».

www.Quranpdf.blogspot.in

لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩) ﴾.

هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله يغفر الذنوب جميعا لمن تاب منها ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت، وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر. ولا يصح حمل هذه [الآية][(١)] على غير توبة[(٢)]؛ لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه.

وقال البخارى: حدثنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا هشام بن يوسف؛ أن ابن جريج أخبرهم: قال يعلى: إن سعيد بن جبير أخبره عن ابن عباس[(٣)] [رضى الله عنهما][(٤)]؛ أن ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا. فأتوا محمدا ﷺ فقالوا: إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة. فنزل: ﴿ **وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ** ﴾ [الفرقان: ٦٨]، ونزل [قوله][(٥)]: ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ** ﴾.

وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائى، من حديث ابن جريج، عن يعلى بن مسلم المكى، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، به[(٦)].

والمراد من الآية الأولى قوله: ﴿ **إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا** ﴾ الآية [الفرقان: ٧٠].

وقال[(٧)] الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا أبو قبيل قال: سمعت أبا عبدالرحمن المرى[(٨)] يقول: سمعت[(٩)] ثوبان - مولى رسول الله ﷺ- يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما أحب أن لى الدنيا وما فيها بهذه الآية: ﴿ **يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ** ﴾ إلى آخر الآية، فقال رجل: يا رسول الله، فمن أشرك؟ فسكت النبى[(١٠)] ﷺ، ثم قال: «ألا ومن أشرك» ثلاث مرات. تفرد به الإمام أحمد[(١١)].

وقال الإمام أحمد أيضا: حدثنا سريج[(١٢)] بن النعمان، حدثنا روح بن قيس، عن أشعث بن جابر الحدانى، عن مكحول، عن[(١٣)] عمرو بن عَبَسة[(١٤)] قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ، شيخ كبير يدعم على عصا له، فقال: يا رسول الله إن لى غدرات وفجرات، فهل يغفر لى؟ فقال: «ألست تشهد أن لا إله إلا الله؟» قال: بلى، وأشهد أنك رسول الله. فقال: «قد غفر لك غدراتك وفجراتك». تفرد به أحمد[(١٥)].

(١) زيادة من أ.
(٢) فى ت: «التوبة».
(٣) فى ت: «روى البخارى بسنده عن ابن عباس».
(٤) زيادة من أ .
(٥) زيادة من ت، س.
(٦) صحيح البخارى برقم (٤٨١٠) وصحيح مسلم برقم (١٢٢) وسنن أبى داود برقم (٧٢٧٤) وسنن النسائى (٨٦/٧) .
(٧) فى ت: «وروى».
(٨) فى أ: «السرى».
(٩) فى ت: «سمعت عن».
(١٠) فى ت: «رسول الله».
(١١) المسند (٢٧٥/٥) .
(١٢) فى أ: «شريح».
(١٣) فى ت: «وعن».
(١٤) فى ت، أ: «عنبسة».
(١٥) المسند (٣٨٥/٤).

www.Quranpdf.blogspot.in

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن شهر بن حوشب[١]، عن أسماء بنت يزيد [٢] قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ [هود: ٤٦]، وسمعته يقول: «﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ ولا يبالى ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾».

ورواه أبو داود والترمذى، من حديث ثابت، به[٣].

فهذه الأحاديث كلها دالة على أن المراد: أنه يغفر جميع ذلك مع التوبة، ولا يقنطن[٤] عبد من رحمة الله، وإن عظمت ذنوبه وكثرت؛ فإن باب التوبة والرحمة واسع، قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ [التوبة: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]، وقال تعالى فى حق المنافقين: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا. إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا﴾ [النساء: ١٤٥، ١٤٦]، وقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلاَّ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣]، ثم قال: ﴿أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٤]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾[البروج: ١٠].

قال الحسن البصرى: انظر[٥] إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة!

والآيات فى هذا كثيرة جدا.

وفى الصحيحين عن أبى سعيد، عن رسول الله ﷺ، حديث الذى[٦] قتل تسعا[٧] وتسعين نفسا، ثم ندم وسأل عابدا من عُبَّاد بنى إسرائيل: هل له من توبة؟ فقال: لا. فقتله وأكمل[٨] به مائة. ثم سأل عالما من علمائهم: هل له من توبة؟ فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة؟ ثم أمره بالذهاب إلى قرية يعبد الله فيها، فقصدها فأتاه الموت فى أثناء الطريق، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأمر الله أن يقيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيهما كان أقرب فهو منها. فوجدوه أقرب إلى الأرض التى هاجر إليها بشبر، فقبضته ملائكة الرحمة. وذكر أنه نأى بصدره عند الموت، وأن الله أمر البلدة الخيرة أن تقترب، وأمر تلك البلدة أن تتباعد[٩] [١٠].

هذا معنى الحديث، وقد كتبناه فى موضع آخر بلفظه.

---

(١) فى ت: «وروى أيضا».

(٢) فى أ: «يزيد رضى الله عنها».

(٣) المسند (٦/ ٤٥٤) وسنن أبى داود برقم (٣٩٨٢) وسنن الترمذى برقم (٣٢٣٧)

(٤) فى ت: «ولا يقنط».

(٥) فى ت: «انظروا».

(٦) فى ت: «أن رجلا». (٧) فى أ: «تسعة».

(٨) فى ت: «فأكمل». (٩) فى أ: «تبتعد».

(١٠) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٤٧٠) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٧٦٦).

www.Quranpdf.blogspot.in

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس، رضى الله عنهما[١]، [فى][٢] قوله: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ إلى آخر الآية، قال: قد دعا الله إلى مغفرته من زعم أن المسيح هو الله، ومن زعم أن المسيح هو ابن الله، ومن زعم أن عزيرا[٣] ابن الله، ومن زعم أن الله فقير، ومن زعم أن يد الله مغلولة، ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة، يقول الله تعالى لهؤلاء: ﴿أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٤] ثم دعا إلى توبته من هو أعظم قولا من هؤلاء، من قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]. قال ابن عباس [رضى الله عنهما][٤]: من آيس عباد الله[٥] من التوبة بعد هذا فقد جحد كتاب الله، ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب الله عليه.

وروى الطبرانى من طريق الشعبى، عن شُتَير بن شكَل أنه قال: سمعت ابن مسعود يقول: إن أعظم آية فى كتاب الله: ﴿اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وإن أجمع آية فى القرآن بخير وشر: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]، وإن أكثر آية فى القرآن فرجا فى سورة الغرف: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾، وإن أشد آية فى كتاب الله تصريفا[٦]: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]. فقال له مسروق: صدقت.

وقال الأعمش، عن أبى سعيد، عن أبى الكنود قال: مر عبد الله ـ يعنى ابن مسعود ـ على قاص، وهو يذكر الناس، فقال: يا مذكر، لم تُقَنِّط[٧] الناس؟ ثم قرأ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾. رواه ابن أبى حاتم.

ذكر أحاديث فيها نفى القنوط:

قال[٨] الإمام أحمد: حدثنا سريج بن النعمان، حدثنا أبو عبيدة عبد المؤمن بن عبيد الله[٩]، حدثنى أخشن السدوسى قال: دخلت على أنس بن مالك[١٠] فقال[١١]: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والذى نفسى بيده، لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض، ثم استغفرتم الله لغفر لكم، والذى نفس محمد بيده، لو لم تخطئوا[١٢] لجاء الله بقوم يخطئون، ثم يستغفرون الله فيغفر لهم». تفرد به [الإمام][١٣] أحمد[١٤].

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى[١٥]، حدثنى ليث، حدثنى محمد بن قيس ـ قاص عمر بن عبد العزيز ـ عن أبى صرمة، عن أبى أيوب الأنصارى، رضى الله عنه، أنه قال حين حضرته الوفاة: قد كنت كتمت منكم شيئا سمعته من رسول الله ﷺ، يقول: «لولا أنكم تذنبون، لخلق الله

---

(١) فى س: «عنه». (٢) زيادة من أ. (٣) فى ت: «العزير».
(٤) زيادة من ت. (٥) فى أ: «العباد». (٦) فى ت، س: «تفويضا».
(٧) فى س: «يقنط». (٨) فى ت: «روى». (٩) فى أ: «عبيد الله السدوسى».
(١٠) فى ت: «عن ابن مالك»، وفى أ: «أنس بن مالك رضى الله عنه». (١١) فى ت: «قال».
(١٢) فى ت: «تخطئون». (١٣) زيادة من أ.
(١٤) المسند (٣/٢٣٨).
(١٥) فى أ: «إسحاق بن أبى عيسى».

www.Quranpdf.blogspot.in

قوما يذنبون فيغفر لهم».

هكذا[١] رواه الإمام أحمد، وأخرجه مسلم فى صحيحه، والترمذى جميعا، عن قتيبة، عن الليث بن سعد، به[٢]. ورواه مسلم من وجه آخر به، عن محمد بن كعب القرظى، عن أبى صرمة ـ وهو الأنصارى صحابى ـ عن أبى أيوب، به[٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن عبد الملك الحرانى، حدثنا يحيى بن عمرو بن مالك النُّكرى قال: سمعت أبى يحدث عن أبى الجوزاء، عن ابن عباس[٤] قال: قال رسول الله ﷺ: «كفارة الذنب[٥] الندامة»، وقال رسول الله ﷺ: «لو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون، فيغفر لهم» تفرد به أحمد[٦].

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدثنى عبد الأعلى بن حماد النَّرسِى، حدثنا داود بن عبد الرحمن، حدثنا أبو عبد الله مسلمة الرازى، عن أبى عمرو البجلى، عن عبد الملك بن سفيان الثقفى، عن أبى جعفر محمد بن على، عن محمد بن الحنفية، عن أبيه، على بن أبى طالب، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب العبد المفتن التواب». لم يخرجوه من هذا الوجه[٧].

وقال[٨] ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، أخبرنا ثابت وحميد، عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال: إن إبليس ـ عليه لعائن الله ـ قال: يارب، إنك أخرجتنى من الجنة من أجل آدم، وإنى لا أستطيعه إلا بسلطانك. قال: فأنت مسلط. قال: يارب، زدنى. قال: لا يولد له ولد إلا ولد لك مثله. قال: يارب، زدنى. قال: أجعل صدورهم مساكن لكم، وتجرون منهم مجرى الدم. قال: يارب، زدنى. قال: أجلب عليهم بخيلك ورجلك، وشاركهم فى الأموال والأولاد، وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا. فقال آدم [عليه السلام][٩]: يارب، قد سلطته على، وإنى لا أمتنع [منه][١٠] إلا بك. قال: لا يولد لك ولد إلا وكلت به من يحفظه من قرناء السوء. قال: يارب، زدنى. قال: الحسنة عشر أو أزيد، والسيئة واحدة أو أمحوها. قال: يارب، زدنى. قال: باب التوبة مفتوح ما كان الروح فى الجسد. قال: يارب، زدنى. قال: **﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾**.

وقال محمد بن إسحاق: قال نافع: عن عبد الله بن عمير، عن عمر، رضى الله عنه، فى حديثه قال: وكنا نقول ما الله بقابل ممن افتتن صرفا ولا عدلا ولا توبة، عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم. قال: وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم. قال: فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، أنزل الله فيهم وفى قولنا وقولهم لأنفسهم: **﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ.**

---

(١) فى س: «كذا».

(٢) المسند (٥/ ٤١٤) وصحيح مسلم برقم (٢٧٤٨) وسنن الترمذى برقم (٣٥٣٩).

(٣) صحيح مسلم برقم (٢٧٤٨).

(٤) فى أ: «ابن عباس رضى الله عنهما». (٥) فى أ: «الذنوب».

(٦) المسند (١/ ٢٨٩).

(٧) زوائد عبد الله على المسند (١/ ٨٠).

(٨) فى ت: «وروى». (٩) زيادة من ت، س، أ. (١٠) زيادة من ت، س، أ.

www.Quranpdf.blogspot.in

﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾. قال عمر، رضى الله عنه: فكتبتها بيدى فى صحيفة، وبعثت بها إلى هشام بن العاص قال: فقال هشام: لما أتتنى جعلت أقرؤها بذى طُوًى أصَعِّد بها فيه وأصوت ولا أفهمها، حتى قلت: اللهم أفهمنيها. قال: فألقى الله فى قلبى أنها إنما أنزلت فينا، وفيما كنا نقول فى أنفسنا، ويقال فينا. قال: فرجعت إلى بعيرى فجلست عليه، فلحقت برسول الله ﷺ بالمدينة.

ثم استحث [سبحانه][1] وتعالى عباده إلى المسارعة إلى التوبة، فقال: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ أى: ارجعوا إلى الله واستسلموا له، ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ﴾ أى: بادروا بالتوبة والعمل الصالح قبل حلول النقمة، ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾، وهو القرآن العظيم، ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ أى: من حيث لا تعلمون ولا تشعرون.

ثم قال: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ أى: يوم القيامة يتحسر المجرم المفرط فى التوبة والإنابة، ويود لو كان من المحسنين المخلصين المطيعين لله عز وجل.

وقوله: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ أى: إنما كان عملى فى الدنيا عمل ساخر مستهزئ غير موقن مصدق.

﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أى: تود أن لو[2] أعيدت إلى الدار فتحسن[3] العمل.

قال على بن أبى طلحة: عن ابن عباس: أخبر الله سبحانه[4]، ما العباد قائلون قبل أن يقولوه، وعملهم قبل أن يعملوه[5]. وقال: ﴿ولا ينبئك مثل خبير﴾[فاطر: ١٤]، ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ . أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فأخبر الله تعالى: أن لو رُدوا لما قدروا على الهدى، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٨].

وقد قال[6] الإمام أحمد: حدثنا أسود، حدثنا أبو بكر، عن الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول: لو أن الله هدانى؟! فتكون عليه حسرة». قال: «وكل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول: لولا أن الله هدانى!» قال: «فيكون له الشكر».

ورواه النسائى من حديث أبى بكر بن عياش، به[7].

---

(١) زيادة من ت، وفى أ: «الله».
(٢) فى ت: «أن لو أن».
(٣) فى أ: «لتحسن».
(٤) فى أ: «أخبرنا الله تعالى».
(٥) فى ت، س: «وعلمهم قبل أن يعلموه».
(٦) فى ت: «روى».
(٧) المسند (٢/ ٥١٢).

www.Quranpdf.blogspot.in

ولما تمنى أهل الجرائم العَودَ إلى الدنيا، وتحسروا على تصديق آيات الله واتباع رسله، قال [الله سبحانه وتعالى][(١)]: ﴿ بَلَى[(٢)] قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ أى: قد جاءتك أيها العبد النادم على ما كان منه [(٣)] آياتى فى الدار الدنيا، وقامت حججى عليك، فكذبت بها واستكبرت عن اتباعها، وكنت من الكافرين بها، الجاحدين لها.

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ۝٦٠ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦١ ﴾.

يخبر تعالى عن يوم القيامة أنه تسود فيه وجوه، وتبيض فيه وجوه، تسود وجوه أهل الفرقة والاختلاف، وتبيض وجوه أهل السنة والجماعة، قال تعالى هاهنا: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ﴾ أى: فى دعواهم له شريكا وولداً ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ أى: بكذبهم وافترائهم.

وقوله: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أى: أليست جهنم كافية لها[(٤)] سجنا وموئلا، لهم فيها [دار][(٥)] الخزى والهوان، بسبب تكبرهم وتجبرهم وإبائهم عن الانقياد للحق.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخى ابن وهب، حدثنا عمى، حدثنا عيسى بن أبى عيسى الخياط، عن عمرو بن شعيب[(٦)]، عن أبيه، عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «إن المتكبرين يحشرون يوم القيامة أشباه الذر فى صور الناس، يعلوهم كل شىء من الصغار، حتى يدخلوا سجنا من النار فى واد يقال له بولس، من نار الأنيار، ويسقون عصارة أهل النار، من طينة الخَبَال»[(٧)].

وقوله: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ﴾ أى: مما سبق لهم من السعادة والفوز عند الله، ﴿لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ﴾ أى: يوم القيامة، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أى: ولا يحزنهم[(٨)] الفزع الأكبر، بل هم آمنون من كل فَزَع، مزحزحون عن كل شر، مؤمَّلون كل خير.

﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۝٦٢ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝٦٣ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ۝٦٤ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝٦٥ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ۝٦٦ ﴾.

يخبر تعالى أنه خالق[(٩)] الأشياء كلها، وربها ومليكها والمتصرف فيها، وكل تحت تدبيره وقهره وكلاءته.

---

(١) زيادة من ت، س، أ. (٢) فى ت: «قل» وهو خطأ. (٣) فى أ: «منه جاءتك».
(٤) فى ت، س: «لهم». (٥) زيادة من ت، س.
(٦) فى ت: «روى ابن أبى حاتم بإسناده عن عمرو بن شعيب».
(٧) ورواه أحمد فى مسنده (١٧٨/٢) والترمذى فى السنن برقم (٢٤٩٢) من طريق محمد بن عجلان عن عمرو بن شعيب بنحوه، قال الترمذى: «هذا حديث حسن صحيح».
(٨) فى ت: «أى لا يجزيهم». (٩) فى ت: «خلق».

www.Quranpdf.blogspot.in

وقوله: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ، قال مجاهد: المقاليد هى: المفاتيح بالفارسية. وكذا قال قتادة، وابن زيد، وسفيان بن عيينة.

وقال السدى: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أى: خزائن السموات والأرض.

والمعنى على كلا القولين: أن أزمَّة الأمور بيده، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير؛ ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أى: حججه وبراهينه، ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

وقد روى ابن أبى حاتم هاهنا حديثاً غريبا جداً ـ وفى صحته نظر ـ ولكن[١] نذكره كما ذكره، فإنه قال:

حدثنا يزيد[٢] بن سنان البصرى بمصر، حدثنا يحيى بن حماد، حدثنا الأغلب بن تميم، عن مَخْلد بن هذيل العبدى، عن عبد الرحمن المدنى، عن عبد الله بن عمر، عن عثمان بن عفان، رضى الله عنه، أنه سأل رسول الله ﷺ عن تفسير: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، فقال: «ما سألنى عنها أحد قبلك يا عثمان»، قال: «تفسيرها: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله وبحمده، أستغفر الله، ولا قوة إلا بالله، الأول والآخر، والظاهر والباطن، بيده الخير، يحيى ويميت، وهو على كل شىء قدير، من قالها يا عثمان إذا أصبح عشر مرار أعطى خصالا ستا: أما أولاهن: فيحرس من إبليس وجنوده، وأما الثانية: فيعطى قنطارا من الأجر، وأما الثالثة: فترفع[٣] له درجة فى الجنة، وأما الرابعة: فيتزوج من الحور العين، وأما الخامسة: فيحضره[٤] اثنا عشر ملكا، وأما السادسة: فيعطى من الأجر كمن قرأ القرآن والتوراة والإنجيل والزبور. وله مع هذا يا عثمان من الأجر كمن حج وتقبلت حجته، واعتمر فتقبلت عمرته، فإن مات من يومه طبع بطابع الشهداء».

ورواه أبو يعلى الموصلى من حديث يحيى بن حماد، به مثله[٥]. وهو غريب، وفيه نكارة شديدة، والله أعلم.

وقوله: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾: ذكروا فى سبب نزولها ما رواه ابن أبى حاتم وغيره، عن ابن عباس [رضى الله عنهما أنه قال][٦]: إن المشركين بجهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم، ويعبدوا معه إلهه، فنزلت: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ. وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

وهذه كقوله: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

وقوله: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أى: أخلص العبادة لله وحده، لا شريك له، أنت

---

(١) فى أ: «ولكن نحن». (٢) فى أ: «زيد».
(٣) فى ت: «فيرفع». (٤) فى س: «فتحضره».
(٥) ورواه ابن السنى فى عمل اليوم والليلة برقم (٧٣) من طريق أبى عن شجاع بن مخلد عن يحيى بن حماد به، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١١٥): «رواه أبو يعلى فى الكبير، وفيه الأغلب بن تميم، وهو ضعيف».
(٦) زيادة من ت، س.

www.Quranpdf.blogspot.in

ومن معك، أنت ومن اتبعك وصدقك.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧)﴾.

يقول تعالى: وما قدر المشركون الله حق قدره، حين عبدوا معه غيره، وهو العظيم الذى لا أعظم منه، القادر على كل شىء، المالك لكل شىء، وكل شىء تحت قهره وقدرته.

قال مجاهد: نزلت فى قريش. وقال السدى: ما عظموه حق عظمته.

وقال محمد بن كعب: لو قدروه حق قدره ما كذبوه.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس [رضى الله عنهما](١): ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾: هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله [تعالى](٢) عليهم، فمن آمن أن الله على كل شىء قدير، فقد قدر الله حق قدره، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره.

وقد وردت(٣) أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية الكريمة، والطريق فيها وفى أمثالها مذهب السلف، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف.

قال البخارى: قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، حدثنا آدم، حدثنا شيبان، عن منصور، عن إبراهيم، عن عبيدة، عن عبد الله بن مسعود(٤) قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد: إنا نجد أن الله عز وجل يجعل السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء(٥)، والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع. فيقول: أنا الملك. فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، تصديقا لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الآية(٦).

و[قد](٧) رواه البخارى أيضا فى غير هذا الموضع من(٨) صحيحه، والإمام أحمد، ومسلم، والترمذى والنسائى فى التفسير من سننيهما، كلهم من حديث سليمان بن مهران الأعمش، عن إبراهيم عن عبيدة، عن [عبد الله](٩) ابن مسعود، رضى الله عنه، بنحوه(١٠).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم عن علقمة، عن عبد الله، رضى الله عنه، قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ من أهل الكتاب، فقال: يا أبا القاسم، أبلغك أن الله [تعالى](١١) يحمل الخلائق على إصبع، والسموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على

(١، ٢) زيادة من أ. (٣) فى ت: «ورد».
(٤) فى ت، أ: «مسعود رضى الله عنه». (٥) فى ت، أ: «والماء على إصبع».
(٦) صحيح البخارى برقم (٤٨١١).
(٧) زيادة من أ. (٨) فى أ: «فى». (٩) زيادة من ت.
(١٠) صحيح البخارى برقم (٧٤١٤، ٧٤١٥، ٧٤٥١) والمسند (١/ ٤٢٩) وصحيح مسلم برقم (٢٧٨٦) وسنن الترمذى برقم (٣٢٣٨) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٥١).
(١١) زيادة من أ.

www.Quranpdf.blogspot.in

إصبع، والثرى على إصبع؟ قال: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه. قال: وأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ إلى آخر الآية.

وهكذا رواه البخاري، ومسلم، والنسائي ـ من طرق ـ عن الأعمش[(١)]، به[(٢)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن حسن الأشقر، حدثنا أبو كدينة، عن عطاء، عن أبي الضحى، عن ابن عباس[(٣)] قال: مر يهودي برسول الله ﷺ وهو جالس فقال: كيف تقول يا أبا القاسم: يوم يجعل الله السماء على ذه ـ وأشار بالسبابة ـ والأرض على ذه، والجبال على ذه، وسائر الخلق[(٤)] على ذه ـ كل ذلك يشير بإصبعه[(٥)] ـ قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ الآية.

وكذا رواه الترمذي في التفسير عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، عن محمد بن الصَّلْت أبي جعفر، عن أبي كدينة يحيى بن المهلب، عن عطاء بن السائب، عن أبي الضحى مسلم بن صبيح، به[(٦)]، وقال: حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

ثم قال البخاري: حدثنا سعيد بن غفير، حدثنا الليث، حدثني عبد الرحمن بن خالد بن مسافر، عن ابن شهاب، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن: أن أبا هريرة[(٧)]، رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يقبض الله الأرض، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض».

تفرد به من هذا الوجه[(٨)]، ورواه مسلم من وجه آخر[(٩)].

وقال[(١٠)] البخاري ـ في موضع آخر ـ: حدثنا مُقَدَّم بن محمد، حدثنا عمي القاسم بن يحيى، عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر[(١١)]، عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين على إصبع، وتكون السموات بيمينه، ثم يقول: أنا الملك».

تفرد به أيضا من هذا الوجه[(١٢)]، ورواه مسلم من وجه آخر[(١٣)]. وقد رواه[(١٤)] الإمام أحمد من طريق أخرى بلفظ آخر أبسط من هذا السياق وأطول، فقال:

حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة، عن عبيد الله بن مقسم، عن ابن عمر[(١٥)] أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده، يحركها يقبل بها ويدبر: «يمجد الرب نفسه: أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا

(١) في ت: «من طريق الأعمش».
(٢) المسند (١/ ٣٧٨) وصحيح البخاري برقم (٧٤٥١) وصحيح مسلم برقم (٢٧٨٦) والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٤٥٢).
(٣) في ت: «عن ابن عباس رضي الله عنهما». (٤) في أ: «الخلائق». (٥) في ت: «بأصابعه».
(٦) المسند (١/ ٣٢٤) وسنن الترمذي برقم (٣٢٤٠).
(٧) في ت: «وروى البخاري بإسناده أن أبا هريرة».
(٨) صحيح البخاري برقم (٤٨١٢).
(٩) صحيح مسلم برقم (٢٧٨٧) من طريق الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة به.
(١٠) في ت: «وروى». (١١) في أ: «عن ابن عمر رضي الله عنهما».
(١٢) صحيح البخاري برقم (٧٤١٢).
(١٣) صحيح مسلم برقم (٢٧٨٨) من طريق سالم بن عبد الله عن عبد الله بن عمر به.
(١٤) في ت: «وروى». (١٥) في أ: «عن ابن عمر رضي الله عنهما».

www.Quranpdf.blogspot.in

الملك، أنا العزيز، أنا الكريم». فرجف برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا: لَيَخِرَّن به.

وقد رواه مسلم، والنسائي، وابن ماجه من حديث عبد العزيز بن أبي حازم ـ زاد مسلم: ويعقوب بن عبد الرحمن، كلاهما عن أبي حازم، عن عبيد الله بن مقسم، عن ابن[١] عمر، به، نحوه[٢].

ولفظ مسلم ـ عن عبيد الله بن مقسم[٣] في هذا الحديث ـ: أنه نظر إلى عبد الله بن عمر كيف يحكي النبي ﷺ، قال: يأخذ الله سمواته وأرضيه بيده ويقول: أنا الملك، ويقبض أصابعه ويبسطها: أنا الملك، حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه، حتى إني لأقول: أساقط هو برسول الله ﷺ؟

وقال البزار: حدثنا سليمان بن سيف[٤]، حدثنا أبو علي الحنفي، حدثنا عباد المِنْقَرِي، حدثني محمد بن المنكدر قال: حدثنا عبد الله بن عمر[رضي الله عنهما][٥]، أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية على المنبر: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ حتى بلغ: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، فقال المنبر هكذا، فجاء وذهب ثلاث مرات[٦].

ورواه الإمام الحافظ أبو القاسم الطبراني من حديث عبيد بن عمير، عن عبد الله بن عمرو، وقال: صحيح[٧].

وقال الطبراني في المعجم الكبير: حدثنا عبد الرحمن بن معاوية العُتْبي، حدثنا حيان بن نافع بن صخر بن جويرية، حدثنا سعيد بن سالم القداح، عن معمر بن الحسن، عن بكر بن خُنَيْس، عن أبي شيبة، عن عبد الملك بن عمير، عن جرير[٨] قال: قال رسول الله ﷺ لنفر من أصحابه: «إني قارئ عليكم آيات من آخر سورة الزمر، فمن بكى منكم وجبت له الجنة»؟ فقرأها من عند قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، إلى آخر السورة، فمنا من بكى، ومنا من لم يبك، فقال الذين لم يبكوا: يا رسول الله، لقد جهدنا أن نبكي، فلم نبك؟ فقال: «إني سأقرؤها عليكم، فمن لم يبك فليتباك». هذا حديث غريب جدا[٩].

وأغرب منه ما رواه في المعجم الكبير أيضا: حدثنا هاشم بن مُرْثَد[١٠]، حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش، حدثني أبي، حدثني ضمضم بن زرعة، عن شريح بن عبيد، عن أبي مالك

(١) في أ: «أبي».

(٢) المسند (٢/ ٧٢) وصحيح مسلم برقم (٢٧٨٨) والنسائي في السنن الكبرى برقم (٧٦٨٩) وسنن ابن ماجه برقم (٤٢٧٥).

(٣) في ت: «عمر». (٤) في أ: «يوسف». (٥) زيادة من أ.

(٦) ورواه أبو الشيخ في العظمة برقم (١٢٨): حدثنا أبو بكر البرذعي عن سليمان بن سيف به، ورواه ابن عدي في الكامل (٤/ ٣٤٢) والطبراني في المعجم الكبير (١٢/ ٣٥٢) من طريق عبادة بن ميسرة به، وفي إسناده عباد بن ميسرة المنقري، وهو ضعيف، وعند ابن عدي: «فتحرك المنبر مرتين».

(٧) لم أجده في المطبوع من مسند عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

(٨) في ت: «وروى الطبراني في المعجم الكبير بإسناده عن جرير».

(٩) المعجم الكبير (٢/ ٣٤٨) وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٠١): «فيه بكر بن خنيس وهو متروك».

(١٠) في هـ، ت، أ: «زيد» والتصويب من المعجم.

www.Quranpdf.blogspot.in

الأشعرى [(١)] قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول: ثلاث خلال غَيَّبْتُهُنَّ عن عبادى، لو رآهن رجل ما عمل سوءاً أبدا: لو كشفت غطائى فرآنى حتى نستيقن ويعلم كيف أفعل بخلقى إذا أتيتهم، وقبضت السموات بيدى، ثم قبضت الأرض[(٢)] والأرضين، ثم قلت: أنا الملك، من ذا الذى له الملك دونى؟ ثم أريتهم[(٣)] الجنة وما أعددت لهم فيها من كل خير، فيستيقنوها. وأريهم النار وما أعددت لهم فيها من كل شر فيستيقنوها، ولكن عمدا غيبت ذلك عنهم لأعلم كيف يعملون، وقد بينته لهم»[(٤)].

وهذا إسناد متقارب، وهى نسخة تروى بها أحاديث جمة، والله أعلم.

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ (٦٨) وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (٧٠) ﴾.

يقول تعالى مخبرا عن هول يوم القيامة، وما يكون فيه من الآيات العظيمة والزلازل الهائلة، فقوله: **﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ﴾**، هذه النفخة هى الثانية، وهى نفخة الصعق، وهى التى يموت[(٥)] بها الأحياء من أهل السموات والأرض، إلا من شاء الله كما هو[(٦)] مصرح[(٧)] به مفسرا فى حديث الصور المشهور. ثم يقبض أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت، وينفرد الحى القيوم الذى كان أولا، وهو الباقى آخرا بالديمومة[(٨)] والبقاء، ويقول: **﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾** [غافر:١٦] ثلاث مرات. ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول: **﴿ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾** أى: الذى هو واحد وقد قهر كل شىء، وحكم بالفناء على كل شىء. ثم يحيى أول من يحيى إسرافيل، ويأمره أن ينفخ فى الصور أخرى، وهى النفخة الثالثة نفخة البعث، قال تعالى: **﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾** أى: أحياء بعد ما كانوا عظاما ورفاتا، صاروا أحياء ينظرون إلى أهوال يوم القيامة، كما قال تعالى: **﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾** [النازعات: ١٣، ١٤]، وقال تعالى: **﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً﴾** [الإسراء: ٥٢]، وقال تعالى: **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾** [الروم: ٢٥].

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن النعمان بن سالم قال: سمعت

---

(١) فى أ: «الأشعرى رضى الله عنه».

(٢) فى هـ: «قبضت الأرضين»، وفى س، ت، أ: «قبضت الأرض ثم الأرضين» والمثبت من المعجم.

(٣) فى س: «أريهم».

(٤) المعجم الكبير (٣/ ٢٩٤)، وفى إسناده: محمد بن إسماعيل بن عياش، ضعيف ولم يسمع من أبيه.

(٥) فى س: «تموت».

(٦) فى أ: «جاء».

(٧) فى ت، س: «مصرحا».

(٨) فى أ: «بالديمومية».

www.Quranpdf.blogspot.in

يعقوب بن عاصم بن عروة بن مسعود قال: سمعت رجلا قال لعبد الله بن عمرو [(١)]: إنك تقول: الساعة تقوم إلى كذا وكذا؟ قال: لقد هممت ألا أحدثكم شيئا، إنما قلت: سترون بعد قليل أمرا عظيما. ثم قال عبد الله بن عمرو: قال رسول الله ﷺ: «يخرج الدجال فى أمتى، فيمكث فيهم أربعين ـ لا أدرى أربعين يوما أو أربعين عاما أو أربعين شهرا أو أربعين ليلة ـ فيبعث الله [(٢)] عيسى ابن مريم [(٣)]، كأنه عروة بن مسعود الثقفى، فيظهر فيهلكه الله[(٤)]. ثم يلبث الناس بعده سنين سبعا ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحا باردة من قبل الشام، فلا يبقى أحد فى قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته، حتى لو أن[(٥)] أحدهم كان فى كبد جبل لدخلت عليه». قال: سمعتها من رسول الله ﷺ: «ويبقى شرار الناس فى خفة الطير، وأحلام السباع، لا يعرفون معروفا، ولا ينكرون منكرا». قال: «فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبون؟ فيأمرهم بالأوثان فيعبدونها، وهم فى ذلك دارة أرزاقهم، حسن عيشهم. ثم ينفخ فى الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى له، وأول من يسمعه رجل يلوط حوضه، فيصعق، ثم لا يبقى أحد إلا صعق. ثم يرسل الله ـ أو: ينزل الله مطرا كأنه الطل ـ أو الظل، شك نعمان ـ فتنبت منه أجساد الناس. ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، ثم يقال: يأيها الناس، هلموا إلى ربكم: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْؤُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]، قال: «ثم يقال: أخرجوا بعث النار». قال: «فيقال: كم؟ فيقال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين[(٦)]. فيومئذ تبعث الولدان شيبا، ويومئذ يكشف عن ساق».

انفرد بإخراجه مسلم فى صحيحه[(٧)].

وقال البخارى: حدثنا عمر بن حفص بن غياث، حدثنا أبى، حدثنا الأعمش قال: سمعت أبا صالح قال: سمعت أبا هريرة [رضى الله عنه][(٨)] عن النبى ﷺ قال: «بين النفختين أربعون»[(٩)]. قالوا: يا أبا هريرة، أربعون يوما؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون شهرا؟ قال: أبيت، ويبلى كل شىء من الإنسان إلا عَجْبُ ذنبه، فيه يركب الخلق[(١٠)].

وقال أبو يعلى: حدثنا يحيى بن معين، حدثنا أبو اليمان، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن عمر ابن محمد، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن أبى هريرة [رضى الله عنه][(١١)]، عن النبى ﷺ قال: «سألت جبريل، عليه السلام، عن هذه الآية: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾: من الذين لم يشأ الله أن يصعقهم؟ قال: هم الشهداء، مقلدون أسيافهم حول عرشه، تتلقاهم ملائكة يوم القيامة إلى المحشر بنجائب من ياقوت نمارها ألين من الحرير، مَدُّ[(١٢)] خطاها مد أبصار الرجال، يسيرون فى الجنة يقولون عند طول النزهة: انطلقوا بنا إلى ربنا، عز وجل، لننظر كيف يقضى بين خلقه، يضحك إليهم إلهى، وإذا ضحك إلى عبد فى موطن فلا حساب عليه».

(١) فى أ: «عمرو رضى الله عنهما». (٢) فى أ: «الله تعالى». (٣) فى أ: «ابن مريم عليه السلام».
(٤) فى أ: «فيهلكه الله على يده».
(٥) فى ت، س، أ: «حتى أن لو كان». (٦) فى س: «وتسعون».
(٧) المسند (٢/ ١٦٦) وصحيح مسلم برقم (٢٩٤٠). (٨) زيادة من أ. (٩) فى ت: «أربعين».
(١٠) صحيح البخارى برقم (٤٨١٤). (١١) زيادة من ت، أ. (١٢) فى أ: «قدر».

www.Quranpdf.blogspot.in

رجاله كلهم ثقات إلا شيخ إسماعيل بن عياش، فإنه غير معروف، والله أعلم[١].

وقوله: ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ أي: أضاءت يوم القيامة إذا تجلى الحق، تبارك وتعالى، للخلائق لفصل القضاء، ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ قال قتادة: كتاب الأعمال، ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ﴾ قال ابن عباس: يشهدون على الأمم بأنهم بلغوهم رسالات[٢] الله إليهم، ﴿وَالشُّهَدَاءِ﴾ أي: الشهداء من الملائكة الحفظة على أعمال العباد من خير وشر، ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعدل، ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ . قال الله [تعالى][٣]: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال [الله][٤] تعالى: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، ولهذا قال: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أي: من خير أو شر، ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢) ﴾ .

يخبر تعالى عن حال الأشقياء الكفار كيف يساقون إلى النار؟ وإنما يساقون سوقا عنيفا بزجر وتهديد ووعيد، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣] أي: يدفعون إليها دفعا. هذا وهم عطاش ظماء، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا . وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٥، ٨٦]. وهم في تلك الحال صُمٌّ وبكم وعمي، منهم من يمشي على وجهه، ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩٧].

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ أي: بمجرد وصولهم إليها فتحت لهم أبوابها سريعا، لتعجل لهم العقوبة، ثم يقول لهم خزنتها من الزبانية ـ الذين هم غلاظ الأخلاق، شداد القوى، على وجه التقريع والتوبيخ والتنكيل ـ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أي: من جنسكم تتمكنون من مخاطبتهم والأخذ عنهم، ﴿ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾ أي: يقيمون عليكم الحجج والبراهين[٥] على صحة ما دعوكم إليه، ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي: ويحذرونكم من شر هذا اليوم؟ فيقول الكفار لهم: ﴿بَلَىٰ﴾ أي: قد جاؤونا وأنذرونا، وأقاموا علينا الحجج والبراهين، ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ

---

(١) ورواه الحاكم في المستدرك (٢/٢٥٣) من طريق أبي أسامة عن عمر بن محمد عن زيد بن أسلم بنحوه، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

(٢) في س، أ: «رسالة».

(٣) زيادة من ت، س، أ.

(٤) زيادة من أ.

(٥) في س، أ: «والبرهان».

www.Quranpdf.blogspot.in

﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أى: ولكن كذبناهم وخالفناهم، لما سبق إلينا[١] من الشقوة التى كنا نستحقها حيث عدلنا عن الحق إلى الباطل، كما قال تعالى مخبرا عنهم فى الآية الأخرى: ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ . قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ . وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾[الملك: ٨ ـ ١٠] أى: رجعوا على أنفسهم بالملامة والندامة﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١١] أى: بعدا لهم وخسارا.

وقوله هاهنا: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى: كل من رآهم وعلم حالهم يشهد[٢] عليهم بأنهم مستحقون للعذاب؛ ولهذا لم يسند هذا القول[٣] إلى قائل معين، بل أطلقه ليدل على أن الكون شاهد عليهم بأنهم مستحقون ما هم فيه بما حكم العدل الخبير عليهم به؛ ولهذا قال جل وعلا: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى: ماكثين فيها لا خروج لكم منها، ولا زوال لكم عنها، ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أى: فبئس المصير وبئس المقيل لكم، بسبب تكبركم فى الدنيا، وإبائكم عن اتباع الحق، فهو الذى صيركم إلى ما أنتم فيه، فبئس الحال وبئس المآل.

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٧٤) ﴾.

وهذا إخبار عن حال السعداء المؤمنين حين يساقون على النجائب وفدا إلى الجنة ﴿ زُمَرًا ﴾ أى: جماعة بعد جماعة: المقربون، ثم الأبرار، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم كل طائفة مع من يناسبهم: الأنبياء مع الأنبياء، والصديقون مع أشكالهم، والشهداء مع أضرابهم، والعلماء مع أقرانهم، وكل صنف مع صنف، كل زمرة تناسب بعضها بعضا.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا﴾ أى: وصلوا إلى أبواب الجنة بعد مجاوزة الصراط، حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فاقتص لهم مظالم كانت بينهم فى الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أذن لهم فى دخول الجنة، وقد ورد فى حديث الصور أن المؤمنين إذا انتهوا إلى أبواب الجنة تشاوروا فيمن يستأذن لهم بالدخول، فيقصدون آدم، ثم نوحا، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، ثم محمدا، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، كما فعلوا فى العرصات[٤] عند استشفاعهم إلى الله، عز وجل، أن يأتى لفصل القضاء، ليظهر شرف محمد ﷺ على سائر البشر فى المواطن كلها.

وقد ثبت فى صحيح مسلم عن أنس، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول شفيع فى الجنة» وفى لفظ لمسلم: «وأنا أول من يقرع باب الجنة»[٥].

وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا سليمان، عن ثابت، عن أنس بن مالك، رضى الله

---

(١) فى س، أ: «لنا».
(٢) فى أ: «شهد».
(٣) فى أ: «هذا الذى قاله».
(٤) فى ت، أ: «الصرخات».
(٥) صحيح مسلم برقم (١٩٦).

www.Quranpdf.blogspot.in

عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «آتى باب الجنة يوم القيامة فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد. قال: يقول: بك أُمِرْتُ ألا أفتح لأحد قبلك».

ورواه مسلم عن عمرو[1] الناقد وزهير بن حرب، كلاهما عن أبى النضر هاشم بن القاسم، عن سليمان ـ وهو ابن المغيرة القيسى ـ عن ثابت، عن أنس، به[2].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر عن همام بن منبه، عن أبى هريرة[3] قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة تلج[4] الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر، ولا يبصقون فيها، ولا يمتخطون فيها، ولا يتغوطون فيها. آنيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة، ومجامرهم الألوة[5]، ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان، يرى مخ ساقهما من وراء اللحم، من الحسن. لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب واحد[6]، يسبحون الله بكرة وعشيا».

رواه البخارى عن محمد بن مقاتل، عن ابن المبارك. ورواه مسلم عن محمد بن رافع، عن عبدالرزاق، كلاهما عن معمر بإسناده نحوه[7]. وكذا رواه أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة [رضى الله عنه][8]، عن رسول الله ﷺ[9].

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو خَيْثَمة، حدثنا جرير، عن عمارة بن القعقاع، عن أبى زُرْعَة، عن أبى هريرة [رضى الله عنه][10] قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زُمْرَة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على ضوء أشدِّ كوكب دُرِّى فى السماء إضاءة، لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتْفلون ولا يمتخطون، أمشاطهم الذهب، ورشحهم المسك، ومجامرهم الألوة، وأزواجهم الحور العين، أخلاقهم على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم، ستون ذراعا فى السماء»[11].

وأخرجاه أيضا من حديث جرير[12].

وقال الزهرى، عن سعيد، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «يدخل الجنة من أمتى زُمْرَة، هم سبعون ألفا، تضىء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر». فقام عُكَّاشة بن مِحْصَن فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلنى منهم: فقال: «اللهم اجعله منهم». ثم قام رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلنى منهم. فقال ﷺ: «سبقك بها عُكَّاشة».

أخرجاه[13][14]. وقد روى هذا الحديث ـ فى السبعين ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ـ البخارى ومسلم، عن ابن عباس، وجابر بن عبد الله، وعمران بن حصين، وابن مسعود، ورفاعة بن عرابة

(١) فى أ: «عمرو بن محمد الناقد».
(٢) المسند (٢/ ٣١٦) وصحيح مسلم برقم (١٩٧).
(٣) فى أ: «أبى هريرة رضى الله عنه».
(٤) فى ت: «يدخلون».
(٥) فى س، أ: «ومجامرهم من الألوة».
(٦) فى أ: «قلب رجل واحد».
(٧) المسند (٢/ ٣١٦) وصحيح البخارى برقم (٣٢٢٥) وصحيح مسلم برقم (٢٨٣٤).
(٨) زيادة من أ.
(٩) أخرجه البخارى فى صحيحه برقم (٣٢٤٦).
(١٠) زيادة من أ.
(١١) مسند أبى يعلى (١٠/ ٤٧٠).
(١٢) صحيح البخارى برقم (٣٣٢٧) وصحيح مسلم برقم (٢٨٣٤).
(١٣) فى ت: «أخرجه البخارى ومسلم».
(١٤) صحيح البخارى برقم (٦٥٤٢) وصحيح مسلم برقم (٢١٥).

www.Quranpdf.blogspot.in

الجهني، وأم قيس بنت محصن.

ولهما عن أبي حازم، عن سهل بن سعد، أن رسول الله ﷺ قال: «ليدخلن الجنة من أمتي سبعون ألفا ـ أو: سبعمائة ألف ـ آخذٌ بعضهم ببعض، حتى يدخل أولهم وآخرهم الجنة، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر»[1].

وقال[2] أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا إسماعيل بن عياش، عن محمد بن زياد قال: سمعت أبا أمامة[3] الباهلي يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: وعدني ربي، عز وجل، أن يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفا، مع كل ألف سبعون ألفا، ولا حساب عليهم ولا عذاب، وثلاث حَثَيَات من حثيات ربي عز وجل»[4].

وكذا رواه الوليد بن مسلم، عن صفوان بن عمرو، عن سليم بن عامر، [و][5] أبي اليمان عامر ابن عبد الله بن لُحَيّ[6] عن أبي أمامة [رضي الله عنه][7][8].

ورواه الطبراني، عن عتبة بن عَبْدٍ السُّلمي: «ثم يشفع كل ألف في سبعين ألفا»[9].

وروى مثله عن ثوبان، وأبي سعيد الأنماري. وله شواهد من وجوه كثيرة.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾: لم يذكر الجواب هاهنا، وتقديره: حتى إذا جاؤوها، وكانت هذه الأمور من فتح الأبواب لهم إكراما وتعظيما، وتلقتهم الملائكة الخزنة بالبشارة والسلام والثناء، لا كما تلقى الزبانية الكفرة بالتثريب[10] والتأنيب، فتقديره: إذا كان هذا سَعِدوا وطابوا، وسُرُّوا وفرحوا، بقدر كل ما يكون لهم فيه نعيم. وإذا حذف الجواب هاهنا ذهب الذهنُ كل مذهب في الرجاء والأمل.

ومن زعم أن «الواو» في قوله: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ واو الثمانية، واستدل به على أن أبواب الجنة ثمانية، فقد أبعد النُّجْعَة، وأغرق في النَّزْع. وإنما يستفاد كون أبواب الجنة ثمانية من الأحاديث الصحيحة.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الزهري، عن حميد بن عبد الرحمن[11]، عن أبي هريرة[12] قال: قال رسول الله ﷺ: «من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله، دعي من أبواب الجنة، وللجنة أبواب[13]، فمن كان من أهل الصلاة دُعِي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان» فقال أبو بكر، رضي الله تعالى عنه: يا رسول الله، ما

---

(١) صحيح البخاري برقم (٦٥٥٤) وصحيح مسلم برقم (٢١٩).

(٢) في ت: «وروى». (٣) في ت: «عن أبي أمامة».

(٤) المصنف (١١/ ٤٧١) ورواه الترمذي في السنن برقم (٢٤٣٧) من طريق إسماعيل بن عياش به، وقال: «هذا حديث حسن غريب».

(٥) زيادة من أ. (٦) في أ: «يحيى». (٧) زيادة من أ.

(٨) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٨/ ١٨٧)

(٩) المعجم الكبير (١٧/ ١٢٦، ١٢٧).

(١٠) في أ: «بالذم». (١١) في ت: «فروى البخاري ومسلم». (١٢) في أ: «أبي هريرة رضي الله عنه».

(١٣) في أ: «أبواب ثمانية».

www.Quranpdf.blogspot.in

على أحد من ضرورة دُعى، من أيها[١] دعى، فهل يدعى منها كلها أحد يا رسول الله؟ قال: «نعم، وأرجو أن تكون منهم».

ورواه البخارى ومسلم، من حديث الزهرى، بنحوه[٢].

وفيهما من حديث أبى حازم سلمة بن دينار[٣]، عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «إن فى الجنة ثمانية أبواب، باب منها يسمى الريان، لا يدخله إلا الصائمون»[٤].

وفى صحيح مسلم، عن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ ـ أو: فيسبغ الوضوء ـ ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء»[٥].

وقال[٦] الحسن بن عرفة: حدثنا إسماعيل بن عياش، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى حُسَين، عن شَهْر بن حَوْشَب، عن معاذ، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مفتاح الجنة: لا إله إلا الله»[٧].

ذكر سعة أبواب الجنة ـ نسأل الله العظيم من فضله أن يجعلنا من أهلها ـ:

فى الصحيحين من حديث أبى زُرْعَة، عن أبى هريرة [رضى الله عنه][٨] فى حديث الشفاعة الطويل: «فيقول الله[٩]: يا محمد، أدخل من لا حساب عليه[١٠] من أمتك من الباب الأيمن، وهم شركاء الناس فى الأبواب الأخر. والذى نفس محمد بيده، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة ـ ما بين عضادتى الباب ـ لكما بين مكة وهجر ـ أو: هجر ومكة». وفى رواية: «مكة وبصرى»[١١].

وفى صحيح مسلم، عن عتبة بن غزوان أنه خطبهم خطبة فقال فيها: «ولقد ذكر لنا أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة، مسيرة أربعين سنة، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام»[١٢].

وفى المسند عن حكيم بن معاوية، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ، مثله[١٣].

وقال عبد بن حميد: حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دَرَّاج، عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد، عن رسول الله ﷺ قال: «إن ما بين مصراعين فى الجنة مسيرة أربعين سنة»[١٤].

وقوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ أى: طابت أعمالكم وأقوالكم، وطاب سعيكم فطاب جزاؤكم، كما أمر رسول الله ﷺ أن ينادى بين المسلمين فى بعض الغزوات: «إن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة» وفى رواية: «مؤمنة»[١٥].

---

(١) فى أ: «أيتهما».
(٢) المسند (٢/٢٦٨) وصحيح البخارى برقم (٣٦٦٦) وصحيح مسلم برقم (١٠٢٧).
(٣) فى ت: «وفى الصحيحين».
(٤) صحيح البخارى برقم (١٨٩٦) وصحيح مسلم برقم (١١٥٢).
(٥) صحيح مسلم برقم (٢٣٤). (٦) فى ت: «وروى».
(٧) ورواه أحمد فى مسنده (٥/ ٢٤٢) من طريق إسماعيل بن عياش به، وشهر بن حوشب فيه كلام ولم يسمع من معاذ.
(٨) زيادة من أ. (٩) فى أ: «قال الله عز وجل». (١٠) فى أ: «لا حساب عليه ولا ملامة».
(١١) صحيح البخارى برقم (٤٧١٢) وصحيح مسلم برقم (١٩٤).
(١٢) صحيح مسلم برقم (٢٩٦٧).
(١٣) المسند (٥/ ٣).
(١٤) المنتخب برقم (٩٢٤) ودراج عن أبى الهيثم ضعيف. (١٥) رواه النسائى فى السنن (٥/ ٢٣٤) من حديث أبى هريرة.

www.Quranpdf.blogspot.in

وقوله: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ أى: ماكثين فيها أبدا، لا يبغون عنها حولا.

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ أى: يقول المؤمنون إذا عاينوا فى الجنة ذلك الثواب الوافر، والعطاء العظيم، والنعيم المقيم، والملك الكبير، يقولون عند ذلك: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ أى: الذى كان وعدنا على ألسنة رسله الكرام، كما دعوا فى الدنيا: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٤]، ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣]، ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ. الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥].

وقولهم: ﴿وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ قال أبو العالية، وأبو صالح، وقتادة، والسدى، وابن زيد[١]: أى أرض الجنة.

وهذه الآية كقوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، ولهذا قالوا: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ أى: أين[٢] شئنا حللنا، فنعم الأجر أجرنا على عملنا.

وفى الصحيحين من حديث الزهرى، عن أنس فى قصة المعراج قال النبى ﷺ: «أدخلت الجنة، فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك»[٣].

وقال عبد بن حميد: حدثنا روح بن عبادة، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا الجريرى، عن أبى نضرة، عن أبى سعيد [رضى الله عنه][٤] أن رسول الله ﷺ سأل ابن صائد عن تربة الجنة؟ فقال: دَرْمَكة بيضاءُ مِسْك خالص: فقال رسول الله ﷺ: «صدق».

وكذا رواه مسلم، من حديث أبى مسلمة[٥]، عن أبى نضرة، عن أبى سعيد، به[٦].

ورواه مسلم [أيضا][٧] عن أبى بكر بن أبى شيبة، عن أبى أسامة، عن الجُرَيْرِى، عن أبى نضرة، عن أبى سعيد؛ أن ابن صائد[٨] سأل رسول الله ﷺ عن تربة الجنة، فقال: «دَرْمَكة بيضاء، مسك خالص»[٩].

وقول ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو غسان مالك بن إسماعيل، حدثنا إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن عاصم بن ضمرة[١٠]، عن على بن أبى طالب، رضى الله عنه، فى قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾، قال: سيقوا حتى انتهوا إلى باب من أبواب الجنة، فوجدوا عندها شجرة يخرج من تحت ساقها عينان، فعمدوا إلى إحداهما فتطهروا منها، فجرت عليهم نضرة

---

(١) فى ت: «وأبو صالح وغيرهما». (٢) فى أ: «حيث».
(٣) انظر: الحديث بطوله عند تفسير الآية الأولى من سورة الإسراء.
(٤) زيادة من أ. (٥) فى س: «سلمة».
(٦) المنتخب برقم (٨٧٤) وصحيح مسلم برقم (٢٩٢٨).
(٧) زيادة من أ. (٨) فى س: «صياد».
(٩) صحيح مسلم برقم (٢٩٢٨).
(١٠) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بسنده عن على»، وفى أ: «حمزة».

www.Quranpdf.blogspot.in

النعيم، فلم تُغَير أبشارهم بعدها أبدا، ولم تُشْعَث أشعارهم أبدا بعدها، كأنما دهنوا بالدهان، ثم عمدوا إلى الأخرى كأنما أمروا بها، فشربوا منها، فأذهبت ما كان فى بطونهم من أذى أو قذى، وتلقتهم الملائكة على أبواب[١] الجنة: ﴿ سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾. ويلقى كل غلمان صاحبهم يُطِيفُون به، فعل[٢] الولدان بالحميم جاء من الغيبة: أَبْشِر، قد أعد الله لك من الكرامة كذا وكذا، قد أعد الله لك من الكرامة كذا وكذا. وقال: وينطلق غلام من غلمانه إلى أزواجه من الحور العين، فيقول: هذا فلان ـ باسمه فى الدنيا ـ فيقلن: أنت رأيته؟ فيقول: نعم. فيستخفهن الفرح حتى تخرج إلى أَسْكُفَّة[٣] الباب. قال: فيجىء فإذا هو بنمارق مصفوفة، وأكواب موضوعة، وزرابى مبثوبة. قال: ثم ينظر إلى تأسيس بنيانه[٤]، فإذا هو قد أسس على جندل اللؤلؤ، بين أحمر وأخضر وأصفر [وأبيض][٥]، ومن كل لون. ثم يرفع طرفه إلى سقفه، فلولا أن الله قدره له، لألمَّ أن يذهب ببصره، إنه لمثل البرق. ثم ينظر إلى أزواجه من الحور العين، ثم يتكىء على أريكة من أرائكه، ثم يقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ [الأعراف: ٤٣] الآية[٦].

ثم قال: حدثنا أبى، حدثنا أبو غسان مالك بن إسماعيل النَّهْدِى، حدثنا مسلمة[٧] بن جعفر البَجَلِى قال: سمعت أبا معاذ البصرى يقول: إن عليا، رضى الله عنه، كان ذات يوم عند رسول الله ﷺ، فقال النبى[٨] ﷺ: «والذى نفسى بيده، إنهم إذا خرجوا من قبورهم يُسْتَقبلون ـ أو: يُؤْتون ـ بنوق لها أجنحة، وعليها رحال الذهب، شراك نعالهم نور يتلألأ، كل خطوة منها مد البصر، فينتهون إلى شجرة ينبع من أصلها عينان، فيشربون من إحداهما فيُغْسَل ما فى بطونهم من دنس، ويغتسلون من الأخرى، فلا تشعث أبشارهم ولا أشعارهم بعدها أبدا، وتجرى عليهم نضرة النعيم، فينتهون ـ أو: فيأتون ـ باب الجنة، فإذا حلقة من ياقوتة حمراء على صفائح الذهب، فيضربون بالحلقة على الصفيحة[٩]، فيسمع [١٠]لها طنين يا على، فيبلغ كل حوراء أن زوجها قد أقبل، فتبعث قَيِّمها فيفتح له، فإذا رآه خرّ له ـ قال مسلمة: أراه قال: ساجداً [١١]ـ فيقول: ارفع رأسك، فإنما أنا قَيمك، وُكِّلْتُ بأمرك. فيتبعه ويقفو أثره، فتستخف الحوراء العجلة، فتخرج من خيام الدر والياقوت حتى تعتنقه، ثم تقول: أنت حبى، وأنا حبك، وأنا الخالدة التى لا أموت، وأنا الناعمة التى لا أبأس، وأنا الراضية التى لا أسخط، وأنا المقيمة التى لا أظعن». فيدخل بيتاً من أسّه إلى سقفه مائة ألف ذراع، بناؤه على جندل اللؤلؤ، طرائق أصفر وأخضر وأحمر، ليس فيها [١٢]طريقة تشاكل صاحبتها، فى البيت سبعون سريرا، على كل سرير سبعون حَشْيَة، على كل حشية سبعون زوجة، على كل زوجة سبعون حلة، يرى مُخّ ساقها من باطن الحُلَل، يقضى جماعها فى مقدار ليلة من لياليكم هذه. الأنهار

---

(١) فى أ: «باب». (٢) فى أ: «مثل». (٣) فى س: «أسفكة».

(٤) فى أ: «بنائه». (٥) زيادة من ت، س، أ.

(٦) ورواه الطبرى فى تفسيره (٢٤/ ٣٥) وابن المبارك فى الزهد برقم (١٤٥٠) والضياء المقدسى فى المختارة برقم (٥٤١) من طرق عن أبى إسحاق بنحوه.

(٧) فى ت، أ: «سلمة». (٨) فى ت: «رسول الله». (٩) فى س: «الصفحة».

(١٠) فى أ: «فلو سمع». (١١) فى ت: «خر له ساجد» وهو خطأ، والصواب: «ساجدا».

(١٢) فى ت، س: «منها».

www.Quranpdf.blogspot.in

من تحتهم تَطّرد، أنهار من ماء غير آسن ـ قال: صاف، لا كدر فيه ـ وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ـ قال: لم يخرج من ضروع الماشية ـ وأنهار من خمر لذة للشاربين ـ قال: لم تعصرها الرجال بأقدامهم ـ وأنهار من عسل مصفى ـ قال: لم يخرج من بطون النحل. يستجنى الثمار، فإن شاء قائما، وإن شاء قاعدا، وإن شاء متكئا ـ ثم تلا: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً﴾ [الإنسان: ١٤] ـ فيشتهى الطعام فيأتيه طير أبيض ـ قال: وربما قال: أخضر. قال: ـ فترفع أجنحتها، فيأكل من جنوبها، أى الألوان شاء، ثم يطير فيذهب[١]، فيدخل الملك فيقول: سلام عليكم، تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون. ولو أن شعرة من شعر[٢] الحوراء وقعت لأهل الأرض، لأضاءت الشمس معها سواداً فى نور».

هذا حديث غريب، وكأنه مرسل، والله أعلم.

﴿وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٥)﴾.

لما ذكر تعالى حكمه فى أهل الجنة والنار، وأنه نَزّل كُلا فى المحل الذى يليق به ويصلح له، وهو العادل فى ذلك الذى لا يجور ـ أخبر عن ملائكته أنهم محدقون من حول عرشه المجيد، يسبحون بحمد ربهم، ويمجدونه[٣] ويعظمونه ويقدسونه وينزهونه عن النقائص والجور، وقد فصل القضية، وقضى الأمر، وحكم بالعدل؛ ولهذا قال: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم﴾ أى: بين الخلائق ﴿بِالْحَقِّ﴾.

ثم قال: ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى: ونطق الكون أجمعه[٤] ـ ناطقه وبهيمه ـ لله رب العالمين، بالحمد فى حكمه وعدله؛ ولهذا لم يسند القول إلى قائل بل أطلقه، فدل على أن جميع المخلوقات شَهِدَت له بالحمد.

قال قتادة: افتتح الخلق بالحمد فى قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١]، واختتم بالحمد فى قوله: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

آخر تفسير سورة الزمر ولله الحمد [٥] [أولاً وآخراً ظاهراً وباطنًا][٦]

---

(١) فى س: «ثم تطير فتذهب». (٢) فى ت: «شعور». (٣) فى أ: «ويحمدونه».
(٤) فى ت، س: «جميعه». (٥) فى أ: «والله أعلم». (٦) زيادة من س.

www.Quranpdf.blogspot.in

تفسير سورة غافر[(١)]

وهى مكية.

قد كره بعض السلف، منهم محمد بن سيرين أن يقال: «الحواميم»، وإنما يقال: «آل حم».

قال عبد الله بن مسعود: «آل حم» ديباج القرآن.

وقال ابن عباس: إن لكل شىء لباباً، ولُبَاب القرآن «آل حم» ـ أو قال: الحواميم.

قال مِسْعَر بن كِدَام: كان يقال لهن: «العرائس».

روى ذلك كله الإمام العَلَم[(٢)] أبو عُبيد القاسم بن سلام، رحمه الله، فى كتاب: «فضائل القرآن»[(٣)].

وقال حُميد بن زَنْجويه: حدثنا عبيد الله بن موسى، حدثنا إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن أبى الأحوص عن عبيد الله[(٤)] قال: إن مثل القرآن كمثل رجل انطلق يرتاد لأهله منزلا، فمر بأثر غيث فبينا هو يسير فيه ويتعجب [منه][(٥)]، إذ هبط على روضات دَمِثات فقال: عجبت من الغيث الأول، فهذا أعجب وأعجب فقيل له: إن مثل الغيث الأول مثل عِظَم[(٦)] القرآن، وإن مثل هؤلاء الروضات الدمثات، مثل آل حم فى القرآن. أورده البغوى[(٧)].

وقال ابن لَهِيعة، عن يزيد بن أبى حبيب: أن الجرّاح بن أبى الجراح حدثه عن ابن عباس، قال: لكل شىء لباب، ولباب القرآن الحواميم[(٨)].

وقال ابن مسعود: إذا وَقعتُ فى «آل حم» فقد وقعتُ فى روضات أتأنَّق فيهن[(٩)].

وقال أبو عبيد: حدثنا الأشجعى، حدثنا مسْعر ـ هو ابن كِدَام ـ عمن حدثه: أن رجلا رأى أبا الدرداء [رضى الله عنه][(١٠)] يبنى مسجداً، فقال له: ما هذا؟ فقال: أبنيه من أجل «آل حم»[(١١)].

وقد يكون هذا المسجد الذى بناه أبو الدرداء، هو المسجد المنسوب إليه داخل قلعة دمشق. وقد يكون صيانتها وحفظها ببركته وبركة ما وُضع له، فإن هذا الكلام يدل على النصر على الأعداء، كما قال رسول الله[(١٢)] ﷺ لأصحابه فى بعض الغزوات: «إن بَيّتم الليلة فقولوا: حم، لا ينصرون». وفى رواية: «لا تنصرون»[(١٣)].

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا أحمد بن الحكم بن ظِبْيان بن خَلَف المازنى، ومحمد بن

---

(١) فى ت، س: «المؤمن». (٢) فى أ: «العالم».

(٣) فضائل القرآن (ص١٣٧، ١٣٨).

(٤) فى ت: «عبد الله». (٥) زيادة من ت، س، أ. (٦) فى أ: «عظيم».

(٧) معالم التنزيل للبغوى (٧/ ١٣٤).

(٨) رواه أبو عبيد فى فضائل القرآن (ص١٣٧) والبغوى فى تفسيره (٧/ ١٣٤).

(٩) رواه أبو عبيد فى فضائل القرآن (ص١٣٧). (١٠) زيادة من ت، أ.

(١١) فضائل القرآن لأبى عبيد (ص١٣٧).

(١٢) فى ت: «النبى».

(١٣) رواه الإمام أحمد فى مسنده (٤/ ٦٥) وأبو داود فى السنن برقم (٢٥٩٧) والترمذى فى السنن برقم (١٦٨٢) عن المهلب بن أبى صفرة عمن سمع النبى ﷺ.

www.Quranpdf.blogspot.in

الليث الهمدانى قالا: حدثنا موسى بن مسعود، حدثنا عبد الرحمن بن أبى بكر المليكى، عن زرارة ابن مصعب، عن أبى سلمة، عن أبى هُرَيرة، رضى الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «من قرأ آية الكرسى وأول حم المؤمن، عُصِم ذلك اليوم من كل سوء».

ثم قال: لا نعلمه يُروى إلا بهذا الإسناد. ورواه الترمذى من حديث المليكى، وقال: تكلم فيه بعض أهل العلم من قبل حفظه(١).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ ① تنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ② غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ③ ﴾.

أما الكلام على الحروف المقطعة، فقد تقدم فى أول «سورة البقرة» بما أغنى عن إعادته هاهنا.

وقد قيل: إن ﴿حم﴾ اسم من أسماء الله عز وجل، وأنشدوا فى ذلك(٢).

يُذَكِّرُنى حاميمَ والرمحُ شَاجر ... فَهَلا تلا حَاميمَ قَبْل التَّقدُّمِ

وقد ورد(٣) فى الحديث الذى رواه أبو داود والترمذى، من حديث الثورى، عن أبى إسحاق، عن المهلب بن أبى صُفْرة قال: حدثنى من سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن بيِّتم الليلة فقولوا: حم، لا ينصرون» وهذا إسناد صحيح(٤).

واختار أبو عبيد أن يُروى: «فقولوا: حم، لا ينصروا» أى: إن قلتم ذلك لا ينصروا، جعله جزاء لقوله: فقولوا.

وقوله: ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ أى: تنزيل هذا الكتاب ـ وهو القرآن ـ من الله ذى العزة والعلم ،فلا يرام جنابه، ولا يخفى عليه الذر وإن تكاثف حجابه.

وقوله: ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾ أى: يغفر ما سلف من الذنب، ويقبل التوبة فى المستقبل لمن تاب إليه وخَضَع لديه.

وقوله: ﴿ شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴾ أى: لمن تمرد وطغى وآثر الحياة الدنيا، وعتا عن(٥) أوامر الله، وبغى [وقد اجتمع في هذه الآية الرجاء والخوف](٦). وهذه كقوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]، يقرن هذين الوصفين كثيراً فى مواضع متعددة من القرآن؛ ليبقى العبد بين الرجاء والخوف.

وقوله: ﴿ذِي الطَّوْلِ ﴾ قال ابن عباس: يعنى: السعة والغنى. وكذا قال مجاهد، وقتادة.

وقال يزيد بن الأصم: ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾: يعنى: الخير الكثير.

(١) سنن الترمذى برقم (٢٨٧٩).
(٢) البيت فى تفسير الطبرى (٢٤/٢٦) وفى صحيح البخارى (٨/٥٥٣) «فتح» منسوبا إلى شريح بن أوفى العبسى.
(٣) فى أ: «روى».
(٤) سنن أبى داود برقم (٢٥٩٧) وسنن الترمذى برقم (١٦٨٢).
(٥) فى أ: «على».
(٦) زيادة من أ.

www.Quranpdf.blogspot.in

وقال عكرمة: ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾: ذى المن.

وقال قتادة: [يعنى][1]: ذى النعم والفواضل.

والمعنى: أنه المتفضل على عباده، المتطول عليهم بما هو فيه من المنن والأنعام، التى لا يطيقون القيام بشكر واحدة منها، ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا [إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ] [2]﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وقوله: ﴿ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ أى: لا نظير له فى جميع صفاته، فلا إله غيره، ولا رب سواه ﴿ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أى: إليه المرجع والمآب، فيجازى كل عامل بعمله، ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١].

وقال أبو بكر بن عياش: سمعت أبا إسحاق السَّبِيعى يقول: جاء رجل إلى عمر بن الخطاب [رضى الله عنه][3] فقال: يا أمير المؤمنين، إنى قَتَلْتُ، فهل لى من توبة؟ فقرأ عليه: ﴿حم. تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ وقال: اعمل ولا تيأس.

رواه ابن أبى حاتم ـ واللفظ له ـ وابن جرير[4].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا موسى بن مروان الرَّقِّى، حدثنا عمر ـ يعنى ابن أيوب ـ أخبرنا جعفر بن بَرْقان، عن يزيد بن الأصم[5] قال: كان رجل من أهل الشام ذو بأس، وكان يفد إلى عمر بن الخطاب [رضى الله عنه][6]، ففقده عمر فقال: ما فعل فلان بن فلان؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين، يتابع فى هذا الشراب. قال: فدعا عمر كاتبه، فقال: اكتب: «من عمر بن الخطاب إلى فلان ابن فلان، سلام عليك، [أما بعد][7]: فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، غافر الذنب وقابل التوب، شديد العقاب، ذى الطول، لا إله إلا هو إليه المصير». ثم قال لأصحابه: ادعوا الله لأخيكم أن يُقْبِل بقلبه، وأن يتوب الله عليه[8]. فلما بلغ الرجل كتابُ عمر جعل يقرؤه ويردده، ويقول: غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب، قد حذرنى عقوبته، ووعدنى أن يغفر لى.

ورواه الحافظ أبو نعيم من حديث جعفر بن برقان، وزاد: «فلم يزل يُرَدِّدها على نفسه، ثم بكى، ثم نَزَع فأحسن النَّزع فلما بلغ عمر [رضى الله عنه][9] خبرُه قال: هكذا فاصنعوا، إذا رأيتم أخاكم زل زلَّة فسددوه ووفقوه، وادعوا الله له أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعواناً للشيطان عليه[10].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا عمر بن شَبَّة[11]، حدثنا حماد بن واقد ـ أبو عُمَر الصفار ـ، حدثنا ثابت البنانى، قال: كنت مع مصعب بن الزبير فى سواد الكوفة، فدخلت حائطاً أصلى ركعتين، فافتتحت: ﴿ حم ﴾ المؤمن، حتى بلغت: ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ فإذا رجل خلفى على بغلة شهباء عليه مُقَطَّعات يمنية، فقال: إذا قلت: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ ﴾ فقل: «يا غافر الذنب، اغفر لى ذنبى».

---

(١) زيادة من ت. (٢) زيادة من ت، وفى الأصل: «الآية». (٣) زيادة من ت، أ.

(٤) تفسير الطبرى (٢٤/ ٢٧).

(٥) فى ت: «وروى أيضا بإسناده عن يزيد بن الأصم». (٦) زيادة من ت.

(٧) زيادة من أ. (٨) فى س، أ: «أن يقبل بقلبه ويتوب عليه».

(٩) زيادة من أ.

(١٠) حلية الأولياء (٤/ ٩٧).

(١١) فى أ: «ابن أبى شيبة».

www.Quranpdf.blogspot.in

وإذا قلت: ﴿ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾، فقل: «يا قابل التوب، اقبل توبتى». وإذا قلت: ﴿ شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴾، فقل: «يا شديد العقاب، لا تعاقبنى». قال: فالتفت فلم أر أحداً، فخرجت إلى الباب فقلت: مرّ بكم رجل عليه مقطعات يمنية؟ قالوا: ما رأينا أحداً فكانوا يُرَون أنه إلياس.

ثم رواه من طريق أخرى، عن ثابت، بنحوه. وليس فيه ذكر إلياس.

﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ (٤) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٥) وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٦) ﴾.

يقول تعالى: ما يدفع الحق ويجادل فيه بعد البيان وظهور البرهان ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى: الجاحدون لآيات الله وحججه وبراهينه، ﴿ فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ ﴾ أى: فى أموالهم ونعيمها وزهرتها، كما قال: ﴿ لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ. مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧]، وقال تعالى: ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان: ٢٤].

ثم قال تعالى مسلياً لنبيه[1] محمد ﷺ فى تكذيب من كذبه من قومه، بأن له أسوة من سلف من الأنبياء؛ فإنه قد كذبهم[2] أممهم وخالفوهم، وما آمن بهم منهم إلا قليل[3]، فقال: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾، وهو أول رسول بَعَثه الله ينهى عن عبادة الأوثان، ﴿ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أى: من كل أمة، ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ﴾ أى: حرصوا على قتله بكل ممكن، ومنهم من قتل رسوله[4]، ﴿ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾ أى: مَاحَلُوا بالشبهة[5] ليردوا الحق الواضح الجلى.

وقد قال أبو القاسم الطبرانى: حدثنا على بن عبد العزيز، حدثنا عارم أبو النعمان، حدثنا مُعْتَمِر ابن سليمان قال: سمعت أبى يحدث عن حَنَش، عن عكرمة، عن ابن عباس[6] [رضى الله عنه][7]، عن النبى ﷺ قال: «من أعان باطلا ليدحض بباطله حقاً، فقد برئت منه ذمة الله وذمة رسوله»[8].

وقوله: ﴿ فَأَخَذْتُهُمْ ﴾ أى: أهلكتهم على ما صنعوا من هذه الآثام والذنوب العظام، ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ أى: فكيف بلغك عذابى لهم، ونكالى بهم؟ قد كان شديداً موجعاً مؤلماً.

قال قتادة: كان والله شديداً.

---

(١) فى ت: «الرسوله». (٢) فى س، أ: «كذبتهم». (٣) فى ت، س: «القليل».
(٤) فى ت، س، أ: «رسولهم». (٥) فى ت، أ: «ما جاؤوا به من الشبهة».
(٦) فى ت: «وقد روى الطبرانى بإسناده». (٧) زيادة من أ.
(٨) المعجم الكبير (١١/ ٢١٥) ورواه الحاكم فى المستدرك (٤/ ١٠٠) من طريق على بن عبد العزيز به موقوفا وقال: «صحيح الإسناد»، وتعقبه الذهبى بقوله: «فيه حنش الرحبى وهو ضعيف».

www.Quranpdf.blogspot.in

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أى: كما حقت كلمةُ العذاب على الذين كفروا من الأمم السالفة، كذلك حقت على المكذبين من هؤلاء الذين كذبوك وخالفوك يا محمد بطريق الأولى والأحرى؛ لأن من كذّبك [1] فلا وثوق له بتصديق غيرك.

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩)﴾.

يخبر تعالى عن الملائكة المقربين من حَمَلة العرش الأربعة، ومن حوله من الكروبيين، بأنهم يسبحون بحمد ربهم، أى: يقرنون بين التسبيح الدال على نفى النقائص، والتحميد المقتضى لإثبات صفات المدح، ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أى: خاشعون له أذلاء بين يديه، وأنهم ﴿يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى: من أهل الأرض ممن آمن بالغيب، فقيض الله سبحانه ملائكته المقربين أن يَدْعُوا للمؤمنين بظهر الغيب، ولما كان هذا من سجايا الملائكة، عليهم الصلاة والسلام، كانوا يُؤَمِّنون على دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب، كما ثبت فى صحيح مسلم: «إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك: آمين، ولك بمثله» [2].

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن محمد ـ هو ابن أبى شيبة ـ حدثنا عبدة بن سليمان، عن محمد بن إسحاق، عن يعقوب بن عتبة، عن عكرمة عن ابن عباس [3] [رضى الله عنه] [4]؛ أن رسول الله ﷺ صَدّق أمية فى شىء من شعره، فقال:

رَجُلٌ وثَور تَحْتَ رِجْل يَمينه ... وَالنَّسْرُ للأُخْرَى، وَلَيْثٌ مُرْصَدُ

فقال رسول الله ﷺ: «صدق». فقال:

وَالشمس تَطلعُ كل آخر لَيْـلةٍ ... حَمْراءُ يُصْبحُ لَونُها يَتوَرّدُ

تَأبَى فَما تَطلُع لَنَا فى رِسْلها ... إلا معَذّبَة وَإلا تُجْلــــدَ

فقال النبى ﷺ: «صدق» [5].

وهذا إسناد جيد: وهو يقتضى أن حملة العرش اليوم أربعة، فإذا كان يوم القيامة كانوا ثمانية،

---

(١) فى س: «كذب بك».

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٧٣٢) من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه.

(٣) فى ت: «وقد روى الإمام أحمد بإسناده عن ابن عباس».

(٤) زيادة من ت، أ.

(٥) المسند (١/ ٢٥٦) وقال الهيثمى فى المجمع (٨/ ١٢٧): «رجاله ثقات إلا أن ابن إسحاق مدلس».

www.Quranpdf.blogspot.in

كما قال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧].

وهنا سؤال، وهو أن يقال: ما الجمع بين المفهوم من هذه الآية، ودلالة هذا الحديث؟ وبين الحديث الذى رواه أبو داود:

حدثنا محمد بن الصباح البزار؛ حدثنا الوليد بن أبى ثور، عن سماك، عن عبد الله بن عَمِيرة[١]، عن الأحنف بن قيس، عن العباس بن عبد المطلب، قال: كنت بالبطحاء فى عصابة فيهم رسول الله ﷺ فمرت بهم سحابة، فنظر إليها فقال: «ما تسمون هذه؟» قالوا: السحاب. قال: «والمزن؟» قالوا: والمزن. قال: «والعَنَان؟» قالوا: والعنان ـ قال أبو داود: ولم أتقن العنان جيداً ـ قال: «هل تدرون بُعْدَ ما بين السماء والأرض؟» قالوا: لا ندرى. قال: «بُعد ما بينهما إما واحدة، أو اثنتان، أو ثلاث[٢] وسبعون سنة، ثم السماء فوقها كذلك» حتى عَدّ سبع سموات «ثم فوق السماء السابعة بحر[٣]، بين[٤] أسفله وأعلاه مثل بين سماء إلى سماء، ثم فوق ذلك ثمانية أوْعَال، بين أظلافهن ورُكبهن مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم على ظهورهن العرش بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم الله، عز وجل، فوق ذلك» ثم رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه، من حديث سماك بن حرب، به[٥]. وقال الترمذى: حسن غريب.

وهذا يقتضى أن حملة العرش ثمانية، كما قال شَهْر بن حَوْشَب: حملة العرش ثمانية، أربعة يقولون: «سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك». وأربعة يقولون: «سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك».

ولهذا يقولون إذا استغفروا [٦] للذين آمنوا: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أى: إن رحمتك تَسَع ذنوبهم وخطاياهم، وعلمك محيط بجميع أعمالهم [وأقوالهم][٧] وحركاتهم وسكناتهم، ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ أى: فاصفح عن المسيئين[٨] إذا تابوا وأنابوا وأقلعوا عما كانوا فيه، واتبعوا ما أمرتهم به، من فعل الخيرات وترك المنكرات، ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أى: وزحزحهم عن عذاب الجحيم، وهو العذاب الموجع الأليم[٩]. ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ أى: اجمع بينهم وبينهم، لتقر بذلك أعينهم بالاجتماع فى منازل متجاورة، كما قال [تعالى][١٠]: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَأَتْبَعناهُمْ ذُرِّيَّاتهم[١١] بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١] أى: ساوينا بين الكل فى المنزلة، لتقر أعينهم، وما نقصنا العالى حتى يساوى الدانى، بل رفعنا الناقص فى العمل[١٢]، فساويناه بكثير العمل، تفضلا منا ومنة.

(١) فى ت: «عمرة». (٢) فى ت، س: «أو اثنين أو ثلاثة».
(٣) فى ت: «ثم فوق السماء بحرا»، وفى س: «ثم فوق السابعة بحر». (٤) فى أ: «بحر ما بين».
(٥) سنن أبى داود برقم (٤٧٢٣ ـ ٤٧٢٥) وسنن الترمذى برقم (٣٣٢٠) وسنن ابن ماجه برقم (١٩٣).
(٦) فى ت: «استغفروا للمؤمنين». (٧) زيادة من أ. (٨) فى أ: «المسلمين».
(٩) فى ت: «المؤلم». (١٠) زيادة من ت، س، أ. (١١) فى س: «واتبعتهم ذريتهم».
(١٢) فى ت، أ: «رفعنا ناقص العمل».

www.Quranpdf.blogspot.in

قال سعيد بن جبير: إن المؤمن إذا دخل الجنة سأل عن أبيه وابنه وأخيه، وأين هم؟ فيقال: إنهم لم يبلغوا طبقتك[١] فى العمل. فيقول: إنى إنما عملت لى ولهم. فَيُلحقُونَ به فى الدرجة، ثم تلا سعيد بن جبير هذه الآية: ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

قال مُطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير: أنصحُ عبادِ الله للمؤمنين الملائكةُ، ثم تلا هذه الآية: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ﴾ ، وأغشُّ عباد الله للمؤمنين الشياطينُ.

وقوله: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أى: الذى لا يمانع ولا يغالب، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، الحكيم فى أقوالك وأفعالك، من شرعك وقدرك[٢].

﴿ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ أى: فعلها أو وَبالها ممن وقعت منه، ﴿وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ﴾ أى: يوم القيامة، ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ أى: لطفت به ونجيته من العقوبة، ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ (١٠) قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ (١١) ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (١٢) هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَن يُنِيبُ (١٣) فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (١٤) ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن الكفار: أنهم يُنَادَون يوم القيامة وهم فى غَمَرات النيران يتلظون، وذلك عندما[٣] باشروا من عذاب الله ما لا قِبَل لأحد به، فمقتوا عند ذلك أنفسهم وأبغضوها غاية البغض، بسبب ما أسلفوا[٤] من الأعمال السيئة، التى كانت سبب دخولهم إلى النار، فأخبرتهم الملائكة عند ذلك إخبارا عاليا، نادوهم [به][٥] نداء بأن مقت الله لهم فى الدنيا حين كان يُعرض عليهم الإيمان، فيكفرون، أشد من مقتكم أيها المعذبون أنفسكم اليوم فى هذه الحالة.

قال قتادة فى قوله: ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ يقول: لمقتُ الله أهل الضلالة حين عُرِض عليهم الإيمان فى الدنيا، فتركوه وأبوا أن يقبلوه، أكبر مما مقتوا أنفسهم حين عاينوا عذاب الله يوم القيامة[٦].

وهكذا قال الحسن البصرى، ومجاهد، والسدى، وذَرُّ بن عبد الله[٧] الهَمْدانى، وعبد الرحمن ابن زيد بن أسلم، وابن جرير الطبرى، رحمهم الله.

---

(١) فى ت: «رقبتك».
(٢) فى أ: «وقدرتك».
(٣) فى أ: «بعدما».
(٤) فى ت، س: «أسلفوه».
(٥) زيادة من ت، أ.
(٦) فى أ: «عذاب الله فى يوم القيامة».
(٧) فى س: «عبيد الله».

www.Quranpdf.blogspot.in

وقوله: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ قال الثورى، عن أبى[1] إسحاق، عن أبى الأحوص، عن ابن مسعود [رضى الله عنه][2] :هذه الآية كقوله تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨] وكذا قال ابن عباس، والضحاك، وقتادة، وأبو مالك .وهذا هو الصواب الذى لا شك فيه ولا مرية.

وقال السّدّى: أميتوا فى الدنيا ثم أحيوا فى قبورهم فخوطبوا، ثم أميتوا ثم أحيوا يوم القيامة.

وقال ابن زيد: أحيوا حين أخذ عليهم الميثاق من صلب آدم، ثم خلقهم فى الأرحام ثم أماتهم [ثم أحياهم][3] يوم القيامة.

وهذان القولان ـ من السدى، وابن زيد ـ ضعيفان؛ لأنه يلزمهما على ما قالا ثلاث إحياءات وإماتات. والصحيح قول ابن مسعود وابن عباس ومن تابعهما. والمقصود من هذا كله: أن الكفار يسألون الرجعة وهم وقوف بين يدى الله، عز وجل، فى عرصات القيامة، كما قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ١٢]، فلا يجابون. ثم إذا رأوا النار وعاينوها ووقفوا عليها، ونظروا إلى ما فيها من العذاب والنَّكال، سألوا الرجعة أشد مما سألوا أول مرة، فلا يجابون، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨] فإذا دخلوا النار وذاقوا مَسّها وحَسيسها ومقامعها وأغلالها، كان سؤالهم للرجعة أشد وأعظم، ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧]، ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ . قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونَ ﴾، [المؤمنون: ١٠٧، ١٠٨]، وفى هذه الآية الكريمة تلطفوا فى السؤال، وقدموا بين يدى كلامهم مُقدّمة، وهى قولهم: ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ أى: قدرتك عظيمة، فإنك أحييتنا بعد ما كنا أمواتا، ثم أمتنا ثم أحييتنا، فأنت قادر على ما تشاء، وقد اعترفنا بذنوبنا، وإننا كنا ظالمين لأنفسنا فى الدار الدنيا، ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ أى: فهل أنت مجيبنا إلى أن تعيدنا إلى الدار الدنيا؟ فإنك قادر على ذلك؛ لنعمل غير الذى كنا نعمل، فإن عدنا إلى ما كنا فيه فإنا ظالمون. فأُجيبُوا ألا سبيل إلى عودكم ومرجعكم إلى الدار الدنيا. ثم علل المنع من ذلك بأن سجاياكم لا تقبل الحق ولا تقتضيه بل تَجْحَده وتنفيه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ﴾، أى: أنتم هكذا تكونون، وإن رددتم إلى الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وقوله: ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ أى: هو الحاكم فى خلقه، العادل الذى لا يجور، فيهدى من

---

(١) فى أ: «ابن». (٢) زيادة من أ. (٣) زيادة من ت، س، أ.

www.Quranpdf.blogspot.in

من يشاء، ويضل من يشاء، ويرحم من يشاء، ويعذب من يشاء، لا إله إلا هو.

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: يظهر قدرته لخلقه[1] بما يشاهدونه فى خلقه العلوى والسفلى من الآيات العظيمة الدالة على كمال خالقها ومبدعها ومنشئها، ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾، وهو المطر الذى يخرج به من الزروع والثمار ما هو مشاهد بالحس، من اختلاف ألوانه وطعومه، وروائحه وأشكاله وألوانه، وهو ماء واحد، فبالقدرة العظيمة فاوت بين هذه الأشياء، ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ أى: يعتبر ويتفكر فى هذه الأشياء ويستدل بها على عظمة خالقها ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ أى: من هو بصير منيب إلى الله، عز وجل.

وقوله: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ أى: فأخلصوا لله وحده العبادة والدعاء، وخالفوا المشركين فى مسلكهم ومذهبهم.

قال[2] الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن نمير، حدثنا هشام ـ يعنى بن عروة بن الزبير ـ عن أبى الزبير محمد بن مسلم بن مدرس المكى قال: كان عبد الله بن الزبير يقول فى دبر كل صلاة حين يسلم[3]: «لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون» قال: وكان رسول الله ﷺ يُهَلِّل بهن[4] دبر كل صلاة[5].

ورواه مسلم وأبو داود والنسائى، من طرق، عن هشام بن عروة، وحجاج بن أبى عثمان، وموسى بن عقبة، ثلاثتهم عن أبى الزبير، عن عبد الله بن الزبير قال: كان رسول الله ﷺ يقول فى دبر الصلاة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له[6] » وذكر تمامه[7].

وقد ثبت فى الصحيح عن ابن الزبير؛ أن رسول الله ﷺ كان يقول عقب الصلوات المكتوبات: «لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير. لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون»[8].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا الربيع، حدثنا الخَصِيب بن ناصح، حدثنا صالح ـ يعنى المرِّى ـ عن هشام بن حسان، عن ابن سيرين، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «ادعوا الله

---

(١) فى أ: «بخلقه». (٢) فى ت: «روى». (٣) فى أ: «عقب الصلوات المكتوبات».
(٤) فى ت: «بهن فى دبر».
(٥) المسند (٤/٤).
(٦) فى ت: «لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير».
(٧) صحيح مسلم برقم (٥٩٤).
(٨) صحيح مسلم برقم (٥٩٤) وسنن أبى داود برقم (١٥٠٦) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٢٦٢)

www.Quranpdf.blogspot.in

وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافل لاه»[١].

﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ (١٥) يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٧)﴾.

يقول تعالى [مخبرا][٢] عن عظمته وكبريائه، وارتفاع عرشه العظيم العالى على جميع مخلوقاته كالسقف لها، كما قال تعالى: ﴿مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ. تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ . [فَاصْبِر] [٣]﴾ [المعارج: ٣، ٤]، وسيأتى بيان أن هذه مسافة ما بين العرش إلى الأرض السابعة، فى قول جماعة من السلف والخلف، وهو الأرجح إن شاء الله [تعالى][٤]. وقد ذكر غير واحد أن العرش من ياقوتة حمراء، اتساع ما بين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة. وارتفاعه عن الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة. وقد تقدم فى حديث «الأوعال» ما يدل على ارتفاعه عن[٥] السموات السبع بشىء عظيم.

وقوله: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾، كقوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا [فَاتَّقُونِ] [٦]﴾ [النحل: ٢]، وكقوله: ﴿وَإِنَّهُ[٧] لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ .نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ . عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ [بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ][٨]﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٤]؛ ولهذا قال: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ﴾ قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿يَوْمَ التَّلاقِ﴾: اسم من أسماء يوم القيامة، حذر منه عباده.

وقال ابن جُرَيْج: قال ابن عباس: يلتقى فيه آدم وآخر ولده.

وقال ابن زيد: يلتقى فيه العباد.

وقال قتادة، والسدى، وبلال بن سعد، وسفيان بن عيينة[٩]: يلتقى فيه أهل السماء وأهل الأرض.

وقال قتادة أيضا: يلتقى فيه أهل السماء وأهل الأرض، والخالق والخلق.

وقال مَيْمون بن مِهْران: يلتقى [فيه][١٠] الظالم والمظلوم.

---

(١) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٣٤٧٩) عن معاوية بن صالح، ورواه الحاكم فى المستدرك (١/ ٤٩٣) عن عفان بن مسلم وموسى ابن إسماعيل، ورواه الطبرانى فى كتاب الدعاء برقم (٦٢) عن مخلد بن خداش، كلهم من طريق صالح المرى به. قال الطبرانى فى المعجم الأوسط: «لم يرو هذا الحديث عن هشام بن حسان إلا صالح المرى»، ومداره على صالح المرى وهو متروك.

(٢) زيادة من ت، س، أ. (٣) زيادة من ت. (٤) زيادة من ت.

(٥) فى ت، س: «من». (٦) فى س: «فاعبدوه» وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه.

(٧) فى ت: «إنه» وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه. (٨) زيادة من ت.

(٩) فى ت: «قتادة وغيره». (١٠) زيادة من أ.

www.Quranpdf.blogspot.in

وقد يقال: إن يوم القيامة[١] هو يشمل هذا كله، ويشمل أن كل عامل سيلقى ما عمل من خير وشر . كما قاله آخرون.

وقوله: ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ﴾ أي: ظاهرون بادون كلهم، لا شيء يكنهم ولا يظلهم ولا يسترهم. ولهذا قال: ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾: أي: الجميع فى علمه على السواء.

وقوله: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ قد تقدم فى حديث ابن عمر: أنه تعالى[٢] يطوى السموات والأرض بيده، ثم يقول: أنا الملك، أنا الجبار، أنا المتكبر، أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟[٣].

وفى حديث الصور: أنه تعالى إذا قبض أرواح جميع خلقه، فلم يبق سواه، وحده لا شريك له، حينئذ يقول: لمن الملك اليوم؟ ثلاث مرات، ثم يجيب نفسه قائلاً: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ أي: الذى هو وحده قد قَهَر كل شيء وغلبه[٤].

وقد قال[٥] ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن غالب الدقاق، حدثنا عبيد بن عبيدة، حدثنا معتمر، عن أبيه، حدثنا أبو نَضْرة، عن ابن عباس [رضى الله عنهما][٦] قال: ينادى مناد بين يدى الساعة: يأيها الناس، أتتكم الساعة. فيسمعها الأحياء والأموات، قال: وينزل الله [عز وجل][٧] إلى سماء الدنيا ويقول: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

وقوله: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾: يخبر تعالى عن عدله فى حكمه بين خلقه، أنه لا يظلم مثقال ذرة من خير ولا من شر، بل يجزى بالحسنة عشر أمثالها، وبالسيئة واحدة؛ ولهذا قال: ﴿لا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ كما ثبت فى صحيح مسلم[٨]، عن أبى ذر، عن رسول الله ﷺ ـ فيما يحكى عن ربه عز وجل ـ أنه قال: «يا عبادى، إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ـ إلى أن قال ـ: يا عبادى، إنما هى أعمالكم أحصيها عليكم[٩] ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»[١٠].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي: يحاسب الخلائق كلهم، كما يحاسب نفساً واحدة، كما قال: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، وقال [تعالى][١١]: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨) يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩) وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٢٠)﴾.

(١) فى ت، س: «التلاق». (٢) فى ت: «أن الله».
(٣) سورة الزمر، الآية ٦٧.
(٤) انظر حديث الصور بتمامه عند تفسير الآية: ٧٣ من سورة الأنعام.
(٥) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم». (٦) زيادة من أ. (٧) زيادة من ت، أ.
(٨) فى ت: «البخارى»وهو خطأ . (٩) فى ت، س: «لكم».
(١٠) صحيح مسلم برقم (٢٥٧٧).
(١١) زيادة من س .

www.Quranpdf.blogspot.in

يوم الآزفة هو: اسم من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك لاقترابها، كما قال تعالى: ﴿ **أَزِفَتِ الآزِفَةُ . لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ** ﴾ [النجم: ٥٧، ٥٨] وقال: ﴿**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ**﴾ [القمر: ١]، وقال: ﴿**اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ** ﴾ [الأنبياء: ١] وقال: ﴿**أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ** ﴾ [النحل: ١] وقال: ﴿**فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ** ﴾ [الملك: ٢٧].

وقوله: ﴿**إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ**﴾ [أي ساكتين][١] ،قال قتادة: وقفت القلوب فى الحناجر من الخوف، فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها وكذا قال عكرمة، والسدى، وغير واحد.

ومعنى ﴿**كَاظِمِينَ**﴾ أى: ساكتين، لا يتكلم أحد إلا بإذنه ﴿ **يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا** ﴾ [النبأ: ٣٨].

وقال ابن جُرَيْج[٢]: ﴿**كَاظِمِينَ**﴾ أى: باكين.

وقوله: ﴿ **مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ**﴾ أى: ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم، ولا شفيع يشفع فيهم، بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير.

وقوله: ﴿**يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ**﴾ يخبر تعالى عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء، جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، دقيقها ولطيفها، ليحذر الناس علمه فيهم، فيستحيوا من الله حَقّ الحياء، ويَتَّقُوهُ حق تقواه، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه، فإنه تعالى يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة، ويعلم ما تنطوى عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر.

قال ابن عباس فى قوله: ﴿**يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ**﴾: وهو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم، وفيهم المرأة الحسناء، أو تمر به وبهم المرأة الحسناء، فإذا غفلوا لحظ إليها، فإذا فطنوا غَضّ، فإذا غفلوا لحظ، فإذا فطنوا غض [بصره عنها][٣] وقد اطلع الله من قلبه أنه وَدّ لو اطلع على فرجها. رواه ابن أبى حاتم.

وقال الضحاك: ﴿**خَائِنَةَ الأَعْيُنِ**﴾: هو الغمز، وقول الرجل: رأيت، ولم ير؛ أو: لم أر، وقد رأى.

وقال ابن عباس: يعلم [الله][٤] تعالى من العين فى نظرها، هل تريد الخيانة أم لا؟ وكذا قال مجاهد، وقتادة.

وقال ابن عباس فى قوله: ﴿**وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ**﴾: يعلم إذا أنت قدرت عليها هل تزنى بها أم لا؟

وقال السدى: ﴿**وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ**﴾ أى: من الوسوسة.

---

(١) زيادة من ت . (٢) فى ت: «جرير».

(٣) زيادة من س، أ. (٤) زيادة من س.

www.Quranpdf.blogspot.in

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ أي: يحكم بالعدل.

وقال الأعمش: عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس [رضى الله عنهما][1] في قوله: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾: قادر على أن يجزى بالحسنة الحسنة، وبالسيئة السيئة ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

وهذا الذى فسر به ابن عباس فى هذه الآية كقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ[2] الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ أي: من الأصنام والأوثان والأنداد، ﴿لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ أي: لا يملكون شيئا ولا يحكمون بشىء ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أي: سميع لأقوال خلقه، بصير بهم، فيهدى من يشاء، ويضل من يشاء، وهو الحاكم العادل فى جميع ذلك.

﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٢١) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٢)﴾.

يقول تعالى: أو لم يسر هؤلاء المكذبون برسالتك يا محمد ﴿فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: من الأمم المكذبة بالأنبياء، ما حل بهم من العذاب والنكال، مع أنهم كانوا أشد من هؤلاء قوة، ﴿وَآثَارًا فِي الأَرْضِ﴾ أي: أثروا فى الأرض من البنايات والمعالم والديارات، ما لا يقدر عليه هؤلاء، كما قال: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦]، وقال: ﴿وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم: ٩] أي: ومع هذه القوة العظيمة والبأس الشديد، أخذهم الله بذنوبهم، وهى كفرهم برسلهم، ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ أي: وما دفع عنهم عذاب الله أحد، ولا رده عنهم راد، ولا وقاهم واق.

ثم ذكر علة أخذه إياهم وذنوبهم التى ارتكبوها واجترموها، فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالدلائل الواضحات والبراهين القاطعات، ﴿فَكَفَرُوا﴾ أي: مع هذا البيان والبرهان كفروا وجحدوا، ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: أهلكهم ودمَّر عليهم وللكافرين أمثالها، ﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي: ذو قوة عظيمة وبطش شديد، وهو ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي: عقابه أليم شديد وجيع. أعاذنا الله منه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (٢٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦) وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧)﴾.

---

(١) زيادة من أ. (٢) فى س: «لتجزى».

www.Quranpdf.blogspot.in

يقول تعالى مسليا لنبيه ﷺ[١] فى تكذيب من كذبه من قومه، ومبشراً له بأن العاقبة والنصرة له فى الدنيا والآخرة، كما جرى لموسى بن عمران[٢]، فإن الله تعالى أرسله بالآيات البينات، والدلائل[٣] الواضحات؛ ولهذا قال: ﴿ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ والسلطان هو: الحُجة والبرهان ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾، هو: ملك القبط بالديار المصرية، ﴿ وَهَامَانَ ﴾، وهو: وزيره فى مملكته، ﴿ وَقَارُونَ ﴾، وكان أكثر الناس فى زمانه مالا وتجارة ﴿ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ أى: كذبوه وجعلوه ساحراً مُمَخْرِقاً مموهاً كذاباً فى أن الله أرسله. وهذه كقوله [تعالى][٤]: ﴿ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ .أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣].

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا ﴾ أى: بالبرهان القاطع الدال على أن الله تعالى أرسله إليهم، ﴿ قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ﴾ وهذا أمر ثان من فرعون بقتل ذكور بنى إسرائيل. أما الأول: فكان لأجل الاحتراز من وجود موسى، أو لإذلال هذا الشعب وتقليل عددهم، أو لمجموع الأمرين. وأما الأمر الثانى: فللعلة الثانية، لإهانة هذا الشعب، ولكى يتشاءموا بموسى، عليه السلام؛ ولهذا قالوا: ﴿ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

قال قتادة: هذا أمر بعد أمر.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ﴾ أى: وما مكرهم وقصدهم الذى هو تقليل عدد بنى إسرائيل لئلا يُنصروا عليهم، إلا ذاهب وهالك فى ضلال.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾: وهذا عَزْمٌ من فرعون ـ لعنه الله ـ على قتل موسى، عليه السلام، أى: قال لقومه: دعونى حتى أقتل لكم هذا، ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ أى: لا أبالى منه. وهذا فى غاية الجحد والتجهرم والعناد.

وقوله ـ قبحه الله ـ: ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾، يعنى: موسى، يخشى فرعون أن يُضِلَّ موسى الناس ويغير رسومهم وعاداتهم. وهذا كما يقال فى المثل: «صار فرعون مُذَكِّراً»، يعنى: واعظا، يشفق على الناس من موسى، عليه السلام.

وقرأ الأكثرون: «أن يبدل دينكم وأن يُظهِر فى الأرض الفساد» وقرأ آخرون: ﴿ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ وقرأ بعضهم: «يَظْهَرَ فى الأرض الفسادُ»، بالضم.

وقال موسى: ﴿ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أى: لما بلغه قول فرعون: ﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ قال موسى: استجرتُ بالله وعُذْتُ به من شره وشر أمثاله؛ ولهذا قال: ﴿ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾، أيها المخاطبون، ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ أى: عن الحق، مجرم، ﴿لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ

---

(١) فى س: «لنبيه محمد صلوات الله وسلامه عليه».
(٢) فى أ: «لموسى عليه السلام».
(٣) فى ت: «والدلالات».
(٤) زيادة من ت، س.

www.Quranpdf.blogspot.in

الْحِسَابِ﴾؛ ولهذا جاء فى الحديث عن أبى موسى، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان إذا خاف قوما قال: «اللهم، إنا نعوذ بك من شرورهم، وندرأ بك فى نحورهم»[١].

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩)﴾ .

المشهور أن هذا الرجل المؤمن كان قبْطياً من آل فرعون.

قال السدى: كان ابن عم فرعون، ويقال: إنه الذى نجا مع موسى. واختاره ابن جرير[٢]، وَرَدَّ قول من ذهب إلى أنه كان إسرائيلياً؛ لأن فرعون انفعل لكلامه واستمعه، وكف عن قتل موسى، عليه السلام، ولو كان إسرائيلياً لأوشك أن يعاجل[٣] بالعقوبة؛ لأنه منهم[٤].

وقال ابن جُرَيج، عن ابن عباس: لم يؤمن من آل فرعون سوى هذا الرجل وامرأة فرعون، والذى قال: **﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾** [القصص: ٢٠] رواه ابن أبى حاتم.

وقد كان هذا الرجلُ يكتم إيمانه عن قومه القبط، فلم يظهر إلا هذا اليوم حين قال فرعون: **﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾**، فأخذت الرجل غضبة لله عز وجل، و«أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»، كما ثبت بذلك الحديث، ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون، وهى قوله: **﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾** [أى: لأجل أن يقول ربى الله][٥]، اللهم إلا ما رواه البخارى فى صحيحه حيث قال:

حدثنا على بن عبد الله، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا الأوزاعى، حدثنى يحيى بن أبى كثير، حدثنى محمد بن إبراهيم التيمى، حدثنى[٦] عروة بن الزبير قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص: أخبرنى بأشد شىء مما صنعه المشركون برسول الله ﷺ قال: بينا رسول الله ﷺ يصلى بفناء الكعبة، إذ أقبل عُقْبة بن أبى مُعَيط، فأخذ بمَنْكب رسول الله ﷺ ولَوَى ثوبه فى عنقه، فخنقه خنقاً شديدا، فأقبل أبو بكر، رضى الله عنه، فأخذ بمنكبة[٧] ودفَع عن النبى ﷺ، ثم قال: **﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾**.

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (٤/ ٤١٤).

(١) تفسير الطبرى (٢٤/ ٣٨).

(٣) فى ت: «يقابل».

(٤) فى ت، س: «متهم».

(٥) زيادة من ت، س، أ.

(٦) فى ت: «فى صحيحه بإسناده عن».

(٧) فى ت، س: «بمنكبيه».

www.Quranpdf.blogspot.in

انفرد به البخارى من حديث الأوزاعى قال: وتابعه محمد بن إسحاق، عن يحيى بن عروة، عن أبيه، به(١).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا هارون بن إسحاق الهمدانى، حدثنا عَبْدة، عن هشام ـ يعنى ابن عروة ـ عن أبيه، عن عمرو بن العاص أنه سُئِل: ما أشد ما رأيت قريشاً بلغوا من رسول الله ﷺ؟ قال: مر بهم ذات يوم فقالوا له: أنت تنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا؟ فقال: «أنا ذاك» فقاموا إليه، فأخذوا بمجامع ثيابه، فرأيتُ أبا بكر محتضنه من ورائه، وهو يصيح بأعلى صوته، وإن عينيه ليسيلان، وهو يقول: يا قوم، ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾؟ حتى فرغ من الآية كلها.

وهكذا رواه النسائى من حديث عبدة، فجعله من مسند عمرو بن العاص، رضى الله عنه(٢).

وقوله: ﴿وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أى: كيف تقتلون رجلا لكونه يقول: «ربى الله»، وقد أقام لكم البرهان على صدق ما جاءكم به من الحق؟ ثم تَنَزّل معهم فى المخاطبة فقال: ﴿وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ يعنى: إذا لم يظهر لكم صحة ما جاءكم به، فمن العقل والرأى التام والحزم أن تتركوه ونفسه، فلا تؤذوه، فإن يك كاذبا فإن الله سيجازيه على كذبه بالعقوبة فى الدنيا والآخرة، وإن يك صادقا وقد آذيتموه يصبكم بعض الذى يعدكم، فإنه يتوعدكم إن خالفتموه بعذاب فى الدنيا والآخرة، فمن الجائز عندكم أن يكون صادقا، فينبغى على هذا ألا تتعرضوا له، بل اتركوه وقومه يدعوهم ويتبعونه.

وهكذا أخبر الله [تعالى](٣) عن موسى، عليه السلام، أنه طلب من فرعون وقومه الموادعة فى قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ. أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. وَأَن لاَّ تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ. وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ. وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ [الدخان: ١٧ ـ ٢١] وهكذا قال رسول الله ﷺ لقريش أن يتركوه يدعو إلى الله [تعالى](٤) عباد الله، ولا يمسوه بسوء، وأن يصلوا ما بينه وبينهم من القرابة فى ترك أذيته، قال الله تعالى: ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى: ٢٣] أى: إلا ألا تؤذونى فيما بينى وبينكم من القرابة، فلا تؤذونى وتتركوا بينى وبين الناس. وعلى هذا وقعت الهدنة يوم الحديبية، وكان فتحاً مبيناً.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ أى: لو كان هذا الذى يزعم أن الله أرسله إليكم كاذبا كما تزعمون، لكان أمره بينا، يظهر لكل أحد فى أقواله وأفعاله، كانت تكون فى غاية الاختلاف والاضطراب، وهذا نرى أمره سديدا ومنهجه مستقيما، ولو كان من المسرفين الكذابين لما هداه الله، وأرشده إلى ما ترون من انتظام أمره وفعله.

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٨١٥).

(٢) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٦٢).

(٣) زيادة من ت، س، أ. (٤) زيادة من أ.

www.Quranpdf.blogspot.in

ثم قال المؤمن محذراً قومه زوال نعمة الله عنهم[1] وحلول نقمة الله بهم: ﴿ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ﴾ أى: قد أنعم الله عليكم بهذا الملك والظهور فى الأرض بالكلمة النافذة والجاه العريض، فراعوا هذه النعمة بشكر الله، وتصديق رسوله ﷺ، واحذروا نقمة الله إن كذبتم رسوله، ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا﴾ أى: لا تغنى عنكم هذه الجنود وهذه العساكر، ولا ترد عنا شيئا من بأس الله إن أرادنا بسوء.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ لقومه، راداً على ما أشار به هذا الرجل الصالح البار الراشد الذى كان أحق بالملك من فرعون: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ﴾ أى: ما أقول لكم وأشير عليكم إلا ما أراه لنفسى وقد كذب فرعون، فإنه كان يتحقق صدق موسى فيما جاء به[2] من الرسالة ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وقال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

فقوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ ﴾ كذب فيه وافترى، وخان الله ورسوله ورعيته، فغشهم وما نصحهم وكذا قوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ أى: وما أدعوكم إلا إلى طريق الحق والصدق والرشد وقد كذب أيضا فى ذلك، وإن كان قومه قد أطاعوه واتبعوه، قال الله تعالى: ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه: ٧٩]، وفى الحديث: «ما من إمام يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته، إلا لم يَرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام»[3].

﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ(٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (٣٤) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥) ﴾ .

هذا إخبار من الله، عز وجل، عن هذا الرجل الصالح، مؤمن آل فرعون: أنه حذر قومه بأس الله فى الدنيا والآخرة فقال: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ﴾ أى: الذين كذبوا رسل الله فى قديم الدهر، كقوم نوح وعاد وثمود، والذين من بعدهم من الأمم المكذبة، كيف حل بهم بأس الله، وما رده عنهم راد، ولا صده عنهم صاد.

---

(١) فى س، أ: «عليهم». (٢) فى س: «جاءه».

(٣) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧١٥٠، ٧١٥١) ومسلم فى صحيحه برقم (١٤٢) بنحوه من حديث معقل بن يسار رضى الله عنه.

www.Quranpdf.blogspot.in

﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ أى: إنما أهلكهم الله بذنوبهم، وتكذيبهم رسله، ومخالفتهم أمره. فأنفذ فيهم قدره، ثم قال: ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ يعنى: يوم القيامة وسمى بذلك، قال بعضهم: لما جاء فى حديث الصور: إن الأرض إذا زلزلت وانشقت من قطر إلى قطر، وماجت وارتجت، فنظر الناس إلى ذلك، ذهبوا هاربين ينادى بعضهم بعضا.

وقال آخرون، منهم الضحاك: بل ذلك إذا جيء بجهنم، ذهب الناس هرَابا[١]، فتتلقاهم الملائكة فتردهم إلى مقام المحشر، وهو قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا﴾ [الحاقة: ١٧]، وقوله: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن: ٣٣].

وقد روى عن ابن عباس، والحسن، والضحاك: أنهم قرؤوا: «يوم التنادّ»، بتشديد الدال، من ند البعير: إذا شرد وذهب.

وقيل: لأن الميزان عنده ملك، وإذا وزن عمل العبد[٢] فرجح نادى بأعلى صوته: ألا قد سعد فلان بن فلان سعادة لا يشقى بعدها أبدا. وإن خف عمله نادى: ألا قد شقى فلان بن فلان.

وقال قتادة: ينادى كل قوم بأعمالهم: ينادى أهل الجنة أهل الجنة، وأهل النار أهل النار.

وقيل: سمى بذلك لمناداة أهل الجنة أهل النار: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ [الأعراف: ٤٤]. ومناداة أهل النار أهل الجنة: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠]، ولمناداة أصحاب الأعراف أهل الجنة وأهل النار، كما هو مذكور فى سورة الأعراف.

واختار البغوى وغيره: أنه سمى بذلك لمجموع ذلك. وهو قول حسن جيد، والله أعلم[٣].

وقوله: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ أى: ذاهبين هاربين، ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ. إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: ١١، ١٢]، ولهذا قال: ﴿مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أى: ما لكم مانع يمنعكم من بأس الله وعذابه، ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ أى: من أضله [الله][٤] فلا هادى له غيره.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يعنى: أهل مصر، قد بعث الله فيهم رسولا من قبل موسى، وهو يوسف، عليه السلام، كان عزيز أهل مصر، وكان رسولا يدعو إلى الله أمته[٥] القبط، فما أطاعوه تلك الساعة[٦] إلا لمجرد الوزارة والجاه الدنيوى؛ ولهذا قال: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ أى: يئستم فقلتم طامعين: ﴿لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ وذلك لكفرهم وتكذيبهم ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ أى: كحالكم هذا

---

(١) فى س، أ: «هرابا منه». (٢) فى ت: «أعمال العبد».
(٣) معالم التنزيل للبغوى (٧/ ١٤٧، ١٤٨).
(٤) زيادة من ت، س. (٥) فى أ: «أمة». (٦) فى ت، س، أ: «تلك الطاعة».
(٧) فى س: «تكون».

www.Quranpdf.blogspot.in

ثم قال: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ أى: الذين يدفعون الحق بالباطل، ويجادلون الحجج بغير دليل وحجة معهم من الله، فإن الله يمقت على ذلك أشد المقت؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى: والمؤمنون أيضا يُبغضُون من تكون هذه صفته، فإن من كانت هذه صفته يطبع الله على قلبه، فلا يعرف بعد ذلك معروفا، ولا ينكر منكرا؛ ولهذا قال: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ﴾ أى: على اتباع الحق ﴿جَبَّارٍ﴾.

وروى ابن أبى حاتم، عن عكرمة ـ وحكى عن الشعبى ـ أنهما قالا: لا يكون الإنسان جبارا حتى يقتل نفسين.

وقال أبو عمران الجونى، وقتادة: آية الجبابرة القتل بغير حق.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ (٣٧) ﴾.

يقول تعالى مخبرا عن فرعون، وعتوه، وتمرده، وافترائه فى تكذيبه موسى، عليه السلام، أنه أمر وزيره هامان أن يبنى له صرحا، وهو: القصر العالى المنيف الشاهق. وكان اتخاذه من الآجرّ المضروب من الطين المشوى، كما قال: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا﴾ [القصص: ٣٨]، ولهذا قال إبراهيم النخعى: كانوا يكرهون البناء بالآجر، وأن يجعلوه فى قبورهم. رواه ابن أبى حاتم.

وقوله: ﴿لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ . أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ﴾ قال سعيد بن جبير، وأبو صالح: أبواب السموات. وقيل: طرق السموات ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾، وهذا من كفره وتمرده، أنه كذب موسى فى أن الله، عز وجل، أرسله إليه، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أى: بصنيعه هذا الذى أراد أن يوهم به الرعية أنه يعمل شيئا يتوصل به إلى تكذيب موسى، عليه السلام؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ﴾ قال ابن عباس [رضى الله عنهما][(١)]، ومجاهد: يعنى إلا فى خسار.

﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠) ﴾.

يقول المؤمن لقومه ممن تمرد وطغى وآثر الحياة الدنيا، ونسى الجبار الأعلى، فقال لهم: ﴿يَا قَوْمِ

---

(١) زيادة من س.

www.Quranpdf.blogspot.in

اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ ، لا كما كذب فرعون فى قوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾.

ثم زهدهم فى الدنيا التى [قد][1] آثروها على الأخرى، وصدتهم عن التصديق برسول الله موسى [ﷺ][2]، فقال: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ﴾ أى: قليلة زائلة فانية عن قريب تذهب [وتزول] [3]وتضمحل، ﴿وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ أى: الدار التى لا زوال لها، ولا انتقال منها ولا ظعن عنها إلى غيرها، بل إما نعيم وإما جحيم، ولهذا قال: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا﴾ أى: واحدة مثلها، ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أى: لا يتقدر بجزاء بل يثيبه الله، ثوابا كثيرا لا انقضاء له ولا نفاد.

﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢) لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤) فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦) ﴾.

يقول لهم المؤمن: ما بالى أدعوكم إلى النجاة، وهى عبادة الله وحده لا شريك له وتصديق رسوله الذى بعثه ﴿وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ. تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾؟ أى: جهل[4] بلا دليل ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾أى: هو فى عزته وكبريائه يغفر ذنب من تاب إليه، ﴿لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ يقول: حقا.

قال السدى، وابن جرير: معنى قوله: ﴿لا جَرَمَ﴾ :حقا.

وقال الضحاك: ﴿لا جَرَمَ﴾: لا كذب.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿لا جَرَمَ﴾، يقول: بلى، إن الذى تدعوننى إليه من الأصنام والأنداد ﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ﴾.

قال مجاهد: الوثن ليس بشىء.

وقال قتادة: يعنى الوثن، لا ينفع ولا يضر.

وقال السدى: لا يجيب داعيه، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]، ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤].

---

(١) زيادة من ت، س، أ.
(٢) زيادة من ت.
(٣) زيادة من ت.
(٤) فى ت، أ: «على جهل».

www.Quranpdf.blogspot.in

وقوله: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾ أى: فى الدار الآخرة، فيجازى كلا بعمله؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أى: خالدين فيها بإسرافهم، وهو شركهم بالله.

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ أى: سوف تعلمون صدق ما أمرتكم به ونهيتكم عنه، ونصحتكم ووضحت لكم، وتتذكرونه، وتندمون حيث لا ينفعكم الندم، ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ أى: وأتوكل على الله وأستعينه، وأقاطعكم وأباعدكم، ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ أى: هو بصير بهم، فيهدى من يستحق الهداية، ويضل من يستحق الإضلال، وله الحجة البالغة، والحكمة التامة، والقدر النافذ.

وقوله [تعالى][١]: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ أى: فى الدنيا والآخرة، أما فى الدنيا فنجاه الله مع موسى، عليه السلام، وأما فى الآخرة فبالجنة ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ وهو: الغرق فى اليم، ثم النقلة منه إلى الجحيم. فإن أرواحهم تعرض على النار صباحا ومساءً إلى قيام الساعة، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم فى النار؛ ولهذا قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ أى: أشده ألما وأعظمه نكالا. وهذه الآية أصل كبير فى استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ فى القبور، وهى قوله: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾.

ولكن هاهنا سؤال، وهو أنه لاشك أن هذه الآية مكية، وقد استدلوا بها على عذاب القبر فى البرزخ، وقد قال الإمام أحمد:

حدثنا هاشم ـ هو ابن القاسم أبو النضر ـ حدثنا إسحاق بن سعيد[٢] ـ هو ابن عمرو بن سعيد ابن العاص ـ حدثنا سعيد ـ يعنى أباه ـ عن عائشة؛ أن يهودية كانت تخدمها، فلا تصنع عائشة إليها شيئا من المعروف إلا قالت لها اليهودية: وقاك الله عذاب القبر. قالت: فدخل رسول الله ﷺ علىّ فقلت: يا رسول الله، هل للقبر عذاب قبل يوم القيامة؟ قال: «لا، وعم ذلك؟». قالت: هذه اليهودية، لا نصنع إليها شيئا من المعروف إلا قالت: وقاك الله عذاب القبر. قال: «كذبت يهود[٣]. وهم على الله أكذب، لا عذاب دون يوم القيامة». ثم مكث بعد ذلك ما شاء الله أن يمكث، فخرج ذات يوم نصف النهار مشتملا بثوبه، محمرة عيناه، وهو ينادى بأعلى صوته: «القبر كقطع الليل المظلم. أيها الناس، لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرا وضحكتم قليلا. أيها الناس، استعيذوا بالله من عذاب القبر، فإن عذاب القبر حق»[٤].

وهذا إسناد صحيح على شرط البخارى ومسلم، ولم يخرجاه.

وروى أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا سفيان، عن الزهرى، عن عروة، عن عائشة ـ قال: سألتها امرأة يهودية فأعطتها، فقالت لها: أعاذك الله من عذاب القبر. فأنكرت عائشة ذلك، فلما رأت رسول الله ﷺ قالت له، فقال: «لا». قالت عائشة: ثم قال لنا رسول الله ﷺ بعد ذلك: «وإنه أوحى إلى أنكم تفتنون فى قبوركم».

(١) زيادة من أ. (٢) فى أ: «سعد». (٣) فى أ: «يهودية».
(٤) المسند (٦/ ٨١).

www.Quranpdf.blogspot.in

وهذا أيضا على شرطهما[(١)].

فيقال: فما الجمع بين هذا وبين كون الآية مكية، وفيها الدليل على عذاب البرزخ؟ والجواب: أن الآية دلت على عرض الأرواح إلى النار غدوا وعشيا فى البرزخ، وليس فيها دلالة على اتصال تألمها بأجسادها فى القبور، إذ قد يكون ذلك مختصا بالروح، فأما حصول ذلك للجسد وتألمه بسببه، فلم يدل عليه إلا السنة فى الأحاديث المرضية الآتى ذكرها.

وقد يقال: إن هذه الآية إنما دلت على عذاب الكفار فى البرزخ، ولا يلزم من ذلك أن يعذب المؤمن فى قبره بذنب، ومما يدل على هذا ما رواه الإمام أحمد:

حدثنا عثمان بن عمر، حدثنا يونس، عن الزهرى، عن عروة، عن عائشة، رضى الله عنها، أن رسول الله ﷺ دخل عليها وعندها امرأة من اليهود، وهى تقول: أشعرت أنكم تفتنون فى قبوركم؟ فارتاع رسول الله ﷺ وقال: «إنما يفتن يهود». قالت عائشة: فلبثنا ليالى، ثم قال رسول الله ﷺ: «أشعرت أنه أوحى إلى أنكم تفتنون فى القبور؟». وقالت عائشة: سمعت رسول الله ﷺ بعد يستعيذ من عذاب القبر.

وهكذا رواه مسلم، عن هارون بن سعيد وحرملة، كلاهما عن ابن وهب، عن يونس بن يزيد الأيلى، عن الزهرى، به[(٢)].

وقد يقال: إن هذه الآية دلت على عذاب الأرواح فى البرزخ، ولا يلزم من ذلك أن يتصل بالأجساد فى قبورها، فلما أوحى إليه فى ذلك بخصوصيته استعاذ منه، والله، سبحانه وتعالى، أعلم.

وقد روى البخارى من حديث شعبة، عن أشعث بن أبى الشعثاء، عن أبيه، عن مسروق، عن عائشة[(٣)]، رضى الله عنها، أن يهودية دخلت عليها فقالت: أعاذك الله من عذاب القبر[(٤)]. فسألت عائشة[(٥)] رسول الله ﷺ عن عذاب القبر؟ فقال: «نعم، عذاب القبر حق». قالت عائشة: فما رأيت رسول الله ﷺ بعد صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر[(٦)].

فهذا يدل على أنه بادر إلى تصديق اليهودية فى هذا الخبر، وقرر عليه. وفى الأخبار المتقدمة: أنه أنكر ذلك حتى جاءه الوحى، فلعلهما قضيتان، والله أعلم، وأحاديث عذاب القبر كثيرة جدا.

وقال قتادة فى قوله: ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾: صباحا ومساء، ما بقيت الدنيا، يقال لهم: يا آل فرعون، هذه منازلكم، توبيخا ونقمة وصَغَارا لهم.

وقال ابن زيد: هم فيها اليوم، يُغدَى بهم ويراح إلى أن تقوم الساعة .

(١) المسند (٦/ ٢٣٨).
(٢) المسند (٦/ ٢٤٨) وصحيح مسلم برقم (٥٨٤).
(٣) فى ت: «وقد روى البخارى بإسناده من عائشة».
(٤) فى ت: «القبور» وفى أ: «وقاك الله من عذاب القبر».
(٥) فى ت: «عائشة رضى الله عنها».
(٦) صحيح البخارى برقم (١٣٧٢).

www.Quranpdf.blogspot.in

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد، حدثنا المحاربى، حدثنا ليث، عن عبد الرحمن بن ثروان، عن هزيل، عن عبد الله بن مسعود[١]، رضى الله عنه، قال: إن أرواح الشهداء فى أجواف طير خضر تسرح بهم فى الجنة حيث شاؤوا، وإن أرواح ولدان المؤمنين فى أجواف عصافير تسرح فى الجنة حيث شاءت، فتأوى إلى قناديل معلقة فى العرش، وإن أرواح آل فرعون فى أجواف طير سود تغدو على جهنم وتروح عليها، فذلك عرضها.

وقد رواه الثورى، عن أبى قيس، عن الهُزَيل بن شرحبيل، من كلامه فى أرواح آل فرعون. وكذلك قال السدى.

وفى حديث الإسراء من رواية أبى هارون العبدى، عن أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال فيه: «ثم انطلق بى إلى خلق كثير من خلق الله، رجالٌ كلٌّ رجل منهم بطنه مثل البيت الضخم، مصفدون على سابلة آل فرعون، وآل فرعون يعرضون على النار غدوا وعشيا. ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾، وآل فرعون كالإبل المسومة[٢] يخبطون الحجارة والشجر ولا يعقلون»[٣].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا زيد بن أخْرَم، حدثنا عامر بن مُدْرِك الحارثى، حدثنا عتبة ـ يعنى ابن يقظان ـ عن قيس بن مسلم، عن طارق، عن[٤] شهاب، عن ابن مسعود، عن النبى ﷺ قال: «ما أحسن محسن من مسلم أو كافر إلا أثابه الله». قال: قلنا: يا رسول الله، ما إثابة الكافر؟ فقال: «إن كان قد وصل رحما أو تصدق بصدقة أو عمل حسنة، أثابه الله المال والولد والصحة وأشباه ذلك». قلنا: فما إثابته فى الآخرة؟ قال: «عذابا دون العذاب»، وقرأ: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾.

ورواه البزار فى مسنده، عن زيد بن أخرم، ثم قال: لا نعلم له إسنادا غير هذا[٥].

وقال ابن جرير: حدثنا عبد الكريم بن أبى عمير، حدثنا حماد بن محمد الفزارى البلخى قال: سمعت[٦] الأوزاعى وسأله رجل فقال: رحمك الله. رأينا طيورا تخرج من البحر، تأخذ ناحية الغرب بيضا، فوجا فوجا، لا يعلم عددها إلا الله، عز وجل، فإذا كان العشى رجع مثلها سودا. قال: وفطنتم إلى ذلك؟ قال: نعم. قال: إن تلك[٧] الطير فى حواصلها أرواح آل فرعون، تعرض على النار غدوا وعشيا، فترجع إلى وكورها وقد احترقت رِيَاشُها وصارت سودا، فينبت عليها من الليل ريش أبيض، وتتناثر السود، ثم تغدو على النار غدوا وعشيا، ثم ترجع إلى وكورها. فذلك دأبهم فى الدنيا، فإذا كان يوم القيامة قال الله تعالى: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾، قال: وكانوا

---

(١) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بإسناده عن ابن مسعود».
(٢) فى س: «المنسومة».
(٣) انظر تخريج هذا الحديث عند تفسير الآية الأولى من سورة الإسراء.
(٤) فى س: «ابن».
(٥) مسند البزار برقم (٩٤٥) «كشف الأستار» ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/٢٥٣) من طريق على بن الحسين به، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» وتعقبه الذهبى. قلت: فيه عتبة بن يقظان وهو واه.
(٦) فى ت: «وروى ابن جرير بإسناده إلى».
(٧) فى ت: «ذلك».

www.Quranpdf.blogspot.in

يقولون: إنهم ستمائة ألف مقاتل[١].

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق، أخبرنا مالك، عن نافع، عن ابن عمر[٢] قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار. فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله، عز وجل، إلى يوم القيامة».

أخرجاه فى الصحيحين، من حديث مالك، به[٣].

﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (٤٨) وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ (٤٩) قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٥٠) ﴾.

يخبر تعالى عن تحاج أهل النار فى النار، وتخاصمهم، وفرعون وقومه من جملتهم **﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ﴾** وهم: الأتباع **﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾** وهم: القادة والسادة والكبراء: **﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾** أى: أطعناكم فيما دعوتمونا إليه فى الدنيا من الكفر والضلال، **﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴾** أى: قسطا تتحملونه عنا. **﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾** أى: لا نتحمل عنكم شيئا، كفى بنا ما عندنا، وما حملنا من العذاب والنكال. **﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾** أى: يقسم[٤] بيننا العذاب بقدر ما يستحقه كل منا، كما قال تعالى: **﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾** [الأعراف: ٣٨].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾؛ لما علموا أن الله، سبحانه، لا يستجيب منهم ولا يستمع لدعائهم، بل قد قال: **﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾** [المؤمنون: ١٠٨] سألوا الخزنة ـ وهم كالبوابين[٥] لأهل النار ـ أن يدعوا لهم الله أن يخفف عن الكافرين ولو يوما واحدا من العذاب، فقالت لهم الخزنة رادين عليهم: **﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾** أى: أو ما قامت عليكم الحجج فى الدنيا على ألسنة الرسل؟ **﴿قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا﴾** أى: أنتم لأنفسكم، فنحن لا ندعو لكم ولا نسمع منكم ولا نود خلاصكم، ونحن منكم برآء، ثم نخبركم أنه سواء دعوتم أو لم تدعوا، لا يستجاب لكم ولا يخفف عنكم؛ ولهذا قالوا[٦]: **﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾** أى: إلا من ذهاب، لا يتقبل ولا يستجاب.

---

(١) تفسير الطبرى (٢٤/ ٤٦).

(٢) فى أ: «ابن عمر رضى الله عنهما».

(٣) المسند (٢/ ١١٣) وصحيح البخارى برقم (١٣٧٩) وصحيح مسلم برقم (٢٨٦٦).

(٤) فى ت: «فقسم». (٥) فى ت، أ: «كالسجانين». (٦) فى ت: «قال».

www.Quranpdf.blogspot.in

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ (٥١) يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٥٢) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (٥٣) هُدًى وَذِكْرَىٰ لأُولِي الأَلْبَابِ (٥٤) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ (٥٥) إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٥٦)﴾.

قد أورد أبو جعفر بن جرير ، رحمه الله تعالى، عند قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ سؤالا فقال: قد عُلم أن بعض الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، قتله قومه بالكلية كيحيى وزكريا[(١)] وشعياء، ومنهم من خرج من بين أظهرهم إما مهاجرا كإبراهيم[(٢)]، وإما إلى السماء كعيسى[(٣)]، فأين النصرة فى الدنيا؟ ثم أجاب عن ذلك بجوابين[(٤)].

أحدهما: أن يكون الخبر خرج عاما، والمراد به البعض، قال: وهذا سائغ فى اللغة.

الثانى: أن يكون المراد بالنصر الانتصار لهم ممن آذاهم، وسواء كان ذلك بحضرتهم أو فى غيبتهم أو بعد موتهم، كما فُعِلَ بقتلة يحيى وزكريا[(٥)] وشعياء، سلط عليهم من أعدائهم من أهانهم وسفك دماءهم، وقد ذكر أن النمروذ أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وأما الذين راموا صلب المسيح، عليه السلام، من اليهود، فسلط الله عليهم الروم فأهانوهم وأذلوهم، وأظهرهم الله عليهم. ثم قبل يوم القيامة سينزل عيسى ابن مريم إماما عادلا، وحكما مقسطا، فيقتل المسيح الدجال وجنوده من اليهود، ويقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويضع الجزية فلا يقبل إلا الإسلام. وهذه نصرة عظيمة، وهذه سنة الله فى خلقه فى قديم الدهر وحديثه: أنه ينصر عباده المؤمنين فى الدنيا، ويقر أعينهم ممن أذاهم، ففى صحيح البخارى عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى: من عادى لى وليا فقد بارزنى بالحرب»[(٦)]. وفى الحديث الآخر: «إنى لأثأر لأوليائى كما يثأر الليث الحرب»[(٧)]؛ ولهذا أهلك تعالى قوم نوح وعاد وثمود، وأصحاب الرس، وقوم لوط، وأهل[(٨)] مدين، وأشباههم وأضرابهم، ممن كذب الرسل وخالف الحق. وأنجى الله من بينهم المؤمنين، فلم يهلك منهم أحدا، وعذب الكافرين، فلم يفلت منهم أحدا[(٩)].

قال السدى: لم يبعث الله رسولا قط إلى قوم فيقتلونه، أو قوما من المؤمنين يدعون إلى الحق فيقتلون، فيذهب ذلك القرن حتى يبعث الله لهم من ينصرهم، فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم فى الدنيا. قال: فكانت[(١٠)] الأنبياء والمؤمنون يقتلون فى الدنيا، وهم منصورون فيها.

---

(١) فى ت، أ: «كيحيى بن زكريا». (٢) فى أ: «كإبراهيم عليه السلام». (٣) فى أ: «كعيسى عليه السلام».
(٤) تفسير الطبرى (٢٤/٤٨).
(٥) فى ت: «يحيى بن زكريا».
(٦) صحيح البخارى برقم (٦٥٠٢).
(٧) لم أجده بهذا اللفظ، وقد رواه أبو نعيم فى الحلية (١/١١) موقوفا على ابن عباس: «وأنا الثائر لأوليائى يوم القيامة».
(٨) فى أ: «وأصحاب». (٩) فى س: «واحدا». (١٠) فى ت، س: «وكانت».

www.Quranpdf.blogspot.in

وهكذا نصر الله [سبحانه][(١)] نبيه محمدا ﷺ وأصحابه على من خالفه وناوأه، وكذبه وعاداه، فجعل كلمته هى العليا، ودينه هو الظاهر على سائر الأديان. وأمره بالهجرة من بين ظهرانى قومه إلى المدينة النبوية، وجعل له فيها أنصارا وأعوانا، ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر، فنصره عليهم وخذلهم له، وقتل صناديدهم، وأسر سراتهم، فاستاقهم مقرنين فى الأصفاد، ثم من عليهم بأخذه الفداء منهم، ثم بعد مدة قريبة فتح [عليه][(٢)] مكة، فقرت عينه ببلده، وهو البلد المحرم الحرام المشرف المعظم، فأنقذه الله به مما كان فيه من الشرك والكفر، وفتح له اليمن، ودانت له جزيرة[(٣)] العرب بكمالها، ودخل الناس فى دين الله أفواجا. ثم قبضه الله، تعالى، إليه، لما له عنده من الكرامة العظيمة، فأقام الله أصحابه خلفاء بعده، فبلغوا عنه دين الله، ودعوا عباد الله إلى الله. وفتحوا البلاد والرّساتيق والأقاليم والمدائن والقرى والقلوب، حتى انتشرت الدعوة المحمدية فى مشارق الأرض ومغاربها. ثم لا يزال هذا الدين قائما منصورا ظاهرا إلى قيام[(٤)] الساعة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ أى: يوم القيامة تكون النصرة أعظم وأكبر وأجل.

قال مجاهد: الأشهاد: الملائكة.

وقوله: ﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ بدل من قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾.

وقرأ آخرون: «يَوْمُ» بالرفع، كأنه فسره به ﴿يَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ. يَوْمُ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ﴾، وهم المشركون ﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أى: لا يقبل منهم عذر ولا فدية، ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ أى: الإبعاد والطرد من الرحمة، ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ وهى النار. قاله السدى، بئس المنزل والمقيل.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أى: سوء العاقبة.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ﴾، وهو ما بعثه الله به من الهدى والنور؛ ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ أى: جعلنا لهم العاقبة، وأورثناهم[(٥)] بلاد فرعون وأمواله وحواصله وأرضه، بما صبروا على طاعة الله واتباع رسوله موسى، عليه السلام، وفى الكتاب الذى أورثوه ـ وهو التوراة ـ ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ وهى: العقول الصحيحة السليمة.

وقوله: ﴿فَاصْبِرْ﴾ أى: يا محمد، ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ أى: وعدناك أنا سنعلى كلمتك، ونجعل العاقبة لك ولمن اتبعك، والله لا يخلف الميعاد. وهذا الذى أخبرناك به حق لا مرية فيه ولا شك.

وقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾، هذا تهييج للأمة على الاستغفار، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ﴾ أى: فى أواخر النهار وأوائل الليل، ﴿وَالإِبْكَارِ﴾، وهى أوائل النهار وأواخر الليل.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ أى: يدفعون الحق بالباطل، ويردون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة بلا برهان ولا حجة من الله، ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾

---

(١) زيادة من أ.
(٢) زيادة من ت، وفى أ: «عليهم».
(٣) فى ت: «جزائر».
(٤) فى ت: «يوم».
(٥) فى ت: «وأورثنا بنى إسرائيل».

www.Quranpdf.blogspot.in

أى: ما فى صدورهم إلا كبر على اتباع الحق، واحتقار لمن جاءهم به، وليس ما يرومونه من إخمال الحق وإعلاء الباطل بحاصل لهم، بل الحق هو المرفوع، وقولهم وقصدهم هو الموضوع، ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ أى: من حال مثل هؤلاء، ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أو[1]: من شر[2] مثل هؤلاء المجادلين فى آيات الله بغير سلطان. هذا تفسير ابن جرير.

وقال كعب وأبو العالية: نزلت هذه الآية فى اليهود: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾ قال أبو العالية: وذلك أنهم ادعوا أن الدجال منهم، وأنهم يملكون به الأرض. فقال الله لنبيه ﷺ آمرا له أن يستعيذ من فتنة الدجال، ولهذا قال: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

وهذا قول غريب، وفيه تعسف بعيد، وإن كان قد رواه ابن أبى حاتم فى كتابه، والله أعلم.

﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ (٥٨) إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٩)﴾.

يقول تعالى منبها على أنه يعيد الخلائق يوم القيامة، وأن ذلك سهل عليه، يسير لديه ـ بأنه خلق السموات والأرض، وخلقهم أكبر من خلق الناس بدأة وإعادة، فمن قدر على ذلك فهو قادر على ما دونه بطريق الأولى والأحرى، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[3]﴾ [الأحقاف: ٣٣]. وقال هاهنا: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ فلهذا لا يتدبرون هذه الحجة ولا يتأملونها، كما كان كثير من العرب يعترفون بأن الله خلق السموات والأرض، وينكرون المعاد، استبعادا وكفرا وعنادا، وقد اعترفوا بما هو أولى مما أنكروا.

ثم قال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ﴾ أى: كما لا يستوى الأعمى الذى لا يبصر شيئا، والبصير الذى يرى ما انتهى إليه بصره، بل بينهما فرق عظيم، كذلك لا يستوى المؤمنون الأبرار والكفرة الفجار، ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أى: ما أقل ما يتذكر كثير من الناس.

ثم قال: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ[4]﴾ أى: لكائنة وواقعة، ﴿لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أى: لا يصدقون بها، بل يكذبون بوجودها.

---

(١) فى ت: «أى». (٢) فى أ: «شك».

(٣) فى ت، أ: «أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يحيى الموتى بلى إنه على كل شىء قدير» وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه، حيث إن ناسخا المخطوطتين ت، أ قد خلطا بين الآية الحادية والثمانين من سورة يس وبين الآية الثالثة والثلاثين من سورة الأحقاف. (٤) فى ت: «آتية» وهو خطأ.

www.Quranpdf.blogspot.in

قال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، حدثنا أشهب، حدثنا مالك، عن[١] شيخ قديم من أهل اليمن ـ قدم من ثم ـ قال: سمعت أن الساعة إذا دنت اشتد البلاء على الناس، واشتد حر الشمس.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠)﴾ .

هذا من فضله، تبارك وتعالى، وكرمه: أنه ندب عباده إلى دعائه، وتكفل لهم بالإجابة، كما كان سفيان الثورى يقول: يا مَنْ أحبُّ عباده إليه مَنْ سأله فأكثر سؤاله، ويا من أبغض عباده إليه من لم يسأله، وليس كذلك[٢] غيرك يارب.

رواه ابن أبى حاتم.

وفى هذا المعنى يقول الشاعر:

اللهُ يَغْضبُ إن تركْتَ سُؤَالَهُ ... وبُنىُّ آدمَ حين يُسألُ يَغْضَبُ

وقال قتادة: قال كعب الأحبار: أعطيت هذه الأمة ثلاثا لم تُعطهُن[٣] أمة قبلهم إلا نبى: كان إذا أرسل الله نبيا قيل له: «أنت شاهد على أمتك»، وجعلتكم[٤] شهداء على الناس. وكان يقال له: «ليس عليك فى الدين من حرج». وقال لهذه الأمة: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] . وكان يقال له: «ادعنى[٥] أستجب لك» وقال لهذه الأمة: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ رواه ابن أبى حاتم.

وقال[٦] الإمام الحافظ أبو يعلى. أحمد بن على بن المثنى الموصلى فى مسنده: حدثنا أبو إبراهيم الترجمانى، حدثنا صالح المرى قال: سمعت الحسن يحدث عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ ـ فيما يروى عن ربه عز وجل ـ قال: «أربع خصال، واحدة منهن لى، وواحدة لك، وواحدة فيما بينى وبينك، وواحدة فيما بينك وبين عبادى[٧]: فأما التى لى فتعبدنى لا تشرك بى شيئا، وأما التى لك علىَّ فما عملت من خير جزيتك به، وأما التي بينى وبينك: فمنك الدعاء وعلى الإجابة، وأما التى بينك وبين عبادى: فارض لهم ما[٨] ترضى لنفسك»[٩].

وقال[١٠] الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن ذر، عن يُسيع الكندى، عن النعمان بن بشير، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدعاء هو العبادة»، ثم قرأ: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ .

---

(١) فى ت: «روى ابن أبى حاتم عن». (٢) فى ت، أ: «وليس أحد كذلك». (٣) فى س: «يعطهن».
(٤) فى ت، أ: «وجعلكم». (٥) فى س: «ادعونى». (٦) فى ت: «وروى».
(٧) فى ت: «العباد». (٨) فى ت، أ: «بما».
(٩) مسند أبى يعلى (٥/١٤٣) ورواه البزار فى مسنده برقم (١٩) «كشف الأستار» من طريق الحجاج بن المنهال عن صالح المرى به، وقال: «تفرد به صالح المرى». قال الهيثمى فى المجمع (١/٥١): «فى إسناده صالح المرى وهو ضعيف، وتدليس الحسن أيضا» والمحمل هنا على صالح بن بشير المرى فهو ضعيف جدا وقد تفرد به.
(١٠) فى ت: «وروى».

www.Quranpdf.blogspot.in

وهكذا رواه أصحاب السنن: الترمذى، والنسائى، وابن ماجه، وابن أبى حاتم، وابن جرير، كلهم من حديث الأعمش، به[(١)]. وقال الترمذى: حسن صحيح.

ورواه أبو داود، والترمذى، والنسائى، وابن جرير أيضا، من حديث شعبة، عن منصور، عن ذر، به[(٢)].

وأخرجه الترمذى أيضا من حديث الثورى، عن منصور والأعمش، كلاهما عن ذر، به[(٣)].

ورواه ابن حبان والحاكم فى صحيحيهما، وقال الحاكم: صحيح الإسناد[(٤)].

وقال[(٥)] الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنى أبو مليح المدنى ـ شيخ من أهل المدينة ـ سمعه عن أبى صالح، وقال مرة: سمعت أبا صالح يحدث عن أبى هريرة [رضى الله عنه][(٦)] قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يدع الله، عز وجل، غضب الله عليه».

تفرد به أحمد[(٧)]، وهذا إسناد لا بأس به.

وقال[(٨)] الإمام أحمد أيضا: حدثنا مروان الفزارى، حدثنا صُبيح أبو المليح: سمعت أبا صالح يحدث عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من لا يسأله يغضب عليه»[(٩)].

قال ابن معين: أبو المليح هذا اسمه: صُبَيْح. كذا قيده بالضم عبد الغنى بن سعيد. وأما أبوصالح هذا فهو[(١٠)] الخُوزى[(١١)]، سكن شِعَب الخوز[(١٢)]. قاله البزار فى مسنده. وكذا وقع فى روايته أبو المليح الفارسى، عن أبى صالح الخُوزى، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من لا يسأل الله يغضب عليه»[(١٣)].

وقال[(١٤)] الحافظ أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن الرامهُرْمزى: حدثنا همام، حدثنا إبراهيم، عن الحسن، حدثنا نائل بن نجيح، حدثنى عائذ بن حبيب، عن محمد بن سعيد قال: لما مات محمد ابن مسلمة الأنصارى، وجدنا فى ذؤابة[(١٥)] سيفه كتابا: «بسم الله الرحمن الرحيم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لربكم فى بقية دهركم نفحات[(١٦)]، فتعرضوا له، لعل دعوة أن توافق رحمة فيسعد[(١٧)] بها صاحبها سعادة لا يخسر بعدها أبدا»[(١٨)].

---

(١) المسند (٤/ ٢٧١) وسنن الترمذى برقم (٣٣٧٢) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٦٤) وسنن ابن ماجه برقم (٣٨٢٨) وتفسير الطبرى (٢٤/ ٥١).

(٢) سنن أبى داود برقم (١٤٧٩) وسنن الترمذى برقم (٢٩٦٩) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٤٦) وتفسير الطبرى (٢٤/ ٥١).

(٣) سنن الترمذى برقم (٣٢٤٧).

(٤) صحيح ابن حبان برقم (٢٣٩٦) «موارد» والمستدرك (١/ ٤٩١).

(٥) فى ت: «وروى».

(٦) زيادة من ت.

(٧) المسند (٢/ ٤٧٧) وتفرد به أحمد بهذا اللفظ، وإلا فقد رواه ابن ماجه فى السنن برقم (٣٨٢٧) من طريق وكيع بهذا الإسناد بلفظ: «من لم يسأل الله يغضب عليه».

(٨) فى ت: «وروى».

(٩) المسند (٢/ ٤٤٢).

(١٠) فى ت، س: «وهو».

(١١) فى أ: «الجزرى».

(١٢) فى أ: «الجزر».

(١٣) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٣٣٧٣) وقال: «أبو المليح اسمه صبيح، وسمعت محمدا يقوله، وقال: يقال له: فارسى».

(١٤) فى ت: «وروى».

(١٥) فى ت: «رواية».

(١٦) فى ت: «فى بقية أيام نفحات»، وفى س، أ: «فى بقية أيام دهركم نفحات».

(١٧) فى ت: «يسعد».

(١٨) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٩/ ٢٣٣) من وجه آخر.

www.Quranpdf.blogspot.in

وقوله: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي**﴾ أى: عن دعائى وتوحيدى، ﴿**سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ**﴾ أى: صاغرين حقيرين، كما قال(١) الإمام أحمد:

حدثنا يحيى بن سعيد، عن ابن عجلان، حدثنى عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبى ﷺ قال: «يُحْشَر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذرّ، فى صور الناس، يعلوهم كل شىء من الصغار، حتى يدخلوا(٢) سجنا فى جهنم ـ يقال له: بولس ـ تعلوهم نار الأنيار، يسقون من طينة الخبال: عصارة أهل النار»(٣).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا أبو بكر بن محمد بن يزيد بن خُنَيْس: سمعت أبى يحدث عن وُهَيب(٤) بن الورد: حدثنى رجل قال: كنت أسير ذات يوم فى أرض الروم، فسمعت هاتفا من فوق رأس جبل وهو يقول: يارب، عجبت لمن عرفك كيف يرجو أحدا غيرك! يارب، عجبت لمن عرفك كيف يطلب حوائجه إلى أحد غيرك ـ قال: ثم ذهبت، ثم جاءت الطامة الكبرى ـ قال: ثم عاد الثانية فقال: يارب، عجبت لمن عرفك كيف يتعرض لشىء من سخطك يُرضى(٥) غيرك. قال وهيب: وهذه الطامة الكبرى. قال: فناديته: أجنى أنت أم إنسى؟ قال: بل إنسى، اشغل نفسك بما يَعْنيك عما لا يعنيك.

﴿**اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٦١) ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٦٢) كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٦٣) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٦٤) هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٥)**﴾.

يقول تعالى ممتنا على خلقه، بما جعل لهم من الليل الذى يسكنون فيه ويستريحون من حركات ترددهم فى المعايش بالنهار، وجعل النهار مبصرا، أى: مضيئا، ليتصرفوا فيه بالأسفار، وقطع الأقطار، والتمكن من الصناعات، ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ**(٦) **لا يَشْكُرُونَ**﴾ أى: لا يقومون بشكر نعم(٧) الله عليهم.

ثم قال: ﴿**ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ**﴾ أى: الذى فعل هذه الأشياء هو الله الواحد الأحد، خالق الأشياء، الذى لا إله غيره، ولا رب سواه، ﴿**فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ**﴾ أى: فكيف تعبدون غيره من الأصنام، التى لا تخلق شيئا، بل هى مخلوقة منحوتة.

---

(١) فى ت: «روى».
(٢) فى ت: «يدخلون».
(٣) المسند (٢/ ١٧٩).
(٤) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بسنده عن وهيب».
(٥) فى ت، س: «برضى».
(٦) فى ت: «ولكن أكثرهم» وهو خطأ.
(٧) فى أ: «ما أنعم».

www.Quranpdf.blogspot.in

وقوله: ﴿كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أى: كما ضل هؤلاء بعبادة غير الله، كذلك أفك الذين من قبلهم، فعبدوا غيره بلا دليل ولا برهان بل بمجرد الجهل والهوى، وجحدوا حجج الله وآياته.

وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا﴾ أى: جعلها مستقرا لكم، بساطا مهادا تعيشون عليها، وتتصرفون فيها، وتمشون فى مناكبها، وأرساها بالجبال لئلا تميد بكم، ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ أى: سقفا للعالم محفوظا، ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ أى: فخلقكم فى أحسن الأشكال، ومنحكم أكمل الصور فى أحسن تقويم، ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أى: من المآكل والمشارب فى الدنيا. فذكر أنه خلق الدار، والسكان، والأرزاق ـ فهو الخالق الرازق، كما قال فى سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا[1] رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٠، ٢١] وقال هاهنا بعد خلق هذه الأشياء: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾: أى: فتعالى وتقدس وتنزه رب العالمين كلهم.

ثم قال: ﴿هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ أى: هو الحى أزلاً وأبداً، لم يزل ولا يزال، وهو الأول والآخر، والظاهر والباطن، ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ أى: لا نظير له ولا عديل له، ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أى: موحدين له مقرين بأنه لا إله إلا هو ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

قال ابن جرير: كان جماعة من أهل العلم يأمرون من قال: «لا إله إلا الله» أن يتبعها بالحمد لله رب العالمين، عملا بهذه الآية.

ثم روى عن محمد بن على بن الحسن بن شقيق، عن أبيه، عن الحسين بن واقد، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس[2] قال: من قال: «لا إله إلا الله» فليقل على أثرها: «الحمد لله رب العالمين» فذلك[3] قوله تعالى: ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وقال أبو أسامة وغيره، عن إسماعيل بن أبى خالد، عن سعيد بن جبير قال: إذا قرأت: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[غافر: ١٤]، فقل: «لا إله إلاّ الله» وقل على أثرها: «الحمد لله رب العالمين» ثم قرأ هذه الآية: ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٦) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧) هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٦٨)﴾

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إن الله ينهى أن يُعْبَد أحد سواه من الأصنام والأنداد

(١) فى س: «اتقوا» وهو خطأ. (٢) فى ت: «ثم روى بإسناده عن ابن عباس». (٣) فى ت، س: «وذلك».

www.Quranpdf.blogspot.in

والأوثان. وقد بين تعالى أنه لا يستحق العبادة أحد سواه، في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا﴾ أي: هو الذي يقلبكم في هذه الأطوار كلها، وحده لا شريك له، وعن أمره وتدبيره وتقديره يكون ذلك كله، ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل أن يوجد ويخرج إلى هذا العالم، بل تسقطه أمه سقطا، ومنهم من يتوفى صغيرا، وشابا، وكهلا قبل الشيخوخة، كقوله ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الحج: ٥] وقال هاهنا: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ، قال ابن جريج، تتذكرون البعث.

ثم قال: ﴿ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أي: هو المتفرد بذلك، لا يقدر على ذلك أحد سواه، ﴿ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ أي: لا يخالف ولا يمانع، بل ما شاء كان [لا محالة][1].

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ (٦٩) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (٧٤) ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٦) ﴾ .

يقول تعالى: ألا تعجب يا محمد من هؤلاء المكذبين بآيات الله، ويجادلون في الحق والباطل، كيف تُصرّف عقولهم عن الهدى إلى الضلال، ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾ أي: من الهدى والبيان، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾: هذا تهديد شديد، ووعيد أكيد، من الرب، جل جلاله، لهؤلاء، كما قال تعالى: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات: ١٥].

وقوله: ﴿إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ﴾ أي: متصلة بالأغلال، بأيدي الزبانية يسحبونهم على وجوههم، تارة إلى الحميم وتارة إلى الجحيم؛ ولهذا قال: ﴿ يُسْحَبُونَ. فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾، كما قال: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ. يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴾ [الرحمن: ٤٣، ٤٤]. وقال بعد ذكره أكلهم الزقوم وشربهم الحميم: ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٨] وقال: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ .فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ. وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ . لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ﴾ إلى أن قال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ. لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ . فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ . فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ .فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾[الواقعة: ٤١ـ ٥٦]. وقال: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ . طَعَامُ الأَثِيمِ .كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ .كَغَلْيِ الْحَمِيمِ. خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ .ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ . ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ . إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾[الدخان: ٤٣ ـ ٥٠]،

(١) زيادة من س، أ.

www.Quranpdf.blogspot.in

أى: يقال لهم ذلك على وجه التقريع والتوبيخ، والتحقير والتصغير، والتهكم والاستهزاء بهم.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا أحمد بن منيع، حدثنا منصور بن عمار، حدثنا بشير[(١)] بن طلحة الخزامى، عن خالد بن دُرَيْك، عن يعلى بن مُنْيَة ـ رفع الحديث إلى رسول الله ﷺ ـ قال: «ينشئ الله سحابة لأهل النار سوداء مظلمة، ويقال: يا أهل النار، أى شىء تطلبون؟ فيذكرون بها سحاب الدنيا فيقولون: نسأل بَرْد الشراب، فتمطرهم أغلالا تزيد فى أغلالهم، وسلاسل تزيد فى سلاسلهم، وجمرا يُلْهِبُ النار عليهم». هذا حديث غريب[(٢)].

وقوله: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ. مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أى: قيل لهم: أين الأصنام التى كنتم تعبدونها من دون الله؟ هل ينصرونكم اليوم؟ ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ أى: ذهبوا فلم ينفعونا، ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا﴾ أى: جحدوا عبادتهم، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]؛ ولهذا قال: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾.

وقوله: ﴿ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ أى: تقول لهم الملائكة: هذا الذى أنتم فيه جزاء على فرحكم فى الدنيا بغير الحق، ومرحكم وأشركم وبطركم، ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أى: فبئس المَنْزِلُ والمَقِيلُ الذى فيه الهوان والعذاب الشديد، لمن استكبر عن آيات الله، واتباع دلائله وحُججه.

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (٧٨)﴾.

يقول تعالى آمرا رسوله، صلوات الله وسلامه عليه، بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه؛ فإن الله سينجز لك ما وعدك من النصر والظفر على قومك، وجعل العاقبة لك ولمن اتبعك فى الدنيا والآخرة، ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ أى: فى الدنيا. وكذلك وقع، فإن الله أقر أعينهم من كبرائهم وعظمائهم، أبيدوا فى يوم بدر. ثم فتح الله عليه مكة وسائر جزيرة العرب فى أيام حياته ﷺ.

وقوله: ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ أى: فنذيقهم العذاب الشديد فى الآخرة.

ثم قال مسليا له: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ كما قال فى «سورة النساء» سواء، أى: منهم من أوحينا إليك خبرهم وقصصهم مع قومهم كيف كذبوهم ثم كانت للرسل العاقبة والنصرة، ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾، وهم أكثر ممن ذكر

---

(١) فى أ: «بشر».

(٢) ورواه الطبرانى فى الأوسط برقم (٤٨٤٦) وابن عدى فى الكامل (٦/ ٣٩٤) من طريق أحمد بن منيع عن منصور به، وقال الطبرانى: «لا يروى عن يعلى إلا بهذا الإسناد، تفرد به منصور». وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٣٩٠): «فيه من فيه ضعف قليل، وفيه من لم أعرفه».

www.Quranpdf.blogspot.in

بأضعاف أضعاف، كما تقدم التنبيه على ذلك فى سورة النساء(١)، ولله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أى: ولم يكن لواحد من الرسل أن يأتى قومه بخارق للعادات، إلا أن يأذن الله (٢)له فى ذلك، فيدل ذلك على صدقه فيما جاءهم به، ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾: وهو عذابه ونكاله المحيط بالمكذبين ﴿ قُضِيَ بِالْحَقِّ ﴾، فينجو المؤمنون، ويهلك الكافرون؛ ولهذا قال: ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴾.

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٩) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٨٠) وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ (٨١) ﴾.

يقول تعالى ممتنا على عباده، بما خلق لهم من الأنعام، وهى الإبل والبقر والغنم، ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ [يس: ٧٢]، فالإبل تركب وتؤكل وتحلب، ويحمل عليها الأثقال فى الأسفار والرحال إلى البلاد النائية، والأقطار الشاسعة. والبقر تؤكل، ويشرب لبنها، وتحرث عليها الأرض. والغنم تؤكل، ويشرب لبنها. والجميع تجز أصوافها وأشعارها وأوبارها، فيتخذ منه الأثاث والثياب والأمتعة، كما فَصَّل وبَيَّنَ فى أماكن تقدم ذكرها فى «سورة الأنعام»(٣)، و«سورة النحل»(٤)، وغير ذلك؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾.

وقوله: ﴿ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أى: حججه وبراهينه فى الآفاق وفى أنفسكم، ﴿ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ﴾؟ أى: لا تقدرون على إنكار شىء من آياته، إلا أن تعاندوا وتكابروا.

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (٨٥) ﴾.

يخبر تعالى عن الأمم المكذبة بالرسل فى قديم الدهر، وماذا حل بهم من العذاب الشديد، مع

(١) راجع تفسير الآية: ١٦٤ من سورة النساء.

(٢) فى أ: «إلا بإذن الله».

(٣) راجع تفسير الآيات: ١٤١ ـ ١٤٤ من سورة الأنعام.

(٤) راجع تفسير الآيات: ٥ ـ ٨ من سورة النحل.

www.Quranpdf.blogspot.in

شدة قواهم، وما أثَّروه فى الأرض، وجمعوه من الأموال، فما أغنى عنهم ذلك شيئًا، ولا رد عنهم ذرة من بأس الله؛ وذلك لأنهم لما جاءتهم الرسل[(١)] بالبينات، والحجج القاطعات، والبراهين الدامغات، لم يلتفتوا إليهم، ولا أقبلوا عليهم، واستغنوا بما عندهم من العلم فى زعمهم عما جاءتهم به الرسل.

قال مجاهد: قالوا: نحن أعلم منهم، لن نبعث ولن نعذب.

وقال السدى: فرحوا بما عندهم من العلم بجهالتهم، فأتاهم من بأس الله ما لا قِبَل لهم به.

﴿ وَحَاقَ بِهِم﴾ أى: أحاط بهم ﴿ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أى : يكذبون ويستبعدون وقوعه.

﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ أى: عاينوا وقوع العذاب بهم، ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ أى: وحدوا الله وكفروا بالطاغوت، ولكن حيث لا تُقَال العثرات، ولا تنفع المعذرة. وهذا كما قال فرعون حين أدركه الغرق: ﴿ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]، قال الله [تبارك و][(٢)] تعالى: ﴿ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ؟ [يونس: ٩١] أى: فلم يقبل الله منه؛ لأنه قد استجاب لنبيه موسى دعاءه عليه حين قال: ﴿وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]. و[هكذا][(٣)] هاهنا قال: ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ أى: هذا حكم الله فى جميع [(٤)]مَنْ تاب عند معاينة العذاب: أنه لا يقبل؛ ولهذا جاء فى الحديث: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»[(٥)] أى: فإذا غرغر وبلغت الروح الحنجرة، وعاين الملك، فلا توبة حينئذ؛ ولهذا قال: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾.

آخر تفسير «سورة غافر[(٦)]»، ولله الحمد والمنة

---

(١) فى أ: «رسلهم» .
(٢) زيادة من س، أ.
(٣) زيادة من س، أ.
(٤) فى أ: «فى جميع عباده» .
(٥) رواه الترمذى فى السنن برقم (٣٥٣٧) وابن ماجه فى السنن برقم (٤٢٥٣) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما.
(٦) فى س: «المؤمن».

www.Quranpdf.blogspot.in

تفسير سورة فصلت[١]

وهى مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ (١) تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (٥)﴾ .

يقول تعالى: ﴿حمٓ . تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ يعنى: القرآن منزل من الرحمن الرحيم، كقوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢]، وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ .عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٤] .

وقوله: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ أى: بُينت معانيه وأحكمت أحكامه[٢]، ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أى: فى حال كونه لفظا عربيا، بينا واضحا، فمعانيه مفصلة، وألفاظه واضحة غير مشكلة، كقوله: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١] أى: هو معجز من حيث لفظه ومعناه، ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

وقوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أى: إنما يعرف هذا البيان والوضوح العلماءُ الراسخون، ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أى: تارة يبشر المؤمنين، وتارة ينذر الكافرين، ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أى: أكثر قريش، فهم لا يفهمون منه شيئا مع بيانه ووضوحه، ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ أى: فى غلف مغطاة ﴿مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ أى: صمم عما جئتنا به، ﴿وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ فلا يصل إلينا شىء مما تقول، ﴿فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ أى: اعمل أنت على طريقتك، ونحن على طريقتنا لا نتابعك.

قال الإمام العَلَم عبد بن حُمَيد فى مسنده: حدثنى ابن أبى شيبة، حدثنا على بن مُسْهِر، عن الأجلح، عن الذَّيَّال بن حَرْمَلة الأسدى، عن جابر بن عبد الله، رضى الله عنه، قال: اجتمعت قريش يوما فقالوا: انظروا أعْلَمكم بالسحر والكهانة والشعر، فليأت هذا الرجل الذى قد فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وعاب ديننا، فليكلمه ولننظر ماذا يرد عليه؟ فقالوا: ما نعلم أحدا غير عتبة ابن ربيعة. فقالوا: أنت يا أبا الوليد. فأتاه عتبة فقال: يا محمد، أنت خير أم عبد الله؟ فسكت رسول الله ﷺ، فقال: أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله ﷺ، فقال: فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك، فقد عبدوا الآلهة التى عِبْتَ، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع

---

(١) فى س: «تفسير حم السجدة».

(٢) فى أ: «آياته».

www.Quranpdf.blogspot.in

قولك، إنا والله ما رأينا سَخْلَةً قط أشأم على قومك[١] منك؛ فرقت جماعتنا، وشتت أمرنا، وعبت ديننا، وفضحتنا فى العرب، حتى لقد طار فيهم أن فى قريش ساحرًا، وأن فى قريش كاهنا! والله ما ننظر[٢] إلا مثل صيحة الحُبْلى أن يقوم بعضنا إلى[٣] بعض بالسيوف، حتى نتفانى! أيها الرجل، إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلا [٤]، وإن كان إنما بك الباءة فاختر أى نساء قريش [شئت][٥] فلنزوجك عشرا. فقال رسول الله ﷺ: «فَرَغْتَ؟» قال: نعم. فقال رسول الله ﷺ: ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم. حمٓ. تنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾ حتى بلغ: ﴿ **فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ**﴾. فقال عتبة: حسبك! حسبك! ما عندك غير هذا؟ قال: «لا». فرجع إلى قريش، فقالوا: ما وراءك؟ قال: ما تركت شيئا أرى أنكم تكلمونه به إلا كلمته. قالوا: فهل أجابك؟ [قال: نعم، قالوا: فما قال؟][٦] قال: لا، والذى نصبها بَنِيَّةً ما فَهِمْتُ شيئا مما قال، غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود. قالوا: ويلك! يكلمك الرجل بالعربية ما تدرى ما قال؟! قال: لا، والله ما فهمت شيئا مما قال غير ذكر الصاعقة.

وهكذا رواه الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده، عن أبى بكر بن أبى شيبة بإسناده، مثله سواء[٧].

وقد ساقه البغوى فى تفسيره بسنده عن محمد بن فُضَيل، عن الأجلح ـ وهو ابن عبد الله الكندى [الكوفى][٨] ـ وقد ضُعِّفَ بعض الشيء عن الذَّيَّال بن حرملة، عن جابر، فذكر الحديث إلى قوله: ﴿ **فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ**﴾ فأمسك عتبة على فيه، وناشده بالرحم، ورجع إلى أهله، ولم يخرج إلى قريش واحتبس عنهم. فقال أبو جهل: يا معشر قريش، والله ما نرى عتبة إلا قد صبَا إلى محمد، وأعجبه طعامه، وما ذاك إلا من حاجة [قد][٩] أصابته، فانطلقوا بنا إليه. فانطلقوا إليه فقال أبو جهل: يا عتبة، ما حبسك عنا إلا أنك صبوت إلى محمد وأعجبك طعامه، فإن كانت لك[١٠] حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد. فغضب عتبة، وأقسم ألا يكلم محمداً أبدا، وقال: والله، لقد علمتم أنى من أكثر قريش مالا، ولكنى أتيته وقصصت عليه [القصة][١١] فأجابنى بشيء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر، وقرأ السورة إلى قوله: ﴿ **فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ**﴾، فأمسكتُ بفيه، وناشدته بالرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب، فخشيت أن ينزل بكم العذاب[١٢].

وهذا السياق أشبه من سياق البزار وأبى يعلى، والله أعلم.

وقد أورد هذه القصة الإمام محمد بن إسحاق بن يسار فى كتاب السيرة على خلاف هذا النمط، فقال:

---

(١) فى س: «جماعته». (٢) فى س: «ننتظر». (٣) فى أ: «على».
(٤) فى س، أ: «رجلا واحدا». (٥) زيادة من س، أ. (٦) زيادة من أ.
(٧) المنتخب لعبد بن حميد برقم (١١٢١) ومسند أبى يعلى (٣/٣٤٩) وفى إسناده الأجلح الكندى ضعفه النسائى وغيره.
(٨) زيادة من س، أ. (٩) زيادة من أ. (١٠) فى س، أ: «بك».
(١١) زيادة من س، أ.
(١٢) معالم التنزيل للبغوى (٧/١٦٧).

www.Quranpdf.blogspot.in

حدثنى يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القُرَظى قال: حُدِّثْتُ أن عتبة بن ربيعة ـ وكان سيدا ـ قال يوما وهو جالس فى نادى قريش، ورسول الله ﷺ جالس فى المسجد وحده: يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها، فنعطيه أيَّها شاء ويكف عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون، فقالوا: بلى يا أبا الوليد، فقم إليه فكلمه[١]. فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخى، إنك منا حيث قد علمت من السِّطَة فى العشيرة، والمكان فى النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منا بعضها. قال: فقال له رسول الله ﷺ: «قل يا أبا الوليد، أسمع». قال: يا ابن أخى، إن كنت إنما تريدُ بما جئتَ به من[٢] هذا الأمر مالا، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون من أكثرنا أموالا[٣]. وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا، حتى لا نقطع أمراً دونك. وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا. وإن كان هذا الذى يأتيك رَئِيّا تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يُدَاوَى منه ـ أو كما قال له ـ حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال: «أفرغت يا أبا الوليد؟». قال: نعم. قال: «فاستمع منى» قال: أفعل. قال: ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم .حمٓ . تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ** ﴾. ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه. فلما سمع عتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها، فسجد، ثم قال: «قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك[٤]»، فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: أقسم ـ يحلف[٥] بالله ـ لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائى أنى قد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة. يا معشر قريش، أطيعونى واجعلوها لى، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونَنَّ لقوله الذى سمعت نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فمُلْكُهُ ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به. قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه! قال: هذا رأيى فيه، فاصنعوا ما بدا لكم[٦].

وهذا السياق أشبه من الذى قبله، والله أعلم.

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٨) ﴾ .

(١) فى أ: «وكلمه». (٢) فى أ: «فى». (٣) فى س: «مالا».
(٤) فى أ: «وحالك». (٥) فى س: «نحلف».
(٦) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٩٣).

www.Quranpdf.blogspot.in

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المكذبين المشركين: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾، لا كما تعبدونه[1] من الأصنام والأنداد والأرباب المتفرقين، إنما الله إله واحد، ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾أى: أخلصوا له العبادة على منوال ما أمركم به على ألسنة الرسل، ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ أى: لسالف الذنوب، ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ أى: دمار لهم وهلاك عليهم، ﴿الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ : قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: يعنى: الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله. وكذا قال عكرمة.

وهذا كقوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا .وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، وكقوله: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ .وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥]، وقوله: ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴾ [النازعات: ١٨]. والمراد بالزكاة هاهنا: طهارة النفس من الأخلاق الرذيلة، ومن أهم ذلك طهارة النفس من الشرك. وزكاة المال إنما سميت زكاة لأنها تطهره من الحرام، وتكون سببا لزيادته وبركته وكثرة نفعه، وتوفيقا إلى استعماله فى الطاعات.

وقال السدى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ .الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أى: الذين لا يَدِينون بالزكاة.

وقال معاوية بن قرة: ليس هم من أهل الزكاة.

وقال قتادة: يمنعون زكاة أموالهم.

وهذا هو الظاهر عند كثير من المفسرين، واختاره ابن جرير. وفيه نظر؛ لأن إيجاب الزكاة إنما كان فى السنة الثانية من الهجرة إلى المدينة، على ما ذكره غير واحد، وهذه الآية مكية، اللهم إلا أن يقال: لا يبعد أن يكون أصل الزكاة الصدقة كان مأمورا به فى ابتداء البعثة، كقوله تعالى:﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١]، فأما الزكاة ذات النصب والمقادير فإنما بَيَّن أمرها بالمدينة، ويكون هذا جمعا بين القولين، كما أن أصل الصلاة كان واجبا قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فى ابتداء البعثة، فلما كان ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة ونصف، فرض الله على رسوله [ﷺ][2] الصلوات الخمس، وفصل شروطها وأركانها وما يتعلق بها بعد ذلك، شيئا فشيئا، والله أعلم.

ثم قال بعد ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ قال مجاهد وغيره: لا مقطوع ولا مجبوب[3]، كقوله: ﴿مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴾ [الكهف: ٣]، وكقوله تعالى:﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[هود : ١٠٨].

وقال السدى: غير ممنون عليهم. وقد رد عليه بعض الأئمة هذا التفسير، فإن المنة لله على أهل الجنة؛ قال الله تعالى: ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ ﴾ [الحجرات: ١٧]، وقال أهل الجنة: ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧]، وقال رسول الله ﷺ: «إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل».

(١) فى س: «يعبدونه» . (٢) زيادة من س، أ. (٣) فى أ: «غير مقطوع ولا محسوب».

www.Quranpdf.blogspot.in

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ⑨ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ⑩ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ⑪ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ⑫﴾ .

هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا معه غيره، وهو الخالق لكل شيء، القاهر لكل شيء، المقدر لكل شيء، فقال: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾ أي: نظراء وأمثالا تعبدونها[1] معه، ﴿ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: الخالق للأشياء هو رب العالمين كلهم.

وهذا المكان فيه تفصيل لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ففصل هاهنا ما يختص بالأرض مما اختص بالسماء، فذكر أنه خلق الأرض أولا لأنها كالأساس، والأصل أن يُبْدَأَ بالأساس، ثم بعده بالسقف، كما قال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ الآية [البقرة: ٢٩].

فأما قوله: ﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا . رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا . وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا . وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا . أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا . وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا . مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ [النازعات: ٢٧ ـ ٣٣] ففى هذه الآية أن دَحْى الأرض كان بعد خلق السماء[2]، فالدَّحْيُ هو مفسر بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾، وكان هذا بعد خلق السماء، فأما خلق الأرض فقبل خلق السماء بالنص، وبهذا أجاب ابن عباس فيما ذكره البخارى عند تفسير هذه الآية من صحيحه، فإنه قال:

وقال المنهال، عن سعيد بن جبير قال: قال رجل لابن عباس: إنى أجد فى القرآن أشياء تختلف عليّ، قال: ﴿فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصافات: ٢٧]، ﴿وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]، ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]؛ فقد كتموا فى هذه الآية؟ وقال: ﴿ أَمِ السَّمَاءُ[3] بَنَاهَا﴾، إلى قوله: ﴿دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧ ـ ٣٠]، فذكر خلق السماء قبل [خلق][4] الأرض ثم قال: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ إلى قوله: ﴿طَائِعِينَ﴾ ، فذكر فى هذه خلق الأرض قبل خلق السماء؟ وقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٩٦]، ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:٥٦]، ﴿سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء:٥٨]، فكأنه كان ثم مضى.

قال ـ يعنى ابن عباس ـ: ﴿فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ﴾ فى النفخة الأولى، ثم ينفخ فى الصور، ﴿فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ﴾[الزمر: ٦٨] ، فلا أنساب بينهم عند

(١) فى س: «يعبدونها». (٢) فى أ: «السموات».
(٣) فى س: «والسماء». (٤) زيادة من س.

www.Quranpdf.blogspot.in

ذلك ولا يتساءلون، ثم فى النفخة الأخرى ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾.

وأما قوله: ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، ﴿وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً﴾، فإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم، فقال المشركون: تعالوا نقول: «لم نكن مشركين»، فيختم على أفواههم، فتنطق أيديهم، فعند ذلك يعرف[1] أن الله لا يكتم حديثا، وعنده ﴿يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية [الحجر: ٢].

وخلق الأرض فى يومين، ثم خلق السماء، ثم استوى إلى السماء، فسواهن فى يومين آخرين، ثم دَحَى الأرض، ودَحْيُها: أن أخرج منها الماء والمرعى، وخلق الجبال والجماد والآكام وما بينهما فى يومين آخرين، فذلك قوله: ﴿دَحَاهَا﴾، وقوله: ﴿خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾، فَخُلِقت الأرض وما فيها من شىء فى أربعة أيام، وخلقت السموات فى يومين.

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ [النساء: ٩٦]، سمى نفسه بذلك، وذلك قوله، أى: لم يزل كذلك؛ فإن الله لم يرد شيئا إلا أصاب به الذى أراد، فلا يختلفن عليك القرآن، فإن كلا من عند الله عز وجل.

قال البخارى: حدثنيه يوسف بن عدى، حدثنا عبيد الله بن عمرو، عن زيد بن أبى أُنَيْسَة[2]، عن المنهال - هو ابن عمرو - بالحديث[3].

فقوله: ﴿خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ يعنى: يوم الأحد ويوم الإثنين ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا﴾ أى: جعلها مباركة قابلة للخير والبذر والغراس، ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾، وهو: ما يحتاج[4] أهلها إليه من الأرزاق والأماكن التى تزرع وتغرس، يعنى: يوم الثلاثاء والأربعاء، فهما مع اليومين السابقين أربعة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾أى: لمن أراد السؤال عن ذلك ليعلمه.

وقال مجاهد وعكرمة فى قوله: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾: جعل فى كل أرض ما لا يصلح فى غيرها، ومنه: العصب باليمن، والسابرى بسابور، والطيالسة بالرّى.

وقال ابن عباس، وقتادة، والسدى فى قوله تعالى: ﴿سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ أى: لمن أراد السؤال عن ذلك.

وقال ابن زيد: معناه ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ أى: على وفق مراد من له حاجة إلى رزق أو حاجة، فإن الله قدر له ما هو محتاج إليه.

وهذا القول يشبه ما ذكروه فى قوله تعالى: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، والله أعلم.

وقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾، وهو: بخار الماء المتصاعد منه حين خلقت الأرض،

---

(١) فى أ: «عرفوا».

(٢) فى أ: «شيبة».

(٣) صحيح البخارى (٨/ ٥٥٦) «فتح».

(٤) فى س: «ما تحتاج».

www.Quranpdf.blogspot.in

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أى: استجيبا لأمرى، وانفعلا لفعلى، طائعتين أو مكرهتين.

قال الثورى، عن ابن جريج، عن سليمان بن موسى، عن مجاهد، عن ابن عباس فى قوله [تعالى][(١)]: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ قال: قال الله تعالى للسموات: أطلعى شمسى وقمرى ونجومى. وقال للأرض: شققى أنهارك، وأخرجى ثمارك. فقالتا: ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾.

واختاره ابن جرير ـ رحمه الله.

﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ أى: بل نستجيب لك مطيعين بما فينا، مما تريد خلقه من الملائكة والإنس والجن جميعا مطيعين[(٢)] لك. حكاه ابن جرير عن بعض أهل العربية، قال: وقيل: تنزيلا لهن معاملة من يعقل بكلامهما.

وقيل[(٣)]: إن المتكلم من الأرض بذلك هو مكان الكعبة، ومن السماء ما يسامته منها، والله أعلم.

وقال الحسن البصرى: لو أبيا عليه أمره لعذبهما عذابا يجدان ألمه. رواه ابن أبى حاتم.

﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أى: ففرغ من تسويتهن سبع سموات فى يومين، أى: آخرين، وهما يوم الخميس ويوم الجمعة.

﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ أى: ورتب مقررا فى كل سماء ما تحتاج إليه من الملائكة، وما فيها من الأشياء التى لا يعلمها إلا هو، ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾، وهن الكواكب المنيرة المشرقة على أهل الأرض، ﴿وَحِفْظًا﴾ أى: حرسا من الشياطين أن تستمع إلى الملأ الأعلى.

﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أى: العزيز الذى قد عز كل شىء فغلبه وقهره، العليم بجميع حركات المخلوقات وسكناتهم.

قال ابن جرير: حدثنا هَنَّاد بن السرى، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن أبى سعيد[(٤)] البقال، عن عكرمة، عن ابن عباس ـ قال هناد: قرأت سائر الحديث ـ أن اليهود أتت النبى ﷺ فسألته عن خلق السموات والأرض، فقال: «خلق الله الأرض يوم الأحد ويوم الإثنين، وخلق الجبال يوم الثلاثاء وما فيهن من منافع، وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء والمدائن والعمران والخراب، فهذه أربعة: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾: لمن سأل، قال: «وخلق يوم الخميس السماء، وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة إلى ثلاث ساعات بقيت منه، فخلق فى أول ساعة من هذه الثلاثة الآجال، حين يموت من مات، وفى الثانية ألقى الآفة على كل شىء مما ينتفع به الناس، وفى الثالثة آدم، وأسكنه الجنة، وأمر إبليس بالسجود له، وأخرجه منها فى آخر ساعة». ثم قالت اليهود: ثم ماذا يا محمد؟ قال: «ثم استوى على العرش». قالوا: قد أصبت لو أتممت! قالوا:

---

(١) زيادة من س.

(٢) فى س: «مطيعون».

(٣) فى س، أ: «ويقال».

(٤) فى س: «سعد».

www.Quranpdf.blogspot.in

ثم استراح. فغضب النبى ﷺ غضبا شديدا، فنزل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ . فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [ق: ٣٨] (١).

هذا الحديث فيه غرابة. فأما حديث ابن جريج، عن إسماعيل بن أمية، عن أيوب بن خالد، عن عبد الله بن رافع، عن أبى هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدى فقال: «خلق الله التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الإثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق فى آخر ساعة من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل»، فقد رواه مسلم، والنسائى فى كتابيهما، عن حديث ابن جريج، به(٢). وهو من غرائب الصحيح، وقد علَّله البخارى فى التاريخ فقال: رواه بعضهم عن أبى هريرة [رضى الله عنه](٣)، عن كعب الأحبار، وهو الأصح.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣) إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (١٤) فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لا يُنصَرُونَ (١٦) وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (١٨)﴾ .

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بما جئتهم به من الحق: إن أعرضتم عما جئتكم به من عند الله، فإنى أنذركم حلول نقمة الله بكم، كما حلت بالأمم الماضين من المكذبين بالمرسلين ﴿صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ أى: ومن شاكلهما(٤) ممن فعل كفعلهما، ﴿إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ ، كقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ [الأحقاف: ٢١] أى: فى القرى المجاورة لبلادهم، بعث الله إليهم الرسل

(١) تفسير الطبرى (٢٤/ ٦١)، ورواه أبو الشيخ فى العظمة برقم (٨٧٨) والحاكم فى المستدرك (٢/ ٥٤٣) من طريق هناد به، وقال الحاكم: «صحيح الإسناد» وتعقبه الذهبى فقال: «أبو سعيد البقال: قال ابن معين: لا يكتب حديثه».
(٢) صحيح مسلم برقم (٢٧٨٩)، والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٠١٠).
(٣) زيادة من ت.
(٤) فى أ: «شاكلهم».

www.Quranpdf.blogspot.in

يأمرون بعبادة الله وحده لا شريك له، ومبشرين ومنذرين، ورأوا ما أحل الله بأعدائه من النقم، وما ألبس(١) أولياءه من النعم، ومع هذا ما آمنوا ولا صدقوا، بل كذبوا وجحدوا، وقالوا: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلائِكَةً﴾ أي: لو أرسل الله رسلا(٢) لكانوا ملائكة من عنده، ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ﴾ أي: أيها البشر ﴿كَافِرُونَ﴾ أي: لا نتبعكم وأنتم بشر مثلنا. قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ [بِغَيْرِ الْحَقِّ](٣)﴾ أي: بغوا وعتوا وعصوا، ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ أي: منوا بشدة تركيبهم وقواهم، واعتقدوا أنهم يمتنعون به من بأس الله! ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي: أفما يتفكرون(٤) فيمن يبارزون بالعداوة؟ فإنه العظيم الذى خلق الأشياء وركب فيها قواها الحاملة لها، وإن بطشه شديد، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]، فبارزوا الجبار بالعداوة، وجحدوا بآياته وعصوا رسوله، فلهذا قال: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ قال بعضهم: وهى الشديدة الهبوب. وقيل: الباردة. وقيل: هى التى لها صوت.

والحق أنها متصفة بجميع ذلك، فإنها كانت ريحا شديدة قوية؛ لتكون عقوبتهم من جنس ما اغتروا به من قواهم، وكانت باردة شديدة البرد جدا، كقوله تعالى: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦] أى: باردة شديدة، وكانت ذات صوت مزعج، ومنه سمى النهر المشهور ببلاد المشرق «صرصرا(٥)»، لقوة صوت جريه.

وقوله: ﴿ فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ أى: متتابعات، ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧]، كقوله: ﴿ فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: ١٩] أى: ابتدئوا بهذا العذاب فى يوم نحس عليهم، واستمر بهم هذا النحس سبع ليال وثمانية أيام، حتى أبادهم عن آخرهم، واتصل بهم خزى الدنيا بعذاب الآخرة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى﴾ [أى](٦): أشد خزيا لهم، ﴿وَهُمْ لا يُنصَرُونَ﴾ أى: فى الأخرى(٧) ،كما لم ينصروا فى الدنيا، وما كان لهم من الله من واق يقيهم العذاب ويدرأ عنهم النكال.

وقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ قال ابن عباس، وأبو العالية، وسعيد بن جبير، وقتادة، والسدى، وابن زيد: بينا لهم(٨).

وقال الثورى: دعوناهم.

﴿ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَى﴾ أى: بصرناهم، وبينا لهم، ووضحنا لهم الحق على لسان نبيهم صالح ﷺ(٩) ،فخالفوه وكذبوه، وعقروا ناقة الله التى جعلها آية وعلامة على صدق نبيهم، ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ أى: بعث الله عليهم صيحة ورجفة وذلا وهوانا وعذابا ونكالا، ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أى: من التكذيب والجحود.

---

(١) فى س: «ألبس الله». (٢) فى ت: «رسولا». (٣) زيادة من ت، أ.
(٤) فى ت، س: «أفما يفكرون»، وفى أ: «فيما يتفكرون». (٥) فى ت، س: «صرصر». (٦) زيادة من أ.
(٧) فى ت: «الآخرة». (٨) فى ت: «وسعيد بن جبير وغيرهم».
(٩) فى ت، س: «عليه السلام».

www.Quranpdf.blogspot.in

﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا [وَكَانُوا يَتَّقُونَ][1]﴾ أى: من بين أظهرهم، لم يمسهم سوء، ولا نالهم من ذلك ضرر، بل نجاهم الله مع نبيهم صالح [عليه السلام][2] بإيمانهم، وتقواهم لله، عز وجل.

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ (٢٤) ﴾ .

يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أى: اذكر لهؤلاء المشركين يوم يحشرون إلى النار[3]، ﴿يُوزَعُونَ﴾ أى: تجمع الزبانية أولهم على آخرهم، كما قال تعالى: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٦] أى: عطاشا.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا﴾ أى: وقفوا عليها، ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[4]﴾ أى: بأعمالهم مما قدموه وأخروه، لا يُكتَم منه حرف.

﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ ؟ أى: لاموا أعضاءهم وجلودهم حين شهدوا عليهم، فعند ذلك أجابتهم الأعضاء: ﴿قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أى: فهو لا يخالف ولا يمانع، وإليه ترجعون.

قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن عبد الرحيم، حدثنا على بن قادم، حدثنا شريك، عن عبيد المُكْتَب، عن الشعبى[5]، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، قال: ضحك رسول الله ﷺ ذات يوم وتبسم[6]، فقال: «ألا تسألونى عن أى شىء ضحكت؟» قالوا: يا رسول الله، من أى شىء ضحكت؟ قال: «عجبت من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: أى ربى، أليس وعدتنى ألا تظلمنى؟ قال: بلى، فيقول: فإنى لا أقبل علىّ شاهدا إلا من نفسى. فيقول الله تبارك وتعالى: أو ليس كفى بى شهيدا، وبالملائكة الكرام الكاتبين؟! قال: فيردد هذا الكلام مرارا». قال: «فيختم على فيه، وتتكلم أركانه بما كان يعمل، فيقول: بُعداً لكُنَّ وسُحقا، عنكن كنت أجادل».

ثم رواه [7]هو وابن أبى حاتم، من حديث أبى عامر الأسدى، عن الثورى، عن عُبيد المُكْتَب، عن فُضيل بن عمرو، عن الشعبى [8] ثم قال: «لانعلم رواه عن أنس غير الشعبى». وقد أخرجه مسلم

(١) زيادة من ت، أ. (٢) زيادة من ت، أ. (٣) فى ت، أ: «جهنم».
(٤) فى ت: «يكسبون» وهو خطأ. (٥) فى ت: «وروى الحافظ أبو بكر البزار بإسناده». (٦) فى أ: «أو تبسم».
(٧) فى ت: «ورواه».
(٨) ورواه ابن أبى الدنيا فى التوبة برقم (١٨) من طريق مهران بن أبى عمر عن سفيان الثورى بنحوه.

www.Quranpdf.blogspot.in

والنسائى جميعا عن أبى بكر بن أبى النضر، عن أبى النضر، عن عُبَيد الله بن عبد الرحمن الأشجعى، عن الثورى، به [١]. ثم قال النسائى: «لا أعلم أحداً رواه عن الثورى غير الأشجعى». وليس كما قال كما رأيت، والله أعلم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أحمد بن إبراهيم، حدثنا إسماعيل بن عُلَيَّة، عن يونس ابن عُبَيْد، عن حُميد بن هلال قال: قال أبو بُرْدَة: قال أبو موسى: ويدعى الكافر والمنافق للحساب، فيعرض عليه ربه ـ عز وجل ـ عمله، فيجحد ويقول: أى رب، وعزتك لقد كتب على هذا الملك ما لم أعمل! فيقول له الملك: أما عملت كذا، فى يوم كذا، فى مكان كذا؟ فيقول: لا وعزتك، أى رب ماعملته. [قال] [٢]: فإذا فعل ذلك خُتِم على فيه ـ قال الأشعرى: فإنى لأحسب أول ما ينطق منه فخذه اليمنى.

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا زُهَيْر، حدثنا حسن، عن ابن لَهيعة: قال دَرّاج، عن أبى الهيثم[٣]، عن أبى سعيد الخدرى، عن النبى ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة، عُرِّف الكافر بعمله، فجحد وخاصم، فيقال: هؤلاء جيرانك، يشهدون عليك؟ فيقول: كذبوا. فيقول: أهلك [و][٤] عشيرتك؟ فيقول: كذبوا. فيقول: احلفوا. فيحلفون، ثم يصمتهم الله وتشهد عليهم ألسنتهم، ويدخلهم النار»[٥].

وقال ابن أبى حاتم: وحدثنا أبى، حدثنا أحمد بن إبراهيم، حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث: سمعت أبى: حدثنا على بن زيد، عن مسلم بن صُبْيح أبى الضُّحى، عن ابن عباس: أنه قال لابن الأزرق: إن يوم القيامة يأتى على الناس منه حين، لا ينطقون ولا يعتذرون ولا يتكلمون حتى يؤذن لهم، ثم يؤذن لهم فيختصمون، فيجحد الجاحد بشركه بالله، فيحلفون له كما يحلفون لكم، فيبعث الله عليهم حين يجحدون شهداء من أنفسهم، جلودهم وأبصارهم وأيديهم وأرجلهم، ويختم على أفواههم، ثم يفتح لهم الأفواه فتخاصم الجوارح، فتقول: ﴿أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، فتقر الألسنة بعد الجحود.

وقال [٦] ابن أبى حاتم: حدثنا عبدة بن سليمان، حدثنا ابن المبارك، حدثنا صفوان بن عمرو، عن عبد الرحمن بن جُبير الحضرمى، عن رافع أبى الحسن ـ وصف رجلا جحد ـ قال: فيشير الله إلى لسانه، فيربو فى فمه [٧] حتى يملأه، فلا يستطيع أن ينطق بكلمة، ثم يقول لآرابه [٨] كلها: تكلمى واشهدى عليه. فيشهد عليه سمعه وبصره وجلده، وفرجه ويداه ورجلاه: صنعنا، عملنا، فعلنا.

وقد تقدم أحاديث كثيرة، وآثار عند قوله تعالى فى سورة يس: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]، بما أغنى عن إعادته هاهنا.

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٩٦٩)، والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٦٥٣).
(٢) زيادة من أ.
(٣) فى ت: «وقال الحافظ أبو يعلى بإسناده».
(٤) زيادة من أ.
(٥) مسند أبى يعلى (٥٢٦٢)، ودراج عن أبى الهيثم، ضعيف.
(٦) فى ت: «وروى». (٧) فى ت، س، أ: «فيه». (٨) فى أ: «لأركانه».

www.Quranpdf.blogspot.in

وقال ابن أبى حاتم ـ رحمه الله ـ : حدثنا أبى، حدثنا سويد بن سعيد، حدثنا يحيى بن سُلَيم الطائفى، عن ابن خُثَيْم، عن أبى الزبير[١]، عن جابر بن عبد الله قال: لما رجعت إلى النبى ﷺ[٢] مهاجرةُ البحر قال: «ألا تحدثون بأعاجيب [٣] مارأيتم بأرض الحبشة؟» فقال فتية منهم: بلى يا رسول الله، بينا [٤] نحن جلوس إذ مرت علينا عجوز من عجائز رهابينهم، تحمل على رأسها قلة من ماء، فمرت بفتى منهم، فجعل إحدى يديه بين كتفيها، ثم دفعها فخرت على ركبتيها، فانكسرت قلتها. فلما ارتفعت التفتت إليه فقالت: سوف تعلم ياغُدَر، إذا وضع الله الكرسى، وجمع الأولين والآخرين، وتكلمت الأيدى والأرجل بما كانوا يكسبون، فسوف تعلم كيف أمرى وأمرك عنده غدا؟ قال: يقول رسول الله ﷺ: «صَدَقَتْ،[و] [٥] صدقت، كيف يُقدس الله قوما لا يؤخذ لضعيفهم من شديدهم؟».

هذا حديث غريب من هذا الوجه. ورواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الأهوال: أخبرنا إسحاق بن إبراهيم قال: أخبرنا يحيى بن سليم، به[٦].

وقوله: ﴿ **وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ** ﴾ أى: تقول لهم الأعضاء والجلود حين يلومونها على الشهادة عليهم: ماكنتم تتكتمون [٧] منا الذى كنتم تفعلونه، بل كنتم تجاهرون الله بالكفر والمعاصى، ولا تبالون منه فى زعمكم؛ لأنكم كنتم لا تعتقدون أنه يعلم جميع أفعالكم؛ ولهذا قال: ﴿ **وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ . وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ** ﴾ أى: هذا الظن الفاسد ـ وهو اعتقادكم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون ـ هو الذى أتلفكم وأرداكم عند ربكم، ﴿ **فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ أى: فى مواقف القيامة خسرتم أنفسكم وأهليكم.

قال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن عمارة، عن عبد الرحمن ابن يزيد[٨]، عن عبد الله قال: كنت مستترًا بأستار الكعبة فجاء ثلاثة نفر: قرشى، وختناه ثقفيان ـ أو: ثقفى وختناه قرشيان ـ كثير شحم بطونهم، قليل فقه قلوبهم، فتكلموا بكلام لم أسمعه، فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع كلامنا هذا؟ فقال الآخر: إنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه[٩]، وإذا لم نرفعه لم يسمعه، فقال الآخر: إن سمع منه شيئا سمعه كله. قال: فذكرت ذلك للنبى ﷺ، فأنزل الله عز وجل: ﴿ **وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ** ﴾ إلى قوله: ﴿ **مِّنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾.

وكذا رواه الترمذى عن هناد، عن أبى معاوية، بإسناده نحوه[١٠]. وأخرجه أحمد ومسلم والترمذى أيضا، من حديث سفيان الثورى، عن الأعمش، عن عُمارة بن عمير، عن وهب بن

---

(١) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بإسناده». (٢) فى أ: «رسول الله». (٣) فى ت: «بأعجب».
(٤) فى ت، س، أ: «بينما». (٥) زيادة من أ.
(٦) الأهوال لابن أبى الدنيا برقم (٢٤٣)، ورواه ابن ماجه فى السنن برقم (٤٠١٠) حدثنا سويد بن سعيد فذكره. قال البوصيرى فى زوائد ابن ماجه: «هذا إسناد حسن، سويد مختلف فيه».
(٧) فى أ: «تكتمون». (٨) فى ت: «رواه الإمام أحمد بإسناده». (٩) فى ت: «يسمعه».
(١٠) المسند (١/٣٨١)، وسنن الترمذى برقم (٣٢٤٩).

www.Quranpdf.blogspot.in

ربيعة، عن عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه، بنحوه[١]. ورواه البخارى ومسلم أيضا، من حديث السفيانين، عن منصور، عن مجاهد، عن أبى مَعْمَر عبد الله بن سَخْبرة، عن ابن مسعود، به[٢].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده، عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ﴾ قال: «إنكم تُدعَون مُفَدَّماً على أفواهكم بالفدام، فأول شىء يبين[٣] عن أحدكم فخذه وكفه[٤]»[٥].

قال معمر: وتلا الحسن: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله: أنا مع عبدى عند ظنه بى، وأنا معه إذا دعانى»، ثم افترَّ الحسن ينظر فى هذا، فقال: ألا إنما عمل الناس على قدر ظنونهم بربهم، فأما المؤمن فأحسن الظن بربه فأحسن العمل، وأما الكافر والمنافق فأساءا الظن بالله فأساءا العمل. ثم قال: قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا النضر بن إسماعيل القاص[٦] ـ وهو أبو المغيرة ـ حدثنا ابن أبى ليلى، عن أبى الزبير، عن جابر[٧] قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يموتن أحد منكم إلا وهو يحسن بالله الظن، فإن قوما قد أرداهم سوء ظنهم بالله، فقال الله تعالى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾»[٨].

وقوله: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ أى: سواء عليهم أصبروا أم لم يصبروا هم فى النار، لا محيد لهم عنها، ولا خروج لهم منها. وإن طلبوا أن يستعتبوا ويبدوا أعذارا[٩] فما لهم أعذار، ولا تُقَال لهم عثرات.

قال ابن جرير: ومعنى قوله: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا﴾ أى: يسألوا الرجعة إلى الدنيا، فلا جواب لهم ـ قال: وهذه كقوله تعالى إخبارا عنهم: ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ . رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ . قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٦ ـ ١٠٨].

﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (٢٥) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ

(١) المسند (١/ ٤٠٨) وصحيح مسلم برقم (٢٧٧٥)، وسنن الترمذى برقم (٣٢٤٩).
(٢) صحيح البخارى برقم (٤٨١٧)، وصحيح مسلم برقم (٢٧٧٥).
(٣) فى أ: «ينطق».
(٤) فى أ: «وكتفه».
(٥) تفسير عبد الرزاق (٢/ ١٥١)، والمصنف (٢٠١١٥)، ورواه النسائى فى السنن (٥/ ٤) وابن ماجه فى السنن برقم (٢٥٣٦) من طريق عن بهز بن حكيم بنحوه.
(٦) فى أ: «القاضى».
(٧) فى ت: «وروى الإمام أحمد عن جابر».
(٨) المسند (٣/ ٣٩٠).
(٩) فى ت، أ: «أعذارهم».

www.Quranpdf.blogspot.in

أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٢٨) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ (٢٩)﴾ .

يذكر تعالى أنه هو الذى أضل المشركين، وأن ذلك بمشيئته وكونه وقدرته، وهو الحكيم فى أفعاله، بما قَيَّض لهم من القرناء من شياطين الإنس والجن: ﴿فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أى: حَسَّنوا لهم أعمالهم فى الماضى، وبالنسبة إلى المستقبل فلم يروا أنفسهم إلا محسنين، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ . وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦، ٣٧].

وقوله تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أى: كلمة العذاب كما حق على أمم قد خلت من قبلهم، ممن فعل كفعلهم، من الجن والإنس، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ أى: استوَوَا هم وإياهم فى الخسار والدمار.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ أى: تواصوا فيما بينهم ألا يطيعوا للقرآن، ولا ينقادوا لأوامره(١)، ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ أى: إذا تلى لا تستمعوا له. كما قال مجاهد: ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ يعنى: بالمكاء (٢) والصفير والتخليط فى المنطق على رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن قريش تفعله.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ : عيبوه(٣).

وقال قتادة: اجحدوا به، وأنكروه وعادوه.

﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾: هذا حال هؤلاء الجهلة من الكفار، ومن سلك مسلكهم عند سماع القرآن. وقد أمر الله ـ سبحانه ـ عباده المؤمنين بخلاف ذلك فقال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

ثم قال تعالى: منتصرا للقرآن، ومنتقما ممن عاداه من أهل الكفران: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أى: فى مقابلة ما اعتمدوه فى القرآن وعند سماعه، ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى: بشَرِّ أعمالهم، وسيِّئ أفعالهم ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ .وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ﴾.

قال سفيان الثورى، عن سلمة بن كُهَيْل، عن مالك بن الحصين الفزارى، عن أبيه(٤)، عن على،

---

(١) فى ت: «لأمره».
(٢) فى ت، أ: «بالمكاء والتصدية».
(٣) فى ت، س: «قعوا فيه، عيبوه».
(٤) فى ت: «عن أبيه روى».

www.Quranpdf.blogspot.in

رضى الله عنه، فى قوله: ﴿اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا﴾ قال: إبليس وابن آدم الذى قتل أخاه.

وهكذا روى حبة العُرَنى عن على، مثل ذلك.

وقال السدى، عن على: فإبليس يدعو به كل صاحب شرك، وابن آدم يدعو به كل صاحب كبيرة، فإبليس ـ لعنه الله ـ هو الداعى إلى كل شر من شرك فما دونه، وابن آدم الأول. كما ثبت فى الحديث: «ما قتلت نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه أول من سن القتل»[١].

وقوله[٢]: ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ أى: أسفل منا فى العذاب ليكونا أشد عذابا منا؛ ولهذا قالوا: ﴿لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ﴾ أى: فى الدرك الأسفل من النار، كما تقدم فى «الأعراف» من سؤال الأتباع من الله أن يعذب قادتهم أضعاف عذابهم، قال: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨] أى: إنه تعالى قد أعطى كلا منهم ما يستحقه من العذاب والنكال، بحسب عمله وإفساده، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ (٣٢)﴾.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ أى: أخلصوا العمل لله، وعملوا بطاعة الله تعالى على ما شرع الله لهم.

قال الحافظ أبو يعلى الموصلى: حدثنا الجراح، حدثنا سلم[٣] بن قتيبة أبو قتيبة الشَّعيرى، حدثنا سهيل[٤] بن أبى حزم، حدثنا ثابت[٥]، عن أنس بن مالك قال: قرأ علينا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾، قد قالها ناس ثم كفر أكثرهم[٦]، فمن قالها حتى[٧] يموت فقد[٨] استقام عليها.

وكذا رواه النسائى فى تفسيره، والبزار وابن جرير، عن عمرو بن على الفلاس، عن سلم[٩] بن قتيبة، به[١٠]. وكذا رواه ابن أبى حاتم، عن أبيه، عن الفلاس، به. ثم قال ابن جرير:

حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن أبى إسحاق، عن عامر بن سعد[١١]،

(١) الحديث أخرجه الجماعة سوى أبى داود، وانظر تخريجه عند الآية: ٢٩ من سورة المائدة.
(٢) فى س: «وقولهم». (٣) فى أ: «مسلم». (٤) فى أ: «سهل».
(٥) فى ت: «قال الحافظ أبو يعلى الموصلى بسنده». (٦) فى أ: «ثم كفروا». (٧) فى ت: «حين».
(٨) فى ت، س: «فهو ممن».
(٩) فى أ: «مسلم».
(١٠) مسند أبى يعلى (٦/٢١٣)، والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٧٠)، وتفسير الطبرى (٢٤/٧٣).
(١١) فى أ: «سعيد».

www.Quranpdf.blogspot.in

عن سعيد[١] بن نمران[٢] قال: قرأت[٣] عند أبى بكر الصديق هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ قال: هم الذين لم يشركوا بالله شيئا.

ثم روى من حديث الأسود بن هلال قال: قال أبو بكر، رضى الله عنه: ما تقولون فى هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾؟ قال: فقالوا: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾: من ذنب. فقال: لقد حملتموها على غير المحمل، ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ فلم يلتفتوا إلى إله غيره.

وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والسدى، وغير واحد[٤].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو عبد الله الظهرانى[٥]، أخبرنا حفص بن عمر العدنى، عن الحكم ابن أبان، عن عكرمة قال: سئل ابن عباس[٦]، رضى الله عنهما: أى آية فى كتاب الله أرخص؟ قال قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ على شهادة أن لا إله إلا الله.

وقال الزهرى: تلا عمر هذه الآية على المنبر، ثم قال: استقاموا ـ والله ـ لله بطاعته، ولم يروغوا روغان الثعالب.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ على أداء فرائضه. وكذا قال قتادة، قال: وكان الحسن يقول: اللهم، أنت ربنا، فارزقنا الاستقامة.

وقال أبو العالية: ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾: أخلصوا له العمل والدين.

وقال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيْم، حدثنا يعلى بن عطاء، عن عبد الله بن سفيان الثقفى، عن أبيه[٧]؛ أن رجلا قال: يا رسول الله، مرنى بأمر فى الإسلام لا أسأل عنه أحدًا بعدك. قال: «قل: آمنت بالله، ثم استقم». قلت: فما أتقى؟ فأومأ إلى لسانه.

ورواه النسائى من حديث شعبة، عن يعلى بن عطاء، به[٨].

ثم قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا إبراهيم بن سعد، حدثنى ابن شهاب، عن محمد بن عبد الرحمن بن ماعز الغامدى، عن سفيان[٩] بن عبد الله الثقفى قال: قلت: يا رسول الله، حدثنى بأمر أعتصم به. قال: «قل: ربى الله، ثم استقم». قلت: يا رسول الله، ما أكثر ما تخاف على؟ فأخذ رسول الله ﷺ بطرف لسان نفسه، ثم قال: «هذا».

وهكذا[١٠] رواه الترمذى وابن ماجه، من حديث الزهرى، به[١١]. وقال الترمذى: حسن صحيح.

---

(١) فى ت: «رواه ابن جرير عن سعيد». (٢) فى أ: «مهران». (٣) فى ت: «قُرِئَت».
(٤) فى ت: «مجاهد وغيره». (٥) فى أ: «الطبرانى».
(٦) فى ت: «وروى ابن أبى الدنيا بسنده عن ابن عباس أنه سئل». (٧) فى ت: «وروى الإمام أحمد بسنده».
(٨) المسند (٤/ ٣٨٤)، والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٨٩).
(٩) فى ت: «وروى أحمد عن سفيان». (١٠) فى أ: «هكذا وكذا».
(١١) المسند (٣/ ٤١٣)، وسنن الترمذى برقم (٢٤١٠)، وسنن ابن ماجة برقم (٣٩٧٢).

www.Quranpdf.blogspot.in

وقد أخرجه مسلم فى صحيحه والنسائى، من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال: قلت: يا رسول الله، قل لى فى الإسلام قولا، لا أسأل عنه أحدا بعدك. قال: «قل: آمنت بالله، ثم استقم». وذكر تمام الحديث[١].

وقوله: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ﴾ قال مجاهد، والسدى، وزيد بن أسلم، وابنه: يعنى عند الموت قائلين: ﴿أَلاَّ تَخَافُوا﴾ قال مجاهد، وعكرمة، وزيد بن أسلم: أى مما تقدمون عليه من أمر الآخرة، ﴿وَلا تَحْزَنُوا﴾ [أي][٢]: على ما خلفتموه من أمر الدنيا، من ولد وأهل، ومال أو دين، فإنا نخلفكم فيه، ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فيبشرونهم بذهاب الشر وحصول الخير.

وهذا كما فى حديث البراء[٣]، رضى الله عنه: «إن الملائكة تقول لروح المؤمن: اخرجى أيتها الروح الطيبة فى الجسد الطيب كنت تعمرينه، اخرجى إلى روح وريحان، ورب غير غضبان».

وقيل: إن الملائكة تتنزل عليهم يوم خروجهم من قبورهم. حكاه ابن جرير عن ابن عباس، والسدى.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زُرْعةَ، حدثنا عبد السلام بن مطهر، حدثنا جعفر بن سليمان: سمعت ثابتا قرأ سورة «حم. السجدة»[٤]، حتى بلغ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ﴾ . فوقف فقال: بلغنا أن العبد المؤمن حين يبعثه الله من قبره، يتلقاه الملكان اللذان كانا معه فى الدنيا، فيقولان له: لا تخف ولا تحزن، ﴿وَأَبْشِرُوا[٥] بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ . قال: فيؤمن الله خوفه، ويقر عينه، فما عظيمة يخشى الناس يوم القيامة إلا هى للمؤمن قرة عين، لما هداه الله، ولما كان يعمل له فى الدنيا.

وقال زيد بن أسلم: يبشرونه عند موته، وفى قبره، وحين يبعث. رواه ابن أبى حاتم.

وهذا القول يجمع الأقوال كلها، وهو حسن جدا. وهو الواقع.

وقوله: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ أى: تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار: نحن كنا أولياءكم، أى: قرناءكم فى الحياة الدنيا، نسددكم ونوفقكم، ونحفظكم بأمر الله، وكذلك نكون معكم فى الآخرة نؤنس منكم الوحشة فى القبور، وعند النفخة فى الصور، ونؤمنكم يوم البعث والنشور، ونجاوز بكم الصراط المستقيم، ونوصلكم إلى جنات النعيم. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ﴾ أى: فى الجنة من جميع ما تختارون[٦] مما تشتهيه النفوس، وتقر به العيون، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ أى: مهما طلبتم وجدتم، وحضر بين أيديكم، [أى][٧] :كما اخترتم، ﴿نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ أى: ضيافة وعطاء وإنعاما من غفور لذنوبكم، رحيم بكم رؤوف، حيث غفر، وستر، ورحم، ولطف.

---

(١) صحيح مسلم برقم (٣٨). (٢) زيادة من ت، س، أ.

(٣) حديث البراء سبق تخريجه عند تفسير الآية: ٤٠ من سورة الأعراف إلا أن هذا اللفظ هو لفظ حديث أبى هريرة رضى الله عنه وهو مخرج فى نفس الموضع. (٤) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم عن ثابت أنه قرأ السجدة».

(٥) فى ت، س، أ: «وأبشر» وهو خطأ. (٦) فى ت: «تختارونه». (٧) زيادة من ت.

www.Quranpdf.blogspot.in

وقد ذكر ابن أبي حاتم هاهنا حديث «سوق الجنة» عند قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ . نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾، فقال:

حدثنا أبى، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا عبد الحميد بن حبيب[١] بن أبى العشرين أبى سعيد، حدثنا الأوزاعى، حدثنى حسان بن عطية، عن سعيد بن المسيب: أنه لقى أبا هريرة [رضى الله عنه][٢]، فقال أبو هريرة: نسأل[٣] الله أن يجمع بينى وبينك فى سوق الجنة. فقال سعيد: أو فيها سوق؟ قال: نعم، أخبرنى رسول الله ﷺ أن أهل الجنة إذا دخلوا فيها، نزلوا بفضل أعمالهم، فيؤذن لهم فى مقدار يوم الجمعة فى أيام الدنيا فيزورون الله، عز وجل، ويبرز لهم عرشه، ويتبدى لهم فى روضة من رياض الجنة، وتوضع لهم منابر من نور، ومنابر من لؤلؤ، ومنابر من ياقوت، ومنابر من زبرجد، ومنابر من ذهب، ومنابر من فضة، ويجلس [فيه][٤] أدناهم وما فيهم دنىء على كثبان المسك والكافور، ما يرون بأن أصحاب الكراسى بأفضل منهم مجلسا.

قال أبو هريرة: قلت: يا رسول الله، وهل نرى ربنا [يوم القيامة][٥]؟ قال: «نعم، هل تتمارون[٦] فى رؤية الشمس والقمر ليلة البدر؟» قلنا: لا. قال ﷺ: «فكذلك لا تتمارون فى رؤية ربكم تعالى، ولا يبقى فى ذلك المجلس أحد إلا حاضره الله محاضرة، حتى إنه ليقول للرجل منهم: يا فلان بن فلان، أتذكر يوم عملت كذا وكذا؟ ـ يَذكِّره ببعض غدراته فى الدنيا ـ فيقول: أى رب، أفلم تغفر لى؟ فيقول: بلى، فبسعة مغفرتى بلغت منزلتك هذه. قال: فبينما هم على ذلك، غشيتهم سحابة من فوقهم، فأمطرت عليهم طيبا لم يجدوا مثل ريحه شيئا قط». قال: «ثم يقول ربنا ـ عزوجل ـ: قوموا إلى ما أعددت لكم من الكرامة، وخذوا ما اشتهيتم». قال: «فنأتى سوقا قد حَفَّت به الملائكة، فيها ما لم تنظر العيون إلى مثله، ولم تسمع الآذان، ولم يخطر على القلوب. قال: فيحمل لنا ما اشتهينا، ليس يباع فيه شىء ولا يشترى، وفى ذلك السوق يلقى أهل الجنة بعضهم بعضا». قال: «فيقبل الرجل ذو المنزلة الرفيعة، فيلقى من هو دونه ـ وما فيهم دنىء فيروعه ما يرى عليه من اللباس، فما ينقضى آخر حديثه حتى يتمثل عليه أحسن منه؛ وذلك لأنه لا ينبغى لأحد أن يحزن فيها.

ثم ننصرف إلى منازلنا، فيتلقانا أزواجنا فيقلن: مرحبا وأهلا بِحِبِّنا، لقد جئت وإن بك من الجمال والطيب أفضل مما فارقتنا عليه. فيقول: إنا جالسنا اليوم ربنا الجبار ـ عز وجل ـ وبحقنا أن ننقلب بمثل[٧] ما انقلبنا به».

وقد رواه الترمذى فى «صفة الجنة» من جامعه، عن محمد بن إسماعيل، عن هشام بن عمار، ورواه ابن ماجه عن هشام بن عمار، به نحوه[٨]. ثم قال الترمذى: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

---

(١) فى أ: «الوليد». (٢) زيادة من ت. (٣) فى أ: «أسأل».
(٤) زيادة من أ. (٥) زيادة من أ. (٦) فى ت، س، أ: «تمارون».
(٧) فى أ: «على».
(٨) سنن الترمذى برقم (٢٥٤٩)، وسنن ابن ماجه برقم (٤٣٣٦).

www.Quranpdf.blogspot.in

وقال الإمام أحمد: حدثنا ابن أبى عَدى، عن حميد، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه». قلنا[١]: يا رسول الله، كلنا نكره الموت؟ قال: «ليس ذلك كراهية الموت، ولكن المؤمن إذا حُضِر جاءه البشير من الله بما هو صائر إليه، فليس شىء أحب إليه من أن يكون قد لقى الله فأحب الله لقاءه» قال: «وإن الفاجر ـ أو الكافر ـ إذا حُضِر[٢] جاءه بما هو صائر إليه من الشر ـ أو: ما يلقى من الشر ـ فكره لقاء الله، فكره الله لقاءه».

وهذا حديث صحيح[٣]، وقد ورد فى الصحيح من غير هذا الوجه[٤].

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦)﴾ .

يقول تعالى: **﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾** أى: دعا عباد الله إليه، **﴿وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾** أى: وهو فى نفسه مهتد بما يقوله، فنفعه لنفسه ولغيره لازم ومُتَعَد، وليس هو من الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه، وينهون عن المنكر ويأتونه، بل يأتمر بالخير ويترك الشر، ويدعو الخلق إلى الخالق تبارك وتعالى. وهذه عامة فى كل من دعا إلى خير، وهو فى نفسه مهتد، ورسول الله ﷺ أولى الناس بذلك، كما قال محمد بن سيرين، والسدى، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقيل: المراد بها المؤذنون الصلحاء، كما ثبت فى صحيح مسلم: «المؤذنون أطول الناس أعناقا يوم القيامة»[٥]. وفى السنن مرفوعا: «الإمام ضامن، والمؤذن مؤتمن، فأرشد الله الأئمة، وغفر للمؤذنين»[٦].

وقال[٧] ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا محمد بن عَرُوبَة الهروى، حدثنا غسان قاضى هراة وقال أبو زرعة: حدثنا إبراهيم بن طهمان، عن مطر، عن الحسن، عن سعد بن أبى وقاص أنه قال: «سهام المؤذنين عند الله يوم القيامة كسهام المجاهدين، وهو بين الأذان والإقامة كالمتشحط فى سبيل الله فى دمه».

قال: وقال ابن مسعود: «لو كنت مؤذنا ما باليت ألا أحج ولا أعتمر ولا أجاهد».

---

(١) فى أ: «قال».

(٢) فى أ: «احتضر».

(٣) المسند (٣/١٠٧).

(٤) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٦٥٠٧)، ومسلم فى صحيحه برقم (٢٦٨٣) من طريق قتادة عن أنس عن عبادة بن الصامت بنحو الحديث المتقدم .

(٥) صحيح مسلم برقم (٣٨٧) من حديث معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه.

(٦) رواه أحمد فى مسنده (٢/ ٢٣٢)، وأبو داود فى السنن برقم (٥/٨)، والترمذى فى السنن برقم (٢٠٧).

(٧) فى ت: «وروى».

www.Quranpdf.blogspot.in

قال: وقال عمر بن الخطاب: لو كنت مؤذنا لكمل أمرى، وما باليت ألا أنتصب لقيام الليل ولا لصيام النهار، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللهم اغفر للمؤذنين» ثلاثا، قال: فقلت: يا رسول الله، تركتنا، ونحن نجتلد على الأذان بالسيوف. قال: «كلا يا عمر، إنه يأتى[١] على الناس زمان يتركون الأذان على ضعفائهم، وتلك لحوم حرمها الله على النار، لحوم المؤذنين»[٢].

قال: وقالت عائشة: ولهم هذه الآية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، قالت: فهو المؤذن إذا قال: «حى على الصلاة» فقد دعا إلى الله.

وهكذا قال ابن عمر، وعكرمة: إنها نزلت فى المؤذنين.

وقد ذكر البغوى عن أبى أمامة الباهلى، رضى الله عنه، أنه قال فى قوله: ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾، قال: يعنى صلاة ركعتين بين الأذان والإقامة.

ثم أورد البغوى حديث «عبد الله بن المغفل» قال: قال رسول الله ﷺ: «بين كل أذانين صلاة». ثم قال فى الثالثة: «لمن شاء»[٣] وقد أخرجه الجماعة فى كتبهم، من حديث عبد الله بن بريدة، عنه[٤] وحديث الثورى، عن زيد العمى، عن أبى إياس معاوية بن قرة، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، قال الثورى: لا أراه إلا وقد رفعه إلى النبى ﷺ: «الدعاء لا يرد بين الأذان والإقامة».

ورواه أبو داود، والترمذى، والنسائى فى «اليوم والليلة»، كلهم من حديث الثورى، به[٥]. وقال الترمذى: هذا حديث حسن.

ورواه النسائى أيضا من حديث سليمان التيمى، عن قتادة، عن أنس، به[٦].

والصحيح أن الآية عامة فى المؤذنين وفى غيرهم، فأما حال نزول هذه الآية فإنه لم يكن الأذان مشروعا بالكلية؛ لأنها مكية، والأذان إنما شرع بالمدينة بعد الهجرة، حين أريه عبد الله بن زيد بن عبدربه الأنصارى فى منامه، فقصه على رسول الله ﷺ، فأمره أن يلقيه على بلال فإنه أندى صوتا، كما هو مقرر فى موضعه، فالصحيح إذًا أنها عامة، كما قال عبد الرزاق، عن معمر، عن الحسن البصرى: أنه تلا هذه الآية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، فقال: هذا حبيب الله، هذا ولى الله، هذا صفوة الله، هذا خِيَرَة الله، هذا أحب أهل الأرض إلى الله، أجاب الله فى دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحا فى إجابته، وقال:

---

(١) فى ت، س: «سيأتى».

(٢) ورواه الإسماعيلى فى مسنده كما فى مسند عمر لابن كثير (١/ ١٤٤) من طريق إبراهيم بن طهمان عن مطر عن الحسن البصرى عن عمر به والحسن لم يسمع من عمر.

(٣) معالم التنزيل للبغوى (٧/ ١٧٤).

(٤) صحيح البخارى برقم (٦٢٧)، وصحيح مسلم برقم (٨٣٨)، وسنن أبى داود برقم (٢٢٨٣)، وسنن الترمذى برقم (١٨٥)، وسنن النسائى (٢/ ٢٨)، وسنن ابن ماجه برقم (١١٦٢).

(٥) سنن أبى داود برقم (٥٢١) وسنن الترمذى برقم (٢١٢) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٩٨٩٦).

(٦) النسائى فى السنن الكبرى برقم (٩٨٩٩).

www.Quranpdf.blogspot.in

إننى من المسلمين، هذا خليفة الله.

وقوله: ﴿وَلا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ﴾ أى: فرق عظيم بين هذه وهذه، ﴿ادْفَعْ بِالَّتِى هِى أَحْسَنُ﴾ أى: من أساء إليك فادفعه عنك بالإحسان إليه، كما قال عمر [رضى الله عنه][(١)]: ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه.

وقوله: ﴿فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِى حَمِيمٌ﴾ وهو الصديق، أى: إذا أحسنت إلى من أساء إليك قادته تلك الحسنة إليه إلى مصافاتك ومحبتك، والحنو عليك، حتى يصير كأنه ولى لك حميم، أى: قريب إليك من[(٢)] الشفقة عليك والإحسان إليك.

ثم قال: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أى: وما يقبل[(٣)] هذه الوصية ويعمل بها إلا من صبر على ذلك، فإنه يشق على النفوس، ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾أى: ذو نصيب وافر من السعادة فى الدنيا والأخرى.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية: أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان، وخضع لهم عدوهم كأنه ولى حميم.

وقوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ أى: إن شيطان الإنس ربما ينخدع بالإحسان إليه، فأما شيطان الجن فإنه لا حيلة فيه إذا وسوس إلا الاستعاذة بخالقه الذى سلطه عليك، فإذا استعذت بالله ولجأت إليه، كفه عنك ورد كيده. وقد كان رسول الله ﷺ: إذا قام إلى الصلاة يقول: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه»[(٤)].

وقد قدمنا أن هذا المقام لا نظير له فى القرآن إلا فى «سورة الأعراف» عند قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ . وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٩٩، ٢٠٠]، وفى سورة المؤمنين عند قوله: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ . وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ . وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٦ ـ ٩٨].

[لكن الذى ذكر فى الأعراف أخف على النفس مما ذكر فى سورة السجدة؛ لأن الإعراض عن الجاهل وتركه أخف على النفس من الإحسان إلى المسىء فتتلذذ النفس من ذلك ولا انتقاد له إلا بمعالجة ويساعدها الشيطان فى هذه الحال، فتنفعل له وتستعصى على صاحبها، فتحتاج إلى مجاهدة وقوة إيمان؛ فلهذا أكد ذلك هاهنا بضمير الفصل والتعريف باللام فقال: ﴿واسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾][(٥)].

---

(١) زيادة من ت، س. (٢) فى ت، أ: «فى». (٣) فى أ: «يتقبل».

(٤) انظر تخريج الحديث عند تفسير الآية: ٩٧ من سورة «المؤمنون».

(٥) زيادة من ت، س.

www.Quranpdf.blogspot.in

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ (٣٨) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) ﴾ .

يقول تعالى منبها خلقه على قدرته العظيمة، وأنه الذى لا نظير له، وأنه على ما يشاء، قادر، ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ أى: إنه خلق الليل بظلامه، والنهار بضيائه، وهما متعاقبان لا يقران، والشمس ونورها وإشراقها، والقمر وضياءه وتقدير منازله فى فلكه، واختلاف سيره فى سمائه، ليُعرف باختلاف سيره وسير الشمس مقادير الليل والنهار، والجُمَع والشهور والأعوام، ويتبين بذلك حلول الحقوق، وأوقات العبادات والمعاملات.

ثم لما كان الشمس والقمر أحسن الأجرام المشاهدة فى العالم العلوى والسفلى، نبه تعالى على أنهما مخلوقان عبدان من عبيده، تحت قهره وتسخيره، فقال: ﴿لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أى: ولا تشركوا به، فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره، فإنه لا يغفر أن يشرك به؛ ولهذا قال: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا﴾ أى: عن إفراد العبادة له وأبوا إلا أن يشركوا معه غيره، ﴿فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ يعنى: الملائكة، ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ﴾، كقوله:

﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٨٩].

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا سفيان ـ يعنى ابن وكيع ـ حدثنا أبى، عن ابن أبى ليلى، عن أبى الزبير، عن جابر[(١)] قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا الليل ولا النهار، ولا الشمس ولا القمر، ولا الرياح فإنها ترسل رحمة لقوم، وعذابا لقوم»[(٢)].

وقوله: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ أى: على قدرته على إعادة الموتى ﴿أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ أى: هامدة لا نبات فيها، بل هى ميتة، ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾أى: أخرجت من جميل ألوان الزروع والثمار، ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) مَا

(١) فى ت: «روى الحافظ أبو يعلى عن جابر».
(٢) مسند أبى يعلى (٤/ ١٣٩)، قال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٧١) : «إسناده ضعيف».

www.Quranpdf.blogspot.in

يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٣)﴾.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾، قال ابن عباس: الإلحاد: وضع الكلام على غير مواضعه.

وقال قتادة، وغيره: هو الكفر والعناد.

وقوله: ﴿لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ أى: فيه تهديد شديد، ووعيد أكيد، أى: إنه تعالى عالم بمن يلحد فى آياته وأسمائه وصفاته، وسيجزيه على ذلك بالعقوبة والنكال؛ ولهذا قال: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾؟ أى: أيستوى هذا وهذا؟ لا يستويان.

ثم قال ـ عز وجل ـ تهديداً[١] للكفرة: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ قال مجاهد، والضحاك، وعطاء الخراسانى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾: وعيد، أى: من خير أو شر، إنه عالم بكم وبصير بأعمالكم؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ قال الضحاك، والسدى، وقتادة: وهو القرآن، ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ أى: منيع الجناب، لا يرام أن يأتى أحد بمثله، ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ﴾ أى: ليس للبطلان إليه سبيل؛ لأنه منزل من رب العالمين؛ ولهذا قال: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ أى: حكيم فى أقواله وأفعاله، حميد بمعنى محمود، أى: فى جميع ما يأمر به وينهى عنه الجميع محمودة عواقبه وغاياته.

ثم قال: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ قال قتادة، والسدى، وغيرهما: ما يقال لك من التكذيب إلا كما قد قيل للرسل من قبلك، فكما قد كذبت فقد كذبوا، وكما صبروا على أذى قومهم لهم، فاصبر أنت على أذى قومك لك. وهذا اختيار ابن جرير، ولم يحك هو، ولا ابن أبى حاتم غيره.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ [لِلنَّاسِ][٢]﴾ أى: لمن تاب إليه، ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ أى: لمن استمر على كفره، وطغيانه، وعناده، وشقاقه، ومخالفته.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، عن على بن زيد[٣]، عن سعيد بن المسيب قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ قال رسول الله ﷺ: «لولا غَفْر[٤] الله وتجاوزه ما هَنَأ أحدا العيشُ، ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل أحد»[٥].

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ

(١) فى ت، س، أ: «مهددا». (٢) زيادة من أ. (٣) فى ت: «روى ابن أبى حاتم عن سعيد بن المسيب».
(٤) فى ت، س، أ: «عفو».
(٥) إسناده مرسل، وعلى بن زيد متفق على ضعفه.

www.Quranpdf.blogspot.in

﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (٤٥)﴾.

لما ذكر تعالى القرآن وفصاحته وبلاغته، وإحكامه فى لفظه ومعناه، ومع هذا لم يؤمن به المشركون، نبه على أن كفرهم به كفر عناد وتعنت، كما قال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ . فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:١٩٨، ١٩٩]. وكذلك لو أنزل القرآن كله بلغة العجم، لقالوا على وجه التعنت والعناد: ﴿لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ أى: لقالوا: هلا أنزل مفصلا بلغة العرب، ولأنكروا ذلك وقالوا: أعجمى وعربى؟أى: كيف ينزل كلام أعجمى على مخاطب عربى لا يفهمه.

هكذا رُوى هذا المعنى عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والسدى، وغيرهم.

وقيل: المراد بقولهم: ﴿لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ أى: هلا أنزل بعضها بالأعجمى، وبعضها بالعربى.

هذا قول الحسن البصرى، وكان يقرؤها كذلك بلا استفهام فى قوله ﴿أَعْجَمِيٌّ﴾، وهو رواية عن سعيد بن جبير. وهو فى [التعنت و][1] العناد أبلغ.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ أى: قل يا محمد: هذا القرآن لمن آمن به هدى لقلبه، وشفاء لما فى الصدور من الشكوك[2] والريب، ﴿وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ أى: لا يفهمون ما فيه، ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ أى: لا يهتدون إلى ما فيه من البيان، كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

﴿أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ قال مجاهد: يعنى بعيد من قلوبهم.

قال ابن جرير: معناه: كأن من يخاطبهم يناديهم [3]من مكان بعيد، لا يفهمون ما يقول[4].

قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

وقال الضحاك: ينادون يوم القيامة بأشنع أسمائهم.

وقال السدى: كان عمر بن الخطاب [رضى الله عنه][5] جالسا عند رجل من المسلمين يقضى، إذ قال: يالبَّيكاه. فقال عمر: لِمَ تلبى؟ هل رأيت أحدا، أو دعاك أحد؟ قال: دعانى داع من وراء[6] البحر. فقال عمر: أولئك ينادون من مكان بعيد. رواه ابن أبى حاتم.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ أى: كُذِّب وأوذى، ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الشورى: ١٤] بتأخير

(١) زيادة من ت، س. (٢) فى أ: «الشرك». (٣) فى أ: «يدعوهم».
(٤) تفسير الطبرى (٢٤/ ٨١).
(٥) زيادة من ت. (٦) فى ت، س، أ: «خلف».

www.Quranpdf.blogspot.in

الحساب إلى يوم المعاد، ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: لعجل لهم العذاب، بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا، ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ أي: وما كان تكذيبهم له عن بصيرة منهم لما قالوا، بل كانوا شاكين فيما قالوا[(١)]، غير محققين لشيء كانوا فيه. هكذا وجهه ابن جرير، وهو محتمل، والله أعلم.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦) إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ (٤٧) وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٤٨)﴾ .

يقول تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ أي: إنما يعود نفع ذلك على نفسه، ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ أي: إنما يرجع وبال ذلك عليه، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي: لا يعاقب أحدا إلا بذنب، ولا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه، وإرسال الرسول إليه.

ثم قال: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: لا يعلم ذلك أحد سواه، كما قال ﷺ، وهو سيد البشر لجبريل وهو من سادات الملائكة ـ حين سأله عن الساعة، فقال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»، وكما[(٢)] قال تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا﴾ [النازعات: ٤٤]، وقال: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وقوله: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ أي: الجميع بعلمه، لا يعزب عن علمه[(٣)] مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء. وقد قال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال جلت عظمته: ﴿يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]، وقال: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١].

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي﴾ أي: يوم القيامة ينادي الله المشركين على رؤوس الخلائق: أين شركائي الذين عبدتموهم معي؟ ﴿قَالُوا آذَنَّاكَ﴾ أي: أعلمناك، ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ أي: ليس أحد منا اليوم يشهد أن معك شريكا، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾ أي: ذهبوا فلم ينفعوهم، ﴿وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي: وظن المشركون يوم القيامة، وهذا بمعنى اليقين، ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي: لا محيد لهم عن عذاب الله، كقوله تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: ٥٣].

---

(١) في ت، س: «قالوه». (٢) في ت: «ولهذا».
(٣) في ت: «عمله».

www.Quranpdf.blogspot.in

﴿ لا يَسْأَمُ الإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ (٤٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٠) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (٥١) ﴾ .

يقول تعالى: لا يَمَلّ الإنسان من دعائه ربّه بالخير ـ وهو: المال، وصحة الجسم، وغير ذلك ـ وإن مسه الشر ـ وهو: البلاء أو الفقر ـ ﴿فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ﴾ أى: يقع فى ذهنه أنه لا يتهيأ له بعد هذا خير.

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾أى: إذا أصابه خير ورزق بعد ما كان فى شدة ليقولن: هذا لى، إنى كنت أستحقه عند ربى، ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أى: يكفر بقيام الساعة، أى: لأجل أنه خُوِّل نعمة يفخر، ويبطر، ويكفر، كما قال تعالى: ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ. أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق: ٦، ٧].

﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ أى: ولئن كان ثَمّ معاد فليُحسنَنّ إلى ربى، كما أحسن إلى فى هذه الدار، يتمنى على الله، عز وجل، مع إساءته العمل وعدم اليقين. قال تعالى: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ يتهدد تعالى من كان هذا عمله واعتقاده بالعقاب والنكال.

ثم قال: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ﴾ أى: أعرض عن الطاعة، واستكبر عن الانقياد لأوامر الله، عز وجل، كقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ﴾ [الذاريات: ٣٩].

﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ ﴾ أى: الشدة، ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ أى: يطيل المسألة فى الشىء الواحد فالكلام العريض: ما طال لفظه وقل معناه، والوجيز: عكسه، وهو: ما قل ودل. وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا[1] فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾ [يونس: ١٢].

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٢) سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ (٥٤) ﴾ .

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بالقرآن: ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ﴾؟ أى: كيف تُرَوْن حالكم عند الذى أنزله على رسوله؟ ولهذا قال: ﴿مَنْ أَضَلُّ

(١) فى ت، س: «أو قائما أو قاعدا» وهو خطأ.

www.Quranpdf.blogspot.in

ممَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾؟ أى: فى كفر وعناد ومشاقة للحق، ومَسْلَك بعيد من الهدى.

ثم قال: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ أى: سنظهر لهم دلالالتنا وحُجَجنا على كون القرآن حقا منزلا من عند الله ،عز وجل ، على رسوله ﷺ بدلائل خارجية ﴿فِي الآفَاقِ﴾، من الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان.

قال [١]مجاهد، والحسن، والسدى: ودلائل فى أنفسهم، قالوا: وقعة بَدْر، وفتح مكة، ونحو ذلك من الوقائع التى حلّت بهم، نصر الله فيها محمدا وصحبه، وخذل فيها الباطل وحزبه.

ويحتمل أن يكون المراد من ذلك ما الإنسان مركب منه وفيه وعليه من المواد والأخلاط والهيئات العجيبة، كما هو مبسوط فى علم التشريح الدال على حكمة الصانع تبارك وتعالى. وكذلك ما هو مجبول عليه من الأخلاق المتباينة، من حَسن وقبيح وبين ذلك، وما هو متصرف فيه تحت الأقدار التى لا يقدر بحوله، وقوته، وحيَله، وحذره أن يجوزها، ولا يتعداها، كما أنشده ابن أبى الدنيا فى كتابه «التفكر والاعتبار»، عن شيخه أبى جعفر القرشى:

وَإذَا نَظَرْتَ تُرِيدُ مُعْتَبَرا ... فَانظُرْ إليْكَ فَفِيكَ مُعْتَبَرُ
أنتَ الذى يُمْسِى ويُصْبِحُ فى الـ ... ـدنيا وكُلّ أمُوره عبَرُ
أنْتَ المصرّفُ كانَ فى صِغَرٍ ... ثُمّ استقَلَّ بِشَخْصِكَ الكِبَرُ
أنت الذى تَنعَاه خلْقَتُه ... يَنْعاه منه الشَّعْرُ وَالبَشَرُ
أنت الذى تُعْطَى وَتُسْلَب لا ... يُنْجيه من أنْ يُسْلَبَ الحَذَرُ
أنْتَ الذى لا شىءَ منه لَهُ ... وَأحَقُّ منْه بِمَاله القَدَرُ

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾؟ أى: كفى بالله[٢] شهيدا على أفعال عباده وأقوالهم، وهو يشهد أن محمداً صادق فيما أخبر به عنه، كما قال: ﴿لَٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ [النساء: ١٦٦].

وقوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ أى: فى شك من قيام الساعة؛ ولهذا لا يتفكرون فيه، ولا يعملون له، ولا يحذرون منه، بل هو عندهم هَدَرٌ لا يعبؤون به وهو واقع لاريب فيه وكائن لا محالة.

قال ابن أبى الدنيا: حدثنا أحمد بن إبراهيم، حدثناخَلَف بن تميم، حدثنا عبد الله بن محمد بن سعيد الأنصارى: أن عمر بن عبد العزيز صَعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، أيها الناس، فإنى لم أجمعكم لأمر أحدثه فيكم، ولكن فكرت فى هذا الأمر الذى أنتم إليه صائرون، فعلمت أن المصدق بهذا الأمر أحمق، والمكذب به هالك ثم نزل.

(١) فى ت، أ: «قاله».
(٢) فى ت: «به».

www.Quranpdf.blogspot.in

ومعنى قوله، رضى الله عنه: «أن المصدق به أحمق» أى: لأنه لا يعمل له عمل مثله، ولا يحذر منه ولا يخاف من هوله، وهو مع ذلك مصدق به، موقن بوقوعه، وهو مع ذلك يتمادى فى لعبه وغفلته وشهواته وذنوبه، فهو أحمق بهذا الاعتبار، والأحمق فى اللغة: ضعيف العقل.

وقوله: «والمكذب به هالك»: هذا واضح، والله أعلم.

ثم قال تعالى ـ مقررا على أنه على كل شىء قدير، وبكل شىء محيط، وإقامة الساعة لديه يسير سهل عليه تبارك وتعالى ـ : ﴿أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ أى: المخلوقات كلها تحت قهره وفى قبضته، وتحت طى علمه، وهو المتصرف فيها كلها بحكمه، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

[آخر تفسير سورة حم السجدة][1]

(١) زيادة من ت، س، أ.

www.Quranpdf.blogspot.in

تفسير سورة الشورى

وهى مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٣ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ۝٤ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝٥ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝٦ ﴾.

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة. وقد روى ابن جرير هاهنا أثرا غريبا عجيبا منكرا، فقال:

حدثنا أحمد بن زُهَير، حدثنا عبد الوهاب بن نَجْدَةَ الحَوْطى، حدثنا أبو المغيرة عبد القدوس بن الحجاج، عن أرطاة بن المنذر [1] قال: جاء رجل إلى ابن عباس فقال له ـ وعنده حُذيفة بن اليمان ـ: أخبرنى عن تفسير قول الله: ﴿ حمٓ . عٓسٓقٓ ﴾، قال: فأطرق ثم أعرض عنه، ثم كرر مقالته فأعرض عنه، فلم يجبه بشىء وكره مقالته، ثم كررها الثالثة فلم يُحِرْ إليه شيئا. فقال حذيفة[2] : أنا أنبئك بها، قد عرفت لم كرهها؟ نزلت فى رجل من أهل بيته يقال له«عبد الإله» ـ أو: عبد الله ـ ينزل على نهر من أنهار المشرق تُبْنى عليه مدينتان[3]، يشق النهر بينهما شقا، فإذا أذن الله فى زوال ملكهم وانقطاع دولتهم ومدتهم، بعث الله على إحداهما ناراً ليلاً، فتصبح سوداء مظلمة قد احترقت، كأنها لم تكن مكانها، وتصبح صاحبتها متعجبة: كيف أفلتت؟ فما هو إلا بياض يومها ذلك، حتى يجتمع فيها كل جبار عنيد منهم، ثم يخسف الله بها وبهم جميعا، فذلك قوله: ﴿ حمٓ . عٓسٓقٓ ﴾، يعنى: عزيمة من الله تعالى وفتنة وقضاء حُمّ :﴿ حمٓ ﴾، عين: يعنى عدلا منه، سين: يعنى سيكون، ق: يعنى واقع بهاتين المدينتين[4].

وأغرب منه ما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلى فى الجزء الثانى من مسند ابن عباس، وعن أبى ذر، عن النبى ﷺ فى ذلك، ولكن إسناده ضعيف جدا ومنقطع، فإنه قال:

حدثنا أبو طالب عبد الجبار بن عاصم، حدثنا أبو عبد الملك الحسن بن يحيى الخُشَنى الدمشقى، عن أبى معاوية قال: صعد عمر بن الخطاب المنبر فقال: أيها الناس، هل سمع منكم أحد رسول الله ﷺ يفسر ﴿ حمٓ . عٓسٓقٓ ﴾؟ فوثب ابن عباس فقال، أنا: قال:«﴿ حمٓ ﴾ اسم من أسماء الله تعالى»، قال: فعين؟ قال: «عاين المولون عذاب يوم بدر»، قال: فسين؟ قال: «سيعلم الذين ظلموا أى منقلب

---

(١) فى ت:«وقد روى ابن جرير هاهنا أثرا غريبا عجيبا بسنده». (٢) فى أ: «فقال له حذيفة».

(٣) فى ت، م،أ:«مدينتين».

(٤) تفسير الطبرى (٢٥/ ٥)، ورواه نعيم بن حماد فى الفتن برقم (٥٦٨) من طريق أبى المغيرة عن أرطاة بن المنذر عمن حدثه عن ابن عباس فذكره.

www.Quranpdf.blogspot.in

ينقلبون» قال: فقاف؟ فسكت، فقام أبو ذر ففسر كما قال ابن عباس، رضى الله عنهما، وقال: قاف: قارعة من السماء تغشى الناس[١].

وقوله: ﴿ كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أى: كما أنزل إليك هذا القرآن، كذلك أنزل الكتب والصحف على الأنبياء قبلك. وقوله: ﴿ اللَّهُ الْعَزِيز ﴾ أى: فى انتقامه، ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى أقواله وأفعاله.

قال الإمام مالك ـ رحمه الله ـ عن هشام بن عُرْوَة، عن أبيه، عن عائشة: أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله، كيف يأتيك الوحى؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحياناً يأتينى مثل صَلْصَلَة الجَرَس، وهو أشده عَلَيّ فيفصم عنّى قد وَعَيت ما قال. وأحيانا يأتينى الملك رجُلا فيكلمنى، فأعى ما يقول». قالت عائشة[٢]: فلقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد، فَيفصِم عنه، وإن جبينه ليتفصّد عرقا.

أخرجاه فى الصحيحين، ولفظه للبخارى[٣].

وقد [٤] رواه الطبرانى عن عبد الله ابن الإمام أحمد، عن أبيه، عن عامر بن صالح، عن هشام ابن عُرْوَة، عن أبيه، عن عائشة، عن الحارث بن هشام؛ أنه سأل رسول الله ﷺ: كيف ينزل عليك الوحى؟ فقال: « مثل[٥] صلصلة الجرس، فيفصمُ عنى وقد وعَيتُ ما قاله» قال: «وهو أشده على » قال: «وأحياناً يأتينى الملك فيتمثل لى فيكلمنى، فَأعى ما يقول»[٦].

وقال الإمام [٧] أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا ابن لَهيعة، عن يزيد بن أبى حبيب، عن عمرو بن الوليد، عن عبد الله بن عمرو[٨]، رضى الله عنهما، قال: سألت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، هل تحس بالوحى؟ فقال رسول الله ﷺ: «أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك، فما من مرة يوحى إلىّ إلا ظننت أن نفسى تُقبَض». تفرد به أحمد[٩].

وقد ذكرنا كيفية إتيان الوحى إلى رسول الله ﷺ فى أول شرح البخارى، بما أغنى عن إعادته هاهنا، ولله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ أى: الجميع عبيد له وملك له، تحت قهره وتصريفه، ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيم ﴾، كقوله تعالى: ﴿ الْكَبِيرُ الْمُتَعَال ﴾ [الرعد: ٩]، ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِير ﴾ [سبأ: ٢٣] ، والآيات فى هذا كثيرة.

وقوله: ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ من فَوْقِهِنَّ ﴾ قال ابن عباس، والضحاك، وقتادة، والسدى، وكعب الأحبار: أى فَرَقاً، من العظمة ﴿ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ ﴾ كقوله: ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ

(١) ورواه ابن عساكر فى تاريخه كما فى الدر المنثور (٧/ ٣٣٦).
(٢) فى ت: «عائشة رضى الله عنها».
(٣) الموطأ (١/ ٢٠٢)، وصحيح البخارى برقم (٢) ، وصحيح مسلم برقم (٢٣٣٣).
(٤) فى أ: «ولقد».
(٥) فى أ: «فقال: فى مثل».
(٦) المعجم الكبير (٣/ ٢٥٩).
(٧) فى ت: «وروى».
(٨) فى ت: «عمر».
(٩) المسند (٢/ ٢٢٢).

www.Quranpdf.blogspot.in

﴿شيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر :٧].

وقوله: ﴿أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ : إعلام بذلك وتنويه به.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يعنى: المشركين، ﴿اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ أى: شهيد على أعمالهم، يحصيها ويعدها عداً، وسيجزيهم بها أوفر الجزاء. ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أى: إنما أنت نذير، والله على كل شىء وكيل.

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (٧) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٨) ﴾ .

يقول تعالى: وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك، ﴿ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أى: واضحا جليا بينا، ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ وهى مكة، ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أى: من سائر البلاد شرقا وغربا، وسميت مكة «أم القرى»؛ لأنها أشرف من سائر البلاد، لأدلة كثيرة مذكورة فى مواضعها. ومن أوجز ذلك وأدله ما قال(١) الإمام أحمد:

حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب، عن الزُّهْرِى، أخبرنا أبو سلمة بن عبد الرحمن أن عبد الله بن عَدِى بن الحمراء الزهرى أخبره: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول(٢) ـ وهو واقف بالحَزْوَرَة فى سوق مكة ـ:«والله، إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أنى أُخْرِجْتُ منك ما خرجت»(٣).

وهكذا رواية الترمذى، والنسائى، وابن ماجه، من حديث الزهرى، به (٤) .وقال الترمذى: حسن صحيح .

وقوله: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾، وهو يوم القيامة، يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد.

وقوله: ﴿ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ أى: لا شك فى وقوعه، وأنه كائن لا محالة.

وقوله: ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ ،كقوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [التغابن:٩] أى: يَغْبَن أهل الجنة أهل النار، وكقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ (٥) يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ . وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ . يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٣ـ ١٠٥].

قال (٦) الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا لَيْث، حدثنى أبو قبيل المعَافرى، عن شُفَىّ(٧)

---

(١) فى ت: «ما رواه». (٢) فى ت: «قال».

(٣) المسند (٤/ ٣٠٥).

(٤) سنن الترمذى برقم (٣٩٢٥) ،والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٤٢٥٢) ،وسنن ابن ماجه برقم (٣١٠٨).

(٥) قبلها فى ت، م، أ: «﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ﴾». (٦) فى ت: «روى». (٧) فى أ: «شقيق».

www.Quranpdf.blogspot.in

الأصبحى، عن عبد الله بن عمرو ـ رضى الله عنهما ـ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وفى يده كتابان، فقال: «أتدرون ما هذان الكتابان؟» قال: قلنا: لا، إلا أن تخبرنا يا رسول الله. قال للذى فى يده اليُمنى: « هذا كتاب من رب العالمين، بأسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم ـ لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدا» ثم قال للذى فى يساره: «هذا كتاب أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم ـ لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدا» فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فلأى شىء إذاً نعمل إن كان هذا أمر قد فُرغ منه؟ فقال [١] رسول الله ﷺ: «سَدِّدوا وقاربوا، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل الجنة[٢]، وإن عَمِلَ أى عَمل، وإن صاحب النار ليختم له بعمل النار[٣]، وإن عمل أى عمل» ثم قال بيده فقبضها، ثم قال: «فرغ ربكم عز وجل من العباد» ثم قال باليمنى فنبذ بها فقال: «فريق فى الجنة»، ونبذ باليسرى فقال: «فريق فى السعير».

وهكذا رواه الترمذى والنسائى جميعا، عن قتيبة، عن الليث بن سعد وبكر بن مضر، كلاهما عن أبى قَبِيل، عن شُفَىّ بن ماتع [٤] الأصبحى، عن عبد الله بن عمرو، به[٥].

وقال الترمذى: حسن صحيح غريب.

وساقه البغوى فى تفسيره من طريق بشر بن بكر[٦]، عن سعيد بن عثمان، عن أبى الزاهرية، عن عبد الله بن عمرو، عن النبى ﷺ، فذكره بنحوه. وعنده زيادات منها: ثم قال: «فريق فى الجنة وفريق فى السعير، عدل من الله عز وجل»[٧].

ورواه [٨]ابن أبى حاتم عن أبيه، عن عبد الله بن صالح ـ كاتب الليث ـ عن الليث، به.

ورواه ابن جرير عن يونس، عن ابن وهب، عن عمرو بن الحارث، عن أبى قَبِيل، عن شُفَى، عن رجل من الصحابة، فذكره[٩].

ثم روى عن يونس، عن ابن وَهْب، عن عمرو بن الحارث وحَيْوَة بن [١٠] شُرَيْح، عن يحيى بن أبى أسيد؛ أن أبا فراس [١١]حدثه: أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول: إن الله لما خلق آدم نفضه نفض المِزْوَد[١٢]، وأخرج منه كل ذريته، فخرج أمثال النَّغَف، فقبضهم قبضتين، ثم قال: شقى وسعيد، ثم ألقاهما، ثم قبضهما. فقال: فريق فى الجنة وفريق فى السعير[١٣].

وهذا الموقوف أشبه بالصواب، والله أعلم.

---

(١) فى ت، م: «قال».
(٢) فى م: «بعمل أهل الجنة».
(٣) فى م، ت، أ: «بعمل أهل النار».
(٤) فى أ: «رافع».
(٥) المسند (٢/ ١٦٧)، وسنن الترمذى برقم (٢١٤١)، والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٧٣).
(٦) فى م: «بكير».
(٧) معالم التنزيل للبغوى (٧/ ١٨٥).
(٨) فى ت: «روى».
(٩) تفسير الطبرى (٢٥/ ٧).
(١٠) فى أ: «عن».
(١١) فى ت: «عن أبى فراس».
(١٢) فى م: «المرود».
(١٣) تفسير الطبرى (٢٥/ ٧).

www.Quranpdf.blogspot.in

وقال الإمام أحمد، رحمه الله :حدثنا عبد الصمد، حدثنا حماد ـ يعنى ابن سلمة ـ أخبرنا الجُرَيرى، عن أبى نضرة، أن رجلا من أصحاب النبى ﷺ يقال له: أبو عبد الله ـ دخل عليه أصحابه يعودونه وهو يبكى، فقالوا له: مايبكيك؟، ألم يقل لك رسول الله ﷺ:«خذ من شاربك ثم أقره حتى تلقانى» قال: بلى، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول:«إن الله قبض بيمينه قبضة، وأخرى باليد الأخرى، قال: هذه لهذه، وهذه لهذه ولا أبالى» فلا أدرى فى أى القبضتين أنا(١).

وأحاديث القدر فى الصحاح والسنن والمسانيد كثيرة جدا، منها حديث على، وابن مسعود، وعائشة، وجماعة جمة.

وقوله: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ أى: إما على الهداية أو على الضلالة، ولكنه تعالى فاوت بينهم، فهدى من يشاء (٢) إلى الحق، وأضل من يشاء عنه، وله الحكمة والحجة البالغة؛ ولهذا قال: ﴿وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾.

وقال ابن جرير: حدثنى يونس، أخبرنا ابن وَهْب، أخبرنى عَمرو بن الحارث، عن أبى سويد، حدثه عن ابن حجيرة: أنه بلغه (٣) أن موسى، عليه السلام، قال: يارب خَلَقُك الذين (٤) خلقتهم، جعلت منهم فريقا فى الجنة وفريقا فى النار، لو ما أدخلتهم كلهم الجنة؟! فقال: يا موسى، ارفع ذَرْعك. فرفع، قال: قد رفعت. قال: ارفع. فرفع، فلم يترك شيئا، قال: يارب، قد رفعت، قال: ارفع. قال: قد رفعت، إلا ما لا خير فيه. قال: كذلك أدخل خلقى كلهم الجنة، إلا ما لا خير فيه.

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٩) وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠) فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٢) ﴾.

يقول تعالى منكراً على المشركين فى اتخاذهم آلهة من دون الله، ومخبراً أنه الولى الحق الذى لا تنبغى العبادة إلا له وحده، فإنه القادر على إحياء الموتى وهو على كل شىء قدير.

ثم قال: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أى: مهما اختلفتم فيه من الأمور، وهذا عام فى جميع الأشياء، ﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أى: هو الحاكم فيه بكتابه، وسنة نبيه ﷺ، كقوله: ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي ﴾ أى: الحاكم فى كل شىء، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أى: أرجع فى جميع الأمور.

---

(١) المسند (٤/١٧٦).

(٢) فى أ: «شاء».

(٣) فى ت: «وروى ابن جرير بسنده».

(٤) فى ت: «الذى».

www.Quranpdf.blogspot.in

وقوله: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: خالقهما وما بينهما، ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: من جنسكم وشكلكم، منةً عليكم وتفضلا جعل من جنسكم ذكرا وأنثى، ﴿وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾ أي: وخلق لكم من الأنعام ثمانية أزواج.

وقوله: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ أي: يخلقكم فيه، أي: في ذلك الخلق على هذه الصفة لا يزال يذرؤكم(١) فيه ذكورا وإناثا، خلقا من بعد خلق، وجيلا بعد جيل، ونسلا بعد نسل، من الناس والأنعام.

وقال البغوى، رحمه الله: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ أي: في الرحم. وقيل: في البطن. وقيل: في هذا الوجه من الخلقة.

قال مجاهد: ونسلا بعد نسل من الناس والأنعام.

وقيل: «في» بمعنى «الباء»، أي: يذرؤكم به.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أي: ليس كخالق الأزواج كلها شيء؛ لأنه الفرد الصمد الذى لا نظير له، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

وقوله: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ تقدم تفسيره في «سورة الزمر»، وحاصل ذلك أنه المتصرف الحاكم فيهما، ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يوسع على من يشاء، ويضيق على من يشاء، وله الحكمة والعدل التام، ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ (١٣) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (١٤)﴾.

يقول تعالى لهذه الأمة: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾، فذكر أول الرسل بعد آدم وهو نوح، عليه السلام، وآخرهم وهو محمد ﷺ، ثم ذكر من بين ذلك من أولى العزم وهم: إبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم، عليهم السلام. وهذه الآية انتظمت ذكر الخمسة، كما اشتملت آية «الأحزاب» عليهم في قوله:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ الآية [الأحزاب:٧]. والدين الذى جاءت به الرسل كلهم هو: عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]. وفي

(١) في أ: «نوعكم».

www.Quranpdf.blogspot.in

الحديث: «نحن معشر [١] الأنبياء أولاد علات ديننا واحد» أى: القدر المشترك بينهم هو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم، كقوله تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ أى: وصى الله [سبحانه و] [٢] تعالى جميع الأنبياء، عليهم السلام، بالائتلاف والجماعة، ونهاهم عن الافتراق والاختلاف.

وقوله: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ أى: شق عليهم وأنكروا ما تدعوهم إليه يا محمد من التوحيد.

ثم قال: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ أى: هو الذى يُقدّر الهداية لمن يستحقها، ويكتب الضلالة على من آثرها على طريق الرشد؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا اختلفوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾، أى: إنما كان مخالفتهم للحق بعد بلوغه إليهم، وقيام الحجة عليهم، وما حملهم على ذلك إلا البغىُ والعنادُ والمشاقة.

ثم قال [الله] [٣] تعالى: ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أى: لولا الكلمة السابقة من الله بإنظار العباد بإقامة حسابهم إلى يوم المعاد، لعجل لهم العقوبة فى الدنيا سريعاً.

وقوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ يعنى: الجيل المتأخر بعد القرن الأول المكذّب للحق ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ أى: ليسوا على يقين من أمرهم، وإنما هم مقلدون لآبائهم وأسلافهم، بلا دليل ولا بُرهان، وهم فى حيرة من أمرهم، وشك مريب، وشقاق بعيد.

﴿ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٥) ﴾.

اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلات، كل منها منفصلة عن التى قبلها، [لها] [٤] حكم برأسه ـ قالوا: ولا نظير لها سوى آية الكرسى، فإنها أيضا عشرة [٥] فصول كهذه.

قوله [٦]: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ﴾ أى: فللذى أوحينا إليك من الدين الذى وصينا به جميع المرسلين قبلك أصحاب الشرائع الكبار المتبعة كأولى العزم وغيرهم، فادعُ الناس إليه.

وقوله: ﴿وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ أى: واستقم أنت ومن اتبعك على عبادة الله، كما أمركم الله عز وجل.

وقوله: ﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ يعنى: المشركين فيما اختلقوه، وكذبوه، وافتروه من عبادة الأوثان.

وقوله: ﴿وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ﴾ أى: صدقت بجميع الكتب المنزلة من السماء على

---

(١) فى ت، م: «معاشر».
(٢) زيادة من ت، م، أ.
(٣) زيادة من م.
(٤) زيادة من ت، أ.
(٥) فى ت: «عشر».
(٦) فى ت: «فقوله».

www.Quranpdf.blogspot.in

الأنبياء، لا نفرق [(١)] بين أحد منهم.

وقوله: ﴿ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُم﴾ أى: فى الحكم كما أمرنى الله.

وقوله: ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أى: هو المعبود، لا إله غيره، فنحن نقر بذلك اختيارا، وأنتم وإن لم تفعلوه اختيارا، فله يسجد من فى العالمين طوعا واختياراً.

وقوله: ﴿ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ أى: نحن برآء منكم، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١].

وقوله: ﴿لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم﴾ قال مجاهد: أى لا خصومة. قال السدى: وذلك قبل نزول آية السيف. وهذا مُتَّجَه؛ لأن هذه الآية مكية، وآية السيف بعد الهجرة.

وقوله: ﴿ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ﴾ أى: يوم القيامة، كقوله : ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ [سبأ: ٢٦].

وقوله: ﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أى: المرجع والمآب يوم الحساب.

﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (١٦) اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (١٨) ﴾.

يقول تعالى ـ متوعدا الذين يصدون عن سبيل الله من آمن به ـ: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ﴾ أى: يجادلون المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله، ليصدوهم عما سلكوه من طريق الهدى، ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أى: باطلة عند الله، ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ أى: منه، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أى: يوم القيامة.

قال ابن عباس، ومجاهد: جادلوا المؤمنين بعد ما استجابوا لله ولرسوله، ليصدوهم عن الهدى، وطمعوا أن تعود الجاهلية.

وقال قتادة: هم اليهود والنصارى، قالوا لهم: ديننا خير من دينكم، ونبينا قبل نبيكم، ونحن خير منكم، وأولى بالله منكم. وقد كذبوا فى ذلك.

ثم قال: ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ يعنى: الكتب المنزلة من عنده على أنبيائه ﴿ وَالْمِيزَانَ﴾، وهو: العدل والإنصاف، قاله مجاهد، وقتادة.

وهذه كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[الحديد: ٢٥]، وقوله: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ . أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ . وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧ ـ ٩].

(١) فى ت: «لا يفرق».

www.Quranpdf.blogspot.in

وقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾: فيه ترغيب فيها، وترهيب منها، وتزهيد فى الدنيا.

وقوله: ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ أى: يقولون: ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سبأ: ٢٩]، وإنما يقولون (١) ذلك تكذيبا واستبعادا، وكفراً وعناداً، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ أى: خائفون وَجِلُون من وقوعها ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ أى: كائنة لا محالة، فهم مستعدون لها عاملون من أجلها.

وقد رُوى من طرق تبلغ درجة التواتر، فى الصحاح والحسان، والسنن والمسانيد، وفى بعض ألفاظه؛ أن رجلا سأل رسول الله ﷺ بصوت جَهْوَرِىّ، وهو فى بعض أسفاره، فناداه فقال: يامحمد. فقال له النبى ﷺ نحوا من صوته «هاؤم». فقال: متى الساعة؟ فقال له رسول الله ﷺ: «ويحك، إنها كائنة، فما أعددت لها؟». فقال: حُب الله ورسوله. فقال: «أنت مع من أحببت»(٢).

فقوله فى الحديث: «المرء مع من أحب»، هذا متواتر لا محالة، والغرض أنه لم يجبه عن وقت الساعة، بل أمره بالاستعداد لها.

وقوله: ﴿أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ ﴾ أى: يحاجّون فى وجودها ويدفعون وقوعها، ﴿لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ أى: فى جهل بين؛ لأن الذى خلق السموات والأرض قادرٌ على إحياء الموتى بطريق الأولى والأحرى، كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (١٩) مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢١) تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٢٢) ﴾.

يقول تعالى مخبرا عن لطفه بخلقه فى رزقه إياهم عن آخرهم، لا ينسى أحدا منهم، سواء فى رزقه البرّ والفاجر، كقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦]. ولها (٣) نظائر كثيرة

وقوله: ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ ﴾أى: يوسع على من يشاء، ﴿ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ أى: لا يعجزه شىء.

(١) فى ت: «يقول».

(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٦١٦٧)، ومسلم فى صحيحه برقم (٢٦٣٩) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه.

(٣) فى ت: «ولهذا».

www.Quranpdf.blogspot.in

ثم قال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ﴾ أى: عمل الآخرة، ﴿نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ أى: نقويه ونعينه على ما هو بصدده، ونكثر نماءه، ونجزيه بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى ما يشاء الله. ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ أى: ومن كان إنما سعيه ليحصل له شيء من الدنيا، وليس له إلى الآخرة همّة[١] البتة بالكلية، حرَمه الله الآخرة، والدنيا إن شاء أعطاه منها، وإن لم يشأ لم يحصل[٢] له لا هذه ولا هذه، وفاز هذا الساعى بهذه النية بالصفقة الخاسرة فى الدنيا والآخرة.

والدليل على هذا أن هذه الآية هاهنا مقيدة بالآية التى فى «سبحان» وهى قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا . وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا . كُلاًّ نُّمِدُّ هَٰؤُلاءِ وَهَٰؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا . انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ١٨ ـ ٢١].

وقال الثورى، عن مُغيرة، عن أبى العالية، عن أبى بن كعب [رضى الله عنه][٣] قال: قال رسول الله ﷺ: «بشر هذه الأمة بالسَّناء والرفعة، والنصر والتمكين فى الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا، لم يكن له فى الآخرة من نصيب»[٤].

وقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ أى: هم لا يتبعون ما شرع الله لك من الدين القويم، بل يتبعون ما شرع لهم شياطينهم من الجن والإنس، من تحريم ما حرموا عليهم، من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وتحليل الميتة والدم والقمار، إلى نحو ذلك من الضلالات والجهالة[٥] الباطلة، التى كانوا قد اخترعوها فى جاهليتهم، من التحليل والتحريم، والعبادات الباطلة، والأقوال الفاسدة.

وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «رأيت عَمرو بن لُحىّ بن قَمَعَة يَجُر قُصْبَه فى النار»[٦]. لأنه أول من سيب السوائب. وكان هذا الرجل أحد ملوك خزاعة، وهو أول من فعل هذه الأشياء، وهو الذى حَمَل قريشا على عبادة الأصنام، لعنه الله وقبحه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ ، أى: لعوجلوا بالعقوبة، لولا ما تقدم من الإنظار إلى يوم المعاد، ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أى: شديد موجع[٧] فى جهنم وبئس المصير.

ثم قال تعالى: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا﴾ أى: فى عرصات القيامة، ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ أى: الذى يخافون منه واقع بهم لا محالة، هذا حالهم يوم معادهم، وهم فى هذا الخوف والوجل، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ، فأين هذا من هذا:

(١) فى ت: «وهم». (٢) فى أ: «يجعل». (٣) زيادة من ت.
(٤) رواه البغوى فى شرح السنة (١٤/ ٣٣٥) من طريق الثورى به.
(٥) فى أ: «الجهالات».
(٦) انظر تخريج هذا الحديث عند تفسير الآية: ١٠٣ من سورة المائدة.
(٧) فى ت، أ: «وجيع».

www.Quranpdf.blogspot.in

أين من هو فى العَرَصات فى الذل والهوان والخوف المحقق عليه بظلمه، ممن هو فى روضات الجنات، فيما يشاء من مآكل ومشاربَ وملابس ومساكن ومناظر ومناكح وملاذ، فيما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

قال الحسن بن عرفة: حدثنا عمر بن عبد الرحمن الأبار، حدثنا محمد بن سعد الأنصارى[١]، عن أبى طَيْبَة، قال: إن الشَّرْب من أهل الجنة لتظلهم السحابة فتقول: ما أمطِرُكُم. قال: فما يدعو داع من[٢] القوم بشىء إلا أمطرتهم، حتى إن القائل منهم ليقول: أمطرينا كواعب أترابا.

رواه ابن جرير، عن الحسن بن عرفة، به.

ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ أى: الفوز العظيم، والنعمة التامة السابغة الشاملة العامة.

﴿ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٤) ﴾.

يقول تعالى لما ذكر روضات الجنة، لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات: ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى: هذا حاصل لهم، كائن لا محالة، ببشارة الله لهم به.

وقوله: ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ أى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين من كفار قريش: لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح لكم ما لا تعطونيه، وإنما أطلب منكم أن تكفوا شركم عنى، وتذرونى أبلغ رسالات[٣] ربى، إن لم تنصرونى فلا تؤذونى بما بينى وبينكم من القرابة.

قال البخارى: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عبد الملك بن ميسرة قال: سمعت طاوسا[٤] عن ابن عباس: أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿ إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾، فقال سعيد بن جبير: قربى آل محمد. فقال ابن عباس: عَجِلْتَ، إن النبى ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة، فقال: إلا أن تصلوا ما بينى وبينكم من القرابة. انفرد به البخارى[٥].

ورواه الإمام أحمد، عن يحيى القطان، عن شعبة به. وهكذا روى عامر الشعبى، والضحاك، وعلى بن أبى طلحة، والعَوْفى، ويوسف بن مِهْران، وغير واحد، عن ابن عباس، مثله. وبه قال مجاهد، وعكرمة، وقتادة، والسدى، وأبو مالك، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهم.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى[٦]: حدثنا هاشم بن يزيد الطبرانى وجعفر القلانسى قالا: حدثنا

---

(١) فى ت: «روى الحسن بن عرفة بسنده». (٢) فى أ: «فى». (٣) فى ت، م، أ: «رسالة».
(٤) فى ت: «روى البخارى بسنده».
(٥) صحيح البخارى برقم (٤٨١٨)، والمسند (١/ ٢٢٩).
(٦) فى ت: «وروى الطبرانى».

www.Quranpdf.blogspot.in

آدم بن أبى إياس، حدثنا شريك، عن خُصَيف، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال لهم رسول الله ﷺ: «لا أسألكم عليه أجرا إلا أن تَوَدّونى فى نفسى لقرابتى منكم، وتحفظوا القرابة التى بينى وبينكم»[١].

وروى الإمام أحمد، عن حسن بن موسى: حدثنا قَزَعة، يعنى ابن سُوَيد ـ وابن أبى حاتم ـ عن أبيه، عن مسلم بن إبراهيم، عن قَزَعة بن سويد ـ عن ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد، عن ابن عباس؛ أن النبى ﷺ قال: «لا أسألكم على ما آتيتكم من البينات والهدى أجرا، إلا أن تُوَادوا الله، وأن تقربوا إليه بطاعته»[٢].

وهكذا روى قتادة عن الحسن البصرى، مثله.

وهذا كأنه تفسير بقول ثان، كأنه يقول: ﴿ **إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى** ﴾ أى: إلا أن تعملوا بالطاعة التى تقربكم عند الله زلفى.

وقول ثالث: وهو ما حكاه البخارى وغيره، رواية عن سعيد بن جبير، ما معناه، أنه قال: معنى ذلك أن تودونى فى قرابتى، أى: تحسنوا إليهم وتبروهم.

وقال السدى، عن أبى الديلم قال: لما جىء بعلى بن الحسين أسيرا، فأقيم على درج دمشق، قام رجل من أهل الشام فقال: الحمد لله الذى قتلكم واستأصلكم، وقطع قرنى الفتنة. فقال له على بن الحسين: أقرأت القرآن؟ قال: نعم. قال: أقرأت آل حم؟ قال: قرأت القرآن، ولم أقرأ آل حم. قال: ما قرأت: ﴿ **قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى** ﴾ ؟ قال: وإنكم أنتم[٣] هم؟ قال: نعم.

وقال أبو إسحاق السَّبِيعى: سألت عمرو بن شعيب عن قوله تعالى: ﴿ **قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى**﴾، فقال: قربى النبى ﷺ. رواهما ابن جرير[٤].

ثم قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا مالك بن إسماعيل، حدثنا عبد السلام، حدثنى يزيد ابن أبى زياد، عن مقسم، عن ابن عباس قال: قالت الأنصار: فعلنا وفعلنا، وكأنهم فخروا. فقال ابن عباس ـ أو: العباس، شك عبد السلام ـ: لنا الفضل عليكم. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأتاهم فى مجالسهم فقال: «يا معشر الأنصار، ألم تكونوا أذلة فأعزكم الله بى؟» قالوا: بلى، يا رسول الله. قال: «ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله بى؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «أفلا تجيبونى؟» قالوا: ما نقول يا رسول الله؟ قال: «ألا تقولون: ألم يخرجك قومك فآويناك؟ أو لم يكذبوك فصدقناك؟ أو لم يخذلوك فنصرناك»؟ قال: فما زال يقول حتى جثوا على الركب، وقالوا: أموالنا وما فى أيدينا لله ولرسوله. قال: فنزلت: ﴿ **قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى** ﴾[٥].

وهكذا رواه ابن أبى حاتم، عن على بن الحسين، عن عبد المؤمن بن على، عن عبد السلام، عن

---

(١) المعجم الكبير (١١/ ٤٣٥).
(٢) المسند (١/ ٢٦٨).
(٣) فى ت، أ: «لأنتم».
(٤) تفسير الطبرى (٢٥/ ١٧).
(٥) تفسير الطبرى (٢٥/ ١٦).

www.Quranpdf.blogspot.in

يزيد بن أبى زياد ـ وهو ضعيف ـ بإسناده مثله، أو قريبا منه.

وفى الصحيحين ـ فى قسم غنائم حنين ـ قريب من هذا السياق، ولكن ليس فيه ذكر نزول هذه الآية. وذكْرُ نزولها فى المدينة فيه نظر؛ لأن السورة مكية، وليس يظهر بين هذه الآية الكريمة وبين السياق مناسبة، والله أعلم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا رجل سماه، حدثنا حسين الأشقر، عن قيس، عن الأعمش، عن سعيد بن جبير[١]، عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ **قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى** ﴾، قالوا: يا رسول الله، من هؤلاء الذين أمر الله بمودتهم؟ قال: «فاطمة وولدها، عليهم السلام»[٢].

وهذا إسناد[٣] ضعيف، فيه مبهم لا يعرف، عن شيخ شيعى مُتَخَرّق[٤]، وهو حسين الأشقر، ولا يقبل خبره فى هذا المحل. وذِكْرُ نزول هذه الآية فى المدينة بعيد؛ فإنها مكية ولم يكن إذ ذاك لفاطمة أولاد بالكلية، فإنها لم تتزوج بعلى إلا بعد بدر من[٥] السنة الثانية من الهجرة.

والحق تفسير الآية بما فسرها به الإمام حَبْرُ الأمة، وترجمان القرآن، عبد الله بن عباس، كما رواه عنه البخارى [رحمه الله][٦]: ولا تنكر الوصاة[٧] بأهل البيت، والأمر بالإحسان إليهم، واحترامهم وإكرامهم، فإنهم من ذرية طاهرة، من أشرف بيت وجد على وجه الأرض، فخراً وحسباً ونسباً، ولاسيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة الواضحة الجلية، كما كان عليه سلفهم، كالعباس وبنيه، وعلى وأهل بيته وذريته، رضى الله عنهم أجمعين.

و [قد ثبت][٨] فى الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال فى خطبته بِغَدِير خُمّ: «إنى تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتى، وإنهما لم يفترقا حتى يردا على الحوض»[٩].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا إسماعيل بن أبى خالد، عن يزيد بن أبى زياد، عن عبد الله بن الحارث[١٠]، عن العباس بن عبد المطلب قال: قلت: يا رسول الله، إن قريشا إذا لقى بعضهم بعضا لقوهم ببشر حَسَن، وإذا لقونا لقونا بوجوه لا نعرفها؟ قال: فغضب النبى ﷺ غضباً شديدا، وقال: «والذى نفسى بيده، لا يدخل قلب الرجل الإيمان حتى يحبكم لله ولرسوله»[١١].

ثم قال أحمد[١٢]: حدثنا جرير، عن يزيد بن أبى زياد، عن عبد الله بن الحارث، عن عبد المطلب ابن ربيعة قال: دخل العباس على رسول الله ﷺ فقال: إنا لنخرج فنرى قريشا تُحدث، فإذا رأونا

(١) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بسنده».
(٢) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١١/ ٤٤٤) من طريق حرب الطحان عن حسين الأشقر به.
(٣) فى أ: «الإسناد». (٤) فى أ: «مخترق». (٥) فى أ: «فى».
(٦) زيادة من ت، م، أ. (٧) فى ت: «ولا ينكر الوصاية». (٨) زيادة من ت، أ.
(٩) صحيح مسلم برقم (٢٤٠٨) بنحوه من حديث زيد بن الأرقم.
(١٠) فى ت: «وروى الإمام أحمد بإسناده».
(١١) المسند (١/ ٢٠٧).
(١٢) فى ت: «ثم روى الإمام أحمد».

www.Quranpdf.blogspot.in

سكتوا. فغضب رسول الله ﷺ ودَرّ عِرْقُ بين عينه[١]، ثم قال: «والله لا يدخل قلب امرئ [٢] إيمان حتى يحبكم لله ولقرابتى»[٣].

وقال البخارى: حدثنا عبد الله بن عبد الوهاب، حدثنا خالد، حدثنا شعبة، عن واقد قال: سمعتُ أبى يحدّث[٤] عن ابن عمر، عن أبى بكر الصديق، رضى الله عنه، قال: ارقبوا محمدا ﷺ فى أهل بيته[٥].

وفى الصحيح: أن الصديق قال لعلى، رضى الله عنهما: والله لقرابة رسول الله ﷺ أحب إلىّ أن أصل من قرابتى[٦] [٧].

وقال عمر بن الخطاب للعباس، رضى الله عنهما: والله لإسلامك يوم أسلمت، كان أحب إلىّ من إسلام الخطاب لو أسلم؛ لأن إسلامك كان أحب إلى رسول الله من إسلام الخطاب.

فحال الشيخين، رضى الله عنهما، هو الواجب على كل أحد أن يكون كذلك؛ ولهذا كانا أفضل المؤمنين بعد النبيين والمرسلين، رضى الله عنهما، وعن سائر الصحابة أجمعين.

وقال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، عن أبى حَيّان التيمى، حدثنى يزيد ابن حَيّان قال: انطلقت أنا وحُصَين بن مَيْسَرة، وعمر[٨] بن مسلم إلى زيد[٩] بن أرقم، فلما جلسنا إليه قال له حصين: لقد لقيتَ يا زيد[١٠] خيراً كثيراً، رأيتَ رسول الله ﷺ، وسمعت حديثه، وغزوتَ معه، وصليتَ معه. لقد رأيت يا زيد خيراً كثيراً. حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله ﷺ. فقال: يا ابن أخى، والله كَبُرت[١١] سنى، وقدم عهدى، ونسيت بعض الذى كنت أعى من رسول الله ﷺ، فما حدثتكم فاقبلوه، وما لا فلا تُكلّفونيه. ثم قال: قام رسول الله ﷺ يوماً خطيباً فينا، بماء يدعى خُمّا ـ بين مكة والمدينة ـ فحمد الله وأثنى عليه، وذكر ووعظ، ثم قال: «أما بعد، ألا أيها الناس، إنما أنا بشر يوشك أن يأتينى رسول ربى فأجيب، وإنى تارك فيكم الثقلين، أولهما: كتاب الله، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به» فحث على كتاب الله ورغب فيه، وقال: «وأهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى، أذكركم الله فى أهل بيتى». فقال له حصين: ومَنْ أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: إن نساءه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حُرِم الصدقة بعده. قال: ومن هم؟ قال: هم آل على، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل العباس. قال: أكل هؤلاء حرم الصدقة؟ قال: نعم.

وهكذا رواه مسلم [فى الفضائل][١٢]، والنسائى من طرق عن يزيد بن حَيّان به[١٣].

---

(١) فى ت، أ: «عينيه».
(٢) فى ت، أ: «امرئ مسلم».
(٣) المسند (١/٢٠٧).
(٤) فى ت: «وروى البخارى بإسناده».
(٥) صحيح البخارى برقم (٣٧١٣).
(٦) فى أ: «أحب إلىّ من أن أصل قرابتى».
(٧) صحيح البخارى برقم (٣٧١٢).
(٨) فى ت، أ: «وعمرو».
(٩) فى أ: «يزيد».
(١٠) فى أ: «يزيد».
(١١) فى ت، أ: «والله لقد كبرت».
(١٢) زيادة من ت، م، أ.
(١٣) المسند (٤/٣٦٦) وصحيح مسلم برقم (٢٤٠٨) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٨١٧٥).

www.Quranpdf.blogspot.in

وقال أبو عيسى الترمذى[(١)]: حدثنا على بن المنذر الكوفى، حدثنا محمد بن فضيل، حدثنا الأعمش، عن عطية، عن أبى سعيد ـ والأعمش، عن حبيب بن أبى ثابت، عن زيد بن أرقم ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنى تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى، أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من[(٢)] السماء إلى الأرض، والآخر عترتى: أهل بيتى، ولن يتفرَّقا حتى يردا على الحوض، فانظروا كيف تخلفونى فيهما».

تفرد بروايته الترمذى[(٣)]، ثم قال: هذا حديث حسن غريب.

وقال الترمذى أيضا[(٤)]: حدثنا نصر بن عبد الرحمن الكوفى، حدثنا زيد بن الحسن، عن جعفر ابن محمد، عن أبيه، عن جابر بن عبد الله [(٥)] قال: رأيت رسول الله ﷺ فى حجته يوم عرفة، وهو على ناقته القصواء يخطب، فسمعته يقول: «يا أيها الناس، إنى تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله، وعترتى: أهل بيتى».

تفرد به الترمذى أيضا[(٦)]، وقال: حسن غريب، وفى الباب عن أبى ذر، وأبى سعيد، وزيد بن أرقم، وحذيفة بن أسيد.

ثم قال الترمذى: حدثنا أبو داود سليمان بن الأشعث، حدثنا يحيى بن مَعين، حدثنا هشام بن يوسف، عن عبد الله بن سليمان النوفلى، عن محمد بن على بن عبد الله بن عباس، عن أبيه، عن جده عبد الله بن عباس[(٧)] قال: قال رسول الله ﷺ: «أحبوا الله لما يغذوكم [(٨)] من نعمه، وأحبونى[(٩)] بحب الله، وأحبوا أهل بيتى بحبى».

ثم قال[(١٠)]: حسن غريب إنما نعرفه من هذا الوجه[(١١)].

وقد أوردنا أحاديث أُخَر عند قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً** ﴾ [الأحزاب: ٣٣][(١٢)]، بما أغنى عن إعادتها هاهنا، ولله الحمد والمنة.

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا سويد بن سَعِيد، حدثنا مُفَضّل بن عبد الله، عن أبى إسحاق، عن حَنَش قال: سمعت أبا ذر وهو آخذ بحلقة الباب يقول: يأيها الناس، من عرفنى فقد عرفنى، ومن أنكرنى فأنا أبو ذر، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما مثل أهل بيتى فيكم مَثَل سفينة نوح، من

---

(١) فى ت: «وروى الترمذى».
(٢) فى ت: «بين».
(٣) سنن الترمذى برقم (٣٧٨٨).
(٤) فى ت: «وروى الترمذى».
(٥) فى ت: «عبد الله رضى الله عنه».
(٦) سنن الترمذى برقم (٣٧٨٦).
(٧) فى ت: «وروى الترمذى أيضا عن ابن عباس».
(٨) فى ت: «يغدوكم به».
(٩) فى ت: «فأحبونى».
(١٠) فى ت: «وقال».
(١١) سنن الترمذى برقم (٣٧٨٩).
(١٢) انظر: تفسير الآية: ٣٣ من سورة الأحزاب.

www.Quranpdf.blogspot.in

دخلها نجا، ومن تخلف عنها هلك»[١].

هذا بهذا الإسناد ضعيف.

وقوله: ﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ﴾ أى: ومن يعمل حسنة ﴿ نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ أى: أجرا وثوابا، كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٠].

وقال بعض السلف: [إن][٢] من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، ومن جزاء السيئة السيئة بعدها.

وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ أى: يغفر الكثير من السيئات، ويكثر القليل من الحسنات، فيستر ويغفر، ويضاعف فيشكر.

وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أى: لو افتريت عليه كذباً كما يزعم هؤلاء الجاهلون ﴿ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ أى: لطبع على قلبك وسلبك ما كان آتاك من القرآن، كقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ . لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ـ ٤٧] أى: لانتقمنا منه أشد الانتقام، وما قدر أحد من الناس أن يحجز عنه.

وقوله: ﴿ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ ليس معطوفا على قوله: ﴿يَخْتِمْ﴾ فيكون مجزوما، بل هو مرفوع على الابتداء، قاله ابن جرير، قال: وحذفت من كتابته «الواو» في رسم المصحف الإمام، كما حذفت فى[٣] قوله: ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨]، وقوله: ﴿ وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ [الإسراء: ١١].

وقوله: ﴿ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ معطوف على ﴿ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ﴾ أى: يحققه ويثبته ويبينه ويوضحه بكلماته، أى بحججه وبراهينه، ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أى: بما تكنه الضمائر، وتنطوى عليه السرائر.

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٢٥) وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (٢٦) وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧) وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (٢٨) ﴾.

يقول تعالى ممتنا على عباده بقبول توبتهم إليه إذا تابوا ورجعوا إليه: أنه من كرمه وحلمه أنه يعفو ويصفح ويستر ويغفر، كقوله: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]، وقد ثبت فى صحيح مسلم، رحمه الله، حيث قال:

---

(١) ورواه الحاكم فى المستدرك وصححه (٣/ ١٥٠) من طريق مفضل بن صالح عن أبى إسحاق به، وتعقبه الذهبى بقوله: «فيه مفضل ابن صالح واه»، ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٣/ ٣٧) من طريق عبد الله بن داهر عن عبد الله بن عبد القدوس عن الأعمش عن أبى إسحاق به، وفى إسناده عبد الله بن داهر الرازى متروك.

(٢) زيادة من ت، م، أ. (٣) فى ت، أ: «من».

www.Quranpdf.blogspot.in

حدثنا محمد بن الصباح وزهير بن حرب قال[١]: حدثنا عمر بن يونس، حدثنا عكرمة بن عمار، حدثنا إسحاق بن أبى طلحة، حدثنى أنس بن مالك ـ وهو عمه [٢] ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه، من أحدكم كان راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها، قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم، أنت عبدى وأنا ربك ـ أخطأ من شدة الفرح»[٣].

وقد ثبت أيضا فى الصحيح من رواية عبد الله بن مسعود نحوه[٤] [٥].

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهرى فى قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾: إن أبا هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لله أشد فرحا بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته[٦] فى المكان الذى يخاف أن يقتله العطش فيه»[٧].

وقال همام بن الحارث: سئل ابن مسعود عن الرجل يفجر بالمرأة ثم يتزوجها؟ قال: لا بأس به، وقرأ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ الآية رواه ابن جرير، وابن أبى حاتم من حديث شريك القاضى، عن إبراهيم بن مهاجر، عن إبراهيم النخعى، عن همام، فذكره[٨].

وقوله: ﴿وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ أى: يقبل التوبة فى المستقبل، ويعفو عن السيئات فى الماضى، ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أى: هو عالم بجميع ما فعلتم وصنعتم وقلتم، ومع هذا يتوب على من تاب إليه.

وقوله: ﴿ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال السدى: يعنى يستجيب لهم. وكذا قال ابن جرير: معناه يستجيب الدعاء لهم[٩] [لأنفسهم][١٠] ولأصحابهم وإخوانهم. وحكاه عن بعض النحاة، وأنه جعلها كقوله: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

ثم روى هو وابن أبى حاتم، من حديث الأعمش، عن شقيق بن سلمة، عن سلمة بن سبرة قال: خطبنا معاذ بالشام فقال: أنتم المؤمنون، وأنتم أهل الجنة. والله إنى أرجو أن يدخل الله من تَسْبون من فارس والروم الجنة، وذلك بأن أحدكم إذا عمل له ـ يعنى أحدُهم عملا ـ قال: أحسنت رحمك[١١] الله، أحسنت بارك الله فيك، ثم قرأ: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم

---

(١) فى أ: «قالا». (٢) فى ت: «عمه رضى الله عنه».
(٣) صحيح مسلم برقم (٢٧٤٧).
(٤) فى ت: «مثله».
(٥) صحيح مسلم برقم (٢٧٤٤).
(٦) فى ت: «راحلته».
(٧) تفسير عبد الرزاق (٢/ ١٥٦) وقد روى متصلا، فرواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٦٧٥) من طريق عبد الرزاق عن معمر عن همام ابن منبه عن أبى هريرة به.
(٨) تفسير الطبرى (٢٥/ ١٨).
(٩) فى ت، م: «لهم الدعاء». (١٠) زيادة من ت، م.
(١١) فى ت، م، أ: «يرحمك».

www.Quranpdf.blogspot.in

مِّن فَضْلِهِ﴾.

وحكى ابن جرير عن بعض أهل العربية أنه جعل(١) [مثل](٢) قوله: **﴿ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾** كقوله: **﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ﴾** [الزمر: ١٨] أى: هم الذين يستجيبون للحق ويتبعونه، كقوله تبارك وتعالى: **﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾** [الأنعام: ٣٦] والمعنى الأول أظهر؛ لقوله(٣) تعالى: **﴿ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾** أى: يستجيب دعاءهم ويزيدهم فوق ذلك؛ ولهذا قال ابن أبى حاتم:

حدثنا على بن الحسين، حدثنا محمد بن المصفى، حدثنا بقية، حدثنا إسماعيل بن عبد الله الكندى، حدثنا الأعمش، عن شقيق، عن عبد الله(٤) قال: قال رسول الله ﷺ فى قوله: **﴿ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾**، قال: «الشفاعة لمن وجبت له النار، ممن صنع إليهم معروفا(٥) فى الدنيا»(٦).

وقال قتادة عن إبراهيم النخعى اللخمى في قوله تعالى: **﴿ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾**، قال: يشفعون فى إخوانهم، **﴿ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾** قال: يشفعون فى إخوان إخوانهم.

وقوله: **﴿ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾** : لما ذكر المؤمنين وما لهم من الثواب الجزيل، ذكر الكافرين وما لهم عنده يوم القيامة من العذاب الشديد الموجع المؤلم يوم معادهم وحسابهم.

وقوله: **﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ﴾** أى: لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق، لحملهم ذلك على البغى والطغيان من بعضهم على بعض، أشرا وبطرا.

وقال قتادة: كان يقال: خير العيش ما لا يلهيك ولا يطغيك. وذكر قتادة حديث: «إنما أخاف عليكم ما يخرج الله من زهرة الحياة الدنيا»، وسؤال السائل: أيأتى الخير بالشر؟ الحديث.

وقوله: **﴿وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾** أى: ولكن يرزقهم من الرزق ما يختاره مما فيه صلاحهم، وهو أعلم بذلك، فيغنى من يستحق الغنى، ويفقر من يستحق الفقر. كما جاء فى الحديث المروى: «إن من عبادى لمن(٧) لا يصلحه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه، وإن من عبادى لمن لا يصلحه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه».

وقوله: **﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾** أى: من بعد إياس الناس من نزول المطر، ينزله عليهم فى وقت حاجتهم وفقرهم إليه، كقوله: **﴿ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴾** [الروم: ٤٩].

وقوله: **﴿ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ﴾** أى: يعم بها الوجود على أهل ذلك القُطْر وتلك الناحية.

---

(١) فى ت، م: «جعله».

(٢) زيادة من ت، أ. (٣) فى ت: «كقوله». (٤) فى ت: «روى ابن أبى حاتم بسنده عن عبد الله».

(٥) فى أ: «المعروف».

(٦) ورواه ابن أبى عاصم فى السنة برقم (٨٤٦) من طريق محمد بن مصفى عن بقية به، وفى إسناده إسماعيل الكندى. قال الذهبى فى الميزان (١/ ٢٣٥): «عن الأعمش، وعنه بقية، بخبر عجيب منكر».

(٧) فى ت: «من».

www.Quranpdf.blogspot.in

قال قتادة: ذكر لنا أن رجلا قال لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، قُحطَ المطر وقنط الناس؟ فقال عمر، رضى الله عنه: مطرتم، ثم قرأ: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ﴾[(١)].

﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أى: هو المتصرف لخلقه بما ينفعهم فى دنياهم وأخراهم، وهو المحمود العاقبة فى جميع ما يقدره ويفعله.

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (٢٩) وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ (٣٠) وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٣١) ﴾ .

يقول تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ﴾ الدالة على عظمته وقدرته العظيمة وسلطانه القاهر ﴿خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا﴾ أى: ذرأ فيهما، أى: فى السموات والأرض، ﴿مِن دَابَّةٍ ﴾، وهذا يشمل الملائكة والجن والإنس وسائر الحيوانات، على اختلاف أشكالهم وألوانهم ولغاتهم، وطباعهم وأجناسهم، وأنواعهم، وقد فرقهم فى أرجاء أقطار الأرض والسموات، ﴿ وَهُوَ ﴾ مع هذا كله ﴿ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ أى: يوم القيامة يجمع الأولين والآخرين وسائر الخلائق فى صعيد واحد، يسمعهم الداعى، ويَنْفُذهم البصر، فيحكم فيهم بحكمه العدل الحق.

وقوله: ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ أى: مهما أصابكم أيها الناس من المصائب فإنما هو[(٢)] عن سيئات تقدمت لكم، ﴿ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ أى: من السيئات، فلا يجازيكم عليها بل يعفو عنها، ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ ﴾ [فاطر: ٤٥]. وفى الحديث الصحيح: «والذى نفسى بيده، ما يصيب المؤمن من نَصَب ولا وَصَب ولا هم ولا حُزَن، إلا كفر الله عنه بها من خطاياه، حتى الشوكة[(٣)] يشاكها»[(٤)].

وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَيَّة، حدثنا أيوب قال: قرأت فى كتاب أبى قِلاَبَة قال: نزلت: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ .وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، وأبو بكر يأكل، فأمسك وقال: يا رسول الله، إنى لراء ما عملت من خير وشر؟ فقال: «أرأيت ما رأيت مما تكره، فهو من مثاقيل ذَرّ الشر، وتدخر مثاقيل الخير حتى تعطاه يوم القيامة» قال: قال أبو إدريس: فإنى أرى مصداقها فى كتاب الله: ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾[(٥)].

ثم رواه من وجه آخر، عن أبى قِلاَبَة، عن أنس[(٦)]، قال: والأول أصح.

(١) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٥/ ١٩).

(٢) فى ت، أ: «هى».

(٣) فى ت، أ: «بالشوكة».

(٤) صحيح البخارى برقم (٥٦٤١، ٥٦٤٢) وصحيح مسلم برقم (٢٥٧٣) «من حديث أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة رضى الله عنهما».

(٥) تفسير الطبرى (٢٥/ ٢٠).

(٦) تفسير الطبرى (٢٥/ ٢١).

www.Quranpdf.blogspot.in

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن عيسى بن الطباع، حدثنا مروان بن معاوية الفَزَارِي، حدثنا الأزهر بن راشد الكاهلي، عن الخَضْر بن القَوَّاس البجلي، عن أبي سخيلة[1]، عن علي، رضي الله عنه، قال: ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله عز وجل، وحدثنا به رسول الله ﷺ، قال: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾. وسأفسرها لك يا علي: «ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا، فبما كسبت أيديكم[2]، والله تعالى أحلم من أن يُثَنِّي عليه العقوبة في الآخرة، وما عفا الله عنه في الدنيا فالله[3] تعالى أكرم من أن يعود بعد عفوه».

وكذا رواه الإمام أحمد، عن مروان بن معاوية وعَبْدة، عن أبي سُخَيلة قال: قال علي. . . فذكر نحوه مرفوعا[4].

ثم روى ابن أبي حاتم [نحوه][5] من وجه آخر موقوفا فقال: حدثنا أبي، حدثنا منصور بن أبي مزاحم، حدثنا أبو سعيد بن أبي الوضاح، عن أبي الحسن، عن أبي جُحَيفَة قال: دخلت على علي ابن أبي طالب، رضي الله عنه، فقال: ألا أحدثكم بحديث ينبغي لكل مؤمن أن يَعيَه[6]؟ قال: فسألناه، فتلا[7] هذه الآية: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾. قال: ما عاقب الله به في الدنيا فالله أحلم من أن يُثَنِّي عليه العقوبة يوم القيامة، وما عفا الله عنه في الدنيا فالله أكرم من أن يعود في عفوه يوم القيامة.

وقال[8] الإمام أحمد: حدثنا يعلى بن عبيد، حدثنا طلحة ـ يعني ابن يحيى ـ عن أبي بُرْدَة، عن معاوية ـ هو ابن أبي سفيان، رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من شيء يصيب المؤمن في جسده يؤذيه إلا كَفَّرَ الله عنه به من سيئاته»[9].

وقال أحمد أيضا: حدثنا حسين، عن زائدة، عن ليث، عن مجاهد[10]، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا كثرت ذنوب العبد، ولم يكن له ما يكفرها، ابتلاه الله بالحَزَن ليكفرها»[11].

وقال[12] ابن أبي حاتم: حدثنا عمرو بن عبد الله الأودي، حدثنا أبو أسامة، عن إسماعيل بن مسلم، عن الحسن ـ هو البصري ـ قال في قوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ قال: لما نزلت قال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، ما من خَدْش عود، ولا اختلاج عِرْق، ولا عَثْرة قدم، إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر»[13].

وقال[14] أيضا: حدثنا أبي، حدثنا عمر بن علي، حدثنا هُشَيْم، عن منصور، عن الحسن، عن

(١) في ت: «وروى ابن أبي حاتم بإسناده». (٢) في أ: «أيديكم ويعفو عن كثير». (٣) في ت: «والله».
(٤) المسند (١/ ٨٥).
(٥) زيادة من أ. (٦) في أ: «يصيبه».
(٧) في ت: «قبل». (٨) في ت: «وروى».
(٩) المسند (٤/ ٩٨) قال الهيثمي في المجمع (٢/ ٣٠١): «رجال أحمد رجال الصحيح».
(١٠) في ت، م: «عن مجاهد، وروى أيضا».
(١١) المسند (٦/ ١٥٧).
(١٢) في ت: «وروى».
(١٣) ورواه هناد بن السري في الزهد برقم (٤٣١) من طريق إسماعيل بن مسلم به مرسلا.
(١٤) في ت: «وروى».

www.Quranpdf.blogspot.in

عمران بن حصين، رضى الله عنه، قال: دخل عليه بعض أصحابه وقد كان ابتلى فى جسده، فقال له بعضهم إنا لَنَبْتَئِسُ لك لما نرى فيك. قال: فلا تبتئس بما ترى، فإن ما ترى بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾.

[قال:][1] وحدثنا أبى: حدثنا يحيى بن عبد الحميد الحمَّانى، حدثنا جرير، عن أبى البلاد[2] قال: قلت للعلاء بن بدر: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾، وقد ذهب بصرى وأنا غلام؟ قال: فبذنوب والديك.

وحدثنا أبى: حدثنا على بن محمد الطَّنَافسى، حدثنا وكيع، عن عبد العزيز بن أبى رواد، عن الضحاك[3] قال: ما نعلم أحدا حفظ القرآن ثم نسيه[4] إلا بذنب، ثم قرأ الضحاك: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾. ثم يقول الضحاك: وأى مصيبة أعظم من نسيان القرآن.

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٣٢) إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ (٣٤) وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٣٥) ﴾ .

يقول تعالى: ومن آياته الدالة على قدرته وسلطانه، تسخيره البحر لتجرى فيه الفلك بأمره، وهى الجوارى فى البحر كالأعلام، أى: كالجبال، قاله مجاهد، والحسن، والسدى، والضحاك، أى: هى[5] فى البحر كالجبال فى البر، ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ﴾ أى: التى تسير بالسفن[6]، لو شاء لسكنها حتى لا تتحرك[7] السفن، بل تظل راكدة لا تجىء ولا تذهب، بل واقفة على ظهره، أى: على وجه الماء ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أى: فى الشدائد ﴿شَكُورٍ﴾ أى: إن فى تسخيره البحر وإجرائه الهوى بقدر ما يحتاجون إليه لسيرهم، لدلالات على نعمه تعالى على خلقه ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أى: فى الشدائد، ﴿شَكُورٍ﴾ فى الرخاء.

وقوله: ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا ﴾ أى: ولو شاء لأهلك السفن وغرقها بذنوب أهلها الذين هم راكبون عليها[8]، ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ أى: من ذنوبهم. ولو أخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك كل من ركب البحر[9].

وقال بعض علماء التفسير: معنى قوله: ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾ أى: لو شاء لأرسل الريح قوية عاتية، فأخذت السفن وأحالتها[10] عن سيرها المستقيم، فصرفتها ذات اليمين أو ذات الشمال، آبقة لا تسير على طريق، ولا إلى جهة مقصد.

---

(١) زيادة من ت، أ. (٢) فى أ: «أبى العلا». (٣) فى ت: «وروى أيضا عن الضحاك».
(٤) فى أ: «سيبه». (٥) فى أ: «هذه». (٦) فى ت: «تسير بها السفن».
(٧) فى ت: «يتحرك». (٨) فى ت، م، أ: «فيها». (٩) فى م: «كل من يركب فى البحر»، وفى أ: «كل من يركب البحر».
(١٠) فى ت، أ: «فأجالتها»، وفى م: «فاجتالتها».

www.Quranpdf.blogspot.in

وهذا القول هو يتضمن هلاكها، وهو مناسب للأول[١]، وهو أنه تعالى لو شاء لسكن الريح فوقفت، أو لقواه فشردت وأبقَت وهلكت. ولكن من لطفه[٢] ورحمته أنه يرسله بحسب الحاجة، كما يرسل المطر بقدر الكفاية، ولو أنزله كثيرا جدا لهدم البنيان، أو قليلا لما أنبت الزرع[٣] والثمار، حتى إنه يرسل إلى مثل بلاد مصر سيحا من أرض أخرى غيرها[٤]؛ لأنهم لا يحتاجون إلى مطر، ولو أنزل عليهم لهدم بنيانهم، وأسقط جدرانهم.

وقوله: ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي: لا محيد لهم عن بأسنا ونقمتنا، فإنهم مقهورون بقدرتنا.

﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩)﴾ .

يقول تعالى محقرا بشأن الحياة الدنيا وزينتها، وما فيها من الزهرة والنعيم الفانى، بقوله: ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى: مهما حصلتم وجمعتم فلا تغتروا به، فإنما هو متاع الحياة الدنيا، وهى دار دنيئة فانية زائلة لا محالة، ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ أى: وثواب الله خير من الدنيا، وهو باق سرمدى، فلا تقدموا الفانى على الباقى؛ ولهذا قال: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى: للذين صبروا على ترك الملاذ فى الدنيا، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أى: ليعينهم على الصبر فى أداء الواجبات وترك المحرمات.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾، وقد قدمنا الكلام على الإثم والفواحش فى «سورة الأعراف» ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أى: سجيتهم [وخلقهم وطبعهم][٥] تقتضى الصفح والعفو عن الناس، ليس سجيتهم الانتقام من الناس.

وقد ثبت فى الصحيح: أن رسول الله ﷺ ما انتقم لنفسه قط، إلا أن تنتهك حرمات الله[٦]. وفى حديث آخر: «كان يقول لأحدنا[٧] عند المعتبة: ماله؟ تربت جبينه»[٨].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا ابن أبى عمر، حدثنا سفيان، عن زائدة، عن منصور[٩]، عن إبراهيم قال: كان المؤمنون يكرهون أن يستذلوا، وكانوا إذا قدروا عفوا.

---

(١) فى ت، أ: «للقول الأول». (٢) فى أ: «لطف الله». (٣) فى ت، م: «الزروع».
(٤) فى أ: «عليها». (٥) زيادة من أ.
(٦) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٦١٢٦) من حديث عائشة بلفظ: «وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه فى شىء قط، إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم بها لله».
(٧) فى أ: «للرجل».
(٨) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٦٠٣١) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .
(٩) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بسنده».

www.Quranpdf.blogspot.in

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أى: اتبعوا رسله وأطاعوا أمره، واجتنبوا زجره، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاةَ﴾، وهى أعظم العبادات لله عز وجل، ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أى: لا يبرمون أمرا حتى يتشاوروا [١]فيه، ليتساعدوا بآرائهم فى مثل الحروب وما جرى مجراها، كما قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ولهذا كان عليه [الصلاة][٢] السلام، يشاورهم فى الحروب ونحوها، ليطيب بذلك قلوبهم. وهكذا لما حضرت عمر بن الخطاب [رضى الله عنه][٣] الوفاة حين طعن، جعل الأمر بعده شورى فى ستة نفر، وهم: عثمان، وعلى، وطلحة، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن بن عوف، رضى الله عنهم أجمعين، فاجتمع رأى الصحابة كلهم على تقديم عثمان عليهم، رضى الله عنهم، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾، وذلك بالإحسان إلى خلق الله، الأقرب إليهم منهم فالأقرب.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ أى: فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم، ليسوا بعاجزين ولا أذلة، بل يقدرون على الانتقام ممن بغى عليهم، وإن كانوا مع هذا إذا قدروا وعفوا، كما قال يوسف، عليه السلام، لإخوته: ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ [وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ][٤]﴾ [يوسف: ٩٢]، مع قدرته على مؤاخذتهم ومقابلتهم على صنيعهم إليه، وكما عفا رسول الله ﷺ عن أولئك النفر الثمانين الذين قصدوه عام الحديبية، ونزلوا من جبل التنعيم، فلما قدر عليهم مَنَّ عليهم [٥] مع قدرته على الانتقام، وكذلك عفوه عن غَوْرَث بن الحارث، الذى أراد الفتك به [عليه السلام] [٦]حين اخترط سيفه وهو نائم، فاستيقظ، عليه السلام، وهو فى يده صَلْتًا، فانتهره، فوضعه من يده، وأخذ رسول الله ﷺ السيف من يده، ودعا أصحابه، ثم أعلمهم بما كان من أمره وأمر هذا الرجل، وعفا عنه. وكذلك عفا عن لبيد بن الأعصم[٧]، الذى سحره، عليه السلام، ومع هذا لم يعرض له، ولا عاتبه، مع قدرته عليه. وكذلك عفوه، عليه السلام، عن المرأة اليهودية ـ وهى زينب أخت[٨] مرحب اليهودى الخيبرى الذى قتله محمود بن مسلمة ـ التى سمت الذراع يوم خيبر، فأخبره الذراع بذلك، فدعاها فاعترفت فقال: «ماحملك على ذلك» قالت: أردت إن كنت نبيا لم يضرك، وإن لم تكن نبيا استرحنا منك، فأطلقها، عليه الصلاة والسلام، ولكن لما مات منه بشر بن البراء قتلها به، والأحاديث والآثار فى هذا كثيرة جدا، والحمد لله[٩].

﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (٤٣) ﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾، كقوله تعالى: ﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا

(١) فى أ: «يشاورون». (٢) زيادة من ت. (٣) زيادة من ت.
(٤) زيادة من أ. (٥) فى ت، م،أ: «عنهم». (٦) زيادة من ت.
(٧) فى ت: «أعصم». (٨) فى ت، م: «بنت». (٩) فى أ: «ولله الحمد والمنة».

www.Quranpdf.blogspot.in

اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]. وكقوله[1] ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٩]، فشرع العدل وهو القصاص، وندب إلى الفضل وهو العفو، كقوله [تعالى][2]: ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ [المائدة: ٤٥]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾أى: لا يضيع ذلك عند الله كما صح فى الحديث: «وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا». وقوله: ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ أى: المعتدين، وهو المبتدئ بالسيئة.

[وقال بعضهم: لما كانت الأقسام ثلاثة: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات، ذكر الأقسام الثلاثة فى هذه الآية فذكر المقتصد وهو الذى يفيض بقدر حقه لقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾، ثم ذكر السابق بقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾، ثم ذكر الظالم بقوله: ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ فأمر بالعدل، وندب إلى الفضل، ونهى من الظلم][3].

ثم قال: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ أى: ليس عليهم جناح فى الانتصار ممن ظلمهم.

قال ابن جرير[4]: حدثنا محمد بن عبد الله بن بَزِيع[5]، حدثنا معاذ بن معاذ، حدثنا[6] ابن عَوْن قال: كنت أسأل عن الانتصار: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾، فحدثنى على ابن زيد[7] بن جدعان، عن أم محمد ـ امرأة أبيه ـ قال ابن عون: زعموا أنها كانت تدخل على أم المؤمنين عائشة[8] ـ قالت: قالت أم المؤمنين: دخل علينا رسول الله ﷺ، وعندنا زينب بنت جحش، فجعل يصنع بيده شيئا فلم يَفْطِنْ لها، فقلت بيده حتى[9] فَطَّنته لها، فأمسك. وأقبلت زينب تقحم لعائشة، فنهاها، فأبت أن تنتهى. فقال لعائشة: «سُبِّيها» فسبتها فغلبتها، وانطلقت زينب فأتت عليا فقالت: إن عائشة تقع بكم، وتفعل بكم. فجاءت فاطمة فقال[10] لها: «إنها حبة أبيك ورب الكعبة» فانصرفت، وقالت لعلى: إنى قلت له كذا وكذا، فقال لى كذا وكذا. قال: وجاء على إلى النبى ﷺ فكلمه فى ذلك[11].

هكذا ورد هذا السياق، وعلى بن زيد بن جدعان يأتى فى رواياته بالمنكرات غالبا، وهذا فيه نكارة، والحديث الصحيح خلاف هذا السياق، كما رواه النسائى وابن ماجه من حديث خالد بن سلمة الفأفاء، عن عبد الله البَهِىّ، عن عروة قال: قالت عائشة، رضى الله عنها: ما علمتُ حتى دخلت علىَّ زينب بغير إذن وهى غضبى، ثم قالت لرسول الله ﷺ: حسبك إذا قلبت لك ابنة أبى بكر ذُرَيِّعَتَيْهَا ثم أقبلت على فأعرضت عنها، حتى قال النبى ﷺ: «دونك فانتصرى» فأقبلت عليها حتى رأيتها وقد يبس ريقها فى فمها، ما[12] ترد على شيئا. فرأيت النبى ﷺ يتهلل وجهه. وهذا لفظ

---

(١) فى ت: «وقوله». (٢) زيادة من ت. (٣) زيادة من ت، أ.
(٤) فى ت: «وروى ابن جرير» (٥) فى أ: «سويع».
(٦) فى ت: «عن». (٧) فى ت: «يزيد». (٨) فى ت: «عائشة رضى الله عنها».
(٩) فى أ: «فقلت له حتى». (١٠) فى ت: «فقالت».
(١١) تفسير الطبرى (٢٥/ ٢٤).
(١٢) فى م: «لم».

www.Quranpdf.blogspot.in

النسائى[١].

وقال البزار: حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا أبو غسان، حدثنا أبو الأحوص، عن أبى حمزة، عن إبراهيم، عن الأسود[٢]، عن عائشة، رضى الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «من دعا على من ظلمه فقد انتصر».

ورواه الترمذى من حديث أبى الأحوص، عن أبى حمزة ـ واسمه ميمون ـ ثم قال: « لانعرفه إلا من حديثه، وقد تكلم فيه من قبل حفظه»[٣].

وقوله: ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ أى: إنما الحرج والعنت﴿ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أى: يبدؤون الناس بالظلم. كما جاء فى الحديث الصحيح: «المُسْتَبَّان ما قالا، فعلى البادئ ما لم يَعْتَد المظلوم».

﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى: شديد موجع.

قال أبو بكر بن أبى شيبة: حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا سعيد بن زيد ـ أخو حماد بن زيد ـ حدثنا عثمان الشحام، حدثنا [٤] محمد بن واسع قال: قدمت مكة فإذا على الخندق مَنْظَرَة، فأخذت فانطلق بى إلى مروان بن المهلب، وهو أمير على البصرة، فقال: حاجتك يا أبا عبد الله. قلت: حاجتى إن استطعت أن تكون كما قال أخو بنى عدى. قال: ومن أخو بنى عدى؟ قال: العلاء بن زياد، استعمل صديقا له مرة على عمل، فكتب إليه: أما بعد فإن استطعت ألا تبيت إلا وظهرك خفيف، وبطنك خميص، وكفك نقية من دماء المسلمين وأموالهم، فإنك إذا فعلت [٥] ذلك لم يكن عليك سبيل، ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾فقال[٦]: صدق والله ونصح ثم قال: ما حاجتك يا أبا عبد الله؟ قلت: حاجتى أن تلحقنى بأهلى. قال: نعم. رواه ابن أبى حاتم[٧].

ثم إنه تعالى لما ذم الظلم وأهله وشرع القصاص، قال نادباً إلى العفو والصفح: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ أى: صبر على الأذى وستر السيئة، ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾.

قال سعيد بن جبير: [يعنى] [٨] لمن حق الأمور التى أمر الله بها، أى: لمن الأمور المشكورة والأفعال الحميدة [٩] التى عليها ثواب جزيل وثناء جميل.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عمران بن موسى الطرسوسى، حدثنا عبد الصمد بن يزيد ـ خادم الفُضَيل بن عياض ـ قال: سمعت [١٠] الفضيل بن عياض يقول[١١]: إذا أتاك رجل

(١) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٧٦) وسنن ابن ماجه برقم (١٩٨١) قال البوصيرى فى الزوائد (٢/ ١١٥): «هذا إسناد صحيح على شرط مسلم».
(٢) فى ت: «وروى البزار بسنده».
(٣) سنن الترمذى برقم (٣٥٥٢) ورواه ابن أبى شيبة فى المصنف (١٠/ ٣٤٧) وابن عدى فى الكامل (٦/ ٤١٢) من طريق أبى الأحوص به، وقال ابن عدى: «لا أعلم من يرويه عن أبى حمزة غير أبى الأحوص».
(٤) فى ت: «عن». (٥) فى أ: «قبلت». (٦) فى ت، أ: «فقال مروان».
(٧) المصنف لابن أبى شيبة (١٤/ ٦٣)
(٨) زيادة من أ. (٩) فى ت: «المحمودة». (١٠) فى ت« وعن».
(١١) فى ت: «قال».

www.Quranpdf.blogspot.in

يشكو إليك رجلا فقل: «ياأخى، اعف عنه». فإن العفو أقرب للتقوى، فإن قال: لا يحتمل قلبى العفو، ولكن أنتصر كما أمرنى الله [١] عز وجل. فقل له[٢]: إن كنت تحسن أن تنتصر وإلا فارجع إلى باب العفو، فإنه باب واسع، فإنه من عفا وأصلح فأجره على الله، وصاحب العفو ينام على فراشه بالليل، وصاحب الانتصار يقلب الأمور[٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى ـ يعنى ابن سعيد القطان ـ عن ابن عَجْلان، حدثنا سعيد بن أبى سعيد[٤]، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، أن رجلا شتم أبا بكر والنبى ﷺ جالس، فجعل النبى ﷺ يعجب ويتبسم، فلما أكثر رد عليه بعض قوله، فغضب النبى ﷺ وقام، فلحقه أبو بكر فقال: يا رسول الله، إنه كان يشتمنى وأنت جالس، فلما رددت عليه بعض قوله غضبت وقمت! قال: «إنه كان معك ملك يرد عنك، فلما رددت عليه بعض قوله حضر[٥] الشيطان، فلم أكن لأقعد مع الشيطان». ثم قال: «يا أبا بكر، ثلاث كلهن حق، ما من عبد ظُلم بمظلمة فيغضى عنها لله، إلا أعز الله بها نَصْرَه، وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة، إلا زاده الله بها كثرة، وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة ، إلا زاده الله بها قلة».

وكذا رواه أبو داود، عن عبد الأعلى بن حماد، عن سفيان بن عيينة ـ قال: ورواه صفوان بن عيسى، كلاهما عن محمد بن عَجْلان [٦] .ورواه من طريق الليث، عن سعيد المَقْبُرِى، عن بشير بن المحرر،عن سعيد بن المسيب مرسلا[٧].

وهذا الحديث فى غاية الحسن فى المعنى، وهو سببُ سبه للصديق[٨].

﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ (٤٤) وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ (٤٥) وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ (٤٦) ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن نفسه الكريمة: إنه ما شاء [٩] كان ولا راد له، وما لم يشأ لم يكن فلا موجد له[١٠]، وأنه من هداه فلا مُضِل له، ومن يضلل [١١] فلا هادى له، كما قال: **﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾** [الكهف:١٧].

ثم قال مخبرا عن الظالمين، وهم المشركون بالله **﴿ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾** أى: يوم القيامة يتمنون

---

(١) فى ت:«ربى». (٢) فى ت، أ:«قال له الفضيل». (٣) بعدها: «رواه ابن أبى حاتم».
(٤) فى ت:«وروى الإمام أحمد بسنده». (٥) فى ت، م،أ:«وقع».
(٦) المسند (٢/٤٣٦) وسنن أبى داود برقم (٤٨٩٦، ٤٨٩٧).
(٧) سنن أبى داود برقم (٤٨٩٧).
(٨) فى ت، أ: «وهذا الحديث فى غاية الحسن وهو مناسب للصديق»، وفى م: «وهذا الحديث فى غاية الحسن فى المعنى وهو مناسب للصديق».
(٩) فى ت: «ما شاء الله». (١٠) فى أ: «فلا مؤاخذة له». (١١) فى ت، م: «يضلل الله».

www.Quranpdf.blogspot.in

الرجعة إلى الدنيا، ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾، كما قال[تعالى][(١)]: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨].

وقوله: ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أى: على النار ﴿خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ﴾، أى: الذى قد اعتراهم بما أسلفوا من عصيان الله، ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ قال مجاهد: يعنى ذليل، أى ينظرون إليها مُسَارقة خوفا منها، والذى يحذرون منه واقع بهم لا محالة، وما هو أعظم مما فى نفوسهم، أجارنا الله من ذلك.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى: يقولون يوم القيامة: ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾ أى: الخسار [(٢)] الأكبر ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أى: ذهب بهم إلى [(٣)] النار، فعدموا لذتهم فى دار الأبد، وخسروا أنفسهم، وفرق بينهم وبين أصحابهم وأحبابهم وأهاليهم وقراباتهم[(٤)]، فخسروهم، ﴿أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ أى: دائم سرمدى أبدى، لا خروج لهم منها ولا محيد لهم عنها.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أى: ينقذونهم مما هم فيه من العذاب والنكال، ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ﴾ أى: ليس له خلاص.

﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ (٤٧) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ (٤٨) ﴾.

لما ذكر تعالى ما يكون فى يوم القيامة من الأهوال والأمور العظام الهائلة، حَذَّر منه وأمر بالاستعداد له، فقال: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ أى: إذا أمر بكونه فإنه كلمح البصر يكون، وليس له دافع ولا مانع.

وقوله: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ أى: ليس لكم حصن تتحصنون فيه، ولا مكان يستركم وتتنكرون فيه، فتغيبون عن بصره، تبارك وتعالى، بل هو محيط بكم بعلمه وبصره وقدرته، فلا ملجأ منه إلا إليه، ﴿يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ . كَلاَّ لا وَزَرَ . إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾[القيامة: ١٠ ـ ١٢].

وقوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ يعنى: المشركين ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أى: لست عليهم بمصيطر. وقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]. وقال هاهنا: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾ أى: إنما كلفناك أن تبلغهم رسالة الله إليهم.

---

(١) زيادة من ت.
(٢) فى أ: «الخاسر».
(٣) فى ت: «فى».
(٤) فى ت: «وأقربائهم».

www.Quranpdf.blogspot.in

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ أى: إذا أصابه رخاء ونعمة فرح بذلك، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ يعنى الناس ﴿سَيِّئَةٌ﴾ أى: جدب ونقمة وبلاء وشدة، ﴿فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ﴾ أى: يجحد ما تقدم من النعمة[١] ولا يعرف إلا الساعة الراهنة، فإن أصابته نعمة أشر وبطر، وإن أصابته محنة يئس وقنط، كما قال رسول الله ﷺ[للنساء][٢]: «يا معشر النساء، تصدقن فإنى رأيتكن أكثر أهل النار» فقالت امرأة: ولِمَ يارسول الله؟ قال: «لأنكن تُكثرن الشكاية، وتكفرن العشير، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم تركت يوما قالت: ما رأيت منك خيرا قط»[٣]. وهذا حال أكثر الناس[٤] إلا من هداه الله وألهمه رشده، وكان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فالمؤمن كما قال رسول الله ﷺ: «إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن»[٥].

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠)﴾.

يخبر تعالى أنه خالق السموات والأرض ومالكهما والمتصرف فيهما، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه يعطى من يشاء، ويمنع من يشاء، ولا مانع لما أعطى، ولا معطى لما منع، وأنه يخلق ما يشاء، و﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا﴾ أى: يرزقه البنات فقط ـ قال البغوى: ومنهم لوط، عليه السلام ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ أى: يرزقه البنين فقط. قال البغوى: كإبراهيم الخليل، عليه السلام ـ لم يولد له أنثى، ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾ أى: ويعطى من يشاء من الناس الزوجين الذكر والأنثى، أى: من هذا وهذا[٦]. قال البغوى: كمحمد، عليه الصلاة والسلام ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ أى: لا يولد له. قال البغوى: كيحيى وعيسى، عليهما السلام، فجعل الناس أربعة أقسام، منهم من يعطيه البنات، ومنهم من يعطيه البنين، ومنهم من يعطيه من النوعين ذكورا وإناثا، ومنهم من يمنعه هذا وهذا، فيجعله عقيما لا نسل له ولا يولد له، ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ﴾ أى: بمن يستحق كل قسم من هذه الأقسام، ﴿قَدِيرٌ﴾ أى: على من يشاء، من تفاوت الناس فى ذلك.

وهذا المقام شبيه بقوله تعالى عن عيسى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾[مريم: ٢١] أى: دلالة لهم على قدرته، تعالى وتقدس، حيث خلق الخلق على أربعة أقسام، فآدم، عليه السلام، مخلوق من تراب، لا من ذكر ولا أنثى، وحواء، عليها السلام، [مخلوقة][٧] من ذكر بلا أنثى، وسائر الخلق سوى عيسى [عليه السلام][٨] من ذكر وأنثى، وعيسى، عليه السلام، من أنثى بلا ذكر فتمت الدلالة بخلق عيسى ابن مريم، عليهما السلام؛ ولهذا قال: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾، فهذا المقام فى الآباء، والمقام الأول فى الأبناء، وكل منهما أربعة أقسام، فسبحان العليم القدير.

(١) فى ت، م: «النعم».
(٢) زيادة من ت، م، أ.
(٣) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٧٩) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنه، وبرقم (٨٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.
(٤) فى ت، م، أ: «النساء».
(٥) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٩٩) من حديث صهيب رضى الله عنه.
(٦) فى ت: «هذا من هذا».
(٧) زيادة من م.
(٨) زيادة من ت، م، وفى أ: «عيسى ابن مريم عليهما السلام».

www.Quranpdf.blogspot.in

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١) وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ (٥٣) ﴾.

هذه مقامات [١] الوحى بالنسبة إلى جناب الله، عز وجل، وهو أنه تعالى تارة يقذف فى روع النبى ﷺ شيئا لا يتمارى فيه أنه من الله عز وجل، كما جاء فى صحيح ابن حبان، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «إن رُوح القُدُس نفث فى رُوعى: أن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب»[٢].

وقوله: ﴿أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾، كما كلم موسى، عليه السلام، فإنه سأل الرؤية بعد التكليم، فحجب عنها.

وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لجابر بن عبد الله: «ما كلم الله أحدا إلا من وراء حجاب، وإنه كلم أباك كفاحا» الحديث[٣]، وكان [أبوه][٤] قد قتل يوم أحد، ولكن هذا فى عالم البرزخ، والآية إنما هى فى الدار [٥] الدنيا.

وقوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾، كما ينزل جبريل [عليه السلام] [٦] وغيره من الملائكة على الأنبياء، عليهم السلام، ﴿إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾، فهو على عليم خبير حكيم.

وقوله[٧]: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ يعنى: القرآن، ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ﴾ أى: على التفصيل الذى شرع لك فى القرآن، ﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ﴾ أى: القرآن ﴿ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾، كقوله: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

وقوله: ﴿وَإِنَّكَ ﴾ [أى] [٨]يامحمد ﴿لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وهو الخلق [٩] القويم، ثم فسره بقوله: ﴿صِرَاطِ اللَّهِ [الَّذِي][١٠] ﴾ أى: شرعه الذى أمر به الله، ﴿الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ أى: ربهما ومالكهما والمتصرف فيهما، الحاكم الذى لا معقب لحكمه، ﴿أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾، أى ترجع الأمور، فيفصلها ويحكم فيها .

آخر تفسير سورة «[حم][١١] الشورى» والحمد لله رب العالمين

(١) فى ت: «مقدمات».
(٢) ورواه البغوى فى شرح السنة (١٤/ ٣٠٤) من طريق إسماعيل بن أبى خالد عن زبيد اليامى عمن أخبره عن ابن مسعود به.
(٣) رواه الترمذى فى السنن برقم (٣٠١٠) وقال: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه».
(٤) زيادة من ت، أ.
(٥) فى ت: «دار». (٦) زيادة من م.
(٧) فى ت: «فقوله».
(٨) زيادة من م.
(٩) فى ت، م، أ: «الحق».
(١٠) زيادة من أ.
(١١) زيادة من أ.

www.Quranpdf.blogspot.in

تفسير سورة الزُّخرف

وهى مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (٤) أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ (٥) وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الأَوَّلِينَ (٦) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٧) فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الأَوَّلِينَ (٨) ﴾ .

يقول تعالى: ﴿حمٓ . وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أى: البين [١] الواضح الجلى المعانى والألفاظ؛ لأنه نزل[٢] بلغة العرب التى هى أفصح اللغات للتخاطب [٣] بين الناس؛ ولهذا قال: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ ﴾ أى: أنزلناه ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ أى: بلغة العرب فصيحا واضحا، ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أى: تفهمونه وتتدبرونه، كما قال: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٥].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾: بين شرفه فى الملأ الأعلى، ليشرفه ويعظمه ويطيعه أهل الأرض، فقال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ أى: القرآن ﴿ فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾ أى: اللوح المحفوظ، قاله ابن عباس، ومجاهد، ﴿ لَدَيْنَا ﴾ أى: عندنا، قاله قتادة وغيره، ﴿ لَعَلِيٌّ ﴾ أى: ذو مكانة عظيمة وشرف وفضل، قاله قتادة، ﴿ حَكِيمٌ ﴾ أى: محكم برىء من اللبس والزيغ.

وهذا كله تنبيه على شرفه وفضله، كما قال: ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ . لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ . تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الواقعة: ٧٧ـ ٨٠] وقال: ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ . فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ .فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ .مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ . بِأَيْدِي سَفَرَةٍ .كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ [عبس: ١١ ـ ١٦]؛ ولهذا استنبط العلماء، رحمهم الله، من هاتين الآيتين: أن المُحدثَ لا يمس المصحف، كما ورد به الحديث إن صح؛ لأن[٤] الملائكة يعظمون المصاحف المشتملة على القرآن فى الملأ الأعلى، فأهل الأرض بذلك أولى وأحرى، لأنه نزل عليهم، وخطابه متوجه إليهم، فهم أحق أن يقابلوه بالإكرام والتعظيم، والانقياد له بالقبول والتسليم، لقوله: ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾.

وقوله: ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ :اختلف المفسرون فى معناها، فقيل: معناها: أتحسبون أن نصفح عنكم فلا نعذبكم ولم تفعلوا ما أمرتم به؟ قاله ابن عباس، ومجاهد وأبو صالح، والسدى، واختاره ابن جرير[٥].

وقال قتادة فى قوله: ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾: والله لو أن هذا القرآن رفع حين ردته

(١) فى أ: «النير». (٢) فى ت، م: «منزل». (٣) فى ت، م: «المتخاطب».
(٤) فى ت، أ: «إن صح ، وقوله: «لا تمس المصحف إلا وأنت طاهر »لأن». (٥) فى ت: «ومجاهد وغيرهما».

www.Quranpdf.blogspot.in

أوائل [١] هذه الأمة لهلكوا، ولكن الله عاد بعائدته ورحمته، وكرره عليهم ودعاهم إليه عشرين سنة، أو ما شاء الله من ذلك.

وقول قتادة لطيف المعنى جدا، وحاصله أنه يقول فى معناه: أنه تعالى من لطفه ورحمته بخلقه لا يترك دعاءهم إلى الخير والذكر[٢] الحكيم ـ وهو القرآن ـ وإن كانوا مسرفين معرضين عنه، بل أمر[٣] به ليتهدى من قَدّر هدايته، وتقوم الحجة على من كتب شقاوته.

ثم قال تعالى ـ مسليا لنبيه فى تكذيب من كذبه من قومه، وآمرا له بالصبر عليهم ـ: ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الأَوَّلِينَ﴾ أى: فى شيع الأولين، ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون﴾ أى: يكذبونه ويسخرون به.

وقوله: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا ﴾ أى: فأهلكنا المكذبين بالرسل، وقد كانوا أشد بطشا من هؤلاء المكذبين لك يامحمد. كقوله: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ [غافر: ٨٢] والآيات فى ذلك كثيرة.

وقوله: ﴿ وَمَضَىٰ مَثَلُ الأَوَّلِينَ ﴾: قال مجاهد: سنتهم. وقال قتادة: عقوبتهم. وقال غيرهما: عبرتهم، أى: جعلناهم عبرة لمن بعدهم من المكذبين أن يصيبهم ما أصابهم، كقوله فى آخر هذه السورة: ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ﴾[الزخرف: ٥٦]. وكقوله: ﴿ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ [غافر: ٨٥] وقال: ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ [الأحزاب: ٦٢].

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠) وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١١) وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ (١٤) ﴾.

يقول تعالى: ولئن سألت ـ يا محمد ـ هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره: ﴿ مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيم﴾ أى: ليعترفن بأن الخالق لذلك هو الله [تعالى] [٤] وحده لا شريك له، وهم مع هذا يعبدون معه غيره من الأصنام والأنداد.

ثم قال: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مهاداً﴾ أى: فراشاً قراراً ثابتة، يسيرون عليها ويقومون وينامون وينصرفون، مع أنها مخلوقة على تيار الماء، لكنه أرساها بالجبال لئلا تميد هكذا ولا هكذا، ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً﴾ أى: طرقا بين الجبال والأودية ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُون﴾ أى: فى سيركم من بلد إلى بلد،

(١) فى ت: «أول».
(٢) فى ت، م، أ: «إلى الخير وإلى الذكر».
(٣) فى ت، م: «يأمر».
(٤) زيادة من أ.

www.Quranpdf.blogspot.in

وقطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم.

﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ أي: بحسب الكفاية لزروعكم [(١)] وثماركم وشربكم، لأنفسكم ولأنعامكم.

وقوله: ﴿ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ أي: أرضا ميتة، فلما جاءها الماء اهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج.

ثم نبه بإحياء الأرض على إحياء الأجساد يوم المعاد بعد موتها، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

ثم قال: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴾ أي: مما تنبت الأرض من سائر الأصناف، من نبات وزروع وثمار وأزاهير، وغير ذلك [أي] [(٢)] من الحيوانات على اختلاف أجناسها وأصنافها، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ﴾ أي: السفن﴿وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ أي: ذللها لكم وسخرها ويسرها لأكلكم لحومها، وشربكم ألبانها وركوبكم ظهورها؛ ولهذا قال: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ [(٣)] ﴾أي: لتستووا [(٤)] متمكنين مرتفقين ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾ أي: على ظهور هذا الجنس، ﴿ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾ أي: فيما سخر لكم ﴿إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ أي: مقاومين. ولولا تسخير[(٥)] الله لنا هذا ما قدرنا عليه.

قال ابن عباس[(٦)]، وقتادة، والسدى، وابن زيد: ﴿مُقْرِنِينَ﴾ أي: مطيقين [(٧)] . ﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ أي: لصائرون إليه بعد مماتنا، وإليه سيرنا الأكبر. وهذا من باب التنبيه بسير الدنيا على سير الآخرة، كما نبه بالزاد الدنيوى على [الزاد] [(٨)] الأخروى فى قوله: ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:١٩٧]، وباللباس الدنيوى على الأخروى فى قوله تعالى: ﴿وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ [ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ][(٩)]﴾ [الأعراف:٢٦].

ذكر الأحاديث الواردة عند ركوب الدابة:

حديث أمير المؤمنين على بن أبى طالب، رضى الله عنه:

قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا شَرِيك بن عبد الله، عن أبى إسحاق، عن على بن ربيعة قال: رأيت عليا، رضى الله عنه، أتى[(١٠)] بدابة، فلما وضع رجله فى الرّكاب قال: باسم الله. فلما استوى عليها قال: الحمد لله، ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ . وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾، ثم حمد الله ثلاثا، وكبر ثلاثا، ثم قال: سبحانك، لا إله إلا أنت، قد ظلمت نفسى فاغفر لى. ثم ضحك، فقلت له: من أى شىء ضحكت [(١١)] يا أمير المؤمنين؟ فقال: رأيتُ رسول الله ﷺ صنع كما صنعت[(١٢)] ،ثم ضحك .فقلت: مم ضحكت يارسول الله؟ فقال:«يعجب الرب [(١٣)] من عبده إذا قال: رب، اغفر لى. ويقول: علم عبدى أنه لا يغفر الذنوب غيرى».

---

(١) فى ت،م: «لزرعكم». (٢) زيادة من ت. (٣) فى ت:«ظهره».
(٤) فى أ:«لتستقروا». (٥) فى م:«ولولا ما يسخر». (٦) فى أ:«عياض».
(٧) فى أ:«مطيعين». (٨) زيادة من ت، م،أ. (٩) زيادة من أ. (١٠) فى ت: «أنه أتى».
(١١) فى ت، م:«مم ضحكت». (١٢) فى ت، م،أ: «فعل مثل ما فعلت». (١٣) فى ت، م: «الرب عز وجل».

www.Quranpdf.blogspot.in

وهكذا رواه أبو داود، والترمذى، والنسائى، من حديث أبى الأحوص ـ زاد النسائى: ومنصور ـ عن أبى إسحاق السَّبِيعى، عن على بن ربيعة الأسدى الوالبى، به [١] [٢]. وقال الترمذى: حسن صحيح.

وقد قال عبد الرحمن بن مَهْدِىّ، عن شعبة: قلت لأبى إسحاق السَّبِيعى: ممن سمعت هذا الحديث؟ قال: من يونس بن خباب. فلقيت يونس بن خباب فقلت: ممن سمعته؟ فقال: من رجل سمعه من على بن ربيعة. ورواه بعضهم عن يونس بن خباب، عن شقيق بن عقبة الأسدى، عن على ابن ربيعة الوالبى، به[٣].

حديث عبد الله بن عباس، رضى الله عنهما:

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا أبو بكر بن عبد الله، عن على بن أبى طلحة، عن عبد الله بن عباس؛ أن رسول الله ﷺ أردفه على دابته، فلما استوى عليها كبر رسول الله ﷺ ثلاثا، وحمد[٤] ثلاثا، وهلل الله واحدة. ثم استلقى عليه فضحك، ثم أقبل عليه فقال: «ما من امرئ مسلم يركب دابة فيصنع كما صنعت، إلا أقبل الله، عز وجل، عليه، فضحك إليه كما ضحكت إليك». تفرد به أحمد[٥].

حديث عبد الله بن عمر، رضى الله عنهما:

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو كامل، حدثنا حماد بن سلمة، عن أبى الزبير، عن على بن عبد الله البارقى، عن عبد الله بن عمر، رضى الله عنهما؛ أن النبى ﷺ كان إذا ركب راحلته كبر ثلاثا ثم قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ . وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾. ثم يقول: «اللهم إنى أسألك فى سفرى هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى. اللهم، هون علينا السفر واطو لنا البعيد. اللهم، أنت الصاحب فى السفر، والخليفة فى الأهل. اللهم، اصحبنا فى سفرنا، واخلفنا فى أهلنا». وكان إذا رجع إلى أهله قال: «آيبون تائبون إن شاء الله، عابدون، لربنا حامدون».

وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائى، من حديث ابن جريج، والترمذى من حديث حماد بن سلمة، كلاهما عن أبى الزبير، به[٦].

حديث آخر:

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا محمد بن إسحاق، عن محمد بن إبراهيم، عن

---

(١) فى ت: «رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى».
(٢) المسند (١/ ٩٧) وسنن أبى داود برقم (٢٦٠٢) وسنن الترمذى برقم (٣٤٤٦) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٨٨٠٠).
(٣) تحفة الأشراف للمزى (٧/ ٤٣٦).
(٤) فى ت، أ: «وحمد الله ثلاثا».
(٥) المسند (١/ ٣٣٠) قال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١٣١): «فيه أبو بكر بن أبى مريم وهو ضعيف».
(٦) المسند (٢/ ١٤٤) وصحيح مسلم برقم (١٣٤٢) وسنن أبى داود برقم (٢٥٩٩) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٣٨٢) وسنن الترمذى برقم (٣٤٤٧).

www.Quranpdf.blogspot.in

عمرو بن الحكم بن ثوبان[١]، عن أبى لاس الخزاعى قال: حملنا رسول الله ﷺ على إبل من إبل الصدقة إلى الحج. فقلنا: يا رسول الله، ما نرى[٢] أن تحملنا هذه! فقال: «ما من بعير إلا فى ذروته شيطان، فاذكروا اسم الله عليها إذا ركبتموها كما آمركم[٣]، ثم امتهنوها لأنفسكم، فإنما يحمل الله عز وجل»[٤].

أبو لاس اسمه: محمد بن الأسود بن خَلَف.

حديث آخر فى معناه:

قال أحمد: حدثنا عَتَّاب، أخبرنا عبد الله (ح) وعلى بن إسحاق، أخبرنا عبد الله ـ يعنى ابن المبارك ـ أخبرنا أسامة بن زيد، أخبرنى محمد بن حمزة؛ أنه سمع أباه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «على ظهر كل بعير شيطان، فإن ركبتموها فسموا الله، عز وجل، ثم لا تقصروا عن حاجاتكم»[٥].

﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ (١٥) أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ (١٦) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧) أَوَ مَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨) وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (٢٠) ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن المشركين فيما افتروه وكذبوه فى جعلهم بعض الأنعام لطواغيتهم وبعضها لله، كما ذكر الله عنهم فى سورة «الأنعام»، فى قوله: **﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾** [الأنعام: ١٣٦] .وكذلك جعلوا له من قسمى[٦] البنات والبنين أخسَّهما وأردأهما وهو البنات، كما قال تعالى: **﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ . تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾** [النجم: ٢١، ٢٢]. وقال هاهنا: **﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾**.

ثم قال: **﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ﴾**؟، وهذا إنكار عليهم غاية الإنكار. ثم ذكر تمام الإنكار فقال: **﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾** أى: إذا بشر أحد هؤلاء بما جعلوه لله من البنات يأنف من ذلك غاية الأنفة، وتعلوه كآبة من سوء ما بشر به،

(١) فى ت: «رواه الإمام أحمد بسنده». (٢) فى م: «ما ترى». (٣) فى ت: «أمرتم».
(٤) المسند (٤/ ٢٢١) ورجاله ثقات.
(٥) المسند (٣/ ٤٩٤) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١٣١): «رجاله رجال الصحيح غير محمد بن حمزة وهو ثقة».
(٦) فى ت: «من كل قسم».

www.Quranpdf.blogspot.in

ويتوارى من القوم من خجله من ذلك، يقول تعالى: فكيف تأنفون أنتم من ذلك، وتنسبونه إلى الله عز وجل؟

ثم قال: ﴿أَوَ مَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ أى: المرأة ناقصة يكمل نقصها بلبس الحلى منذ تكون طفلة، وإذا خاصمت فلا عبارة لها، بل هى عاجزة عَيِيَّة، أَوَ مَنْ يكون هكذا ينسب إلى جناب الله عز وجل[(١)]؟!، فالأنثى ناقصة الظاهر والباطن، فى الصورة والمعنى، فيكمل نقص ظاهرها وصورتها بلبس الحلى وما فى معناه، ليجبر ما فيها من نقص، كما قال بعض شعراء العرب:

وَمَا الحَلْى إلا زينَةٌ من نقيصةٍ ... يتمّمُ من حُسْن إذا الحسْنُ قَصَّرا
وأمَّا إذَا كان الجمالُ موفَّرا ... كحُسْنك، لم يَحْتَجْ إلى أن يزوَّرا

وأما نقص معناها، فإنها ضعيفة عاجزة عن الانتصار عند الانتصار، لا عبارة لها ولا همة، كما قال بعض العرب وقد بشر ببنت: «ما هى بنعم الولد: نصرها بالبكاء، وبرها سرقة».

وقوله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾ أى: اعتقدوا فيهم ذلك، فأنكر عليهم تعالى قولهم ذلك، فقال: ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ أى: شاهدوه وقد خلقهم الله إناثا، ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ﴾ أى: بذلك، ﴿وَيُسْأَلُونَ﴾ عن ذلك يوم القيامة. وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد.

﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ أى: لو أراد الله لحال بيننا وبين عبادة هذه الأصنام، التى هى على صور[(٢)] الملائكة التى هى بنات الله، فإنه عالم بذلك وهو يقررنا عليه، فجمعوا بين أنواع كثيرة من الخطأ:

أحدها: جَعْلُهم لله ولدا، تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علوا كبيرا.

الثانى: دعواهم أنه اصطفى البنات على البنين، فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا.

الثالث: عبادتهم لهم مع ذلك كله، بلا دليل ولا برهان، ولا إذن من الله عز وجل، بل بمجرد الآراء والأهواء، والتقليد للأسلاف والكبراء والآباء، والخبط فى الجاهلية الجهلاء.

الرابع: احتجاجهم بتقريرهم على ذلك قَدَرا [والحجة إنما تكون بالشرع][(٣)]، وقد جهلوا فى هذا الاحتجاج جهلاً كبيرًا، فإنه تعالى قد أنكر ذلك عليهم أشد الإنكار، فإنه منذ بعث الرسل وأنزل الكتب يأمر بعبادته وحده لا شريك له، وينهى عن عبادة ما سواه، قال [تعالى][(٤)]: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥].

---

(١) فى ت: «الله تعالى»، وفى م، أ: «الله العظيم».

(٢) فى أ: «صورة».

(٣) زيادة من أ.

(٤) زيادة من أ.

www.Quranpdf.blogspot.in

وقال في هذه الآية ـ بعد أن ذكر حجتهم هذه ـ: ﴿مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: بصحة ما قالوه واحتجوا به ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾، أي: يكذبون ويتقولون.

وقال مجاهد في قوله: ﴿مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ أي[1]: ما يعلمون قدرة الله على ذلك.

﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (٢٤) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٢٥) ﴾.

يقول تعالى منكرا على المشركين في عبادتهم غير الله بلا برهان ولا دليل ولا حجة: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ﴾؟ أي: من قبل شركهم، ﴿فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ أي: فيما هم فيه، أي: ليس الأمر كذلك، كقوله: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٥] أي: لم يكن ذلك.

ثم قال: ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ أي: ليس لهم مستند[2] فيما هم فيه من الشرك سوى تقليد الآباء والأجداد، بأنهم كانوا على أمة، والمراد بها الدين هاهنا، وفي قوله: ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

وقولهم: ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم ﴾ أي: وراءهم ﴿مُّهْتَدُونَ﴾، دعوى منهم بلا دليل.

ثم بين تعالى أن مقالة هؤلاء قد سبقهم إليها أشباههم ونظراؤهم من الأمم السالفة المكذبة للرسل، تشابهت قلوبهم، فقالوا مثل مقالتهم: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ . أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣]، وهكذا قال هاهنا: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ قُلْ﴾ أي: يا محمد لهؤلاء المشركين: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾؟ أي: ولو علموا وتيقنوا صحة ما جئتهم به، لما انقادوا لذلك بسوء قصدهم ومكابرتهم للحق وأهله.

قال الله تعالى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: من الأمم المكذبة بأنواع من العذاب، كما فصله تعالى في قصصهم، ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾؟ أي: كيف بادوا وهلكوا، وكيف نجى الله المؤمنين؟

---

(١) في ت، م: «يعني». (٢) في أ: «سند».

www.Quranpdf.blogspot.in

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ(٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨) بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ (٢٩) وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (٣٠) وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ(٣٥)﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن عبده ورسوله وخليله إمام الحنفاء، ووالد من بعث بعده من الأنبياء، الذى تنتسب إليه قريش فى نسبها ومذهبها: أنه تبرأ من أبيه وقومه فى عبادتهم الأوثان، فقال: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ . إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ .وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ أى: هذه الكلمة، وهى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وخلع ما سواه من الأوثان، وهى «لا إله إلا الله»، أى: جعلها دائمة فى ذريته يقتدى به فيها من هداه الله من ذرية إبراهيم، عليه السلام، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أى: إليها.

وقال عكرمة، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، والسدى، وغيرهم[١] فى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ يعنى: لا إله إلا الله، لا يزال فى ذريته من يقولها. ورُوى نحوه عن ابن عباس.

وقال ابن زيد: كلمة الإسلام. وهو يرجع إلى ما قاله الجماعة.

ثم قال تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاءِ﴾ يعنى: المشركين، ﴿وَآبَاءَهُمْ﴾ أى: فتطاول عليهم العمر فى ضلالهم[٢]، ﴿حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ﴾ أى: بين الرسالة والنذارة.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ أى: كابروه وعاندوه ودفعوا[٣] بالصدور والراح كفرا وحسدا وبغيا، ﴿وَقَالُوا﴾ [أى][٤]: كالمعترضين على الذى أنزله تعالى وتقدس: ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ أى: هلا كان إنزال هذا القرآن على رجل عظيم كبير فى أعينهم من القريتين؟ يعنون مكة والطائف. قاله ابن عباس، وعكرمة، ومحمد بن كعب القرظى، وقتادة، والسدى، وابن زيد.

(١) فى ت: «وغيرهما».

(٢) فى م: «ضلالتهم».

(٣) في أ: «ودفعوه».

(٤) زيادة من ت، م.

www.Quranpdf.blogspot.in

وقد ذكر غير واحد منهم [(١)]: أنهم أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة، وعروة بن مسعود الثقفى.

وقال مالك عن زيد بن أسلم، والضحاك، والسدى: يعنون الوليد بن المغيرة، ومسعود بن عمرو الثقفى.

وعن مجاهد: عمير بن عمرو بن مسعود الثقفى. وعنه أيضا: أنهم يعنون الوليد بن المغيرة، وحبيب بن عمرو بن عمير الثقفى.

وعن مجاهد: يعنون عتبة بن ربيعة بمكة، وابن عبد ياليل بالطائف.

وقال السدى: عنوا [بذلك][(٢)] الوليد بن المغيرة، وكنانة بن عبد عمرو بن عمير الثقفى.

والظاهر: أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان.

قال الله تعالى رادا عليهم فى هذا الاعتراض: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ ؟ أى: ليس الأمر مردودا إليهم، بل إلى الله، عز وجل، والله أعلم حيث يجعل رسالاته، فإنه لا ينزلها إلا على أزكى الخلق قلبا ونفسا، وأشرفهم بيتا، وأطهرهم أصلا.

ثم قال تعالى مبينا أنه قد فاوت بين خلقه فيما أعطاهم من الأموال والأرزاق والعقول والفهوم، وغير ذلك من القوى الظاهرة والباطنة، فقال: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾.

وقوله: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾، قيل: معناه ليسخر[(٣)] بعضهم بعضا فى الأعمال، لاحتياج هذا إلى هذا، وهذا إلى هذا، قاله السدى وغيره.

وقال قتادة، والضحاك: ليملك بعضهم بعضا. وهو[(٤)] راجع إلى الأول.

ثم قال: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أى: رحمة الله بخلقه خير لهم مما بأيديهم من الأموال ومتاع الحياة الدنيا.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أى: لولا أن يعتقد كثير من الناس الجهلة أن إعطاءنا المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه، فيجتمعوا على الكفر لأجل المال ـ هذا معنى قول ابن عباس، والحسن، وقتادة، والسدى، وغيرهم ـ ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ [عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ][(٥)]﴾ أى: سلالم ودرجا من فضة ـ قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدى: وابن زيد، وغيرهم ـ ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾، أى: يصعدون، ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا [(٦)]﴾ أى: أغلاقا على أبوابهم ﴿وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ﴾، أى: جميع ذلك يكون فضة، ﴿وَزُخْرُفًا﴾، أى: وذهبا. قاله ابن عباس، وقتادة، والسدى، وابن زيد[(٧)].

---

(١) فى م، أ: «منهم وقتادة». (٢) زيادة من أ. (٣) فى أ: «لتسخير».
(٤) فى ت، أ: «وهذا». (٥) زيادة من ت. (٦) فى ت: ﴿أبوابا وسررا﴾.
(٧) فى ت: «ابن عباس وغيرهم».

www.Quranpdf.blogspot.in

ثم قال: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى: إنما ذلك من الدنيا الفانية الزائلة الحقيرة عند الله [تعالى][(١)] أى: يعجل[(٢)] لهم بحسناتهم التى يعملونها فى الدنيا مآكل ومشارب، ليوافوا الآخرة وليس لهم عند الله حسنة يجزيهم بها، كما ورد به الحديث الصحيح[(٣)]. [وقد][(٤)] ورد فى حديث آخر: «لو أن الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة، ما سقى منها كافرا شربة ماء»، أسنده البغوى من رواية زكريا بن منظور، عن أبى حازم، عن سهل بن سعد، عن النبى ﷺ، فذكره[(٥)]. ورواه الطبرانى من طريق زمعة بن صالح، عن أبى حازم، عن سهل بن سعد، عن النبى ﷺ: «لو عدلت الدنيا جناح بعوضة، ما أعطى كافرا منها شيئا»[(٦)].

ثم قال: ﴿وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أى: هى لهم خاصة لا يشاركهم: فيها [أحد][(٧)] غيرهم؛ ولهذا لما قال عمر بن الخطاب لرسول الله ﷺ حين صعد إليه فى تلك المشربه لما آلى من نسائه، فرآه [عمر][(٨)] على رمال حصير قد أثر بجنبه[(٩)] فابتدرت عيناه بالبكاء، وقال: يا رسول الله، هذا كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت صفوة الله من خلقه. وكان رسول الله ﷺ متكئا فجلس وقال: «أوَ فى[(١٠)] شك أنت يا ابن الخطاب؟» ثم قال: «أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى حياتهم الدنيا». وفى رواية: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟»[(١١)].

وفى الصحيحين أيضا وغيرهما: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تشربوا فى آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا فى صحافها، فإنها لهم فى الدنيا ولنا فى الآخرة». وإنما خولهم الله تعالى فى الدنيا لحقارتها، كما روى الترمذى وابن ماجه، من طريق أبى حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة، ما سقى منها كافرا شربة ماء أبدا»، قال الترمذى: حسن صحيح[(١٢)].

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ

(١) زيادة من أ. (٢) فى ت: «يجعل».
(٣) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٨٠٨) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه.
(٤) زيادة من م.
(٥) معالم التنزيل للبغوى (٧/ ٢١٣).
(٦) المعجم الكبير (٦/ ١٧٨) وفى إسناده زمعة بن صالح وهو ضعيف.
(٧، ٨) زيادة من أ. (٩) فى ت، م، أ: «بجلده».
(١٠) فى ت: «أفى».
(١١) انظر تخريج هذا الحديث عند تفسير الآية: ١٣١ من سورة طه.
(١٢) سنن الترمذى برقم (٢٣٢٠) وسنن ابن ماجه برقم (٤١١٠).

www.Quranpdf.blogspot.in

صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ .

يقول تعالى: ﴿**وَمَن يَعْشُ**﴾ أى: يتعامى ويتغافل ويعرض، ﴿**عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ**﴾ والعشا فى العين: ضعف بصرها. والمراد هاهنا: عشا البصيرة، ﴿**نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ**﴾ كقوله: ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا**﴾ [النساء: ١١٥]، وكقوله: ﴿**فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ**﴾ [الصف: ٥]، وكقوله: ﴿**وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ**﴾ [فصلت: ٢٥]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿**وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ . حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا**﴾ أى: هذا الذى تغافل عن الهدى نقيض له من الشياطين من يضله، ويهديه إلى صراط الجحيم. فإذا وافى الله يوم القيامة يتبرم بالشيطان الذى وكل به، ﴿**قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ**﴾ [أى: فبئس القرين كنت لى فى الدنيا][١]. وقرأ بعضهم: «حتى إذا جاءانا» يعنى: القرين والمقارن.

قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن سعيد الجُرَيرى قال: بلغنا أن الكافر إذا بعث من قبره يوم القيامة سَفَعَ بيده شيطان فلم يفارقه، حتى يصيرهما الله تعالى إلى النار، فذلك حين يقول: ﴿**يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ**﴾[٢].

والمراد بالمشرقين هنا[٣] هو ما بين المشرق والمغرب. وإنما استعمل هاهنا تغليبا، كما يقال[٤]: القمران، والعمران، والأبوان، [والعسران][٥]. قاله ابن جرير وغيره.

[ولما كان الاشتراك فى المصيبة فى الدنيا يحصل به تسلية لمن شاركه فى مصيبته، كما قالت الخنساء تبكى أخاها:

ولَوْلا كثرةُ الباكين حَــولى ... عَلَى قَتْلاهم لقتلتُ نَفْســى
وما يَبْكُون مثلَ أخـى ولكن ... أُسَلِّى النفسَ عنه بالتأسِّــى

قطع الله بذلك بين أهل النار، فلا يحصل لهم بذلك تأسى وتسلية ولا تخفيف][٦]

ثم قال[٧] تعالى: ﴿**وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ**﴾ أى: لا يغنى عنكم اجتماعكم فى النار واشتراككم فى العذاب الأليم.

وقوله: ﴿**أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾ أى: ليس ذلك إليك، إنما عليك البلاغ، وليس عليك هداهم، ولكن الله يهدى من يشاء، ويضل من يشاء، وهو الحكم العدل[٨] فى ذلك.

---

(١) زيادة من ت.
(٢) تفسير عبد الرزاق (٢/ ١٦١).
(٣) فى ت، م، أ: «ههنا».
(٤) فى ت، م: «قيل».
(٥) زيادة من أ.
(٦) زيادة من ت، أ.
(٧) فى ت: «فقال».
(٨) فى ت، م، أ: «الحاكم العادل».

www.Quranpdf.blogspot.in

ثم قال: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ أى: لابد أن ننتقم منهم ونعاقبهم، ولو ذهبت أنت، ﴿أَوْ[1] نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ أى: نحن قادرون على هذا وعلى هذا. ولم يقبض الله رسوله حتى أقر عينه من أعدائه، وحكمه فى نواصيهم، وملكه ما تضمنته صياصيهم. هذا معنى قول السدى، واختاره ابن جرير.

وقال ابن جرير[2]: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا ابن[3] ثور، عن معمر قال: تلا قتادة: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ فقال: ذهب النبى ﷺ وبقيت النقمة، ولم يُرِ الله [4] نبيه ﷺ فى أمته شيئا يكرهه، حتى مضى[5]، ولم يكن نبى قط إلا ورأى[6] العقوبة فى أمته، إلا نبيكم ﷺ. قال: وذُكر لنا أن رسول الله ﷺ أُرِىَ ما يصيب أمته من بعده، فما رُئِى ضاحكا منبسطا حتى قبضه الله عز وجل[7].

وذكر من رواية سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة نحوه. ثم روى ابن جرير عن الحسن نحو ذلك أيضا.

وفى الحديث: «النجوم أمنة للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما تُوعَدُ، وأنا أَمَنَة لأصحابى، فإذا ذهبت أتى أصحابى ما يوعدون»[8].

ثم قال تعالى: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أى: خذ بالقرآن المنزل على قلبك، فإنه هو الحق، وما يهدى إليه هو الحق المفضى إلى صراط الله المستقيم، الموصل إلى جنات النعيم، والخير الدائم المقيم.

ثم قال: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ قيل: معناه: لشرف[9] لك ولقومك، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدى، وابن زيد. واختاره ابن جرير، ولم يحك سواه.

وأورد البغوى هاهنا حديث الزهرى، عن محمد بن جبير بن مطعم، عن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن هذا الأمر فى قريش لا ينازعهم فيه أحد إلا أكَبَّه الله على وجهه ما أقاموا الدين». رواه البخارى[10].

و[قيل][11]: معناه: أنه شرف لهم من حيث إنه أنزل بلغتهم، فهم أفهم الناس له، فينبغى أن يكونوا أقوم الناس به وأعملهم بمقتضاه، وهكذا كان خيارهم وصفوتهم من الخُلَّص من المهاجرين السابقين الأولين، ومن شابههم وتابعهم.

وقيل: معناه: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أى: لتذكير لك ولقومك، وتخصيصهم بالذكر لا ينفى من سواهم، كقوله: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠]، وكقوله: ﴿وَأَنذِرْ

---

(١) فى ت، أ: «وإما»وهو خطأ. (٢) فى ت: «وروى هو قال». (٣) فى ت: «أبو».
(٤) فى أ: «الله تعالى». (٥) فى ت، م: «قبض». (٦) فى ت، م، أ: «إلا وقد رأى».
(٧) تفسير الطبرى (٢٥/ ٤٥).
(٨) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٥٣١) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه.
(٩) فى م: «الشرف».
(١٠) معالم التنزيل للبغوى (٧/ ٢١٥) وصحيح البخارى برقم (٣٥٠٠).
(١١) زيادة من ت، م.

www.Quranpdf.blogspot.in

عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ أى: عن هذا القرآن وكيف كنتم فى العمل به والاستجابة له.

وقوله: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ ؟ أى: جميع الرسل دعوا إلى ما دعوت الناس إليه من عبادة الله وحده لا شريك له، ونهوا عن عبادة الأصنام والأنداد، كقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. قال مجاهد: فى قراءة عبد الله بن مسعود: «واسأل الذين أرسلنا إليهم قبلك رسلنا» . وهكذا حكاه قتادة والضحاك والسدى، عن ابن مسعود. وهذا كأنه تفسير لا تلاوة، والله أعلم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: واسألهم ليلة الإسراء، فإن الأنبياء جُمِعوا له. واختار ابن جرير الأول، [والله أعلم][١].

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧) وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (٥٠) ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن عبده ورسوله موسى، عليه السلام، أنه ابتعثه إلى فرعون وملئه من الأمراء والوزراء والقادة، والأتباع والرعايا، من القبط وبنى إسرائيل، يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وينهاهم عن عبادة ما سواه، وأنه بعث معه آيات عظاما، كيده وعصاه، وما أرسل معه من الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، ومن نقص الزروع والأنفس والثمرات، ومع هذا كله استكبروا عن اتباعها والانقياد لها، وكذبوها وسخروا منها، وضحكوا ممن جاءهم بها. ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾، ومع هذا ما رجعوا عن غيهم وضلالهم، وجهلهم وخبالهم. وكلما جاءتهم آية من هذه الآيات يضرعون إلى موسى، عليه السلام، ويتلطفون له فى العبارة بقولهم: ﴿يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ﴾ أى: العالم، قاله ابن جرير. وكان علماء زمانهم هم السحرة. ولم يكن السحر عندهم فى زمانهم مذموما، فليس هذا منهم على سبيل الانتقاص منهم؛ لأن الحال حال ضرورة منهم إليه لا تناسب ذلك، وإنما هو تعظيم فى زعمهم، ففى كل مرة يَعِدُون موسى [عليه السلام][٢] إن كشف عنهم هذا أن يؤمنوا ويرسلوا معه بنى إسرائيل. وفى كل مرة ينكثون ما عاهدوا عليه، وهذا كقوله [تعالى][٣]: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ . وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى[٤] ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ . فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٣ ـ ١٣٥].

---

(١) زيادة من أ. (٢، ٣) زيادة من ت. (٤) فى ت، م: «يأيها الساحر» وهو خطأ .

www.Quranpdf.blogspot.in

﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ (٥٦) ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن فرعون وتمرده وعتوه وكفره وعناده: أنه جمع قومه، فنادى فيهم متبجحا مفتخرا بملك مصر وتصرفه فيها: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾، قال قتادة: قد كانت لهم جنان وأنهار ماء، ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؟ أى: أفلا ترون ما أنا فيه من العظمة والملك، يعنى: وموسى وأتباعه[1] فقراء ضعفاء. وهذا كقوله تعالى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ . فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ. فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾ [النازعات: ٢٣ ـ ٢٥].

وقوله: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ قال السدى: يقول: بل أنا خير من هذا الذى هو مهين. وهكذا قال بعض نحاة البصرة: إن «أم» هاهنا بمعنى «بل». ويؤيد هذا ما حكاه الفراء عن بعض القراء أنه قرأها: «أما أنا خير من هذا الذى هو مهين». قال ابن جرير: ولو صحت هذه القراءة لكان معناها صحيحا واضحا، ولكنها خلاف قراءة الأمصار، فإنهم قرؤوا: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ ؟ على الاستفهام.

قلت: وعلى كل تقدير فإنما يعنى فرعون ـ عليه اللعنة[2] ـ أنه خير من موسى، عليه السلام، وقد كذب فى قوله هذا كذبا بينا واضحا، فعليه لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة.

ويعنى بقوله: ﴿مَهِينٌ﴾ كما قال سفيان: حقير. وقال قتادة، والسدى: يعنى: ضعيف. وقال ابن جرير: يعنى: لا ملك له ولا سلطان ولا مال.

﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ يعنى: لا يكاد يفصح عن كلامه[3]، فهو عيى حصر[4].

قال السدى: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ أى: لا يكاد يفهم. وقال قتادة، والسدى، وابن جرير: يعنى عيى اللسان. وقال سفيان: يعنى فى لسانه شىء من الجمرة حين[5] وضعها فى فيه وهو صغير.

وهذا الذى قاله فرعون ـ لعنه الله ـ كذب واختلاق، وإنما حمله على هذا الكفر والعناد، وهو ينظر إلى موسى، عليه السلام، بعين كافرة شقية، وقد كان موسى[6]، عليه السلام، من الجلالة والعظمة والبهاء فى صورة يبهر[7] أبصار ذوى [الأبصار و][8] الألباب. وقوله: : ﴿ مَهِينٌ﴾ كذب، بل هو المهين الحقير خِلْقَةً وخلقا ودينا. وموسى [عليه السلام][9] هو الشريف الرئيس الصادق البار

---

(١) فى أ: «ومن معه». (٢) فى ت، م، أ: «لعنة الله». (٣) فى ت: «بكلامه».
(٤) فى ت، أ: «حصير». (٥) فى ت: «التى». (٦) فى ت: «الموسى».
(٧) فى ت، م: «تبهر». (٨) زيادة من ت. (٩) زيادة من ت، م.

www.Quranpdf.blogspot.in

الراشد[(١)]. وقوله: ﴿وَلا يَكَادُ يُبِينُ﴾ افتراء أيضا، فإنه وإن كان قد أصاب لسانه فى حال صغره شيء من جهة تلك الجمرة، فقد سأل الله، عز وجل، أن يحل عقدة من لسانه ليفقهوا قوله، وقد استجاب الله [(٢)]له فى [ذلك فى][(٣)] قوله: ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾[طه: ٣٦]، وبتقدير أن يكون قد بقى شيء لم يسأل إزالته، كما قاله الحسن البصرى، وإنما سأل زوال ما يحصل معه الإبلاغ والإفهام، فالأشياء الخلقية[(٤)] التي ليست من فعل العبد لا يعاب بها ولا يذم عليها، وفرعون وإن كان يفهم وله عقل فهو يدرى هذا، وإنما أراد الترويج على رعيته، فإنهم كانوا جهلة أغبياء، وهكذا قوله: ﴿ فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسَاوِرَةٌ[(٥)] مِّن ذَهَبٍ ﴾ أى: وهى ما يجعل فى الأيدى من الحلى، قاله ابن عباس وقتادة وغير واحد، ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ أى: يكتنفونه خدمة له ويشهدون بتصديقه، نظر[(٦)] إلى الشكل الظاهر، ولم يفهم السر المعنوى الذى هو أظهر مما نظر إليه، لو كان يعلم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ أى: استخف عقولهم، فدعاهم إلى الضلالة فاستجابوا له، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿آسَفُونَا ﴾ أسخطونا.

وقال الضحاك، عنه: أغضبونا. وهكذا قال ابن عباس أيضا، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومحمد بن كعب القرظى، وقتادة ، والسدى، وغيرهم[(٧)] من المفسرين.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو عبيد الله[(٨)] ابن أخى ابن وهب، حدثنا عمى، حدثنا ابن لهيعة، عن عقبة بن مسلم التجيبى[(٩)] عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيت الله عز وجل يعطى العبد ما شاء، وهو مقيم على معاصيه، فإنما ذلك استدراج منه له»، ثم تلا: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[(١٠)].

وحدثنا أبى، حدثنا يحيى بن عبد الحميد الحِمَّانى، حدثنا قيس بن الربيع، عن قيس بن مسلم[(١١)]، عن طارق بن شهاب قال: كنت عند عبد الله فذكر عنده موت الفجأة، فقال: تخفيف على المؤمن، وحسرة على الكافر. ثم قرأ: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾.

وقال عمر بن عبد العزيز، رضى الله عنه: وجدت النقمة مع الغفلة، يعنى قوله: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

وقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ﴾:قال أبو مجلز: ﴿سَلَفًا﴾ لمثل من عمل بعملهم.

---

(١) فى ت: «الرشيد». (٢) فى ت: «استجاب الله دعاءه له». (٣) زيادة من ت، م.
(٤) فى ت: «الخليقة»، وفى م: «الخلقة». (٥) فى أ: «أسورة». (٦) فى ت، أ: «نظرا».
(٧) فى ت: «وغير واحد». (٨) فى أ: «عبد الله». (٩) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بإسناده».
(١٠) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٤٩٢٦) «مجمع البحرين»، والبيهقى فى شعب الإيمان برقم (٤٥٤٠) من طريق عبد الله ابن صالح عن حرملة بن عمران به، ورواه أحمد فى مسنده (٤/ ١٤٥) عن رشدين بن سعد، والدولابى فى الكنى (١/ ١١١) عن حجاج بن سليمان كلاهما عن حرملة بن عمران به، وقد حسنه الحافظ العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء.
(١١) فى ت: «وروى أيضا».

www.Quranpdf.blogspot.in

وقال هو ومجاهد: ﴿وَمَثَلاً﴾ أي: عبرة لمن بعدهم.

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧) وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ (٦٠) وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١) وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٢) وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٦٣) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦٤) فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٦٥) ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن تعنت قريش فى كفرهم وتعمدهم العناد والجدل: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ قال غير واحد، عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة والضحاك، والسدى: يضحكون[1]، أى: أعجبوا بذلك.

وقال قتادة: يجزعون ويضحكون. وقال إبراهيم النخعى: يعرضون.

وكان السبب فى ذلك ما ذكره محمد بن إسحاق فى السيرة حيث قال: وجلس رسول الله ﷺ ـ فيما بلغنى ـ يوما مع الوليد بن المغيرة فى المسجد، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم، وفى المجلس غير واحد من رجال قريش، فتكلم رسول الله ﷺ، فعرض له النضر بن الحارث، فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه، ثم تلا عليه وعليهم: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ الآيات [الأنبياء: ٩٨]. ثم قام رسول الله ﷺ، وأقبل عبد الله بن الزِّبَعْرى التميمى[2]، حتى جلس، فقال الوليد بن المغيرة له: والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب وما قعد، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم، فقال عبد الله بن الزبعرى: أما والله لو وجدته لَخَصَمْتُه، سلوا[3] محمدا: أكل ما يعبد من دون الله فى جهنم مع من عبده، فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيرا، والنصارى تعبد المسيح [عيسى][4] ابن مريم؟ فعجب الوليد ومن كان معه فى المجلس من قول عبد الله بن الزبعرى، ورأوا أنه قد احتج وخاصم، فذُكِر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «كل من أحب أن يعبد من دون الله، فهو مع من عبده، فإنهم إنما يعبدون الشيطان ومن أمرهم بعبادته»، فأنزل الله عز وجل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] أى: عيسى وعزير ومن عبد[5] معهما من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله، عز وجل، فاتخذهم من يعبدهم من أهل الضلالة أربابا من دون الله. ونزل فيما يذكرون أنهم يعبدون الملائكة وأنهم بنات الله: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ الآيات [الأنبياء: ٢٦]، ونزل

---

(١) فى ت، أ: «وعكرمة وغيرهم يعنى يعجبون». (٢) فى ت، م، أ: «السهمى». (٣) فى ت، م: «فسلوا».
(٤) زيادة من ت، م، أ. (٥) فى ت، م: «عبدوا».

www.Quranpdf.blogspot.in

فيما يذكر من أمر عيسى وأنه يعبد من دون الله. وعجب[1] الوليد ومن حضره من حجته وخصومته: ﴿ولَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ أى: يصدون عن أمرك بذلك من قوله. ثم ذكر عيسى فقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ. وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ. وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أى: ما وضعت على يديه من الآيات من إحياء الموتى وإبراء الأسقام، فكفى به دليلا على علم الساعة، يقول: ﴿فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[2].

وذكر ابن جرير من رواية العَوفى، عن ابن عباس قوله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ قال: يعنى قريشا، لما قيل لهم: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] إلى آخر الآيات، فقالت له قريش: فما ابن مريم؟ قال: «ذاك عبد الله ورسوله». فقالوا: والله ما يريد هذا إلا أن نتخذه ربا، كما اتخذت النصارى عيسى ابن مريم ربا، فقال الله تعالى[3]: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾.

وقال[4] الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا شيبان، عن عاصم بن أبى النَّجُود، عن أبى رَزِين، عن أبي يحيى ـ مولى ابن عقيل الأنصارى ـ قال: قال ابن عباس: لقد علمت آية من القرآن ما سألنى عنها رجل قط، فما أدرى أعلمها الناس فلم يسألوا عنها، أم لم يفطنوا لها فيسألوا عنها. قال: ثم طفق يحدثنا، فلما قام تلاومنا ألا نكون سألناه عنها. فقلت: أنا لها إذا راح غدا. فلما راح الغد قلت: يا ابن عباس، ذكرت أمس أن آية من القرآن لم يسألك عنها رجل قط، فلا تدرى أعلمها الناس [5] أم لم يفطنوا لها؟ فقلت: أخبرنى عنها وعن اللاتى قرأت قبلها. قال: نعم، إن رسول الله ﷺ قال لقريش: «يا معشر قريش، إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير»، وقد علمت قريش أن النصارى تعبد عيسى ابن مريم، وما تقول فى محمد، فقالوا: يا محمد، ألست تزعم أن عيسى كان نبيا وعبدا من عباد الله صالحا، فإن كنت صادقا كان[6] آلهتهم كما تقولون؟ قال: فأنزل الله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾. قلت: ما يَصِدون؟ قال: يضحكون، ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ قال: هو خروج عيسى ابن مريم قبل القيامة[7].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن يعقوب الدمشقى، حدثنا آدم، حدثنا شيبان، عن عاصم ابن أبى النجود، عن أبى أحمد مولى الأنصار[8]، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر قريش، إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير». فقالوا له: ألست تزعم أن عيسى كان نبيا وعبدا من عباد الله صالحا، فقد كان يعبد من دون الله؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ

---

(١) فى أ: «وتعجب».
(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/٣٥٨).
(٣) فى ت، م: «عز وجل». (٤) فى ت: «وروى». (٥) فى أ: «أعلمها الناس فلم يسألوا عنها».
(٦) فى م، أ: «فإن».
(٧) المسند (١/٣١٨).
(٨) فى أ: «الأنصاريين».

www.Quranpdf.blogspot.in

﴿مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾[١].

وقال مجاهد فى قوله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾: قالت قريش: إنما يريد محمد أن نعبده كما عبد قوم عيسى عيسى. ونحو هذا قال قتادة.

وقوله: ﴿وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ : قال قتادة: يقولون: آلهتنا خير منه. وقال قتادة: قرأ ابن مسعود: «وقالوا آآلهتنا خير أم هذا» ، يعنون محمدا ﷺ.

وقوله: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً﴾ أى: مراء، وهم يعلمون أنه ليس بوارد على الآية؛ لأنها لما لا يعقل، وهى قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]. ثم هى خطاب لقريش، وهم إنما كانوا يعبدون الأصنام والأنداد، ولم يكونوا يعبدون المسيح حتى يوردوه، فتعين أن مقالتهم إنما كانت جدلا منهم ،ليسوا يعتقدون صحتها.

وقد قال[٢] الإمام أحمد، رحمه الله تعالى: حدثنا ابن نمير، حدثنا حجاج بن دينار، عن أبى غالب، عن أبى أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه، إلا أورثوا الجدل»، ثم تلا هذه الآية: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾.

وقد رواه الترمذى، وابن ماجه، وابن جرير، من حديث حجاج بن دينار، به[٣]. ثم قال الترمذى: حسن صحيح لا نعرفه إلا من حديثه كذا قال.

وقد روى من وجه آخر عن أبى أمامة بزيادة، فقال ابن أبى حاتم: حدثنا حميد بن عياش الرملى، حدثنا مؤمَّل، حدثنا حماد، أخبرنا ابن مخزوم، عن القاسم أبى عبد الرحمن الشامى، عن أبى أمامة ـ قال حماد: لا أدرى رفعه[٤] أم لا؟ ـ قال: ما ضلت أمة بعد نبيها إلا كان أول ضلالها التكذيب بالقدر، وما ضلت أمة بعد نبيها إلا أعطوا الجدل، ثم قرأ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾[٥].

وقال ابن جرير أيضا: حدثنا أبو كريب، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، عن عباد بن عباد، عن جعفر، عن القاسم[٦]، عن أبى أمامة قال: إن رسول الله ﷺ خرج على الناس وهم يتنازعون فى القرآن، فغضب غضبا شديدا حتى كأنما صب على وجهه الخل، ثم قال: «لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض، فإنه ما ضل قوم قط إلا أوتوا[٧] الجدل»، ثم تلا: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ

---

(١) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٢/ ١٥٤) .

(٢) فى ت: «روى».

(٣) المسند (٥/ ٢٥٦) وسنن الترمذى برقم (٣٢٥٣) وسنن ابن ماجه برقم (٤٨) وتفسير الطبرى (٢٥/ ٥٣).

(٤) فى أ: «أرفعه».

(٥) وفى إسناده القاسم بن عبد الرحمن الشامى، ضعفه ابن حبان، وقال: «كان يروى عن أصحاب رسول الله ﷺ المعضلات».

(٦) فى أ: «جعفر بن القاسم».   (٧) فى ت: «أورثوا».

www.Quranpdf.blogspot.in

خَصِمُونَ﴾[١].

وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ يعني: عيسى، عليه السلام، ما هو إلا عبد [من عباد الله][٢] أنعم الله عليه بالنبوة والرسالة، ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أى: دلالة وحجة وبرهانا على قدرتنا على ما نشاء.

وقوله: ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم ﴾ أى: بدلكم [٣] ﴿مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾، قال السدى: يخلفونكم فيها. وقال ابن عباس، وقتادة: يخلف بعضهم بعضا، كما يخلف بعضكم بعضا. وهذا القول يستلزم الأول. وقال مجاهد: يعمرون الأرض بدلكم.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾: تقدم تفسير ابن إسحاق: أن المراد من ذلك : ما بُعث به عيسى، عليه السلام، من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، وغير ذلك من الأسقام. وفى هذا نظر. وأبعد منه ما حكاه قتادة، عن الحسن البصرى وسعيد بن جبير: أى الضمير فى ﴿وَإِنَّهُ﴾، عائد على القرآن، بل الصحيح أنه عائد على عيسى [عليه السلام][٤]، فإن السياق فى ذكره، ثم المراد بذلك نزوله قبل يوم القيامة، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ أى: قبل موت، عيسى، عليه الصلاة والسلام، ثم ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء:١٥٩]، ويؤيد هذا المعنى القراءة الأخرى: «وإنه لعَلَم للساعة» أى: أمارة ودليل على وقوع الساعة، قال مجاهد: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أى: آية للساعة خروج عيسى ابن مريم قبل يوم القيامة. وهكذا روى عن أبى هريرة [رضى الله عنه][٥]، وابن عباس، وأبى العالية، وأبى مالك، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والضحاك، وغيرهم.

وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ، أنه أخبر بنزول عيسى [ابن مريم][٦]، عليه السلام، قبل يوم القيامة إمامًا عادلا ، وحكما مقسطا.

وقوله: ﴿فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ أى: لا تشكوا [٧] فيها، إنها واقعة وكائنة لا محالة، ﴿وَاتَّبِعُونِ﴾ أى: فيما أخبركم به ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ . وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾أى: عن اتباع الحق ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ . وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ﴾ أى: بالنبوة ﴿وَلأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾.

قال ابن جرير: يعنى من الأمور الدينية لا الدنيوية[٨] .وهذا الذى قاله حسن جيد، ثم رد قول من زعم أن «بعض» هاهنا بمعنى «كل»، واستشهد بقول لبيد الشاعر:

---

(١) تفسير الطبرى (٢٥/ ٥٣) .

(٢) زيادة من ت، م.

(٣) فى ت: «بدلا منكم».

(٤، ٥) زيادة من ت.

(٦) زيادة من ت، م.

(٧) فى ت، م، أ: «تشكون».

(٨) تفسير الطبرى (٢٥/ ٥٥).

www.Quranpdf.blogspot.in

تَرَّاك أمْكنَة إذَا لم أرْضَها (١) أو يَعتَلق(٢) بَعْضَ النفوس حمَامُها(٣)

وأولوه على أنه أراد جميع النفوس. قال ابن جرير: وإنما أراد نفسه فقط، وعبر بالبعض عنها. وهذا الذى قاله محتمل.

وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أى: [فيما] (٤) أمركم به، ﴿وَأَطِيعُونِ﴾، فيما جئتكم به، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أى: أنا وأنتم عبيد له، فقراء إليه، مشتركون فى عبادته وحده لا شريك له، ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أى: هذا الذى جئتكم به هو الصراط المستقيم، وهو عبادة الرب، عز وجل، وحده.

وقوله: ﴿فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ أى اختلفت الفرق وصاروا شيعا فيه، منهم من يقر بأنه عبد الله ورسوله ـ وهو الحق ـ ومنهم من يدعى أنه ولد الله، ومنهم من يقول: إنه الله ـ تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا ـ ولهذا قال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٦٦) الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧) يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠) يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٣)﴾.

يقول تعالى: هل ينتظر هؤلاء المشركون المكذبون للرسل ﴿إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾؟ أى: فإنها كائنة لا محالة وواقعة، وهؤلاء غافلون عنها غير مستعدين [لها] (٥) فإذا جاءت إنما تجيء وهم لا يشعرون بها، فحينئذ يندمون كل الندم، حيث لا ينفعهم ولا يدفع عنهم.

وقوله: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾ أى: كل صداقة وصحابة لغير الله فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة إلا ما كان لله، عز وجل، فإنه دائم بدوامه. وهذا كما قال إبراهيم، عليه السلام، لقومه: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن الحارث(٦)، عن على، رضى الله

---

(١) فى أ: «أرمنها». (٢) فى أ: «يقتلوا».

(٣) البيت فى تفسير الطبرى (٢٥/ ٥٥) وديوان لبيد العامرى (ص٣١٣).

(٤) زيادة من ت، م، أ.

(٥) زيادة من أ.

(٦) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم عن على».

www.Quranpdf.blogspot.in

عنه: ﴿**الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ**﴾ قال: خليلان مؤمنان، وخليلان كافران، فتوفى أحد المؤمنين وبشر بالجنة فذكر خليله، فقال: اللهم، إن فلانا خليلى كان يأمرنى بطاعتك وطاعة رسولك، ويأمرنى بالخير وينهانى عن الشر، وينبئنى أنى ملاقيك، اللهم فلا تضله بعدى حتى تريه مثل ما أريتنى، وترضى عنه كما رضيت عنى. فيقال له: اذهب فلو تعلم ما له عندى لضحكت كثيرا وبكيت قليلا. قال: ثم يموت الآخر، فتجتمع أرواحهما، فيقال: ليثن أحدكما [(١)] على صاحبه، فيقول كل واحد منهما لصاحبه: نعم الأخ، ونعم الصاحب، ونعم الخليل. وإذا مات أحد الكافرين وبشر بالنار ذكر خليله فيقول: اللهم، إن خليلى فلانا كان يأمرنى بمعصيتك ومعصية رسولك، ويأمرنى بالشر وينهانى عن الخير، ويخبرنى أنى غير ملاقيك، اللهم فلا تهده بعدى حتى تريه مثل ما أريتنى، وتسخط عليه كما [(٢)] سخطت على. قال: فيموت الكافر الآخر، فيجمع بين أرواحهما فيقال: ليثن كل واحد منكما على صاحبه. فيقول كل واحد منهما لصاحبه: بئس الأخ، وبئس الصاحب، وبئس الخليل. رواه ابن أبى حاتم[(٣)].

وقال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: صارت كل خلة عداوة يوم القيامة إلا المتقين.

وروى الحافظ ابن عساكر ـ فى ترجمة هشام بن أحمد ـ عن هشام بن عبد الله بن كثير: حدثنا أبو جعفر محمد بن الخضر بالرقة، عن معافى: حدثنا حكيم بن نافع، عن الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:«لو أن رجلين تحابا فى الله، أحدهما بالمشرق والآخر بالمغرب، لجمع الله بينهما يوم القيامة، يقول: هذا الذى أحببته فى»[(٤)].

وقوله: ﴿ **يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ** ﴾ ثم بشرهم فقال: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ**﴾ أى: آمنت قلوبهم وبواطنهم، وانقادت لشرع الله جوارحهم وظواهرهم.

قال المعتمر بن سليمان، عن أبيه: إذا كان يوم القيامة فإن الناس حين يبعثون لا يبقى أحد منهم إلا فزع، فينادى مناد: ﴿**يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ**﴾ فيرجوها الناس كلهم، قال: فيتبعُها: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ**﴾، قال: فييأس الناس منها غير المؤمنين. ﴿**ادْخُلُوا الْجَنَّةَ** ﴾ أى: يقال لهم: ادخلوا الجنة ﴿**أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ**﴾ أى: نظراؤكم ﴿**تُحْبَرُونَ**﴾ أى تنعمون وتسعدون، وقد تقدم تفسيرها فى سورة الروم.

﴿ **يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ**﴾ أى: زبادى آنية الطعام، ﴿**وَأَكْوَابٍ**﴾ وهى: آنية الشراب، أى: من ذهب لا خراطيم لها ولا عُرَى، ﴿**وَفِيهَا مَا تَشْتَهِي الأَنفُسُ**﴾ ـ وقرأ بعضهم: «تشتهيه

(١) فى أ: «أحدهما».

(٢) فى ت: «مثل ما».

(٣) تفسير عبد الرزاق (٢/ ١٦٤).

(٤) مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٢٧/ ٧٩).

www.Quranpdf.blogspot.in

الأنفس» ـ ﴿وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ﴾ أى: طيب الطعم والريح وحسن المنظر.

قال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، أخبرنى إسماعيل بن أبى سعيد[١]، عن [٢] عكرمة ـ مولى ابن عباس ـ أخبره أن رسول الله ﷺ قال: «إن أدنى أهل الجنة منزلة وأسفلهم درجة لرجل لا يدخل الجنة بعده أحد، يفسح له فى بصره مسيرة مائة عام فى قصور من ذهب، وخيام من لؤلؤ، ليس فيها موضع شبر إلا معمور يغدى عليه ويراح بسبعين ألف صحفة من ذهب، ليس فيها صحفة إلا فيها لون ليس فى الأخرى، مثله شهوته فى آخرها كشهوته فى أولها، لو نزل به جميع أهل الأرض لوسع عليهم مما أعطى، لا ينقص ذلك مما أوتى شيئا»[٣].

وقال [٤] ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين بن الجنيد، حدثنا عمرو بن سواد السرحى، حدثنا عبد الله بن وهب، عن ابن لهيعة، عن عقيل بن خالد، عن الحسن، عن أبى هريرة: أن أبا أمامة، رضى الله عنه، حدث أن رسول الله ﷺ حدثهم ـ وذكر الجنة ـ فقال: «والذى نفس محمد بيده، ليأخذن أحدكم اللقمة فيجعلها فى فيه، ثم يخطر على باله طعام آخر، فيتحول الطعام الذى فى فيه على الذى اشتهى » ثم قرأ: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ[٥] الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[٦].

وقال [٧] الإمام أحمد: حدثنا حسن ـ هو ابن موسى ـ حدثنا سُكَيْن بن عبد العزيز، حدثنا الأشعث الضرير، عن شهر بن حَوْشَب، عن أبى هريرة [٨] قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة إن له لسبع درجات، وهو على السادسة وفوقه السابعة، وإن له ثلثمائة خادم، ويغدى عليه ويراح كل يوم بثلاثمائة صحفة ـ ولا أعلمه إلا قال: من ذهب ـ فى كل صحفة لون ليس فى الأخرى، وإنه ليلذ أوله كما يلذ آخره، ومن الأشربة ثلاثمائة إناء، فى كل إناء لون ليس فى الآخر، وإنه ليلذ أوله كما يلذ آخره، وإنه يقول: يارب، لو أذنت لى لأطعمت أهل الجنة وسقيتهم، لم ينقص مما عندى شىء، وإن له من الحور العين لاثنين وسبعين زوجة، سوى أزواجه من الدنيا، وإن الواحدة منهن ليأخذ مقعدها قدر ميل من الأرض»[٩].

﴿وَأَنتُمْ فِيهَا﴾ أى: فى الجنة ﴿خَالِدُونَ﴾ أى: لا تخرجون منها ولا تبغون عنها حولا. ثم قيل لهم على وجه التفضل والامتنان: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى: أعمالكم الصالحة كانت سببا لشمول رحمة الله إياكم، فإنه لا يدخل أحداً عمله الجنة، ولكن بفضل من الله ورحمته.

---

(١) فى م: «سعد». (٢) فى أ: «أن».
(٣) تفسير عبد الرزاق(٢/ ١٦٥).
(٤) فى ت: «وروى». (٥) فى ت: «ما تشتهى» وهو خطأ .
(٦) وفى إسناده الحسن البصرى لم يسمع من أبى هريرة.
(٧) فى ت: «وروى».
(٨) فى ت: «أبى هريرة رضى الله عنه».
(٩) المسند (٢/ ٥٣٧).

www.Quranpdf.blogspot.in

وإنما الدرجات تفاوتها [١] بحسب عمل الصالحات.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا الفضل بن شاذان المقرئ، حدثنا يوسف بن يعقوب - يعنى الصفار - حدثنا أبو بكر بن عياش، عن الأعمش، عن أبى صالح[٢]، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أهل النار يرى منزله من الجنة حسرة، فيقول: ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[الزمر: ٥٧] وكل أهل الجنة يرى منزله من النار فيقول: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾[الأعراف: ٤٣]، ليكون [٣] له شكرا». قال: وقال رسول الله ﷺ: «ما من أحد إلا وله منزل فى الجنة ومنزل فى النار، فالكافر يرث المؤمن منزله من النار، والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة» وذلك [٤] قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٥].

وقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أى: من جميع الأنواع، ﴿مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أى: مهما اخترتم وأردتم. ولما ذكر [الله تعالى] [٦] الطعام والشراب، ذكر بعده الفاكهة لتتم [هذه] [٧] النعمة والغبطة.

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ (٧٧) لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٨) أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (٨٠)﴾.

لما ذكر [تعالى] [٨] حال السعداء، ثنى بذكر الأشقياء، فقال: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ. لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ أى: ساعة واحدة ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أى: آيسون من كل خير، ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ أى: بأعمالهم السيئة بعد قيام الحجج عليهم وإرسال الرسل إليهم، فكذبوا وعصوا، فجوزوا بذلك جزاء وفاقا، وما ربك بظلام للعبيد.

﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ﴾ وهو: خازن النار.

قال البخارى: حدثنا حجاج بن مِنْهال، حدثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو بن عطاء[٩]، عن صفوان بن يعلى، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ على المنبر: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا

---

(١) فى أ: «وإنما الدرجات ينال تفاوتها».

(٢) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بسنده».

(٣) فى ت، م: «فيكون».

(٤) فى ت، م: «فيكون».

(٥) ورواه أحمد فى مسنده (٢/ ٥١٢) من طريق أبى بكر بن عياش به مختصراً.

(٦، ٧) زيادة من ت.

(٨) زيادة من أ.

(٩) فى ت: «روى البخارى بإسناده».

www.Quranpdf.blogspot.in

رَبُّكَ﴾[1] أى: ليقبض أرواحنا فيريحنا مما نحن فيه، فإنهم كما قال تعالى: ﴿لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ [فاطر: ٣٦]. وقال: ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا [2] الأَشْقَى . الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ . ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلى: ١١ ـ ١٣]، فلما سألوا أن يموتوا أجابهم مالك، ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾: قال ابن عباس: مكث ألف سنة، ثم قال: إنكم ماكثون. رواه ابن أبى حاتم.

أى: لا خروج لكم منها ولا محيد لكم عنها.

ثم ذكر سبب شقوتهم وهو مخالفتهم للحق ومعاندتهم له فقال: ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ﴾ أى: بيناه لكم ووضحناه وفسرناه، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ أى: ولكن كانت سجاياكم لا تقبله ولا تقبل عليه، وإنما تنقاد للباطل وتعظمه، وتصد عن الحق وتأباه، وتبغض أهله، فعودوا على أنفسكم بالملامة، واندموا حيث لا تنفعكم [3] الندامة.

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ قال مجاهد: أرادوا كيد شر فكدناهم.

وهذا الذى قاله مجاهد كما قال تعالى: ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾[النمل: ٥٠]، وذلك لأن المشركين كانوا يتحيلون فى رد الحق بالباطل بحيل ومكر يسلكونه، فكادهم الله، ورد وبال ذلك عليهم؛ ولهذا قال: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم﴾ أى: سرهم وعلانيتهم، ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ أى: نحن نعلم ما هم عليه، والملائكة أيضا يكتبون أعمالهم، صغيرها وكبيرها.

﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (٨١) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٨٣) وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤) وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥) وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٨٧) وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ (٨٨) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٨٩) ﴾ .

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾أى: لو فرض هذا لعبدته

(١) صحيح البخارى برقم (٤٨١٩).

(٢) فى م: «وسيجنبها».

(٣) فى ت،م: «لا تنفع».

www.Quranpdf.blogspot.in

على ذلك؛ لأني عبد من عبيده، مطيع لجميع ما يأمرني به، ليس عندي استكبار ولا إباء عن عبادته، فلو فرض كان هذا، ولكن هذا ممتنع في حقه تعالى، والشرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز أيضا، كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤].

[و][١] قال بعض المفسرين في قوله: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أي: الآنفين. ومنهم سفيان الثوري، والبخاري حكاه فقال: ويقال: ﴿أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ : الجاحدين، من عبد يعبد.

وذكر ابن جرير لهذا القول من الشواهد ما رواه عن يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب: حدثني ابن أبي ذئب عن أبي قُسَيْط[٢]، عن بَعَجة بن زيد الجهني؛ أن امرأة منهم دخلت على زوجها ـ وهو رجل منهم أيضا ـ فولدت له في ستة أشهر، فذكر ذلك زوجها لعثمان بن عفان، رضي الله عنه، فأمر بها أن ترجم، فدخل عليه علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، فقال: إن الله يقول في كتابه: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾[الأحقاف: ١٥]، وقال: ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾[لقمان: ١٤]، قال: فوالله ما عبد عثمان، رضي الله عنه، أن بعث إليها: ترد ـ قال يونس: قال ابن وهب: عبد: اشتنكف[٣].

[و][٤] قال الشاعر:

مَتَىَ مَا يَشَأ ذُو الوُدِّ يصْرِمْ خَليله ... ويَعْبَدُ عَلَيه لا مِحَالَة ظَالماً[٥]

وهذا القول فيه نظر؛ لأنه كيف يلتئم مع الشرط فيكون تقديره: إن كان هذا فأنا ممتنع منه؟ هذا فيه نظر، فلْيتأمل. اللهم إلا أن يقال: «إن» ليست شرطا، وإنما هي نافية كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾، يقول: لم يكن للرحمن ولد فأنا أول الشاهدين.

وقال قتادة: هي كلمة من كلام العرب: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أي: إن ذلك لم يكن فلا ينبغي.

وقال أبو صخر: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أي: فأنا أول من عبده بأن لا ولد له، وأول من وحده. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقال مجاهد: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أي: أول من عبده ووحده وكذبكم.

---

(١) زيادة من ت،م.

(٢) في ت: «ما رواه بإسناده».

(٣) تفسير الطبري (٢٥/ ٦١).

(٤) زيادة من ت،م.

(٥) البيت في تفسير الطبري (٢٥/ ٦٠).

www.Quranpdf.blogspot.in

وقال البخاري: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾: الآنفين. وهما لغتان، رجل عابد وعبد[١].

والأول أقرب على أنه شرط وجزاء، ولكن هو ممتنع.

وقال السدي [في قوله][٢]: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ يقول: لو كان له ولد كنت أول من عبده، بأن له ولدا، لكن لا ولد له.وهو اختيار ابن جرير، ورد قول من زعم أن «إن» نافية.

ولهذا قال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: تعالى وتقدس وتنزه خالق الأشياء عن أن يكون له ولد، فإنه فرد أحد صمد، لا نظير له ولا كفء له، فلا [٣]ولد له.

وقوله: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا﴾ أي: في جهلهم وضلالهم ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ في دنياهم ﴿حَتَّىٰ يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾، وهو يوم القيامة، أي: فسوف يعلمون كيف يكون مصيرهم، ومآلهم، وحالهم في ذلك اليوم.

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ﴾ أي: هو إله من في السماء، وإله من في الأرض، يعبده أهلهما، وكلهم خاضعون له، أذلاء بين يديه، ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام:٣] أي: هو المدعو الله في السموات والأرض.

﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: هو خالقهما ومالكهما والمتصرف فيهما، بلا مدافعة ولا ممانعة، فسبحانه وتعالى عن الولد، وتبارك: أي استقر له السلامة من العيوب والنقائص؛ لأنه الرب العلي العظيم، المالك للأشياء، الذي بيده أزمة الأمور نقضا وإبراما، ﴿وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: لا يجليها لوقتها إلا هو، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: فيجازي كلا بعمله، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

ثم قال تعالى: ﴿وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ أي: من الأصنام والأوثان ﴿الشَّفَاعَةَ﴾ أي: لا يقدرون على الشفاعة لهم، ﴿إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، هذا استثناء منقطع، أي: لكن من شهد بالحق على بصيرة وعلم، فإنه تنفع شفاعته عنده بإذنه له.

ثم قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: ولئن سألت هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره ﴿مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ أي: هم يعترفون [٤] أنه الخالق للأشياء جميعها، وحده لا شريك له في ذلك، ومع هذا يعبدون معه غيره، ممن لا يملك شيئا ولا يقدر على شيء، فهم في

(١)صحيح البخاري (٨/ ٥٦٨) «فتح الباري».

(٢)زيادة من أ.

(٣) في ت: «ولا».

(٤) في ت: «يعرفون».

www.Quranpdf.blogspot.in

ذلك فى غاية الجهل والسفاهة وسخافة العقل؛ ولهذا قال: ﴿ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

وقوله: ﴿ وَقِيلِهِ(١) يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أى: وقال محمد: قيله، أى: شكا إلى ربه شكواه من قومه الذين كذبوه، فقال: يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون، كما أخبر تعالى فى الآية الآخرى: ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾ [الفرقان: ٣٠] وهذا الذى قلناه هو [معنى] (٢) قول ابن مسعود، ومجاهد، وقتادة، وعليه فسر ابن جرير(٣).

قال البخارى: وقرأ عبد الله ـ يعنى ابن مسعود ـ: « وقال الرسول يارب»(٤).

وقال مجاهد فى قوله: ﴿ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾، قال: فأبر الله قول محمد.

وقال قتادة: هو قول نبيكم ﷺ، يشكو قومه إلى ربه عز وجل.

ثم حكى ابن جرير فى قوله: ﴿ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ ﴾ قراءتين، إحداهما النصب، ولها توجيهان: أحدهما أنه معطوف على قوله: ﴿نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم﴾ [الزخرف: ٨٠] والثانى: أن يقدر فعل، وقال: قيلَه. والثانية: الخفض، وقيلِه، عطفا على قوله: ﴿ وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾، تقديره: وعلم قيله.

وقوله: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ ﴾ أى: المشركين، ﴿ وَقُلْ سَلَامٌ ﴾ أى: لا تجاوبهم بمثل ما يخاطبونك به من الكلام السيئ، ولكن تألفهم واصفح عنهم فعلا وقولا، ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ(٥)﴾ ،هذا تهديد منه تعالى لهم، ولهذا أحل بهم بأسه الذى لا يرد، وأعلى دينه وكلمته، وشرع بعد ذلك الجهاد والجلاد، حتى دخل الناس فى دين الله أفواجا، وانتشر الإسلام فى المشارق والمغارب.

آخر تفسير سورة الزخرف

(١) فى ت: «وقيل هو».
(٢) زيادة من ت، أ.
(٣) تفسير الطبرى (٢٥/ ٦٢).
(٤) صحيح البخارى (٨/ ٥٦٨) «فتح البارى».
(٥) فى م: «تعلمون» .

www.Quranpdf.blogspot.in

تفسير سورة الدّخـان

وهى مكية.

قال الترمذى: حدثنا سفيان بن وَكيع، حدثنا زيد بن الحباب، عن عُمَر بن أبى خَثْعَم، عن يحيى بن أبى كثير، عن أبى سلمة[1]، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ (حم الدخان) فى ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك».

ثم قال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، و عمَر[2] بن أبى خثعم يضعف. قال البخارى: منكر الحديث[3].

ثم قال: حدثنا نصر بن عبد الرحمن الكوفى، حدثنا زيد بن الحباب، عن هشام أبى المقدام، عن الحسن[4]، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ (حم الدخان) فى ليلة الجمعة، غفر له».

ثم قال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وهشام[5] أبو المقدام يضعف، والحسن لم يسمع من أبى هريرة. كذا قال أيوب، ويونس بن عبيد، وعلى بن زيد[6].

وفى مسند البزار من رواية أبى الطفيل عامر بن واثلة، عن زيد بن حارثة؛ أن رسول الله ﷺ قال لابن صيَّاد: «إنى قد خبأت خبأ فما هو؟» وخبأ له رسول الله ﷺ سورة الدخان، فقال: هو الدُّخ. فقال: «اخسأ ما شاء الله كان». ثم انصرف[7].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٥) رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦) رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٧) لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ (٨)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن القرآن العظيم: إنه أنزله فى ليلة مباركة، وهى ليلة القدر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] وكان ذلك فى شهر رمضان، كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ

(١) فى ت: «روى الترمذى بإسناده».
(٢) فى ت: «الوجه، وفى إسناده عمر».
(٣) سنن الترمذى برقم (٢٨٨٨).
(٤) فى ت: «وروى الترمذى بإسناده».
(٥) فى ت: «الوجه، وفى إسناده هشام».
(٦) سنن الترمذى برقم (٢٨٨٩).
(٧) مسند البزار برقم (٣٣٩٩) «كشف الأستار» ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٥/ ٨٨) من طريق زياد بن الفرات عن أبى الطفيل به. قال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٤): «فيه زياد بن الحسن بن فرات، ضعفه أبو حاتم ووثقه ابن حبان».

www.Quranpdf.blogspot.in

رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة:١٨٥]، وقد ذكرنا الأحاديث [١] الواردة فى ذلك فى «سورة البقرة» بما أغنى عن إعادته.

ومن قال: إنها ليلة النصف من شعبان ـ كما روى عن عكرمة ـ فقد أبعد النَّجْعَة، فإن نص القرآن أنها فى رمضان. والحديث الذى رواه عبد الله بن صالح، عن الليث، عن عقيل، عن الزهرى: أخبرنى عثمان بن محمد بن المغيرة بن الأخنس أن رسول الله ﷺ قال: «تقطع الآجال من شعبان إلى شعبان، حتى إن الرجل لينكح ويولد له، وقد أخرج اسمه فى الموتى»[٢] فهو حديث مرسل، ومثله لا يعارض به النصوص.

وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ أى: معلمين الناس ما ينفعهم ويضرهم شرعاً، لتقوم حجة الله على عباده.

وقوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ أى: فى ليلة القدر يفصل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السنة، وما يكون فيها من الآجال والأرزاق، وما يكون فيها إلى آخرها. وهكذا روى عن ابن عمر، وأبى مالك، ومجاهد، والضحاك، وغير واحد من السلف.

وقوله: ﴿حَكِيمٍ﴾ أى: محكم، لا يبدل ولايغير؛ ولهذا قال: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا﴾ أى: جميع ما يكون ويقدره الله تعالى وما يوحيه [٣] فبأمره وإذنه وعلمه، ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أى: إلى الناس رسولاً يتلو عليهم آيات الله مبينات، فإن الحاجة كانت ماسة إليه؛ ولهذا قال: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أى: الذى أنزل هذا القرآن هو رب السموات والأرض وخالقهما ومالكهما وما فيهما، ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أى: إن كنتم متحققين.

ثم قال: ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ [فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ][٤]﴾ الآية[الأعراف:١٥٨].

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ (٩) فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ (١٠) يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (١٢) أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ (١٤) إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ (١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ (١٦)﴾.

يقول تعالى: بل هؤلاء المشركون فى شك يلعبون، أى: قد جاءهم اليقين[٥]، وهم يشكون فيه ويمترون، ولا يصدقون به، ثم قال متوعدا لهم ومتهدداً: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾.

قال سليمان بن مِهْرَان الأعمش، عن أبى الضُّحَى مسلم بن صُبَيْح[٦]، عن مسروق قال: دخلنا

---

(١) فى ت: «الآثار».

(٢) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٥/ ٦٥) والبيهقى فى شعب الإيمان برقم (٣٨٣٩) من طريق الليث عن عقيل به.

(٣) فى أ: «يوجبه». (٤) زيادة من ت، أ. (٥) فى ت: «المبين». (٦) فى ت: «روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما».

www.Quranpdf.blogspot.in

المسجد ـ يعنى مسجد الكوفة ـ عند أبواب كندة، فإذا رجل يقص على أصحابه: ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾، تدرون ما ذلك الدخان؟ ذلك دخان يأتى يوم القيامة، فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم، ويأخذ المؤمنين منه شبه الزكام. قال: فأتينا ابن مسعود فذكرنا ذلك له، وكان مضطجعًا ففزع فقعد، وقال(١): إن الله عز وجل قال لنبيكم ﷺ: ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ص:٨٦]، إن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: «الله أعلم»، سأحدثكم عن ذلك، إن قريشا لما أبطأت عن الإسلام واستعصت (٢)على رسول الله ﷺ، دعا عليهم بسنين كسنى يوسف، فأصابهم من الجهد والجوع حتى أكلوا العظام والميتة، وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلا الدخان ـ وفى رواية: فجعل الرجل ينظر إلى السماء، فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد ـ [قال] (٣) قال الله تعالى: ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ . يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فأتى رسول الله ﷺ فقيل: يارسول الله، استسق الله لمضر، فإنها قد هلكت. فاستسقى لهم فَسُقُوا، فأنزل الله: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ قال ابن مسعود: فيكشف العذاب عنهم يوم القيامة، فلما أصابهم الرفاهية عادوا إلى حالهم، فأنزل الله: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾، قال: يعنى يوم بدر.

قال ابن مسعود: فقد مضى خمسة: الدخان، والروم، والقمر، والبطشة، واللِّزام. وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين(٤). ورواه الإمام أحمد فى مسنده، وهو عند الترمذى والنسائى فى تفسيرهما(٥)، وعند ابن جرير وابن أبى حاتم من طرق متعددة، عن الأعمش، به(٦). وقد وافق ابن مسعود على تفسير الآية بهذا، وأن الدخان مضى، جماعة من السلف كمجاهد، وأبى العالية، وإبراهيم النخعى، والضحاك، وعطية العوفى، وهو اختيار ابن جرير.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا جعفر بن مسافر، حدثنا يحيى بن حسان، حدثنا ابن لَهِيعة، حدثنا(٧) عبد الرحمن الأعرج فى قوله: ﴿ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ قال: كان يوم فتح مكة.

وهذا القول غريب جداً، بل منكر.

وقال آخرون: لم يمض الدخان بعد، بل هو من أمارات(٨) الساعة، كما تقدم من حديث أبى سَرِيحة(٩) حذيفة بن أسيد الغفارى، رضى الله عنه، قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحن نتذاكر الساعة، فقال: «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج عيسى ابن مريم، والدجال، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس ـ

---

(١) فى ت، م: «فقال». (٢) فى أ: «واستصعبت». (٣) زيادة من أ.

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٨٢٠) وصحيح مسلم برقم (٢٧٩٨).

(٥) فى م: «تفسيريهما».

(٦) المسند (١/ ٣٨٠، ٤٣١) وسنن الترمذى برقم (٣٢٥٤) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٨١) وتفسير الطبرى (٢٥/ ٦٦).

(٧) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بإسناده عن». (٨) فى ت: «آيات». (٩) فى ت: «أبى سريحة فى ».

www.Quranpdf.blogspot.in

أو: تحشر الناس ـ: تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا». تفرد بإخراجه مسلم فى صحيحه[١].

وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لابن الصياد: «إنى خبأت لك خَبْأ»، قال: هو الدُّخ. فقال له: «اخسأ فلن تعدو قدرك». قال: وخبأ له رسول الله ﷺ: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾[٢].

وهذا فيه إشعار بأنه من المنتظر المرتقب، وابن صياد كاشف على طريقة الكهان بلسان الجان، وهم يُقَرطمون العبارة؛ ولهذا قال: «هو الدُّخ»، يعنى: الدخان. فعندها عرف رسول الله ﷺ مادته وأنها شيطانية، فقاله له: «اخسأ فلن تعدو قدرك».

ثم قال ابن جرير: وحدثنى عصام بن رَوَّاد بن الجراح، حدثنا أبى، حدثنا سفيان بن سعيد الثورى، حدثنا منصور بن المعتمر، عن رِبْعِى بن حِرَاش قال: سمعت حذيفة بن اليمان يقول[٣]: قال رسول الله ﷺ: «إن أول الآيات الدجال، ونزول عيسى ابن مريم، ونار تخرج من قعر عدن أبين، تسوق الناس إلى المحشر، تقيل معهم إذا قالوا، والدخان ـ قال حذيفة: يا رسول الله، وما الدخان؟ فتلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ . يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ـ يملأ ما بين المشرق والمغرب، يمكث أربعين يوماً وليلة، أما المؤمن فيصيبه منه كهيئة الزكمة[٤]، وأما الكافر فيكون بمنزلة السكران، يخرج من منخريه وأذنيه ودبره»[٥].

قال ابن جرير: لو صح هذا الحديث لكان فاصلاً، وإنما لم أشهد له بالصحة؛ لأن محمد بن خلف العسقلانى حدثنى أنه سأل روادا عن هذا الحديث: هل سمعه من سفيان؟ فقال له: لا. قال: فقلت: أقرأته عليه؟ قال: لا. قال: فقلت له: فقرئ عليه وأنت حاضر فأقر به؟ فقال: لا. فقلت له: فمن أين جئت به؟ فقال: جاءنى به قوم فعرضوه على، وقالوا لى: اسمعه منا. فقرؤوه علىَّ ثم ذهبوا به، فحدثوا به عنى، أو كما قال[٦].

وقد أجاد ابن جرير فى هذا الحديث ههنا، فإنه موضوع بهذا السند، وقد أكثر ابن جرير من سياقه فى أماكن من هذا التفسير، وفيه منكرات كثيرة جداً، ولا سيما فى أول سورة «بنى إسرائيل» فى ذكر المسجد الأقصى، والله أعلم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثنا خليل، عن الحسن، عن أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «يهيج الدخان بالناس، فأما المؤمن فيأخذه كالزكمة، وأما الكافر فينفخه حتى يخرج من كل مسمع منه».

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٩٠١).

(٢) صحيح البخارى برقم (٣٠٥٥) وصحيح مسلم برقم (٢٩٣٠) من حديث عبد الله بن عمر، رضى الله عنهما.

(٣) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم عن حذيفة قال». (٤) فى ت، م: «الزكام».

(٥) تفسير الطبرى (٢٥/٦٨) ومن طريقه رواه الثعلبى فى تفسيره كما فى تخريج أحاديث الكشاف للزيلعى (١١٧٤) والبغوى فى معالم التنزيل (٧/ ٢٣٠).

(٦) تفسير الطبرى (٢٥/٦٨).

www.Quranpdf.blogspot.in

ورواه سعيد بن أبى عَرُوبة، عن قتادة، عن الحسن، عن أبى سعيد الخدرى موقوفاً. ورواه عوف، عن الحسن قوله.

وقال ابن جرير أيضًا: حدثنى محمد بن عوف، حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش، حدثنى أبى، حدثنى ضَمْضَم بن زُرعَة، عن شُريح بن عبيد، عن أبى مالك الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن ربكم أنذركم ثلاثا: الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة، ويأخذ الكافر فينتفخ حتى يخرج من كل مسمع منه، والثانية الدابة، والثالثة الدجال».

ورواه الطبرانى عن هاشم بن يزيد، عن محمد بن إسماعيل بن عياش، به[١]. وهذا إسناد جيد.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عبد الله بن صالح بن مسلم، حدثنا إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن الحارث، عن على، رضى الله عنه، قال: لم تمض آية الدخان بعد، يأخذ المؤمن كهيئة الزكام، وتنفخ الكافر حتى ينفد.

وروى ابن جرير من حديث الوليد بن جميع، عن عبد الملك بن المغيرة، عن عبد الرحمن بن البيلمانى، عن ابن عمر قال: يخرج الدخان فيأخذ المؤمن كهيئة الزكام، ويدخل فى مسامع الكافر والمنافق حتى يكون كالرأس الحنيذ، أى: المشوى على الرَّضف.

ثم قال ابن جرير: حدثنى يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّة، عن ابن جريج[٢]، عن عبد الله بن أبى مليكة قال: غدوت على ابن عباس، رضى الله عنهما، ذات يوم فقال: ما نمت الليلة حتى أصبحت. قلت: لم؟ قال: قالوا: طلع الكوكب ذو الذنب، فخشيت أن يكون الدخان قد طرق، فما نمت حتى أصبحت[٣]. وهكذا رواه ابن أبى حاتم[٤]، عن أبيه، عن ابن أبى عمر، عن سفيان، عن عبد الله بن أبى يزيد، عن عبد الله بن أبى مليكة، عن ابن عباس فذكره. وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن. وهكذا قول من وافقه من الصحابة والتابعين أجمعين، مع الأحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان وغيرهما، التى أوردناها مما فيه مقنع ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة، مع أنه ظاهر القرآن.

قال الله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ أى: بين واضح يراه كل أحد. وعلى ما فسر به ابن مسعود، رضى الله عنه: إنما هو خيال رأوه فى أعينهم من شدة الجوع والجهد. وهكذا قوله: ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾ أى: يتغشاهم ويَعُمهم[٥]، ولو كان أمرا خيالياً يخص أهل مكة المشركين لما

---

(١) تفسير الطبرى (٢٥/٦٨) والمعجم الكبير (٣/٢٩٢) وقول الحافظ ابن كثير هنا: «هذا إسناد جيد» متعقب، فإن لهذه النسخة ثلاث علل:

الأولى: محمد بن إسماعيل بن عياش، قال أبو حاتم: «لم يسمع من أبيه شيئاً، حملوه على أن يحدث فحدث».

الثانية: ضَمضَم بن زُرعة، ضعفه أبو حاتم ووثقه ابن معين، ومحمد بن إسماعيل بن عياش، قال أبو داود: «لم يكن بذاك».

الثالثة: شُريح بن عبيد، قد كلم فى سماعه من أبى مالك الأشعرى، قال أبو حاتم: «شريح بن عبيد، عن أبى مالك الأشعرى، مرسل».

(٢) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بإسناده».

(٣) تفسير الطبرى (٢٥/٦٨).

(٤) فى ت: «ورواه ابن جرير هكذا»، وفى أ: «وهكذا رواه ابن جرير».

(٥) فى أ: «ويغمهم».

www.Quranpdf.blogspot.in

قيل فيه: ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾.

وقوله: ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا . هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور: ١٣، ١٤]، أو يقول بعضهم لبعض ذلك.

وقوله: ﴿رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ أي: يقول الكافرون إذا عاينوا عذاب الله وعقابه سائلين رفعه وكشفه عنهم، كقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧]. وكذا قوله: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤]، وهكذا قال هاهنا: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ . ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾.

يقول: كيف لهم بالتذكر، وقد أرسلنا إليهم رسولاً بين الرسالة والنذارة، ومع هذا تولوا عنه وما وافقوه، بل كذبوه وقالوا: معلم مجنون. وهذا كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ . يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٣، ٢٤]، وقوله[(١)] تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ . وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ . وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ . وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ [سبأ: ٥١ ـ ٥٤].

وقوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُو[(٢)] الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾، يحتمل معنيين:

أحدهما: أنه يقوله[(٣)] تعالى: ولو كشفنا عنكم العذاب ورجعناكم إلى الدار الدنيا، لعدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والتكذيب، كقوله: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٥]، وكقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

والثاني: أن يكون المراد: إنا مؤخرو العذاب عنكم قليلا بعد انعقاد أسبابه[(٤)] ووصوله إليكم، وأنتم مستمرون فيما أنتم فيه من الطغيان والضلال، ولا يلزم من الكشف عنهم أن يكون باشرهم، كقوله تعالى: ﴿إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨]، ولم يكن العذاب باشرهم واتصل بهم، بل كان قد انعقد سببه [ووصوله][(٥)] عليهم، ولا يلزم أيضًا أن يكونوا قد أقلعوا عن كفرهم ثم عادوا إليه، قال الله تعالى إخبارًا عن شعيب أنه قال لقومه حين قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ. قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ٨٨، ٨٩]، وشعيب [عليه السلام][(٦)] لم يكن قط على ملتهم وطريقتهم.

وقال قتادة: ﴿إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾: إلى عذاب الله.

---

(١) في ت، م: «وكقوله». (٢) في ت: «كاشف». (٣) في أ: «يقول».
(٤) في ت، م، أ: «سببه». (٥) زيادة من ت، أ. (٦) زيادة من ت، م، أ.

www.Quranpdf.blogspot.in

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾: فسر ذلك ابن مسعود بيوم بدر. وهذا قول جماعة ممن وافق ابن مسعود على تفسيره الدخان بما تقدم، وروى أيضاً عن ابن عباس [وجماعة][(١)] من رواية العوفى، عنه. وعن أبى بن كعب وجماعة، وهو محتمل.

والظاهر أن ذلك يوم القيامة، وإن كان يوم بدر يوم بطشة أيضاً.

قال[(٢)] ابن جرير: حدثنى يعقوب، حدثنا ابن علية، حدثنا خالد الحذاء، عن عكرمة قال: قال ابن عباس: قال ابن مسعود: البطشة الكبرى: يوم بدر، وأنا أقول: هى يوم القيامة[(٣)].

وهذا إسناد صحيح عنه، وبه يقول الحسن البصرى، وعكرمة فى أصح الروايتين[(٤)]، عنه.

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ⟨١٧⟩ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ⟨١٨⟩ وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ⟨١٩⟩ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ⟨٢٠⟩ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ⟨٢١⟩ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ⟨٢٢⟩ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ⟨٢٣⟩ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ⟨٢٤⟩ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ⟨٢٥⟩ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ⟨٢٦⟩ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ⟨٢٧⟩ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ⟨٢٨⟩ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ⟨٢٩⟩ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ⟨٣٠⟩ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ⟨٣١⟩ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ⟨٣٢⟩ وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ ⟨٣٣⟩ ﴾.

يقول تعالى: ولقد اختبرنا قبل هؤلاء المشركين قوم فرعون، وهم قبط مصر، ﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ يعني: موسى كليمه، عليه السلام، ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾، كقوله: ﴿ فَأَرْسِلْ[(٥)] مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ [طه: ٤٧].

وقوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أى: مأمون على ما أبلغكموه.

وقوله: ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ أى: لا تستكبروا على اتباع آياته، والانقياد لحججه والإيمان ببراهينه[(٦)]، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

﴿إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ [مُّبِينٍ][(٧)]﴾ أى: بحجة ظاهرة واضحة، وهى ما أرسله الله به من الآيات البينات والأدلة القاطعة[(٨)].

---

(١) زيادة من ت.
(٢) فى ت: «وروى».
(٣) تفسير الطبرى (٢٥/ ٧٠).
(٤) فى ت: «القولين».
(٥) فى ت، م، أ: «وأن أرسل» وهو خطأ.
(٦) فى أ: «بالوهيته».
(٧) زيادة من ت، م، أ.
(٨) فى ت، م، أ: «القاطعات».

www.Quranpdf.blogspot.in

﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ قال ابن عباس، وأبو صالح: هو الرجم باللسان وهو الشتم.

وقال قتادة: [هو][1] الرجم بالحجارة.

أي[2]: أعوذ بالله الذي خلقني وخلقكم [من][3] أن تصلوا إليَّ بسوء من قول أو فعل.

﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴾ أي: فلا تتعرضوا[4] إليَّ، ودعوا الأمر بيني وبينكم مسالمة إلى أن يقضي الله بيننا. فلما طال مقامه بين أظهرهم، وأقام حجج الله عليهم، كل ذلك وما زادهم ذلك إلا كفراً وعناداً، دعا ربه عليهم دعوة نفذت فيهم، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ .قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا﴾ [يونس: ٨٨، ٨٩]. وهكذا قال هاهنا: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾، فعند ذلك أمره الله تعالى أن يخرج ببني إسرائيل من بين أظهرهم من غير أمر فرعون ومشاورته واستئذانه؛ ولهذا قال: ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾، كما قال: ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لاَّ تَخَافُ دَرَكًا وَلا تَخْشَىٰ ﴾ [طه: ٧٧].

وقوله هاهنا: ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ وذلك أن موسى، عليه السلام، لما جاوز هو وبنو إسرائيل البحر، أراد موسى أن يضربه بعصاه حتى يعود كما كان، ليصير حائلاً بينهم وبين فرعون، فلا يصل إليهم. فأمره الله[5] أن يتركه على حاله ساكناً، وبشره بأنهم جند مغرقون فيه[6]، وأنه لا يخاف دركاً ولا يخشى.

قال ابن عباس: ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾ كهيئته وامضه. وقال مجاهد﴿رَهْوًا﴾: طريقاً يبساً كهيئته، يقول: لا تأمره يرجع، اتركه حتى يرجع آخرهم. وكذا قال عكرمة، والربيع بن أنس، والضحاك، وقتادة، وابن زيد، وكعب الأحبار، وسماك بن حرب، وغير واحد[7].

ثم قال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ ﴾ وهي البساتين ﴿وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ ﴾ والمراد بها الأنهار والآبار، ﴿ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ وهي المساكن الكريمة الأنيقة والأماكن الحسنة.

وقال مجاهد، وسعيد بن جبير: ﴿ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾: المنابر.

وقال ابن لَهيعة، عن وهب[8] بن عبد الله المعافري، عن عبد الله بن عمرو قال: نيل مصر سيد الأنهار، سخر الله له كل نهر بين المشرق والمغرب، وذلله له، فإذا أراد الله أن يجري نيل مصر أمر كل نهر أن يمده، فأمدته الأنهار بمائها، وفجر الله له الأرض عيوناً، فإذا انتهى جريه إلى ما أراد الله، أوحى الله إلى كل ماء أن يرجع إلى عنصره.

---

(١) زيادة من ت. (٢) في أ: «إني». (٣) زيادة من ت، م.
(٤) في أ: «تعترضوا». (٥) في م: «تعالى». (٦) في ت: «أي في البحر»، وفي أ: «أي فيه».
(٧) في ت: «وغيرهما» . (٨) في م: «ولهب».

www.Quranpdf.blogspot.in

وقال فى قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا[١] مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ . وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾، قال: كانت الجنان بحافتى هذا النيل من أوله إلى آخره فى الشقين جميعاً، ما بين أسوان إلى رشيد، وكان له تسعة[٢] خلج: خليج الإسكندرية، وخليج دمياط، وخليج سردوس، وخليج منف، وخليج الفيوم، وخليج المنهى، متصلة لا ينقطع منها شىء عن شىء، وزروع ما بين الجبلين كله من أول مصر إلى آخر ما يبلغه الماء، وكانت جميع أرض مصر تروى من ستة عشر ذراعاً، لما قدروا ودبروا من قناطرها وجسورها وخلجها.

﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ أى: عيشة كانوا يتفكهون فيها فيأكلون ما شاؤوا ويلبسون ما أحبوا مع الأموال والجاهات والحكم فى البلاد، فسلبوا ذلك جميعه فى صبيحة واحدة، وفارقوا الدنيا وصاروا إلى جهنم وبئس المصير، واستولى على البلاد المصرية وتلك الحواصل الفرعونية والممالك القبطية بنو إسرائيل، كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩] وقال فى موضع آخر[٣]: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧]. وقال هاهنا: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ وهم بنو إسرائيل، كما تقدم.

وقوله: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ أى: لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد فى أبواب السماء فتبكى على فقدهم، ولا لهم فى الأرض بقاع عبدوا الله فيها فقدتهم؛ فلهذا استحقوا ألا ينظروا ولا يؤخروا لكفرهم وإجرامهم، وعتوهم وعنادهم.

قال الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده: حدثنا أحمد بن إسحاق البصرى، حدثنا مكى بن إبراهيم، حدثنا موسى بن عبيدة، حدثنى يزيد الرقاشى، حدثنى أنس بن مالك[٤]، عن النبى ﷺ قال: «ما من عبد إلا وله فى السماء بابان: باب يخرج منه رزقه، وباب يدخل منه[٥] عمله وكلامه، فإذا مات فقداه وبكيا عليه»، وتلا هذه الآية: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ وذُكر أنهم لم يكونوا عملوا[٦] على الأرض عملاً صالحا يبكى عليهم. ولم يصعد لهم إلى السماء من كلامهم ولا من عملهم كلام طيب، ولا عمل صالح فتفقدهم فتبكى عليهم[٧].

ورواه ابن أبى حاتم من حديث موسى بن عبيدة وهو الربذى.

وقال ابن جرير: حدثنى يحيى بن طلحة، حدثنا عيسى بن يونس، عن صفوان بن عمرو، عن شريح بن عبيد الحضرمى قال: قال رسول الله ﷺ[٨]: «إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً. ألا لا غربة على مؤمن، ما مات مؤمن فى غربة غابت عنه فيها بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض». ثم

---

(١) فى ت، م: «فأخرجناهم» وهو خطأ، ولعل الناسخ أراد الآية: ٥٧ من سورة الشعراء. (٢) فى ت، م: «تسع».
(٣) فى ت، م، أ: «الآية». (٤) فى ت: «وروى الحافظ أبو يعلى الموصلى بإسناده عن أنس بن مالك رضى الله عنه».
(٥) فى ت، أ: «فيه». (٦) فى ت، م: «يعملون».
(٧) مسند أبى يعلى (٧/ ١٦٠) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٣٢٥٥) من طريق موسى بن عبيدة به مختصراً، وقال الترمذى: «هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه، وموسى بن عبيدة ويزيد بن أبان الرقاشى يضعفان فى الحديث».
(٨) فى ت: «وروى ابن جرير أن رسول الله ﷺ قال».

www.Quranpdf.blogspot.in

قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ ثم قال: «إنهما لا يبكيان على الكافر»[١].

وقال[٢] ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن عصام، حدثنا أبو أحمد ـ يعنى الزبيرى ـ حدثنا العلاء ابن صالح، عن المنهال بن عمرو، عن عباد بن عبد الله قال: سأل رجل علياً، رضى الله عنه: هل تبكى السماء والأرض على أحد؟ فقال له: لقد سألتنى عن شيء ما سألنى عنه أحد قبلك، إنه ليس [من][٣] عبد إلا له مصلى فى الأرض، ومصعد عمله من السماء. وإن آل فرعون لم يكن لهم عمل صالح فى الأرض، ولا عمل يصعد فى السماء، ثم قرأ على، رضى الله عنه: ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا طلق بن غَنَّام، عن زائدة، عن منصور، عن منهال، عن سعيد بن جبير قال: أتى ابنَ عباس رجلٌ فقال: يا أبا عباس، أرأيت قول الله: ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾، فهل تبكى السماء والأرض على أحد؟ قال: نعم، إنه ليس أحد من الخلائق إلا وله باب فى السماء منه ينزل رزقه، وفيه يصعد عمله، فإذا مات المؤمن فأغلق بابه من السماء الذى كان يصعد فيه عمله وينزل منه رزقه بكى عليه، وإذا فقد مصلاه من الأرض التى كان يصلى فيها ويذكر الله فيها بكت عليه، وإن قوم فرعون لم تكن لهم فى الأرض آثار صالحة، ولم يكن يصعد إلى الله منهم خير، فلم تبك عليهم السماء والأرض[٤].

وروى العوفى، عن ابن عباس، نحو هذا.

وقال سفيان الثورى، عن أبى يحيى القَتَّات، عن مجاهد، عن[٥] ابن عباس [رضى الله عنهما][٦] قال: كان يقال: تبكى الأرض على المؤمن أربعين صباحاً. وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وغير واحد.

وقال مجاهد أيضاً: ما مات مؤمن إلا بكت عليه السماء والأرض أربعين صباحاً، قال: فقلت له: أتبكى الأرض؟ فقال: أتعجب؟ وما للأرض لا تبكى على عبد، كان يعمرها بالركوع والسجود؟ وما للسماء لا تبكى على عبد كان لتكبيره وتسبيحه فيها دوى كدوى النحل؟

وقال قتادة: كانوا أهون على الله من أن تبكى عليهم السماء والأرض.

وقال ابن حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا عبد السلام بن عاصم، حدثنا إسحاق بن إسماعيل، حدثنا المستورد بن سابق، عن عبيد المكتب، عن إبراهيم قال: ما بكت السماء منذ كانت الدنيا إلا على اثنين. قلت لعبيد: أليس السماء والأرض تبكى على المؤمن؟ قال: ذاك مقامه حيث يصعد عمله. قال: وتدرى ما بكاء السماء؟ قلت[٧]: لا. قال: تحمر وتصير وردة كالدهان، إن يحيى

---

(١) تفسير الطبرى (٢٥/ ٧٥) ورواه ابن أبى الدنيا فى ذكر الموت كما فى الدر المنثور (٧/ ٤١٢) وهو مرسل.
(٢) فى ت: «وروى». (٣) زيادة من ت، أ.
(٤) تفسير الطبرى (٢٥/ ٧٤).
(٥) فى ت: «وعن». (٦) زيادة من ت. (٧) فى أ: «قال».

www.Quranpdf.blogspot.in

ابن زكريا لما قتل احمرت السماء وقطرت دماً. وإن حسين بن على لما قتل احمرت السماء.

وحدثنا على بن الحسن، حدثنا أبو غسان محمد بن عمرو ـ زُنَيج ـ حدثنا جرير، عن يزيد بن أبى زياد قال: لما قتل حسين[١] بن على، رضى الله عنهما، احمرت آفاق السماء أربعة أشهر. قال يزيد: واحمرارها بكاؤها. وهكذا قال السدى الكبير.

وقال عطاء الخراسانى: بكاؤها: أن تحمر أطرافها.

وذكروا[٢] أيضًا فى مقتل الحسين أنه ما قلب حجر يومئذ إلا وجد تحته دم عَبِيط، وأنه كسفت الشمس، واحمر الأفق، وسقطت حجارة. وفى كل ذلك نظر، والظاهر أنه من سُخْف الشيعة وكذبهم، ليعظموا الأمر ـ ولا شك أنه عظيم ـ ولكن لم يقع هذا الذى اختلقوه وكذبوه، وقد وقع ما هو أعظم من [ذلك] [٣] ـ قتل الحسين، رضى الله عنه ـ ولم يقع شىء مما ذكروه، فإنه قد قتل أبوه على بن أبى طالب، وهو أفضل منه بالإجماع ولم يقع[٤] [شىء من][٥] ذلك، وعثمان بن عفان قتل محصوراً مظلوماً، ولم يكن شىء من ذلك. وعمر بن الخطاب، رضى الله عنه، قتل فى المحراب فى صلاة الصبح، وكأن المسلمين لم تطرقهم مصيبة قبل ذلك، ولم يكن شىء من ذلك. وهذا رسول الله ﷺ وهو سيد البشر فى الدنيا والآخرة يوم مات لم يكن شىء مما ذكروه. ويوم مات إبراهيم ابن النبى ﷺ خسفت الشمس، فقال الناس: [الشمس][٦] خسفت لموت إبراهيم، فصلى بهم رسول الله ﷺ صلاة الكسوف، وخطبهم وبين لهم أن الشمس والقمر لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته[٧].

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ . مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ﴾: يمتن عليهم تعالى بذلك، حيث أنقذهم مما كانوا فيه من إهانة فرعون وإذلاله لهم، وتسخيره إياهم فى[٨] الأعمال المهينة الشاقة.

وقوله: ﴿مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا [مِّنَ الْمُسْرِفِينَ][٩]﴾ أى: مستكبراً جباراً عنيداً، كقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ [وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا][١٠]﴾ [القصص: ٤].

وقوله: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴾ [المؤمنون: ٤٦]، [وقوله: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴾] [١١] [العنكبوت: ٣٩]، [فكان فرعون][١٢] سرفاً [١٣] فى أمره، سخيف الرأى على نفسه.

وقوله: ﴿ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ ـ قال مجاهد: ﴿ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾: على من هم بين ظهريه. وقال قتادة: اختيروا على أهل زمانهم ذلك. وكان يقال: إن

(١) فى ت، م: «الحسين». (٢) فى ت: «وذكر».
(٣) زيادة من أ. (٤) فى ت، أ: «يكن». (٥) زيادة من ت، أ.
(٦) زيادة من ت، وفى أ: «خسفت الشمس».
(٧) رواه البخارى فى صحيحه برقم (١٠٤٣) ومسلم فى صحيحه برقم (٩١٥).
(٨) فى أ: «من». (٩، ١٠) زيادة من أ.
(١١) زيادة من أ. (١٢) زيادة من ت، أ. (١٣) فى ت، أ: «مسرفا».

www.Quranpdf.blogspot.in

لكل زمان عالما. وهذه(١) كقوله تعالى: ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الأعراف: ١٤٤] أى: أهل زمانه، وكقوله لمريم: ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢] أى: فى زمانها؛ فإن خديجة أفضل منها، وكذا آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، أو مساوية لها فى الفضل، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام.

وقوله: ﴿وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الآيَاتِ﴾ أى: [من](٢) الحجج والبراهين وخوارق العادات ﴿مَا فِيهِ بَلاءٌ مُّبِينٌ﴾ أى: اختبار ظاهر جلى لمن اهتدى به.

﴿ إِنَّ هَؤُلاءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ (٣٥) فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٦) أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٣٧) ﴾.

يقول تعالى منكرًا على المشركين فى إنكارهم البعث والمعاد، وأنه ما ثم إلا هذه الحياة الدنيا، ولا حياة بعد الممات، ولا بعث ولا نشور. ويحتجون بآبائهم الماضين الذين ذهبوا فلم يرجعوا، فإن كان البعث حقاً ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾. وهذه حجة باطلة وشبهة فاسدة، فإن المعاد إنما هو يوم القيامة لا فى هذه الدار، [بل](٣) بعد انقضائها وذهابها وفراغها يعيد الله العالمين خلقاً جديداً، ويجعل الظالمين لنار جهنم وقوداً، يوم تكون(٤) شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً.

ثم قال تعالى متهدداً لهم، ومتوعداً ومنذراً لهم بأسه الذى لا يرد، كما حل بأشباههم(٥) ونظرائهم من المشركين والمنكرين للبعث وكقوم تبع ـ وهم سبأ ـ حيث أهلكهم الله وخرَّب بلادهم، وشردهم فى البلاد، وفرقهم شذر مذر، كما تقدم ذلك فى سورة سبأ، وهى مُصَدَّرة بإنكار المشركين للمعاد. وكذلك هاهنا شبههم بأولئك، وقد كانوا عرباً من قحطان كما أن هؤلاء عرب من عدنان، وقد كانت حمير ـ وهم سبأ ـ كلما ملك فيهم رجل سموه تُبَّعاً، كما يقال: كسرى لمن ملك الفرس، وقيصر لمن ملك الروم، وفرعون لمن ملك مصر كافراً، والنجاشى لمن ملك الحبشة، وغير ذلك من أعلام الأجناس. ولكن اتفق أن بعض تبابعتهم خرج من اليمن وسار فى البلاد حتى وصل إلى سمرقند، واشتد(٦) ملكه وعظم سلطانه وجيشه، واتسعت مملكته وبلاده، وكثرت رعاياه وهو الذى مَصَّرَ الحيرة فاتفق أنه مَرَّ بالمدينة النبوية وذلك فى أيام الجاهلية، فأراد قتال أهلها فمانعوه وقاتلوه بالنهار، وجعلوا يَقْرونُه بالليل، فاستحيا منهم وكف عنهم، واستصحب معه حبرين من أحبار يهود كانا قد نصحاه وأخبراه أنه لا سبيل له على هذه البلدة؛ فإنها مُهَاجَرُ نبى يكون فى آخر الزمان، فرجع عنها وأخذهما معه إلى بلاد اليمن، فلما اجتاز بمكة أراد هدم الكعبة فنهياه [عن ذلك](٧) أيضاً، وأخبراه بعظمة هذا البيت، وأنه من بناية إبراهيم الخليل وأنه سيكون له شأن عظيم على يدى

---

(١) فى م: «وهذا».
(٢) زيادة من ت.
(٣) زيادة من ت، أ.
(٤) فى ت: «تكونوا»، وفى م: «تكونون».
(٥) فى ت: «بأشياعهم».
(٦) فى أ: «واستمد».
(٧) زيادة من أ.

www.Quranpdf.blogspot.in

ذلك النبى المبعوث فى آخر الزمان، فعظمها وطاف بها[١]، وكساها الملاء والوصائل والحبير. ثم كر راجعاً إلى اليمن ودعا أهلها إلى التهود معه، وكان إذ ذاك دين موسى، عليه السلام، فيه من يكون على الهداية قبل بعثة المسيح، عليه السلام، فتهود معه عامة أهل اليمن. وقد ذكر القصة بطولها الإمام محمد بن إسحاق فى كتابه السيرة[٢]. وقد ترجمه الحافظ ابن عساكر فى تاريخه ترجمة حافلة، أورد فيها أشياء كثيرة مما ذكرنا وما لم نذكر[٣]. وذكر أنه ملك دمشق، وأنه كان إذا استعرض الخيل صُفَّت له من دمشق إلى اليمن، ثم ساق من طريق عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن ابن أبى ذئب[٤]، عن المقبرى، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «ما أدرى الحدود طهارة لأهلها أم لا؟ ولا أدرى تبع لعيناً[٥] كان أم لا؟ ولا أدرى ذو القرنين نبياً كان أم ملكا؟» وقال غيره: «أعزيراً كان نبياً أم لا». وكذا رواه ابن أبى حاتم، عن محمد بن حماد الظهرانى[٦]، عن عبد الرزاق[٧].

قال الدارقطنى: تفرد به عبد الرزاق[٨]، ثم روى ابن عساكر من طريق محمد بن كُرَيْب، عن أبيه، عن ابن عباس، رضى الله عنهما، مرفوعا: «عُزَيرُ لا أدرى أنبياً كان أم لا؟ ولا أدرى ألعين تُبَّع أم لا؟»[٩].

ثم أورد ما جاء فى النهى عن سبه ولعنته، كما سيأتى. وكأنه ـ والله أعلم ـ كان كافراً ثم أسلم، وتابع دين الكليم[١٠] على يدى من كان من أحبار اليهود فى ذلك الزمان على الحق قبل بعثة المسيح، عليه السلام، وحج البيت فى زمن الجُرهُميين، وكساه الملاء والوصائل من الحرير والحبر ونحر عنده ستة آلاف بدنة وعظمه وأكرمه. ثم عاد إلى اليمن. وقد ساق قصته بطولها الحافظ ابن عساكر، من طرق متعددة مطولة[١١] مبسوطة، عن أبى بن كعب، وعبد الله بن سلام، وعبد الله بن عباس وكعب الأحبار. وإليه المرجع فى ذلك كله، وإلى عبد الله بن سلام أيضاً، وهو أثبت وأكبر وأعلم. وكذا روى قصته وهب بن مُنَبِّه، ومحمد بن إسحاق فى السيرة كما هو مشهور فيها. وقد اختلط على الحافظ ابن عساكر فى بعض السياقات ترجمة تُبَّع هذا بترجمة آخر متأخر عنه بدهر طويل، فإن تُبَّعاً هذا المشار إليه فى القرآن أسلم قومه على يديه، ثم لما مات[١٢] عادوا بعده إلى عبادة الأصنام والنيران، فعاقبهم الله تعالى كما ذكره فى سورة سبأ، وقد بسطنا قصتهم هنالك، ولله الحمد والمنة.

وقال سعيد بن جبير: كسا تبع الكعبة، وكان سعيد ينهى عن سبه.

---

(١) فى ت: «فعظم الكعبة فطاف بها».

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ١٩).

(٣) تاريخ دمشق (٣/ ٥٠٠ «القسم المخطوط»).

(٤) فى ت، أ: «ذؤيب». (٥) فى ت: «أمينا».

(٦) فى م: «الطبرانى».

(٧) ورواه الحاكم فى المستدرك (١/ ٣٦) من طريق عبد الرزاق به، ورواه أبو داود فى سننه برقم (٤٦٧٤) من طريق عبد الرزاق به إلا أنه قال: «عزيز» بدل: «ذو القرنين».

(٨) قال الحافظ ابن عبد البر فى جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٥٠): «وحديث عبادة بن الصامت: «إن الحدود كفارة لأهلها» أصح وأثبت سندا» ثم ساقه من طريق البخارى بسنده إلى عبادة بن الصامت.

(٩) تاريخ دمشق (٣/ ٥٠١ «القسم المخطوط»).

(١٠) فى ت، م، أ: «الخليل». (١١) فى م: «طويلة». (١٢) فى ت، م، أ: «توفى».

www.Quranpdf.blogspot.in

وتُبَّع هذا هو تُبَّع الأوسط، واسمه أسعد أبو[١] كُرَيْب بن مَلْكيكرب[٢] اليمانى، ذكروا أنه ملك على قومه ثلاثمائة سنة وستاً[٣] وعشرين سنة، ولم يكن فى حمير أطول مدة منه، وتوفى قبل مبعث رسول الله ﷺ بنحو من سبعمائة عام. وذكروا أنه لما ذكر له الحبران من يهود المدينة أن هذه البلدة مُهَاجَرُ نبى آخر فى الزمان[٤]، اسمه أحمد، قال فى ذلك شعرا واستودعه عند أهل المدينة. وكانوا يتوارثونه ويروونه خلفاً عن سلف. وكان ممن يحفظه أبو أيوب خالد بن زيد الذى نزل رسول الله ﷺ فى داره، وهو:

شَهِدْتُ عَلَى أَحْمَدَ أَنَّه ... رَسُولٌ مِنَ اللهِ بَارى النَّسَمْ
فَلَو مُدَّ عُمْرى إلى عُمْرِه ... لَكُنْت وَزيرا له وابن عَمْ
وَجَاهَدْتُ بالسَّيفِ أعْدَاءَهُ ... وفَرَّجتُ عَنْ صَدْرِه كُلَّ غَمْ

وذكر ابن أبى الدنيا أنه حُفِر قبر بصنعاء فى الإسلام، فوجدوا فيه امرأتين صحيحتين، وعند رؤوسهما لوح من فضة مكتوب فيه بالذهب: «هذا قبر حبى ولميس ـ وروى: حبى وتماضر ـ ابنتى تُبَّع، ماتتا وهما تشهدان أن لا إله إلا الله ولا تشركان به شيئاً، وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما.

وقد ذكرنا فى «سورة سبأ» شعر سبأ فى ذلك أيضاً.

قال قتادة: ذكر لنا أن كعبًا كان يقول فى تبع: نُعت نَعْت الرجل الصالح، ذم الله تعالى قومه ولم يذمه، قال: وكانت عائشة تقول: لا تسبوا تُبَّعاً؛ فإنه قد كان رجلاً صالحاً.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثنا عبد الله بن لَهِيعَة، عن أبى زُرْعَة ـ يعنى عمرو بن جابر الحضرمى ـ قال: سمعت سهل بن سعد الساعدى يقول: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا تُبَّعاً؛ فإنه قد كان أسلم».

ورواه الإمام أحمد فى مسنده عن حسن بن موسى، عن ابن لَهِيعة، به[٥].

وقال الطبرانى: حدثنا أحمد بن على الأبار، حدثنا أحمد بن محمد بن أبى بَزَّة، حدثنا مؤمل ابن إسماعيل، حدثنا سفيان، عن سمَاك بن حرب، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس، عن النبى ﷺ قال: «لا تسبوا تبعا؛ فإنه قد أسلم»[٦].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن ابن أبى ذئب، عن المقْبُرى، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أدرى، تُبَّع نبياً كان أم غير نبى»[٧].

---

(١) فى ت: «بن». (٢) فى م: «مليكرب». (٣) فى ت، م، أ: «وستة».
(٤) فى ت، م، أ: «نبى فى آخر الزمان».
(٥) المسند (٥/ ٣٤٠) قال الحافظ ابن حجر فى تخريج الكشاف: «فيه ابن لهيعة، وعمرو بن جابر، وهما ضعيفان».
(٦) المعجم الكبير (١١/ ٢٩٦) وقال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٧٦): « فيه أحمد بن أبى بزة المكى، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات».
(٧) ورواه الثعلبى فى تفسيره كما فى تخريج الكشاف للزيلعى (٣/ ٢٧٠) من طريق عبد الرزاق بهذا اللفظ.

www.Quranpdf.blogspot.in

وتقدم بهذا السند من رواية ابن أبى حاتم كما أورده ابن عساكر: «لا أدرى، تُبَّع كان لعيناً[١] أم لا؟». فالله أعلم.

ورواه ابن عساكر من طريق زكريا بن يحيى البدى[٢]، عن عكرمة، عن ابن عباس موقوفاً.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا عمران أبو الهذيل، أخبرنى تميم بن عبد الرحمن قال: قال عطاء بن أبى رباح: لا تسبوا تُبَّعاً؛ فإن رسول الله ﷺ نهى[٣] عن سبه[٤].

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٣٩) إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠) يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (٤١) إِلاَّ مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٤٢) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن عدله وتنزيهه نفسه عن اللعب والعبث والباطل، كقوله: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ [ص: ٢٧]، وقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ . فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

ثم قال: ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ وهو يوم القيامة، يفصل الله فيه بين الخلائق، فيعذب الكافرين ويثيب المؤمنين.

وقوله: ﴿ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أى: يجمعهم كلهم أولهم وآخرهم، ﴿ يَوْمَ لا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا﴾ أى: لا ينفع قريب قريباً، كقوله: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، وكقوله: ﴿وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا . يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ [المعارج: ١٠، ١١] أى: لا يسأل أخاً له عن حاله وهو يراه عياناً.

وقوله: ﴿ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أى: لا ينصر القريب قريبه، ولا يأتيه نصره من خارج.

ثم قال: ﴿ إِلاَّ مَن رَّحِمَ اللَّهُ ﴾ أى: لا ينفع يومئذ إلا من رحمه الله، عز وجل، لخلقه[٥] ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أى: هو عزيز ذو رحمة واسعة.

﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (٤٦) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ (٥٠) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عما يعذب به [عباده][٦] الكافرين الجاحدين للقائه: ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ .

---

(١) فى أ: «نبيا». (٢) فى أ: «المدنى». (٣) فى ت، أ: «قد نهى».

(٤) تفسير عبد الرزاق (٢/ ١٧١).

(٥) فى أ: «إلا رحمة الله بخلقه». (٦) زيادة من ت، أ.

www.Quranpdf.blogspot.in

طَعَامُ الأَثِيم﴾ والأثيم: أى فى قوله وفعله، وهو الكافر. وذكر غير واحد أنه أبو جهل، ولا شك فى دخوله فى هذه الآية، ولكن ليست خاصة به.

قال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم[1]، عن همام بن الحارث؛ أن أبا الدرداء كان يقرئ رجلاً: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ . طَعَامُ الأَثِيمِ﴾، فقال: طعام اليتيم. فقال أبو الدرداء قل: إن شجرة الزقوم طعام الفاجر. أى: ليس له طعام غيرها.

قال مجاهد: ولو وقعت منها قطرة فى[2] الأرض لأفسدت على أهل الأرض معايشهم. وقد تقدم نحوه مرفوعاً.

وقوله: ﴿ كَالْمُهْلِ ﴾ قالوا: كعكر الزيت ﴿ تغلى[3] فِي الْبُطُونِ . كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ أى: من حرارتها ورداءتها. وقوله: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ﴾ أى: [خذوا][4] الكافر، وقد ورد أنه تعالى إذا قال للزبانية: ﴿خُذُوهُ ﴾ ابتدره سبعون ألفاً منهم.

﴿فَاعْتِلُوهُ﴾ أى: سوقوه سحبا ودفعا فى ظهره.

قال مجاهد: ﴿ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ﴾ أى: خذوه فادفعوه.

وقال الفرزدق:

لَيسَ الكِرَامُ بِنَاحِلِيكَ أَبَاهُمُ ۞ حَتىَّ تُرَدَّ إلى عَطِّيَة تُعْتَلُ[5] [6]

﴿ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ أى: وسطها، ﴿ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾، كقوله: ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ . يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴾ [الحج: ١٩، ٢٠].

وقد تقدم أن الملك يضربه بمقمعة من حديد، تفتح[7] دماغه، ثم يصب الحميم على رأسه فينزل فى بدنه، فيسلت ما فى بطنه من أمعائه، حتى تمرق[8] من كعبيه ـ أعاذنا الله تعالى من ذلك.

وقوله: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ أى: قولوا له ذلك على وجه التهكم والتوبيخ.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: أى لست بعزيز ولا كريم.

وقد قال[9] الأموى فى مغازيه: حدثنا أسباط، حدثنا أبو بكر الهذلى، عن عكرمة قال: لقى رسول الله ﷺ أبا جهل ـ لعنه الله ـ فقال: «إن الله تعالى أمرنى أن أقول لك: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ . ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَى ﴾» [القيامة: ٣٤، ٣٥] قال: فنزع ثوبه من يده[10] وقال: ما تستطيع لى أنت ولا صاحبك من شيء. ولقد علمت أنى أمنع[11] أهل البطحاء، وأنا العزيز الكريم. قال: فقتله الله تعالى يوم بدر وأذله وعيره بكلمته، وأنزل: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾[12].

وقوله: ﴿ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾، كقوله: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا. هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي

---

(١) فى ت: «وروى ابن جرير بإسناده».
(٢) فى ت: «على».
(٣) فى ت: «يغلى».
(٤) زيادة من ت.
(٥) فى أ: «مقتل».
(٦) البيت فى تفسير الطبرى (٢٥/ ٨٠).
(٧) فى أ: «فيفتح».
(٨) فى أ: «يمزق».
(٩) فى ت: «روى».
(١٠) فى ت، أ: «بدنه».
(١١) فى ت: «أنى من أمنع».
(١٢) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٧/ ٤١٨) وهو مرسل.

www.Quranpdf.blogspot.in

كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُون أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٣ ـ ١٥]، ولهذا قال هاهنا: ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ (٥٣) كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (٥٥) لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦) فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٥٧) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥٨) فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ (٥٩)﴾.

لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر [حال][1] السعداء ـ ولهذا سُمّي القرآن مثانى ـ فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ أى: لله فى الدنيا ﴿فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ أى: فى الآخرة وهو الجنة، قد أمنوا فيها من الموت والخروج، ومن كل هم وحزن وجزع[2] وتعب ونصب، ومن الشيطان وكيده، وسائر الآفات والمصائب ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾. وهذا فى مقابلة ما أولئك فيه من شجر [3] الزقوم، وشرب الحميم.

وقوله تعالى: ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ وهو: رفيع الحرير، كالقمصان ونحوها[4]، ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾، وهو ما فيه بريق ولمعان وذلك كالرياش، وما يلبس على أعالى القماش، ﴿مُّتَقَابِلِينَ﴾ أى: على السرر، لايجلس أحد منهم وظهره إلى غيره.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ أى: هذا العطاء مع ما قد منحناهم من الزوجات الحور العين الحسان اللاتى ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٥٦، ٧٤]، ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٥٨]، ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

قال [5] ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا نوح بن حبيب، حدثنا نصر بن مزاحم العطار، حدثنا عمر بن سعد، عن رجل، عن أنس ـ رفعه نوح ـ قال: لو أن حوراء بَزَقَت فى بحر لُجِّىٍّ، لعَذُبَ ذلك الماء لعذوبة ريقها[6].

وقوله: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ أى: مهما طلبوا من أنواع الثمار أحضر لهم، وهم آمنون من انقطاعه وامتناعه، بل يحضر إليهم [7] كلما أرادوا.

وقوله: ﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَى﴾: هذا الاستثناء يؤكد النفى، فإنه استثناء منقطع، ومعناه: أنهم لا يذوقون فيها الموت أبداً، كما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «يؤتى بالموت فى صورة كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار ثم يذبح، ثم يقال: يا أهل الجنة، خلود فلا [8] موت، ويا أهل النار، خلود فلا [9] موت» وقد تقدم الحديث فى سورة مريم[10].

---

(١) زيادة من ت. (٢) فى م: «وجوع». (٣) فى ت،م: «شرب».
(٤) فى ت: «وغيرها». (٥) فى ت: «وروى».
(٦) ورواه أبو نعيم فى صفة الجنة برقم (٣٨٦) من وجه آخر، فرواه من طريق محمد بن إسماعيل الحسانى، عن منصور الواسطى، عن أبى النصر الأبار، عن أنس مرفوعاً بنحوه.
(٧) فى ت، م، أ: «لهم». (٨، ٩) فى أ: «بلا».
(١٠) انظر: تخريج الحديث عند الآية: ٣٩ من سورة مريم.

www.Quranpdf.blogspot.in

وقال عبد الرزاق: حدثنا سفيان الثورى، عن أبى إسحاق، عن أبى مسلم الأغر، عن أبى سعيد وأبى هريرة، رضى الله عنهما، قالا: قال رسول الله :«يقال لأهل الجنة: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تَبْأسوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً». رواه مسلم، عن إسحاق بن راهويه وعبد بن حميد، كلاهما عن عبد الرزاق به(١).

هكذا يقول أبو إسحاق وأهل العراق «أبو مسلم الأغر»، وأهل المدينة يقولون:«أبو عبد الله الأغر»(٢).

وقال أبو بكر بن أبى داود السجستانى: حدثنا أحمد بن حفص، عن أبيه، عن إبراهيم بن طَهْمَان، عن الحجاج ـ هو ابن حجاج (٣) ـ عن عبادة(٤)، عن عبيد الله بن عمرو، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من اتقى الله دخل الجنة، ينعم فيها ولا يبأس، ويحيا فيها فلا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه»(٥).

وقال أبو القاسم الطبرانى: حدثنا أحمد بن يحيى، حدثنا عمرو بن محمد الناقد، حدثنا سليمان ابن عبيد الله الرقى، حدثنا مصعب بن إبراهيم، حدثنا عمران بن الربيع الكوفى، عن يحيى بن سعيد الأنصاى، عن محمد بن المُنْكَدِر، عن جابر، رضى الله عنه، قال: سُئل نبى الله ﷺ : أينام أهل الجنة؟ فقال:«النوم أخو الموت، وأهل الجنة لا ينامون»(٦).

وهكذا رواه أبو بكر بن مُرْدَوَيْه فى تفسيره: حدثنا أحمد بن القاسم بن صدقة المصرى، حدثنا المقدام بن داود، حدثنا عبد الله بن المغيرة، حدثنا سفيان الثورى، عن محمد بن المُنْكَدِر، عن جابر ابن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «النوم أخو الموت، وأهل الجنة لا ينامون»(٧).

وقال أبو بكر البزار فى مسنده: حدثنا الفضل بن يعقوب، حدثنا محمد بن يوسف الفِريابى، عن سفيان، عن محمد بن المنكدر، عن جابر قال: قيل: يا رسول الله، هل ينام أهل الجنة؟ قال: «لا، النوم أخو الموت». ثم قال: «لا نعلم أحداً أسنده عن ابن المنكدر، عن جابر إلا الثورى، ولا عن الثورى، إلا الفريابى»(٨) هكذا قال، وقد تقدم خلاف ذلك، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أى: مع هذا النعيم العظيم المقيم قد وقاهم، وسلمهم ونجاهم وزحزحهم من (٩) العذاب الأليم فى دركات الجحيم، فحصل لهم المطلوب، ونجاهم من المرهوب؛

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٨٣٧).

(٢) والأول هو الصواب كما بين ذلك الإمام المزى فى تهذيب الكمال.

(٣) فى أ:«الحجاج». (٤) فى م، أ:«قتادة».

(٥) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم(٤٨٩٥) «مجمع البحرين» من طريق أحمد بن حفص به.

(٦) المعجم الأوسط برقم (٤٨٧٥) «مجمع البحرين» وفى إسناده مصعب بن إبراهيم العبسى، منكر الحديث.

(٧) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٧/ ٩٠) من طريق أحمد بن القاسم عن المقدام بن داود به، وقال: «غريب من حديث الثورى، تفرد به عبد الله».

(٨) مسند البزار برقم (٣٥١٧) «كشف الأستار» قال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٤١٥): «رجال البزار رجال الصحيح».

(٩) فى ت: «عن».

www.Quranpdf.blogspot.in

ولهذا قال: ﴿ فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ أى: إنما كان هذا [١] بفضله عليهم وإحسانه إليهم، كما ثبت فى الصحيح [٢] عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اعملوا وسددوا وقاربوا، واعلموا أن أحداً لن يُدخله عمله الجنة». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمَّدنى الله برحمة منه وفضل» [٣].

وقوله: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أى: إنما يسرنا هذا القرآن الذى أنزلناه سهلاً واضحاً بيناً جلياً بلسانك الذى هو أفصح اللغات وأجلاها وأحلاها وأعلاها ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أى: يتفهمون ويعملون. ثم لما كان مع هذا البيان والوضوح من الناس من كفر وخالف وعاند، قال الله تعالي لرسوله مسليا له وواعداً له بالنصر، ومتوعداً لمن كذبه بالعطب والهلاك: ﴿فَارْتَقِبْ﴾ أى: انتظر ﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴾ أى: فسيعلمون [٤] لمن يكون النصر والظفر وعُلُو الكلمة فى الدنيا والآخرة، فإنها لك يا محمد ولإخوانك من النبيين والمرسلين ومن اتبعكم من المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ . يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [غافر: ٥١، ٥٢].

آخر تفسير سورة الدخان، ولله الحمد والمنة، وبه التوفيق والعصمة

---

(١) فى ت: «ذلك».

(٢) فى أ: «الصحيحين».

(٣) صحيح البخارى برقم (٦٤٦٧) من حديث عائشة، رضى الله عنها.

(٤) فى م : «فستعلمون».

www.Quranpdf.blogspot.in

تفسير سورة الجاثية

وهى مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ (١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥) ﴾ .

يُرشد تعالى خلقه إلى التفكر فى آلائه ونعمه، وقدرته العظيمة التى خلق بها السموات والأرض، وما فيهما من المخلوقات المختلفة الأجناس والأنواع، من الملائكة والجن والإنس، والدواب والطيور والوحوش والسباع والحشرات، وما فى البحر من الأصناف المتنوعة، واختلاف الليل والنهار، فى تعاقبهما دائبين لا يفتران، هذا بظلامه وهذا بضيائه، وما أنزل الله تعالى من السحاب من المطر فى وقت الحاجة إليه، وسماه رزقًا؛ لأن به يحصل الرزق، ﴿فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أى: بعد ما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شىء.

وقوله : ﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ أى: جنوبا وشآما[١]، ودبوراً وصبًا، بحرية وبرية، ليلية ونهارية. ومنها ما هو للمطر، ومنها ما هو للقاح، ومنها ما هو غذاء الأرواح، ومنها ما هو عقيم [لا ينتج][٢].

وقال أولاً: ﴿ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ[٣]﴾، ثم ﴿يُوقِنُونَ﴾، ثم ﴿يَعْقِلُونَ ﴾، وهو تَرَقٍّ من حال شريف إلى ما هو أشرف منه وأعلى. وهذه الآيات شبيهة بآية «البقرة» وهى قوله: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]. وقد أورد ابن أبى حاتم هاهنا عن وهب بن مُنَبِّه أثراً طويلا غريباً فى خلق الإنسان من الأخلاط الأربعة.

﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦) وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٩) مِن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ

(١) فى ت، أ: «وشمالاً».
(٢) زيادة من ت، م، أ.
(٣) فى ت، أ: «لقوم يؤمنون» وهو خطأ.

www.Quranpdf.blogspot.in

وَلا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠) هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ (١١)﴾ .

يقول تعالى: هذه آيات الله ـ يعنى القرآن بما فيه من الحجج والبينات ـ ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ أى: متضمنة الحق من الحق، فإذا كانوا لا يؤمنون بها ولا ينقادون لها، فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون؟! ثم قال: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ أى: أفاك فى قوله كذاب، حلاّف مهين أثيم في فعله وقيله[(١)] كافر بآيات الله؛ ولهذا قال: ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ أى: تقرأ عليه ﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾ أى: على كفره وجحوده استكباراً وعنادا ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ أى: كأنه ما سمعها، ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [أى][(٢)]: فأخبره أن له عند الله يوم القيامة عذابا أليما موجعا.

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ أى: إذا حفظ شيئاً من القرآن كفر به واتخذه سخريا وهزوا، ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أى: فى مقابلة ما استهان بالقرآن واستهزأ به؛ ولهذا روى مسلم فى صحيحه عن ابن عمر قال: نهى رسول الله ﷺ أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو[(٣)].

ثم فسر العذاب الحاصل له يوم معاده[(٤)] فقال: ﴿مِن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ أى: كل من اتصف بذلك سيصيرون إلى جهنم يوم القيامة، ﴿وَلا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا﴾ أى: لا تنفعهم أموالهم ولا أولادهم، ﴿وَلا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أى: ولا تغنى عنهم الآلهة التي عبدوها من دون لله شيئاً، ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ هَذَا هُدًى﴾ يعنى القرآن، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ :وهو المؤلم[(٥)] الموجع.

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣) قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١٥)﴾ .

يذكر تعالى نعمه على عبيده فيما سخر لهم من البحر﴿لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ﴾، وهى السفن فيه بأمره تعالى، فإنه هو الذى أمر البحر أن يحملها﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ أى: فى المتاجر والمكاسب، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾أى: على حصول المنافع المجلوبة إليكم من الأقاليم النائية والآفاق القاصية.

---

(١) فى ت، أ: «وقلبه».
(٢) زيادة من ت،م.
(٣) صحيح مسلم برقم (١٨٦٩).
(٤) فى أ: «القيامة».
(٥) فى أ: «المقلق».

www.Quranpdf.blogspot.in

ثم قال: تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ أى: من الكواكب والجبال، والبحار والأنهار، وجميع ما تنتفعون به، أى: الجميع من فضله وإحسانه وامتنانه؛ ولهذا قال: ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ أى: من عنده وحده لا شريك له فى ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل: ٥٣].

وروى ابن جرير من طريق العوفى، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ كل شىء هو من الله، وذلك الاسم فيه اسم من أسمائه، فذلك جميعاً منه، ولا ينازعه فيه المنازعون، واستيقن أنه كذلك.

وقال (١) ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا محمد بن خَلَف العسقلانى، حدثنا الفرْيانى، عن سفيان، عن الأعمش، عن المِنْهال بن عمرو، عن أبى أراكة قال: سأل رجل عبد الله بن عمرو قال: مم خلق الخلق؟ قال: من النور والنار، والظلمة والثرى. قال: وائت ابن عباس فاسأله. فأتاه فقال له مثل ذلك، فقال: ارجع إليه فسله: مم خلق ذلك كله؟ فرجع إليه فسأله، فتلا: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ هذا أثر غريب، وفيه نكارة.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وقوله: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ أى: يصفحوا عنهم ويحملوا (٢) الأذى منهم. وهذا كان فى ابتداء الإسلام، أمروا أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب، ليكون ذلك لتأليف قلوبهم(٣)، ثم لما أصروا على العناد شرع الله للمؤمنين الجلاد والجهاد. هكذا روى عن ابن عباس، وقتادة.

وقال مجاهد [فى قوله](٤): ﴿ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾: لا يبالون (٥) نعم الله.

وقوله: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أى: إذا صفحوا (٦) عنهم فى الدنيا، فإن الله مجازيهم بأعمالهم السيئة في الآخرة؛ ولهذا قال: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أى: تعودون إليه يوم القيامة فتعرضون بأعمالكم [عليه](٧)، فيجزيكم بأعمالكم خيرها وشرها.

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٦) وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧) ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩) هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ(٢٠) ﴾.

---

(١) فى ت: «وروى». (٢) فى أ: «ويحتملوا». (٣) فى ت، م، أ: «كالتأليف لهم».
(٤) زيادة من أ. (٥) فى أ: «ينالون».
(٦) فى أ: «أى اصفحوا». (٧) زيادة من ت، م، أ.

www.Quranpdf.blogspot.in

يذكر تعالى ما أنعم به على بنى إسرائيل من إنزال الكتب عليهم وإرسال الرسل إليهم، وجعله الملك فيهم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أى: من المآكل والمشارب، ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أى: فى زمانهم، ﴿وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الأَمْرِ﴾ أى: حججا وبراهين وأدلة قاطعات، فقامت [1] عليهم الحجج ثم اختلفوا بعد ذلك من بعد قيام الحجة، وإنما كان ذلك بغيا منهم على بعضهم بعضا، ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد﴿يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أى: سيفصل بينهم بحكمه العدل. وهذا فيه تحذير لهذه الأمة أن تسلك مسلكهم، وأن تقصد منهجهم؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ أى: اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو، وأعرض عن المشركين، وقال هاهنا: ﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ . إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أى: وماذا تغنى [2] عنهم ولايتهم لبعضهم بعضا، فإنهم لا يزيدونهم إلا خسارا ودمارا وهلاكا، ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾، وهو تعالى يخرجهم من الظلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات.

ثم قال: ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ﴾ يعنى: القرآن﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ .

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٢٢) أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٢٣) ﴾ .

يقول تعالى: لا يستوى المؤمنون والكافرون، كما قال: ﴿لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠]، وقال هاهنا: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أى: عملوها وكسبوها﴿ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ أى: نساويهم بهم فى الدنيا والآخرة! ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾أى: ساء ما ظنوا بنا وبعدلنا أن نُسَاوى بين الأبرار والفجار في الدار الآخرة، وفى هذه الدار.

قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا مُؤَمَّل بن إهابَ، حدثنا بُكَير [3] بن عثمان التَّنُوخى، حدثنا الوَضين بن عطاء، عن يزيد بن مَرْثَد الباجى[4]، عن أبى ذر، رضى الله عنه، قال: إن الله بنى دينه على أربعة أركان، فمن صبر عليهن ولم يعمل بهن لقى الله [وهو] [5] من الفاسقين. قيل: وما هن يا أبا ذر؟ قال: يسلم حلال الله لله، وحرام الله لله، وأمر الله لله، ونهى الله لله، لا يؤتمن عليهن إلا الله.

---

(١) فى ت: «فقامت به».
(٢) فى ت: «وما يغنى».
(٣) فى أ: «بكر».
(٤) فى ت: «وروى الحافظ أبو يعلى بإسناده».
(٥) زيادة من ت.

www.Quranpdf.blogspot.in

قال أبو القاسم ﷺ: «كما أنه لا يجتنى من الشوك [١] العنب، كذلك لا ينال الفجار منازل الأبرار»[٢].

هذا حديث غريب من هذا الوجه. وقد ذكر محمد بن إسحاق فى كتاب «السيرة» أنهم وجدوا حجرا بمكة فى أسِّ الكعبة مكتوب [٣] عليه: تعملون السيئات وترجون الحسنات؟ أجل، كما يجتنى من الشوك العنب[٤].

وقد روى الطبرانى من حديث شعبة، عن عمرو بن مُرَّة، عن أبى الضحى، عن مسروق[٥]؛ أن تميما الدارى قام ليلة حتى أصبح يردد هذه الآية: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ ولهذا قال تعالى: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، وقال[٦]: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أى: بالعدل، ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾[٧].

ثم قال [تعالى][٨]: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ أى: إنما يأتمر بهواه، فمهما رآه حسنا فعله، ومهما رآه قبيحا تركه: وهذا قد يستدل به على المعتزلة فى قولهم بالتحسين والتقبيح العقليين.

وعن مالك فيما روى عنه من التفسير: لا يهوى شيئا إلا عبده.

وقوله: ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، يحتمل قولين.

أحدها[٩]: وأضله الله لعلمه أنه يستحق ذلك. والآخر: وأضله الله بعد بلوغ العلم إليه، وقيام الحجة عليه. والثانى يستلزم الأول، ولا ينعكس.

﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ أى: فلا يسمع ما ينفعه، ولايعى شيئا يهتدى به، ولا يرى حجة يستضىء بها؛ ولهذا قال: ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ كقوله: ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ [١٠] وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (٢٤) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢٦)﴾.

يخبر تعالى عن قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركى العرب فى إنكار المعاد: ﴿وَقَالُوا

(١) فى ت: «الشوكة».

(٢) وذكره ابن حجر فى المطالب العالية (٣/ ١٥٤) وعزاه لأبي يعلى، وأظنه فى الكبير، ويزيد بن مرثد الهمدانى روايته عن أبى ذر مرسله. تنبيه: وقع هنا «الباجى» ولم تقع لى هذه النسبة له.

(٣) فى ت، م: «مكتوبًا» وهو الصواب.

(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ١٩٦).

(٥) فى ت: «وقد روى الطبرانى بسنده».

(٦) فى ت، م، أ: «وقوله».

(٧) المعجم الكبير (٢/ ٥٠).

(٨) زيادة من ت.

(٩) فى أ: «أحدهما».

(١٠) فى ت، م: «ومن يضلل الله فما له من هاد» وهو خطأ.

www.Quranpdf.blogspot.in

مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي: ما ثم إلا هذه الدار، يموت قوم ويعيش آخرون، وما ثم معاد ولاقيامة وهذا يقوله مشركو[١] العرب المنكرون للمعاد، ويقوله الفلاسفة الإلهيون منهم، وهم ينكرون البداءة [٢]والرجعة، ويقوله الفلاسفة الدهرية الدورية المنكرون للصانع المعتقدون أن في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه. وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى، فكابروا المعقول [٣] وكذبوا المنقول، ولهذا قالوا[٤]: **﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾**، قال الله تعالى: **﴿وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾**، أي: يتوهمون ويتخيلون.

فأما الحديث الذي أخرجه صاحبا الصحيح، وأبو داود، والنسائي، من رواية سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يؤذيني ابن آدم؛ يسب الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلب ليله ونهاره»[٥]. وفي رواية: «لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر»[٦].

وقد أورده ابن جرير بسياق غريب جدا فقال: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «كان أهل الجاهلية يقولون: إنما يهلكنا الليل والنهار، وهو الذي يهلكنا، يميتنا ويحيينا، فقال الله في كتابه: **﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾** » قال: «ويسبون الدهر، فقال الله عز وجل: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر أقلب الليل والنهار»[٧].

وكذا رواه ابن أبي حاتم، عن أحمد بن منصور، عن شُرَيْح بن النعمان، عن ابن عيينة، مثله: ثم روى عن يونس، عن ابن وهب، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: يسب ابن آدم الدهر وأنا الدهر، بيدي الليل والنهار».

وأخرجه[٨] صاحبا الصحيح والنسائي، من حديث يونس بن زيد، به[٩].

وقال محمد بن إسحاق، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة، رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله: استقرضت عبدي فلم يعطني، وسَبَّني عبدي، يقول: وادهراه. وأنا الدهر»[١٠].

قال الشافعي وأبو عبيدة وغيرهما من الأئمة في تفسير قوله، عليه الصلاة والسلام: «لا تسبوا الدهر؛ فإن الله هو الدهر»: كانت العرب في جاهليتها إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة، قالوا: يا

---

(١) في أ: «منكرو». (٢) في أ: «البداوة». (٣) في ت، أ: «وكابروا العقول».

(٤) في ت، أ: «قال».

(٥) صحيح البخاري برقم (٤٨٢٦) وصحيح مسلم برقم (٢٢٤٦) وسنن أبي داود برقم (٥٢٧٤) والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٦٨٧).

(٦) صحيح مسلم برقم (٢٢٤٦).

(٧) تفسير الطبري (٢٥/ ٩٢).

(٨) في ت: «أخرجاه» وهو خطأ، والصواب: «أخرجه»؛ حتى لا يجتمع عاملان على معمول واحد.

(٩) صحيح البخاري برقم (٦١٨١) وصحيح مسلم برقم (٢٢٤٦) والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٦٨٦).

(١٠) رواه الطبري في تفسيره (٢٥/ ٩٢) من طريق سلمة عن محمد بن إسحاق به، وخالفه يزيد بن هارون، فرواه عن محمد ابن إسحاق، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، به، وأخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٥٣) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد على شرط مسلم».

www.Quranpdf.blogspot.in

خيبة الدهر. فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه، وإنما فاعلها هو الله [عز وجل][1]، فكأنهم إنما سبوا، الله عز وجل؛ لأنه فاعل ذلك فى الحقيقة، فلهذا نُهى [2] عن سب الدهر بهذا الاعتبار؛ لأن الله هو الدهر الذى يعنونه، ويسندون إليه تلك الأفعال.

هذا أحسن ما قيل فى تفسيره، وهو المراد، والله أعلم. وقد غلط ابن حزم ومن نحا نحوه من الظاهرية فى عدهم الدهر من الأسماء الحسنى، أخذا من هذا الحديث.

وقوله [3] تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ[4] آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أى: إذا استدل عليهم وبين لهم الحق، وأن الله قادر على إعادة الأبدان بعد فنائها وتفرقها، ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾أى: أحيوهم إن كان ما تقولونه حقا. قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ أى: كما تشاهدون ذلك، يخرجكم من العدم إلى الوجود، ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة:٢٨] أى: الذى قدر على البداءة قادر على الإعادة بطريق الأولى والأحرى. ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[الروم:٢٧]، ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ أى: إنما يجمعكم ليوم القيامة لا يعيدكم فى الدنيا حتى تقولوا: ﴿ ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ[5] ﴾ [التغابن:٩] ﴿لأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ . لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾ [المرسلات:١٢، ١٣]، ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾[هود:١٠٤]وقال هاهنا: ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ﴾أى: لا شك فيه، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ أى: فلهذا ينكرون المعاد، ويستبعدون قيام الأجساد، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا . وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج:٦، ٧] أى: يرون وقوعه بعيدا، والمؤمنون يرون ذلك سهلا قريبا.

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ (٢٧) وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩) ﴾ .

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض، الحاكم فيهما [6] فى الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ أى: يوم [7] القيامة ﴿ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾، وهم الكافرون بالله الجاحدون ما أنزله على رسله من الآيات البينات والدلائل الواضحات.

وقال ابن أبى حاتم: قدم سفيان الثورى المدينة، فسمع المعافرى [8] يتكلم ببعض ما يضحك به الناس. فقال له: يا شيخ، أما علمت أن لله يوماً يخسر فيه المبطلون؟ قال: فما زالت تعرف فى المعافرى [9] حتى لحق بالله ،عز وجل. ذكره ابن أبى حاتم.

---

(١) زيادة من ت،م.
(٢) فى أ: «أنهى».
(٣) فى ت: «وقال».
(٤) فى م:«عليه» وهو خطأ.
(٥) فى ت: «الفصل»وهو خطأ .
(٦) فى م:«فيما».
(٧) فى ت، أ:«تقوم».
(٨، ٩) فى ت، م، أ: «العاضرى».

www.Quranpdf.blogspot.in

ثم قال: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ أي: على ركبها من الشدة والعظمة، ويقال: إن هذا [يكون][١] إذا جيء بجهنم فإنها تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا جثا لركبتيه، حتى إبراهيم الخليل، ويقول: نفسى، نفسى، نفسى، لا أسألك اليوم إلا نفسى، وحتى إن عيسى ليقول: لا أسألك اليوم إلا نفسى، لا أسألك [اليوم][٢] مريم التى ولدتنى.

قال مجاهد، وكعب الأحبار، والحسن البصرى: ﴿كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ أى: على الركب. وقال عِكْرِمة: ﴿جَاثِيَةً﴾: متميزة على ناحيتها[٣]، وليس على الركب. والأول أولى.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو، عن عبد الله بن باباه[٤]؛ أن رسول الله [ﷺ][٥] قال: «كأنى أراكم جاثين بالكوم دون جهنم»[٦].

وقال إسماعيل بن رافع المدينى[٧]، عن محمد بن كعب، عن أبى هريرة، رضي الله عنه، مرفوعا فى حديث الصورة[٨]: فيتميز الناس، وتجثو الأمم، وهى التى يقول الله: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾[٩].

وهذا فيه جمع بين القولين: ولامنافاة، والله أعلم.

وقوله: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ يعنى: كتاب أعمالها، كقوله: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ [الزمر: ٦٩]؛ ولهذا قال: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى: تجازون بأعمالكم خيرها وشرها، كقوله تعالى: ﴿يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ . بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ . وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ [القيامة: ١٣ ـ ١٥].

ثم قال: ﴿هَٰذَا[١٠] كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ﴾ أى: يستحضر[١١] جميع أعمالكم من غير زيادة ولانقص[١٢]، كقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى: إنا كنا نأمر الحفظة أن تكتب أعمالكم عليكم.

قال ابن عباس وغيره: تكتب الملائكة أعمال العباد، ثم تصعد بها إلى السماء، فيقابلون الملائكة الذين فى ديوان الأعمال على ما بأيديهم مما قد أبرز لهم من اللوح المحفوظ فى كل ليلة قدر، مما كتبه[١٣] الله في القدم على العباد قبل أن يخلقهم، فلا يزيد حرفا ولا ينقص حرفا، ثم قرأ: ﴿إِنَّا كُنَّا

(١، ٢) زيادة من أ. (٣) فى أ: «ناصيتها».
(٤) فى ت: «وقال ابن أبى حاتم بإسناده». (٥) زيادة من ت.
(٦) ورواه أبو نعيم فى زوائد زهد ابن المبارك برقم (٣٦٠) وأبو نعيم فى الحلية (٧/ ٢٩٩) من طريق سفيان بن عيينة به.
(٧) فى أ: «المدنى». (٨) فى ت، م، أ: «الصور».
(٩) انظر تفسير حديث الصور عند الآية: ٧٣ من سورة الأنعام.
(١٠) فى ت، م، أ: «ولهذا» وهو خطأ.
(١١) فى أ: «سيحضر». (١٢) فى م: «نقصان». (١٣) فى أ: «مما قد كتبه».

www.Quranpdf.blogspot.in

نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (٣٠) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٣١) وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (٣٢) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٣) وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٣٤) ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥) فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٦) وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣٧) ﴾ .

يخبر تعالى عن حكمه فى خلقه يوم القيامة، فقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى: آمنت قلوبهم وعملت جوارحهم الأعمال الصالحات[1]، وهى الخالصة الموافقة للشرع، ﴿ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾، وهى الجنة، كما ثبت فى الصحيح أن الله قال للجنة: «أنت رحمتى، أرحم بك من أشاء»[2].

﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ أى: البين الواضح.

ثم قال: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أى: يقال لهم ذلك تقريعا وتوبيخا: أما[3] قرئت عليكم آيات الرحمن فاستكبرتم عن اتباعها، وأعرضتم عند[4] سماعها، ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أى: فى أفعالكم، مع ما اشتملت عليه قلوبكم من التكذيب؟

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا﴾ أى: إذا قال لكم المؤمنون ذلك، ﴿ قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ أى: لا نعرفها، ﴿إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا ﴾ أى: إن نتوهم وقوعها إلا توهما، أى مرجوحا[5]؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ أى: بمتحققين، قال الله تعالى: ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أى: وظهر لهم عقوبة أعمالهم السيئة، ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أى: أحاط بهم ﴿ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أى: من العذاب والنكال، ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ ﴾ أى: نعاملكم معاملة الناسى لكم فى نار جهنم ﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أى: فلم تعملوا له لأنكم لم تصدقوا به، ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾.

وقد ثبت فى الصحيح أن الله تعالى يقول لبعض العبيد يوم القيامة: «ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟

(١) فى ت، أ: «الصالحة».
(٢) صحيح البخارى برقم (٤٨٥٠) من حديث أبى هريرة ،رضى الله عنه.
(٣) فى أ: «لما». (٤) فى أ: «عن». (٥) فى أ: «مرجوعًا».

www.Quranpdf.blogspot.in

ألم أسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتَرْبَع؟ فيقول: بلى، يارب. فيقول: أفظننت أنك مُلاقيّ؟ فيقول: لا . فيقول الله تعالى: فاليوم أنساك كما نسيتني»[1].

قال الله تعالى: ﴿ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ أى: إنما جازيناكم هذا الجزاء لأنكم اتخذتم حجج الله عليكم سخريا، تسخرون وتستهزئون بها، ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أى: خدعتكم فاطمأننتم إليها، فأصبحتم من الخاسرين؛ ولهذا قال: ﴿فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ أى: من النار ﴿وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أى: لا يطلب منهم العتبى، بل يعذبون بغير حساب ولا عتاب، كما تدخل طائفة من المؤمنين الجنة بغير عذاب ولا حساب.

ثم لما ذكر حكمه فى المؤمنين والكافرين قال: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ﴾ أى: المالك لهما وما فيهما؛ ولهذا قال: ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.

ثم قال: ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ قال مجاهد: يعنى السلطان. أى: هو العظيم الممجد، الذى كل شىء خاضع لديه فقير إليه. وقد ورد فى الحديث الصحيح: «يقول الله تعالى[2]: العظمة إزارى، والكبرياء ردائى، فمن نازعنى واحداً منهما أسكنته نارى». ورواه مسلم من حديث الأعمش، عن أبى إسحاق، عن الأغر أبى مسلم، عن أبى هريرة وأبى سعيد، رضى الله عنهما، عن رسول الله ﷺ، بنحوه[3].

وقوله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أى: الذى لا يغالب ولا يمانع، ﴿الْحَكِيمُ﴾ فى أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره، تعالى وتقدس، لا إله إلا هو[4].

آخر تفسير سورة الجاثية [ولله الحمد والمنة][5]

(١) صحيح مسلم برقم (٢٩٦٨) من حديث أبى هريرة ،رضى الله عنه.
(٢) فى ت: «أن الله تعالى يقول».
(٣) صحيح مسلم برقم (٢٦٢٠).
(٤) فى أ: «لا إله غيره ولا رب سواه». (٥) زيادة من ت، م،أ.

www.Quranpdf.blogspot.in

تفسير سورة الأحقاف

وهى مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ۝٣ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝٤ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ۝٦ ﴾ .

يخبر تعالى أنه نَزّل الكتاب على عبده ورسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين، ووصف نفسه بالعزة التى لا ترام، والحكمة فى الأقوال والأفعال، ثم قال: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ أى: لا على وجه العبث والباطل، ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أى: إلى مدة معينة مضروبة لا تزيد ولا تنقص.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ أى: لاهون[1] عما يراد بهم، وقد أنزل إليهم كتاب وأرسل إليهم رسول، وهم معرضون عن ذلك كله، أى: وسيعلمون غبّ ذلك.

ثم قال: ﴿قُلْ﴾ أى: لهؤلاء المشركين العابدين مع الله غيره: ﴿ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ﴾ أى: أرشدونى إلى المكان الذى استقلوا بخلقه من الأرض، ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّمَوَاتِ﴾ أى: ولا شرك لهم فى السموات ولا فى الأرض، وما يملكون من قطمير، إن المُلْك والتصرّف كله إلا الله، عز جل، فكيف تعبدون معه غيره، وتشركون به؟ من أرشدكم إلى هذا؟ من دعاكم إليه؟ أهو أمركم به؟ أم هو شيء اقترحتموه من عند أنفسكم؟ ولهذا قال: ﴿ائْتُونِى بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا ﴾ أى: هاتوا كتابا من كتب الله المنزلة على الأنبياء[2]، عليهم الصلاة والسلام، يأمركم بعبادة هذه الأصنام، ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ أى: دليل بيِّن على هذا المسلك الذى سلكتموه ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى: لا دليل لكم نقلياً ولا عقليا على ذلك؛ ولهذا قرأ آخرون: «أو أَثَرَة من علم» أى: أو علم صحيح يأثرونه عن أحد ممن قبلهم، كما قال مجاهد فى قوله: ﴿ أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾: أو أحد يأثر علما.

(١) فى ت، م، أ: «لاهين».

(٢) فى ت، م، أ: «هاتوا كتابا من الكتب المنزلة على أنبيائهم».

www.Quranpdf.blogspot.in

قال العَوْفى، عن ابن عباس: أو بينة من الأمر.

وقال[(١)] الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن سفيان، حدثنا صفوان بن[(٢)] سُلَيم، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن، عن ابن عباس قال سفيان: لا أعلم إلا عن النبى ﷺ: «أو أثَرَة من علم» قال: «الخط»[(٣)].

وقال أبو بكر بن عياش: أو بقية من علم. وقال الحسن البصرى: ﴿أَوْ أَثَارَةٍ﴾: شىء يستخرجه فيثيره.

وقال ابن عباس، ومجاهد، وأبو بكر بن عياش أيضا: ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ يعنى الخط.

وقال قتادة: ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾: خاصة من علم.

وكل هذه الأقوال متقاربة، وهى راجعة إلى ما قلناه، وهو اختيار ابن جرير، رحمه الله وأكرمه، وأحسن مثواه.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ أى: لا أضل ممن يدعو أصناما، ويطلب منها ما لا تستطيعه إلى يوم القيامة، وهى غافلة عما يقول، لا تسمع ولا تبصر ولا تبطش؛ لأنها جماد، حجَارة، صُمّ.

وقوله: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾، كقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا . كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢] أى: سيخونونهم[(٤)] أحوج ما يكونون إليهم، وقال الخليل: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾﴾.

يقول تعالى مخبرا عن المشركين فى كفرهم وعنادهم: إنهم إذا تتلى عليهم آيات الله بينات، أى: فى حال بيانها ووضوحها وجلائها، يقولون: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أى: سحر واضح، وقد كذَبوا وافتروا وضلّوا وكفروا ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ يعنون: محمدا ﷺ. قال الله [تعالى][(٥)]: ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أى: لو كذبت عليه وزعمت أنه أرسلنى ـ وليس كذلك ـ لعاقبنى أشد

(١) فى ت: «وروى».
(٢) فى أ: «عن» وهو خطأ.
(٣) المسند (١/ ٢٢٦).
(٤) فى أ: «سيجدونهم».
(٥) زيادة من ت، أ.

www.Quranpdf.blogspot.in

العقوبة، ولم يَقْدرْ أحد من أهل الأرض، لا أنتم ولا غيركم، أن يجيرنى منه، كقوله: ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا . إِلاَّ بَلاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالاتِهِ﴾ [الجن: ٢٢، ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ . لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، هذا تهديد لهم، ووعيد أكيد، وترهيب شديد.

وقوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾: ترغيب لهم إلى التوبة والإنابة، أى: ومع هذا كله إن رجعتم وتبتم، تاب عليكم وعفا عنكم، وغفر [لكم] [١]ورحم. وهذه الآية كقوله فى سورة الفرقان: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً . قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٥، ٦].

وقوله: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ أى: لست بأول رسول طرق العالم، بل قد جاءت الرسل من قبلى، فما أنا بالأمر الذى لا نظير له حتى تستنكرونى وتستبعدوا [٢]بعثتى إليكم، فإنه قد أرسل الله قبلى جميع الأنبياء إلى الأمم.

قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾: ما أنا بأول رسول. ولم يحك ابن جرير ولا ابن أبى حاتم غير ذلك.

وقوله: ﴿وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلا بِكُمْ﴾: قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى هذه الآية: نزل بعدها ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح: ٢]. وهكذا قال عكرمة، والحسن، وقتادة: إنها منسوخة بقوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾، قالوا: ولما نزلت هذه الآية قال رجل من المسلمين: هذا قد بين الله ما هو فاعل بك يا رسول الله، فما هو فاعل بنا؟ فأنزل الله: ﴿ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ ﴾ [الفتح: ٥].

هكذا قال، والذى هو ثابت فى الصحيح أن المؤمنين قالوا: هنيئا لك يا رسول الله، فما لنا؟ فأنزل الله هذه الآية.

وقال الضحاك: ﴿وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلا بِكُمْ﴾: ما أدرى بماذا أومر، وبماذا أنهى بعد هذا؟

وقال أبو بكر الهذلىّ، عن الحسن البصرى فى قوله: ﴿وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلا بِكُمْ﴾ قال: أما فى الآخرة فمعاذ الله، قد علم أنه فى الجنة، ولكن قال: لا أدرى ما يفعل بى ولا بكم فى الدنيا، أخرج كما أخرجت الأنبياء [من][٣] قبلى؟ أم أقتل كما قتلت الأنبياء من قبلى؟ ولا أدرى أيخسف بكم أو تُرمون بالحجارة؟

وهذا القول هو الذى عَوّل عليه ابن جرير، وأنه لا يجوز غيره، ولا شك أن هذا هو اللائق به، صلوات الله وسلامه عليه، فإنه بالنسبة إلى الآخرة جازم أنه يصير إلى الجنة هو ومن اتبعه، وأما فى الدنيا فلم يدر ما كان يؤُول إليه أمره وأمر مشركى قريش إلى ماذا: أيؤمنون أم يكفرون، فيعذبون

(١) زيادة من أ. (٢) فى ت، م، أ: «وتستبعدون». (٣) زيادة من أ.

www.Quranpdf.blogspot.in

فسيتأصلون بكفرهم[١]؟ فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد:

حدثنا يعقوب، حدثنا أبى، عن ابن شهاب، عن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أم العلاء ـ وهى امرأة من نسائهم ـ أخبرته ـ وكانت بايعت رسول الله ﷺ ـ قالت: طار لهم فى السكنى حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين عثمانُ بن مظعون. فاشتكى عثمان عندنا فَمرَّضناه، حتى إذا توفى أدْرَجناه فى أثوابه، فدخل علينا رسول الله فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب، شهادتى عليك، لقد أكرمك الله. فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك أن الله أكرمه؟» فقلت: لا أدرى بأبى أنت وأمى! فقال رسول الله ﷺ: «أما هو فقد جاءه[٢] اليقين من ربه، وإنى لأرجو له الخير، والله ما أدرى وأنا رسول الله ما يفعل بى!» قالت: فقلت: والله لا أزكى أحدًا بعده أبدا. وأحزننى ذلك، فنمت فرأيت لعثمان عينا تجرى، فجئت إلى رسل الله ﷺ فأخبرته بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «ذاك[٣] عمله».

فقد انفرد بإخراجه البخارى دون مسلم[٤]، وفى لفظ له: «ما أدرى وأنا رسول الله ما يفعل به»[٥] . وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ، بدليل قولها: «فأحزننى ذلك». وفى هذا وأمثاله دلالة على أنه لا يقطع لمعين بالجنة إلا الذى[٦] نص الشارع على تعيينهم، كالعشرة، وابن سلام، والغُميصاء، وبلال، وسراقة، وعبد الله بن عمرو بن حرام والد[٧] جابر، والقراء السبعين الذين قتلوا ببئر معونة، وزيد بن حارثة، وجعفر، وابن رواحة، وما أشبه هؤلاء.

وقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ أى: إنما أتبع ما ينزله الله علىَّ من الوحى، ﴿وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أى: بين النِّذَارة، وأمرى[٨] ظاهر لكل ذى لب وعقل.

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ (١١) وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ (١٢) إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤) ﴾ .

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الكافرين بالقرآن: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ﴾ هذا القرآن﴿مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ﴾ أى: ما ظنكم أن الله صانع بكم إن كان هذا الكتاب الذى جئتكم به قد أنزله

(١) فى ت، أ: «كغيرهم». (٢) فى أ: «جاءه والله». (٣) فى ت: «ذلك».
(٤) المسند (٦/ ٤٣٦) وصحيح البخارى برقم (١٢٤٣).
(٥) صحيح البخارى برقم (٢٦٨٧).
(٦) فى أ: «الذين». (٧) فى ت: «أبو». (٨) فى أ: «رأى».

www.Quranpdf.blogspot.in

علىَّ لأبلغكموه وقد كَفَرتم به وكذبتموه، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾ أى: وقد شهدت بصدقه وصحته الكتب المتقدمة المنزلة على الأنبياء قبلى، بشرت به وأخبرت بمثل ما أخبر هذا القرآن به.

وقوله: ﴿فَآمَنَ﴾ أى: هذا الذى شهد بصدقه من بنى إسرائيل لمعرفته بحقيته ﴿وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أنتم: عن اتباعه.

وقال مسروق: فآمن هذا الشاهد بنبيه وكتابه، وكفرتم أنتم بنبيكم وكتابكم ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

وهذا الشاهد اسم جنس يعم عبد الله بن سلام وغيره، فإن هذه الآية مكية نزلت قبل إسلام عبدالله بن سلام. وهذه كقوله: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٣]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا . وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨].

قال مسروق، والشعبى: ليس بعبد الله بن سلام، هذه الآية مكية، وإسلام عبد الله بن سلام كان بالمدينة. رواه عنهما ابن جرير وابن أبى حاتم، واختاره ابن جرير .

وقال مالك، عن أبى النَّضْر، عن عامر بن سعد[١]، عن أبيه قال: ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشى على وجه الأرض: «إنه من أهل الجنة»، إلا لعبد الله بن سلام، قال: وفيه نزلت: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾.

رواه البخارى ومسلم والنسائى، من حديث مالك، به[٢]. وكذا قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وعكرمة، ويوسف بن عبد الله بن سلام، وهلال بن يَسَاف، والسُّدِّى، والثورى، ومالك بن أنس وابن زيد؛ أنهم كلهم قالوا: إنه عبد الله بن سلام.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ أى: قالوا عن المؤمنين بالقرآن: لو كان القرآن خيرا ما سبقنا هؤلاء إليه[٣]. يعنون بلالا وعمارا وصُهَيبا وخبابا وأشباههم وأقرانهم[٤] من المستضعفين والعبيد والإماء، وما ذاك إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله وجاهة وله بهم عناية. وقد غلطوا فى ذلك غلطا فاحشا، وأخطؤوا خطأ بينا، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣] أى: يتعجبون: كيف اهتدى هؤلاء دوننا؛ ولهذا قالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ وأما أهل السنة[٥] والجماعة فيقولون فى كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة: هو بدعة؛ لأنه لو كان خيرا لسبقونا إليه، لأنهم

(١) فى أ: «سعيد».
(٢) صحيح البخارى برقم (٣٨١٢) وصحيح مسلم برقم (٢٤٨٣) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٨٢٥٢).
(٣) فى ت: «ما سبقونا إليه هؤلاء». (٤) فى أ: «وأضرابهم».
(٥) فى م، ت، أ: «يعنى المؤمنين، وأما أهل السنة».

www.Quranpdf.blogspot.in

لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها[١].

وقوله: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ أى: بالقرآن ﴿فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ﴾ أى: كذب ﴿قَدِيمٌ﴾ أى: مأثور عن الأقدمين، فينتقصون القرآن وأهله، وهذا هو الكبر الذى قال رسول ﷺ: «بطر[٢] الحق، وغَمْط الناس»[٣].

ثم قال: ﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ ﴾ وهو التوراة ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ﴾ يعنى: القرآن ﴿مُّصَدِّقٌ﴾ أى: لما قبله من الكتب ﴿ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ أى: فصيحا بينا واضحا، ﴿ لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ أى: مشتمل على النِّذارة للكافرين والبشارة للمؤمنين.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾: تقدم تفسيرها فى سورة «حم، السجدة»[٤].

وقوله: ﴿ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أى: فيما يستقبلون، ﴿وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلفوا، ﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى: الأعمال سبب لنيل الرحمة لهم وسُبُوغها[٥] عليهم.

﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦) ﴾ .

لما ذكر تعالى فى الآية الأولى التوحيد له وإخلاص العبادة والاستقامة إليه، عطف بالوصية بالوالدين، كما هو مقرون فى غير ما آية من القرآن، كقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣] وقال: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة. وقال هاهنا: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ أى: أمرناه بالإحسان إليهما والحنو عليهما.

وقال أبو داود الطيالسى: حدثنا شعبة، أخبرنى سِمَاك بن حرب قال: سمعت مُصْعب بن سعد[٦] يحدث عن سعد قال: قالت أم سعد لسعد: ألَيس قد أمر الله بطاعة الوالدين، فلا آكل طعاما، ولا أشرب شرابا حتى تكفر بالله. فامتنعت من الطعام الشراب، حتى جعلوا يفتحون فاها بالعصا، ونزلت هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ الآية [العنكبوت: ٨] .

---

(١) فى ت، م: «إليه». (٢) فى أ: «الكبر بطر».
(٣) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٩١) من حديث عبد الله بن مسعود ،رضى الله عنه.
(٤) راجع تفسير هذه الآية عند الآية: ٣٠ من سورة السجدة. (٥) فى أ: «وشيوعها». (٦) فى أ: «حرب».

www.Quranpdf.blogspot.in

ورواه مسلم وأهل السنن إلا ابن ماجه، من حديث شعبة بإسناده، نحوه وأطول منه[(١)].

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا﴾ أى: قاست بسببه فى حال حمله مشقة وتعبا، من وِحَام وغشيان وثقل وكرب، إلى غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة، ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ أى: بمشقة أيضا من الطلق وشدته، ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا﴾.

وقد استدل على، رضى الله عنه، بهذه الآية مع التى فى لقمان: ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤]، وقوله: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، وهو استنباط قوى صحيح. ووافقه عليه عثمان وجماعة من الصحابة، رضى الله عنهم.

قال محمد بن إسحاق بن يسار، عن يزيد بن عبد الله بن قُسَيْط، عن بَعْجَةَ[(٢)] بن عبد الله الجهنى قال: تزوج رجل منا امرأة من جُهَيْنة، فولدت له لتمام ستة أشهر، فانطلق زوجها إلى عثمان فذكر ذلك له، فبعث إليها، فلما قامت لتلبس ثيابها بكت أختها، فقالت: ما يبكيك؟! فوالله ما التبس بى أحد من خلق الله غيره قط، فيقضى الله فى ما شاء. فلما أتى بها عثمان أمر برجمها، فبلغ ذلك عليا فأتاه، فقال له: ما تصنع؟ قال: ولدت تماما لستة أشهر، وهل يكون ذلك؟ فقال له [على][(٣)] أما تقرأ القرآن؟ قال: بلى. قال: أما سمعت الله يقول: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا﴾. وقال: ﴿[يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ][(٤)] حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾، فلم نجده بقى إلا ستة أشهر، قال: فقال عثمان: والله ما فطنت لهذا، على بالمرأة فوجدوها قد فُرِغَ منها، قال: فقال بَعْجَةُ: فوالله ما الغراب بالغراب، ولا البيضة بالبيضة بأشبه منه بأبيه. فلما رآه أبوه قال: ابنى إنى والله لا أشك فيه، قال: وأبلاه[(٥)] الله بهذه القرحة قرحة الأكلة، فما زالت تأكله حتى مات[(٦)].

رواه ابن أبى حاتم، وقد أوردناه من وجه آخر عند قوله: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا فَرْوَة بن أبى المَغْرَاء، حدثنا على بن مِسْهَر، عن داود بن أبى هند، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس[(٧)] قال: إذا وضعت المرأة لتسعة أشهر، كفاه من الرضاع أحد[(٨)] وعشرون شهرا، وإذا وضعته لسبعة أشهر كفاه من الرضاع ثلاثة وعشرون شهراً، وإذا وضعته لستة أشهر فحولين كاملين؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا﴾.

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ أى: قوى وشب وارتجل ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ أى: تناهى عقله وكمل فهمه وحلمه . ويقال: إنه لا يتغير غالبا عما يكون عليه ابن الأربعين.

---

(١) مسند الطيالسى برقم (٢٠٨) وصحيح مسلم برقم (١٧٤٨) وسنن أبى داود برقم (٢٧٤٠) وسنن الترمذى برقم (٣٠٧٩) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١١٩٦) لكن النسائى لم يرو الشاهد هنا وإنما روى أوله.

(٢) فى ت، أ: «معمر».

(٣) زيادة من ت، أ.

(٤) زيادة من أ.

(٥) فى ت، م، أ: «وابتلاه».

(٦) ورواه ابن المنذر وابن أبى حاتم كما فى الدر المنثور للسيوطى (٧/ ٤٤١).

(٧) فى ت: «عن عكرمة وروى عن ابن عباس».

(٨) فى ت: «بأحد»، وفى أ، هـ: «أحد».

www.Quranpdf.blogspot.in

قال أبو بكر بن عياش، عن الأعمش، عن القاسم بن عبد الرحمن قال: قلت لمسروق: متى يؤخذ الرجل بذنوبه؟ قال: إذا بَلَغْتَ الأربعين، فَخُذْ حذرك.

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا عُبَيد الله القواريري، حدثنا عَزْرَة بن قيس الأزدي ـ وكان قد بلغ مائة سنة ـ حدثنا أبو الحسن السلولي[١] عنه وزادني[٢] قال: قال محمد بن عمرو بن عثمان، عن عثمان، عن النبي ﷺ قال: «العبد المسلم إذا بلغ أربعين سنة، خفف الله حسابه، وإذا بلغ[٣] ستين سنة رزقه الله الإنابة إليه، وإذا بلغ سبعين سنة أحبّه أهل السماء، وإذا بلغ ثمانين سنة ثبت الله حسناته ومحا سيئاته، وإذا بلغ تسعين سنة غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وشفَّعه الله في أهل بيته، وكتب في السماء: أسير[٤] الله في أرضه»[٥].

وقد روى هذا من غير هذا الوجه، وهو في مسند الإمام أحمد[٦] [٧].

وقد قال الحجاج بن عبد الله الحكمي أحد أمراء بني أمية بدمشق: تركت المعاصي والذنوب أربعين سنة حياء من الناس، ثم تركتها حياء من الله، عز وجل.

وما أحسن قول الشاعر:

صَبَا ما صَبَا حَتى عَلا الشَّيبُ رأسَهُ ... فلمَّا عَلاهُ قال للباطل: ابطُل[٨]

﴿ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي ﴾ أي: ألهمني ﴿ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ﴾ أي: في المستقبل، ﴿ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ﴾ أي: نسلي وعقبي، ﴿ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ هذا فيه إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله، عز وجل، ويعزم عليها.

وقد روى أبو داود في سننه، عن ابن مسعود، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم أن يقولوا في التشهد: «اللهم، ألف بين قلوبنا، وأصلح ذات بيننا، واهدنا سبُل[٩] السلام، ونجنا من الظلمات إلى النور، وجنّبنا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وبارك لنا في أسماعنا وأبصارنا وقلوبنا، وأزواجنا، وذرياتنا، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، واجعلنا شاكرين لنعمتك، مثنين بها قابليها، وأتممها علينا»[١٠].

قال الله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ أي: هؤلاء المتصفون بما ذكرنا، التائبون إلى الله المنيبون إليه، المستدركون ما فات بالتوبة والاستغفار، هم الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا، ويتجاوز عن سيئاتهم، فيغفر لهم الكثير من الزلل، ويتقبل منهم اليسير من العمل، ﴿ في أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ﴾ أي: هم في جملة أصحاب الجنة، وهذا حكمهم عند الله كما وعد

(١) في م، أ: «أبو الحسن الكوفي ـ عمرو بن أوس». (٢) في ت: «وروى الحافظ».
(٣) في ت، م: «رزقه». (٤) في ت، م، أ: «أمين».
(٥) قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٠٥): «رواه أبو يعلى في الكبير وفيه عزرة بن قيس الأزدي، وهو ضعيف».
(٦) في ت: «وهذا الحديث في مسند الإمام أحمد».
(٧) رواه الإمام أحمد من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، المسند (٣/ ٢١٨).
(٨) في ت، م، أ: «أبعد». (٩) في ت: «سبيل».
(١٠) سنن أبي داود برقم (٩٦٩).

www.Quranpdf.blogspot.in

الله من تاب إليه وأناب؛ ولهذا قال: ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾.

قال[١] ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا المُعْتَمِر بن سليمان، عن الحكم بن أبان، عن الغطْرِيف، عن جابر بن زيد، عن ابن عباس[٢]، عن رسول الله ﷺ، عن الروح الأمين، عليه[٣] السلام، قال: «يؤتى[٤] بحسنات العبد وسيئاته[٥]، فيقتص[٦] بعضها ببعض، فإن بقيت حسنة وسع الله له في الجنة» قال: فدخلتُ على يزداد فَحَدَّث بمثل هذا الحديث قال: قلت: فإن ذهبت الحسنة؟ قال: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾[٧].

وهكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبيه، عن محمد بن عبد الأعلى الصنعاني، عن المعتمر بن سليمان، بإسناده مثله ـ وزاد: عن الروح الأمين. قال: قال الرب، جل جلاله: يؤتى بحسنات العبد وسيئاته. . . فذكره، وهو حديث غريب، وإسنادٌ جيد لا بأس به.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سليمان بن مَعْبَد، حدثنا عمرو بن عاصم الكلائي، حدثنا أبو عوانة، عن أبي بشر[٨] جعفر بن أبي وَحْشية، عن يوسف بن سعد[٩]، عن محمد بن حاطب قال: ونزل في داري حيث ظهر علي على أهل البصرة، فقال لي يوما: لقد شهدتُ أمير المؤمنين عليا، وعنده عمارا وصعصعة والأشتر ومحمد بن أبي بكر، فذكروا عثمان فنالوا منه، وكان علي، رضي الله عنه، على السرير، ومعه عود في يده، فقال قائل منهم: إن عندكم من يفصل بينكم فسألوه، فقال علي: كان عثمان من الذين قال الله: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ قال: والله عثمان وأصحاب عثمان ـ قالها ثلاثا ـ قال يوسف: فقلت لمحمد بن حاطب: آلله لسمعت هذا من عليّ؟ قال: آلله لسمعت هذا من علي، رضي الله عنه.

﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (١٨) وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٩) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠)﴾ .

---

(١) في ت: «وروى». (٢) في ت: «ابن عباس رضي الله عنه». (٣) في م: «عليهما».
(٤) في ت: «تؤتى». (٥) في أ: «وسيئاته يوم القيامة». (٦) في أ: «فيقبض».
(٧) تفسير الطبري (٢٦/ ١٢) ورواه أبو نعيم في الحلية (٣/ ٩١) من طريق معتمر بن سليمان به، وقال أبو نعيم: «هذا حديث غريب من حديث جابر، والغطريف تفرد به عنه الحكم بن أبان العدني».
(٨) في أ: «بشير». (٩) في ت: «وروى ابن أبي حاتم بإسناده».

www.Quranpdf.blogspot.in

لما ذكر تعالى حال الداعين للوالدين البارين بهما وما لهم عنده من الفوز والنجاة، عطف بحال الأشقياء العاقين للوالدين فقال: ﴿وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا﴾ ـ وهذا عام فى كل من قال هذا، ومن زعم أنها نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر فقوله ضعيف؛ لأن عبد الرحمن بن أبى بكر أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه، وكان من خيار أهل زمانه.

وروى العَوْفى، عن ابن عباس: أنها نزلت فى ابن لأبى بكر الصديق. وفى صحة هذا نظر، والله أعلم.

وقال ابن جُرَيْج، عن مجاهد: نزلت فى عبد الله بن أبى بكر. وهذا أيضا قاله ابن جريج.

وقال آخرون: عبد الرحمن بن أبى بكر. وقاله[١] السدى. وإنما هذا عام فى كل من عق والديه وكذب بالحق، فقال لوالديه: ﴿أُفٍّ لَّكُمَا﴾ عقهما.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا يحيى بن أبى زائدة، عن إسماعيل بن أبى خالد، أخبرنى عبد الله بن المدينى قال: إنى لفى المسجد حين خطب مَرْوان، فقال: إن الله أرى[٢] أمير المؤمنين فى يزيد رأيا حسنا، وإن يستخلفه فقد استخلف أبو بكر عمر، فقال عبد الرحمن بن أبى بكر: أهرقلية؟! إن أبا بكر والله ما جعلها فى أحد من ولده، ولا أحد من أهل بيته، ولا جعلها معاوية فى ولده إلا رحمة وكرامة لولده. فقال مروان: ألست الذى قال لوالديه: أف لكما؟ فقال عبد الرحمن: ألست ابن اللعين الذى لعن رسول الله ﷺ أباك؟ قال: وسمعتهما عائشة فقالت: يا مروان، أنت القائل لعبد الرحمن كذا وكذا؟ كذبتَ، ما فيه نزلت، ولكن نزلت فى فلان بن فلان. ثم انتحب مروان، ثم نزل عن المنبر حتى أتى باب حجرتها، فجعل يكلمها حتى انصرف[٣].

وقد رواه البخارى بإسناد آخر ولفظ آخر، فقال: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبو عَوانة، عن أبى بِشْر، عن يوسف بن مَاهَك قال: كان مَرْوان على الحجاز، استعمله معاوية بن أبى سفيان، فخطب وجعل يذكر يزيد بن معاوية لكى يبايع له بعد أبيه، فقال له عبد الرحمن بن أبى بكر شيئا، فقال: خذوه. فدخل بيت عائشة، رضى الله عنها، فلم يقدروا عليه، فقال[٤] مروان: إن هذا الذى أنزل فيه: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِى أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾ فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا شيئا من القرآن، إلا أن الله أنزل عُذرى[٥].

طريق أخرى: قال النسائى: حدثنا على بن الحسين، حدثنا أميَّة بن خالد، حدثنا شعبة، عن محمد بن زياد قال: لما بايع معاوية لابنه، قال مروان: سُنَّة أبى بكر وعمر. فقال عبد الرحمن بن أبى

(١) فى ت، م: «وهذا قول». (٢) فى م، أ: «الله قد رأى».
(٣) ورواه ابن مردويه فى تفسيره كما فى الدر المنثور (٧/ ٤٤٤).
(٤) فى أ: «فلم يقدر عليه فقام فقال».
(٥) صحيح البخارى برقم (٤٨٢٧).

www.Quranpdf.blogspot.in

بكر: سُنَّة هرقل وقيصر. فقال مروان: هذا الذى أنزل الله فيه: ﴿وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا﴾ الآية، فبلغ ذلك عائشة فقالت: كذب مروان! والله ما هو به، ولو شئت أن أسمى الذى أنزلت فيه لسميته، ولكن رسول الله ﷺ لعن أبا مروان ومروانُ فى صلبه، فمروان فَضَضٌ(١) من لعنة الله(٢).

وقوله: ﴿ أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ ﴾ أى: [أن](٣) أبعث ﴿ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي ﴾ أن(٤): قد مضى الناس فلم يرجع منهم مخبر، ﴿ وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ ﴾ أى: يسألان الله فيه أن يهديه ويقولان لولدهما: ﴿وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ قال الله [تعالى](٥): ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ أى: دخلوا فى زمرة أشباههم وأضرابهم من الكافرين الخاسرين أنفسهم وأهليهم يوم القيامة.

وقوله: ﴿ أُوْلَئِكَ﴾ بعد قوله: ﴿ وَالَّذِى قَالَ﴾ دليل على ما ذكرناه من أنه جنس يعم كل من كان كذلك.

وقال الحسن، وقتادة: هو الكافر الفاجر العاق لوالديه، المكذب بالبعث.

وقد روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة سهل بن داود، من طريق هشام بن عمار: حدثنا حماد ابن عبد الرحمن، حدثنا خالد بن الزبرقان الحلبى، عن سليمان بن حبيب المحاربى، عن أبى أمامة الباهلى، عن النبى ﷺ قال: «أربعة لعنهم الله من فوق عرشه، وأَمَّنَتْ عليهم الملائكة: مضل المساكين ـ قال خالد: الذى يهوى بيده إلى المسكين فيقول: هلم أعطيك، فإذا جاءه قال: ليس معى شىء ـ والذى يقول للمكفوف: اتق الدابة، وليس بين يديه شىء. والرجل يسأل عن دار القوم فيدلونه على غيرها، والذى يضرب الوالدين حتى يستغيثا»(٦). غريب جدا.

وقوله: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ أى: لكل عذاب بحسب عمله، ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ أى: لا يظلمهم مثقال ذرة فما دونها.

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: درجات النار تذهب سفالا، ودرجات الجنة تذهب علوا.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ أى: يقال لهم ذلك تقريعا وتوبيخا. وقد تورع [أمير المؤمنين](٧) عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، عن(٨) كثير من طيبات المآكل والمشارب، وتنزه عنها، ويقول: [إنى](٩) أخاف أن أكون كالذين قال الله تعالى لهم وَقرَّعهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾.

---

(١) فى أ: «بعض».

(٢) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٩١).

(٣) زيادة من ت. (٤) فى ت، أ: «أى». (٥) زيادة من ت، م.

(٦) مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (١٠/٢٢١) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٤/٢٥١) من طريق هشام بن عمار به. قال ابن أبى حاتم فى العلل (٢/٤١٣): «سألت أبى عن هذا الحديث فقال: هذا حديث منكر». قال الهيثمى فى المجمع (٤/٢٥١): «حماد بن عبد الرحمن العكى عن خالد بن الزبرقان، وكلاهما ضعيف».

(٧) زيادة من ت، م، أ. (٨) فى أ: «على». (٩) زيادة من ت، م، أ.

www.Quranpdf.blogspot.in

وقال أبو مجلز: ليتفقدنّ أقوامٌ حسنات كانت لهم فى الدنيا، فيقال لهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾.

وقوله: ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾، فجوزوا من جنس عملهم، فكما نَعَّموا أنفسهم واستكبروا عن اتباع الحق، وتعاطوا الفسق والمعاصى، جازاهم الله بعذاب الهون، وهو الإهانة والخزى والآلام الموجعة، والحسرات المتتابعة، والمنازل فى الدركات المفظعة، أجارنا الله من ذلك كله.

﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥)﴾.

يقول تعالى مسليا لنبيه فى تكذيب من كذبه من قومه: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ وهو هود، عليه السلام، بعثه الله إلى عاد الأولى، وكانوا يسكنون الأحقاف ـ جمع حِقْف وهو: الجبل من الرمل ـ قاله ابن زيد. وقال عكرمة: الأحقاف: الجبل والغار. وقال على بن أبى طالب، رضى الله عنه: الأحقاف: واد بحضرموت، يدعى بُرْهوت، تلقى فيه أرواح الكفار. وقال قتادة: ذُكر لنا أن عادا كانوا حيا باليمن أهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال لها: الشِّحْر.

قال ابن ماجه: «باب إذا دعا فليبدأ بنفسه»: حدثنا الحسين بن على الخلال، حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا سفيان، عن أبى إسحاق، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «يرحمنا الله، وأخا عاد»[1].

وقوله: ﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ يعنى: وقد أرسل الله إلى من حَول بلادهم من القرى مرسلين ومنذرين، كقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ [البقرة: ٦٦]، وكقوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا[2] فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ. إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ[3]﴾ [فصلت: ١٣، ١٤] أى: قال لهم هود ذلك، فأجابه قومه قائلين: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا﴾ أى: لتصدنا ﴿عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن

---

(١) سنن ابن ماجه (٣٨٥٢) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ٢٠٤): «هذا إسناد صحيح وله شواهد فى صحيح مسلم وغيره من حديث أبى بن كعب».

(٢) فى م: «تولوا»، وهو خطأ.

(٣) فى ت، م، أ، هـ: «إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم»، والصواب ما أثبتناه.

www.Quranpdf.blogspot.in

كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ استعجلوا عذاب الله وعقوبته، استبعاداً منهم وقوعه، كقوله: **﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾** [الشورى: ١٨].

﴿قَالَ[(١)] **إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ﴾** أي: الله أعلم بكم إن كنتم مستحقين لتعجيل العذاب فيفعل[(٢)] ذلك بكم، وأما أنا فمن شأني أني أبلغكم ما أرسلت به، **﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾** أي: لا تعقلون ولا تفهمون.

قال الله تعالى: **﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾** أي: لما رأوا العذاب مستقبلهم، اعتقدوا أنه عارض ممطر، ففرحوا به واستبشروا به[(٣)]، وقد كانوا ممحلين محتاجين إلى المطر، قال الله تعالى: **﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** أي: هو العذاب الذي قلتم: **﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾**.

﴿تُدَمِّرُ﴾ أي: تخرّب **﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾** من بلادهم، مما من شأنه الخراب **﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾** أي: بإذن الله لها في ذلك، كقوله: **﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾** [الذاريات: ٤٢] أي: كالشيء البالي. ولهذا قال: **﴿فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ﴾** أي: قد بادوا كلهم عن آخرهم ولم تبق لهم باقية، **﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾** أي: هذا حكمنا فيمن كذب رسلنا، وخالف أمرنا.

وقد ورد حديث في قصتهم وهو غريب جداً من غرائب الحديث وأفراده، قال الإمام أحمد:

حدثنا زيد بن الحُبَاب، حدثني أبو المنذر سلام بن سليمان النحوي قال: حدثنا عاصم بن أبي النَّجُود، عن أبي وائل، عن الحارث البكري قال: خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ، فمررت بالرَّبْذَة، فإذا عجوز من بني تميم منقطع بها، فقالت لي: يا عبد الله، إن لي إلى رسول الله ﷺحاجة، فهل أنت مبلغي إليه؟ قال: فحملتها فأتيت بها المدينة، فإذا المسجد غاص بأهله، وإذا راية سوداء تخفق، وإذا بلال متقلد السيف بين يدي رسول الله ﷺ، فقلت: ما شأن الناس؟ قالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجها. قال: فجلست، فدخل منزله ـ أو قال: رحله ـ فاستأذنت عليه، فأذن لي، فدخلت فسلمت، فقال: «هل كان بينكم وبين تميم شيء؟ قلت: نعم، وكانت لنا الدبرة[(٤)] عليهم، ومررت بعجوز من بني تميم منقطع بها، فسألتني أن أحملها إليك، وها هي بالباب: فأذن لها فدخلت، فقلت: يا رسول الله، إن رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزا فاجعل الدهناء، فحميت العجوز واستوفزت، وقالت: يا رسول الله، فإلى أين يضطر مضطرك؟ قال: قلت: إن مثلي ما قال الأول: «معْزَى حَمَلَت حَتْفَهَا»، حملت هذه ولا أشعر أنها كانت لي خصما، أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد. قال: «هيه، وما وافد عاد؟» ـ وهو أعلم بالحديث منه، ولكن يستطعمه[(٥)] ـ قلت: إن عاداً قحطوا فبعثوا وافداً لهم يقال له: قَيل، فمر بمعاوية بن بكر، فأقام عنده شهرا يسقيه الخمر وتغنيه جاريتان يقال لهما «الجرادتان»ـ فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مَهْرة فقال: اللهم،

---

(١) في م: «وقال» وهو خطأ.
(٢) في م، أ: «فسيفعل».
(٣) في م، ت: «ففرحوا به واستبشروا به».
(٤) في ت، أ: «الدائرة».
(٥) في أ: «يستعظمه».

www.Quranpdf.blogspot.in

إنك تعلم أنى لم أجئ إلى مريض فأداويه، ولا إلى أسير فأفاديه، اللهم اسق عادا ما كنت تسقيه. فمرت به سحابات سود، فنودى منها: «اختر»، فأومأ إلى سحابة منها سوداء، فنودى منها: «خذها رماداً رمدداً[1]، لا تبقى من عاد أحداً». قال: فما بلغنى أنه أرسل عليهم من الريح إلا كقدر ما يجرى فى خاتمى هذا، حتى هلكوا ـ قال أبو وائل: وصدق ـ وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافداً لهم قالوا: «لا تكن كوافد عاد».

رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه، كما تقدم فى سورة «الأعراف»[2].

وقال الإمام أحمد: حدثنا هارون بن معروف، أخبرنا ابن وهب، أخبرنا عمرو: أن أبا النضر حدثه عن سليمان بن يسار، عن عائشة [3] أنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكا حتى أرى منه لهواته، إنما كان يتبسم. قالت: وكان [4] إذا رأى غيما ـ أو ريحا ـ عرف ذلك فى وجهه، قالت: يا رسول الله، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرفت فى وجهك الكراهية؟ فقال: «يا عائشة، ما يؤمننى أن يكون فيه عذاب، قد عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: هذا عارض ممطرنا». وأخرجاه[5] من حديث ابن وهب[6].

طريق أخرى: قال أحمد: حدثنا عبد الرحمن، عن سفيان، عن المقدام بن شريح، عن أبيه، عن عائشة، أن رسول الله ﷺ كان إذا رأى ناشئا فى أفق من آفاق السماء، ترك عمله، وإن كان فى صلاته، ثم يقول: «اللهم، إنى أعوذ بك من شر ما فيه[7]». فإن كشفه الله حمد الله، وإن أمطرت قال: «اللهم، صيبا نافعا»[8].

طريق أخرى: قال مسلم فى صحيحه: حدثنا أبو الطاهر، أخبرنا ابن وهب، سمعت ابن جريج يحدث عن عطاء بن أبى رباح، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال: «اللهم، إنى أسألك خيرها، وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها، وشر ما فيها، وشر ما أرسلت به». قالت: وإذا تَخَيَّلت السماء تغير لونه، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، فإذا مطرت سرى عنه، فعرفت ذلك عائشة، فسألته، فقال: «لعله يا عائشة كما قال قوم عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾»[9].

وقد ذكرنا قصة هلاك عاد[10] فى سورتى «الأعراف وهود»[11] بما أغنى عن إعادته هاهنا، ولله

---

(١) فى ت: «رمدا».

(٢) المسند (٣/ ٤٨٢) وانظر تخريج بقية هذا الحديث عند الآية: ٧٣ من سورة الأعراف.

(٣) فى ت: «عائشة رضى الله عنها».

(٤) فى ت، م: «وكان رسول الله ﷺ».

(٥) فى ت: «أخرجه».

(٦) المسند (٦/ ٦٦)، وصحيح البخارى برقم (٤٨٢٨، ٤٨٢٩)، وصحيح مسلم برقم (٨٩٩).

(٧) فى م: «من سوء عاقبته».

(٨) المسند (٦/ ١٩٠).

(٩) صحيح مسلم برقم (٨٩٩).

(١٠) فى ت، م، أ: «هلاك قوم عاد».

(١١) راجع قصة هلاك قوم عاد عند تفسير الآيات: ٦٥ ـ ٧٢ من سورة الأعراف، والآيات: ٥٠ ـ ٦٠ من سورة هود.

www.Quranpdf.blogspot.in

الحمد والمنة.

وقال الطبراني: حدثنا عبدان بن أحمد، حدثنا إسماعيل بن زكريا الكوفي، حدثنا أبو مالك عن مسلم الملائي، عن مجاهد وسعيد بن جبير[١]، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما فتح على عاد من الريح إلا مثل موضع الخاتم، ثم أرسلت عليهم [فحملتهم] البدو إلى الحضر فلما رآها أهل الحضر قالوا: هذا عارض ممطرنا مستقبل أوديتنا. وكان أهل البوادي فيها، فألقى أهل البادية على أهل الحاضرة حتى هلكوا. قال: عتت على خزانها حتى خرجت من خلال الأبواب[٢] »[٣].

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨) ﴾.

يقول تعالى: ولقد مكنا الأمم السالفة في الدنيا من الأموال والأولاد، وأعطيناهم منها[٤] ما لم نعطكم مثله ولا قريبا منه، **﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾** أي: وأحاط بهم العذاب والنكال الذي كانوا يكذبون به ويستبعدون وقوعه، أي: فاحذروا أيها المخاطبون أن تكونوا مثلهم، فيصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب في الدنيا والآخرة.

وقوله: **﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ﴾** يعني: أهل مكة، قد أهلك الله الأمم المكذبة بالرسل مما حولها كعاد، وكانوا بالأحقاف بحضرموت عند اليمن وثمود، وكانت منازلهم بينهم وبين الشام، وكذلك سبأ وهم أهل اليمن، ومدين وكانت في طريقهم وممرهم إلى غزة، وكذلك بحيرة قوم لوط، كانوا يمرون بها أيضا.

وقوله: **﴿وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ﴾** أي: بيناها ووضحناها، **﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ. فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾** أي: فهلا نصروهم عند احتياجهم إليهم، **﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾** أي: بل ذهبوا عنهم أحوج ما كانوا إليهم، **﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ﴾** أي: كذبهم، **﴿وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾** أي: وافتراؤهم في اتخاذهم إياهم آلهة، وقد خابوا وخسروا في عبادتهم لها، واعتمادهم عليها.

---

(١) في ت: «وروى الطبراني بإسناده». (٢) في ت: «البيوت».
(٣) المعجم الكبير (١٢/ ٤٢)، قال الهيثمي في المجمع (٧/ ١١٣): «فيه مسلم الملائي وهو ضعيف».
(٤) في ت: «فيها».

www.Quranpdf.blogspot.in

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٢) ﴾ .

قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، حدثنا عمرو: سمعت عكرمة، عن الزبير: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾، قال: بنخلة، ورسول الله ﷺ يصلى العشاء الآخرة، ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن:١٩]، قال سفيان: اللبد: بعضهم على بعض، كاللبد بعضه على بعض[١].

تفرد به أحمد، وسيأتى من رواية ابن جرير، عن عكرمة، عن ابن عباس: أنهم سبعة من جن نَصيبين.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبو عوانة (ح) ـ وقال الحافظ [٢] أبو بكر البيهقى فى كتابه «دلائل النبوة»: أخبرنا أبو الحسن على بن أحمد بن عبدان، أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار، حدثنا إسماعيل القاضى، أخبرنا مسدد، حدثنا أبو عوانة عن أبى بشر، عن سعيد بن جبير[٣]، عن ابن عباس قال: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم، انطلق رسول الله ﷺ فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب. قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شىء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها وانظروا ما هذا الذى حال بينكم وبين خبر السماء. فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها يبتغون ما هذا الذى حال بينهم وبين خبر السماء، فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ، وهو بنخلة عامدا إلى سوق عكاظ، وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا ـ والله ـ الذى حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك حين رجعوا إلى قومهم ، قالوا: ياقومنا، إنا سمعنا قرآنا عجبا، يهدى إلى الرشد فآمنا به، ولن نشرك بربنا أحدا، وأنزل الله على نبيه[٤]: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الجن:١]، وإنما أوحى إليه قول الجن.

رواه البخارى عن مُسَدَّد بنحوه، وأخرجه مسلم عن شيبان بن فروخ، عن أبى عوانة، به. ورواه

(١) المسند (١/ ١٦٧).
(٢) فى م: «الحافظ الشهير».
(٣) فى ت: «وروى الإمام أحمد بإسناده».
(٤) فى ت، م، أ: «نبيه ﷺ».

www.Quranpdf.blogspot.in

الترمذى والنسائى فى التفسير، من حديث أبى عوانة[١].

وقال الإمام أحمد أيضا: حدثنا أبو أحمد، حدثنا إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن سعيد بن جبير[٢]، عن ابن عباس، قال: كان الجن يستمعون[٣] الوحى، فيسمعون الكلمة فيزيدون فيها عشرا، فيكون ما سمعوا حقاً وما زادوا باطلا، وكانت النجوم لا يرمى بها قبل ذلك، فلما بعث رسول الله ﷺ كان أحدهم لا يأتى مقعده إلا رمى بشهاب يحرق ما أصاب، فشكوا ذلك إلى إبليس فقال: ما هذا إلا من أمر قد حدث. فبث جنوده، فإذا بالنبى ﷺ يصلى بين جبلى نخلة، فأتوه فأخبروه، فقال: هذا الحدث الذى حدث فى الأرض.

رواه الترمذى والنسائى فى كتابى التفسير من سننيهما، من حديث إسرائيل، به[٤]. وقال الترمذى: حسن صحيح.

وهكذا رواه أيوب عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس. وكذا رواه العوفى، عن ابن عباس أيضا، بمثل هذا السياق بطوله، وهكذا قال الحسن البصرى: إنه، عليه السلام، ما شعر بأمرهم حتى أنزل الله عليه بخبرهم.

وذكر محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رومان، عن محمد بن كعب القرظى قصة خروج رسول الله ﷺ إلى الطائف ودعائه إياهم إلى الله عز وجل، وإبائهم عليه. فذكر القصة بطولها، وأورد ذلك الدعاء الحسن: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى» إلى آخره. قال: فلما انصرف عنهم بات بنخلة، فقرأ تلك الليلة من القرآن فاستمعه الجن من أهل نصيبين[٥].

وهذا صحيح، ولكن قوله: «إن الجن كان استماعهم تلك الليلة». فيه نظر؛ لأن الجن كان استماعهم فى ابتداء الإيحاء، كما دل عليه حديث ابن عباس المذكور، وخروجه، عليه السلام، إلى الطائف كان بعد موت عمه، وذلك قبل الهجرة بسنة أو سنتين، كما قرره ابن إسحاق وغيره [والله أعلم][٦].

وقال أبو بكر بن أبى شيبة: حدثنا أبو أحمد الزبيرى، حدثنا سفيان، عن عاصم، عن زر[٧]، عن عبد الله بن مسعود قال: هبطوا على النبى ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة، فلما سمعوه قالوا: أنصتوا. قال[٨]: صه، وكانوا تسعة[٩] أحدهم زوبعة، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ إلى: ﴿ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[١٠].

---

(١) المسند (١/٢٥٢)، ودلائل النبوة للبيهقى (٢/٢٢٥).

(٢) فى ت: «وروى الإمام أحمد بإسناده». (٣) فى ت، م: «فيستمعون».

(٤) صحيح البخارى برقم (٧٧٣)، وصحيح مسلم برقم (٤٤٩)، وسنن الترمذى برقم (٣٣٢٣)، والنسائى فى السنن الكبرى برقم(١١٦٢٤).

(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/٤١٩). (٦) زيادة من ت. (٧) فى ت: «وروى أبو بكر بن أبى شيبة بسنده».

(٨) فى ت، م، أ: «قالوا». (٩) فى أ: «سبعة».

(١٠) ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/٤٥٦) من طريق أبى بكر بن أبى شيبة به، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبى.

www.Quranpdf.blogspot.in

فهذا مع الأول من رواية ابن عباس يقتضى أن رسـول الله ﷺ لم يشعر بحضورهم فى هذه المرة وإنما استمعوا قراءته، ثـم رجعوا إلى قومهم، ثم بعد ذلك وفدوا إليه أرسـالا قوما بعد قوم، وفوجا بعد فوج، كما سيأتى بذلك الأخبار فى موضعها والآثار، مما سنوردها[١] هاهنا إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

فأما ما رواه البخارى ومسلم جميعا، عن أبى قدامة عبـيد الله بن سعيد السرخسى، عن أبى أسامة حماد بن أسامة، عن مسعر بن كدام، عن معن بن عبد الرحمن قال: سمعت أبى قال: سألت مسروقا: من آذن النبى ﷺ ليلة استمعوا القرآن؟ فقال: حدثنى أبوك ـ يعنى ابن مسعود [٢] ـ أنه آذنته بهم شجرة[٣] ـ فيحتـمل أن يكون هذا فى المـرة الأولى، ويكون إثباتا مـقدما على نفـى ابن عباس، ويحتمل أن يكون هذا فى بعض المرات المتأخرات، والله أعلم. ويحتمل أن يكون فى الأولى ولكن لم يشعر بهم حال استماعهم حتى آذنته بهم الشجرة، أى: أعلمته باستماعهم، والله أعلم.

قال الحافـظ البيهقـى: وهذا الذى حكاه ابـن عباس رضى الله عنـهما[٤]، إنما هـو فى أول مـا سمعت[٥] الجن قراءة رسول الله ﷺ وعلمت حاله، وفى ذلك الوقـت لم يقرأ عليهم ولم يرهم، ثم بعد ذلـك أتاه داعى الجن فقـرأ عليهم الـقرآن، ودعاهم إلـى الله، عز وجل، كما رواه عـبد الله بن مسعود، رضى الله عنه[٦].

ذكر الرواية عنه بذلك:

قال الإمام أحمـد: حدثنا إسماعـيل بن إبراهيم، حدثـنا داود، عن الشعبـى ـ وابن أبى زائدة، أخبرنا داود، عن الشعبى[٧] ـ عن علقمة قال: قلت لعبد الله بن مسعود: هل صحب رسول الله ﷺ ليلة الجن منكم أحد؟ فقال: ما صحبه منا أحد، ولكنا فقدناه ذات ليلة بمكة، فقلنا: اغتيل؟ استطير؟ ما فعل؟ قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قـوم،فلما كان فى وجه الصبح ـ أو قال: فى السحر ـ إذا نحن به يجىء مـن قبل حراء، فقلنـا: يا رسول الله ـ فذكروا له الـذى كانوا فيه ـ فقال: «إنـه أتانى داعى الجن، فأتيتهم فقرأت عليهم». قال: فانطلق، فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم ـ قال: وقال الشعبى: سألوه الزاد ـ قال عامر: سألوه بمكة، وكانوا من جن الجزيـرة، فقال: «كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع فى أيديكم أوفر ما كان عليـه لحما، وكل بعرة أو روثة علف لدوابكم ـ قال ـ فلا تستنـجوا بهما، فإنهما زاد إخوانكم من الجن».

وهكذا رواه مسلم فى صحيحه، عن على بن حجر، عن إسماعيل بن علية، به نحوه[٨].

وقال مسلم أيضا: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا داود ـ وهو ابن أبى هند ـ عن عامر قال: سـألت علقمة: هل كان ابن مـسعود، رضى الله عنه، شهد مـع رسول الله ﷺ ليلة

(١) فى ت: «نوردها». (٢) فى ت: «ابن مسعود رضى الله عنه».
(٣) صحيح البخارى برقم (٣٨٥٩) ،وصحيح مسلم برقم (٤٥٠).
(٤) فى م، أ: «عنه». (٥) فى أ: «ما استمعت».
(٦) دلائل النبوة للبيهقى (٢/ ٢٢٧).
(٧) فى ت: «فروى الإمام أحمد بسنده».
(٨) المسند (١/ ٤٣٦)، وصحيح مسلم برقم (٤٥٠).

www.Quranpdf.blogspot.in

الجن؟ قال: فقال علقمة: أنا سألت ابن مسعود؛ فقلت: هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ قال: لا، ولكنا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة، ففقدناه فالتمسناه فى الأودية والشعاب، فقلنا: استطير؟ اغتيل؟ قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء، قال: فقلنا: يا رسول الله، فقدناك فطلبناك فلم نجدك، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم. فقال: «أتانى داعى الجن، فذهبت معهم، فقرأت عليهم القرآن». قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم، وسألوه الزاد فقال: «كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع فى أيديكم أوفر ما يكون لحما، وكل بعرة أو روثة علف لدوابكم». قال رسول الله ﷺ: «فلا تستنجوا بهما، فإنهما طعام إخوانكم»(١).

طريق أخرى عن ابن مسعود: قال أبو جعفر بن جرير: حدثنى أحمد بن عبد الرحمن، حدثنى عمى، حدثنى يونس، عن الزهرى، عن عبيد الله بن عبد الله؛ أن ابن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بت الليلة أقرأ على الجن ربعا(٢) بالحجون»(٣).

طريق أخرى: فيها أنه كان معه ليلة الجن، قال ابن جرير، رحمه الله: حدثنى أحمد بن عبد الرحمن بن وهب، حدثنا عمى عبد الله بن وهب، أخبرنى يونس، عن ابن شهاب، عن أبى عثمان ابن سنة الخزاعى ـ وكان من أهل الشام(٤) ـ أن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه وهو بمكة: «من أحب منكم أن يحضر أمر الجن الليلة فليفعل». فلم يحضر منهم أحد غيرى، قال: فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة خط لى برجله خطا، ثم أمرنى أن أجلس فيه، ثم انطلق حتى قام، فافتتح القرآن فغشيته أسودة كثيرة حالت بينى وبينه، حتى ما أسمع صوته، ثم طفقوا يتقطعون مثل قطع السحاب ذاهبين، حتى بقى منهم رهط، ففرغ رسول الله ﷺ مع الفجر، فانطلق فتبرز، ثم أتانى فقال: «ما فعل الرهط؟» فقلت: هم أولئك يا رسول الله، فأعطاهم عظما وروثا زادا، ثم نهى أن يستطيب أحد بروث أو عظم.

ورواه ابن جرير عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، عن أبى زرعة وهب الله بن راشد، عن يونس بن يزيد الأيلى، به(٥).

ورواه البيهقى فى الدلائل، من حديث عبد الله بن صالح ـ كاتب الليث ـ عن الليث، عن يونس، به(٦).

وقد روى إسحاق بن راهويه، عن جرير، عن قابوس بن أبى ظبيان، عن أبيه، عن ابن مسعود، فذكر نحو ما تقدم(٧).

---

(١) صحيح مسلم برقم (٤٥٠).

(٢) فى م: «وقفاً»، وفى أ: «رفعاً».

(٣) تفسير الطبرى (٢٦/٢١)، ورواه أحمد فى المسند (١/٤١٦) من طريق يونس عن الزهرى، به.

(٤) فى ت: «روى مسلم وروى ابن جرير بسنده».

(٥) تفسير الطبرى (٢٦/٢١).

(٦) دلائل النبوة للبيهقى (٢/ ٣٣٠)، ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/٥٠٣) من طريق عبد الله بن صالح به، قال الذهبى: «هو صحيح عند جماعة».

(٧) وفى إسناده قابوس بن أبى ظبيان، ضعفه أبو حاتم والنسائى وأحمد، وقال ابن حبان: «ينفرد عن أبيه بما لا أصل له، فربما رفع المرسل وأسند الموقوف».

www.Quranpdf.blogspot.in

ورواه الحافظ أبو نعيم، من طريق موسى بن عبيدة، عن سعيد بن الحارث، عن أبى المعلى[(١)]، عن ابن مسعود، فذكر نحوه أيضا[(٢)].

طريق أخرى: قال أبو نعيم: حدثنا أبو بكر بن مالك، حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثنى أبى قال: حدثنا عفان وعكرمة قالا: حدثنا معتمر قال: قال أبى: حدثنى أبو تميمة، عن عمرو ـ ولعله قد يكون قال: البكالى ـ يحدثه عمرو، عن عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه، قال: استتبعنى رسول الله ﷺ فانطلقنا حتى أتينا مكان كذا وكذا، فخط لى خطاً فقال: «كن بين ظهر هذه لا تخرج منها؛ فإنك إن خرجت منها هلكت» فذكر الحديث بطوله وفيه غرابة شديدة[(٣)].

طريق أخرى: قال ابن جرير: وحدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا ابن ثور، عن معمر، عن يحيى ابن أبى كثير[(٤)]، عن عبد الله بن عمرو بن غيلان الثقفى؛ أنه قال لابن مسعود: حدثت أنك كنت مع رسول الله ﷺ ليلة وفد الجن؟ قال: أجل. قال: فكيف كان؟ فذكر الحديث كله، وذكر أن النبى ﷺ خط عليه خطا، وقال: «لا تبرح منها» فذكر مثل العَجَاجة السوداء غشيت رسول الله ﷺ، فذعر ثلاث مرات، حتى إذا كان قريبا من الصبح، أتانى النبى[(٥)] ﷺ فقال: «أنمت؟» فقلت: لا والله، ولقد هممت مرارا أن أستغيث بالناس حتى سمعتك تقرعهم بعصاك، تقول: «اجلسوا» فقال: «لو خرجت لم آمن أن يخطفك[(٦)] بعضهم». ثم قال: «هل رأيت شيئا؟» فقلت: نعم، رأيت رجالا سوداً مستشعرين[(٧)] ثيابا بياضا. قال: «أولئك جن نصيبين سألونى المتاع ـ والمتاع: الزاد ـ فمتعتهم بكل عظم حائل، أو بعرة، أو روثة» ـ فقلت: يا رسول الله، وما يغنى ذلك عنهم؟ فقال: «إنهم لا يجدون عظما إلا وجدوا عليه لحمه يوم أكل، ولا روثا إلا وجدوا فيها حبها يوم أكلت، فلا يستنقين أحد منكم إذا خرج من الخلاء بعظم ولا بعرة ولا روثة»[(٨)].

طريق أخرى: قال الحافظ أبو بكر البيهقى: أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمى وأبو نصر بن قتادة قالا: أخبرنا أبو محمد يحيى بن منصور القاضى، حدثنا أبو عبد الله محمد بن إبراهيم البُوشَنْجى، حدثنا روح بن صلاح، حدثنا موسى بن على بن رباح، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود قال: استتبعنى رسول الله ﷺ فقال: «إن نفرا من الجن ـ خمسة عشر بنى إخوة وبنى عم ـ يأتوننى الليلة، فأقرأ عليهم القرآن»، فانطلقت معه إلى المكان الذى أراد، فخط لى خطا وأجلسنى فيه، وقال لى: «لا تخرج من هذا». فبت فيه حتى أتانى رسول الله ﷺ مع السحر فى يده عظم حائل وروثة حُمَمَة فقال لى: «إذا ذهبت إلى الخلاء فلا تستنجِ بشىء من هؤلاء». قال: فلما أصبحت قلت: لأعلمن علمى حيث كان رسول الله ﷺ قال، فذهبت فرأيت موضع مبرك[(٩)] ستين بعيرا[(١٠)].

طريق أخرى: قال البيهقى: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو العباس الأصم، حدثنا العباس

---

(١) فى أ: «إسماعيل».
(٢) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٠/ ٨٠) من طريق موسى بن عبيدة الربذى ، به.
(٣) لم أجده فى دلائل النبوة وهو فى المسند للإمام أحمد (١/ ٣٩٩).
(٤) فى ت: «روى ابن جرير بسنده».
(٥) فى م: «رسول الله».
(٦) فى أ: «يختطفك».
(٧) فى ت، أ: «مستثفرين».
(٨) تفسير الطبرى (٢٦/ ٢١).
(٩) فى أ: «منزل».
(١٠) دلائل النبوة للبيهقى (٢/ ٢٣١).

www.Quranpdf.blogspot.in

ابن محمد الدُّوري، حدثنا عثمان بن عمر[١]، عن المستمر بن الريان، عن أبي الجوزاء، عن عبد الله ابن مسعود قال: انطلقت مع رسول الله ﷺ ليلة الجن، حتى أتى الحجون، فخط لي خطاً، ثم تقدم إليهم فازدحموا عليه، فقال سيد لهم، يقال له: «وردان»: أنا أرحلهم عنك. فقال: إني لن يجيرني من الله أحد[٢].

طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا سفيان، عن أبي فزارة العبسي، حدثنا أبو زيد ـ مولى عمرو بن حريث ـ عن ابن مسعود قال: لما كان ليلة الجن قال لي النبي ﷺ: «أمعك ماء؟» قلت: ليس معي ماء، ولكن معي إداوة فيها نبيذ. فقال النبي: «تمرة طيبة، وماء طهور» فتوضأ.

ورواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، من حديث أبي زيد، به[٣].

طريق أخرى: قال أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، أخبرنا ابن لهيعة، عن قيس بن الحجاج، عن حنش الصنعاني، عن ابن عباس، عن عبد الله بن مسعود؛ أنه كان مع رسول الله ﷺ ليلة الجن، فقال رسول الله: «يا عبد الله، أمعك ماء؟» قال: معي نبيذ في إداوة، فقال[٤]: «اصبب علي». فتوضأ، فقال النبي ﷺ: «يا عبد الله، شراب وطهور»[٥].

تفرد به أحمد من هذا الوجه، وقد أورده الدارقطني من طريق آخر، عن ابن مسعود، [به][٦] [٧].

طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرني أبي عن ميناء، عن عبد الله قال: كنت مع رسول الله ﷺ ليلة وفد الجن، فلما انصرف تنفس، فقلت: ما شأنك؟ قال: «نعيت إلي نفسي يا ابن مسعود».

هكذا رأيته في المسند مختصراً[٨]، وقد رواه الحافظ أبو نعيم في كتابه «دلائل النبوة»، فقال: حدثنا سليمان بن أحمد بن أيوب، حدثنا إسحاق بن إبراهيم ـ وحدثنا أبو بكر بن مالك، حدثنا عبدالله بن أحمد بن حنبل، حدثنا أبي قالا: حدثنا عبد الرزاق، عن أبيه، عن ميناء، عن ابن مسعود قال: كنت مع رسول الله ﷺ ليلة وفد الجن، فتنفس، فقلت: ما لك يا رسول الله؟ قال: «نعيت إلي نفسي يا ابن مسعود». قلت: استخلف. قال: «من؟». قلت: أبو بكر. فسكت[٩]، ثم مضى ساعة فتنفس، فقلت: ما شأنك بأبي أنت وأمي يا رسول الله؟ قال: «نعيت إلي نفسي يا ابن مسعود». قلت: استخلف. قال: «من؟» قلت: عمر [بن الخطاب][١٠]. فسكت ثم مضى ساعة، ثم تنفس فقلت: ما شأنك؟ قال: «نعيت إلي نفسي». قلت: فاستخلف. قال ﷺ: «من؟» قلت: علي بن أبي طالب. قال ﷺ: «أما والذي نفسي بيده، لئن أطاعوه ليدخلن الجنة أجمعين أكتعين»[١١].

---

(١) في أ: «عن عمير».

(٢) دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٢٣١).

(٣) المسند (١/ ٤٤٩) ، وسنن أبي داود برقم (٨٤)، وسنن الترمذي برقم (٨٨) وسنن ابن ماجه برقم (٣٨٤).

(٤) في م: «قال».

(٥) المسند (١/ ٣٩٨) وقد تفرد به ابن لهيعة، وهو ضعيف.

(٦) زيادة من م.

(٧) سنن الدارقطني (١/ ٧٧) من طريق داود بن أبي هند عن عامر بن علقمة بن قيس. قال: قلت لعبد الله بن مسعود: أشهد رسول الله ﷺ أحدٌ منكم ليلة أتاه داعي الجن؟ قال: لا، قال الدارقطني: «هذا الصحيح عن ابن مسعود».

(٨) المسند (١/ ٤٤٩).

(٩) في ت، م: «أبو بكر. قال: فسكت».

(١٠) زيادة من م.

(١١) المعجم الكبير للطبراني (١٠/ ٨٢) وفيه ميناء بن أبي ميناء، كذاب.

www.Quranpdf.blogspot.in

وهو حديث غريب جدا، وأحرى به ألا يكون محفوظا، وبتقدير صحته فالظاهر أن هذا بعد وفودهم إليه بالمدينة على ما سنورده، فإن فى ذلك الوقت فى آخر الأمر لما فتحت مكة، ودخل الناس والجان أيضا فى دين الله أفواجا، نزلت سورة [١]: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ. وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾، وهى السورة التى نعيت نفسه الكريمة فيها إليه، كما قد نص على ذلك ابن عباس، ووافقه عمر بن الخطاب عليه، وقد ورد فى ذلك حديث سنورده عند تفسيرها، والله أعلم. وقد رواه أبو نعيم أيضا، عن الطبرانى عن محمد بن عبدالله الحضرمى، عن على بن الحسين بن أبى بردة، عن يحيى بن سعيد[٢] الأسلمى، عن حرب بن صَبِيح، عن سعيد بن مسلمة، عن أبى مرة الصنعانى، عن أبى عبد الله الجدلى، عن ابن مسعود، فذكره وذكر فيه قصة الاستخلاف[٣]، وهذا إسناد غريب، وسياق عجيب.

طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد، حدثنا حماد بن سلمة، عن على بن زيد، عن أبى رافع، عن ابن مسعود؛ أن رسول الله ﷺ[٤] خط حوله، فكان أحدهم[٥] مثل سواد النخل، وقال لى: «لا تبرح مكانك»، فأقرأهم كتاب الله، فلما رأى الزُّط قال: كأنهم هؤلاء. وقال النبى ﷺ: «أمعك ماء؟»قلت: لا. قال: «أمعك نبيذ؟» قلت: نعم. فتوضأ به[٦].

طريق أخرى مرسلة: قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو عبد الله الظهرانى[٧]، أخبرنا حفص بن عمر العدنى، حدثنا الحكم بن أبان، عن عكرمة فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ قال: هم اثنا عشر ألفا جاؤوا من جزيرة الموصل، فقال النبى ﷺ لابن مسعود: «أنظرنى حتى آتيك»، وخط عليه خطا، وقال: «لا تبرح حتى آتيك». فلما خشيهم ابن مسعود كاد أن يذهب، فذكر قول رسول الله ﷺ فلم يبرح، فقال له النبى ﷺ: «لو ذهبت ما التقينا إلى يوم القيامة»[٨].

طريق أخرى مرسلة أيضا: قال سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ قال: ذكر لنا أنهم صرفوا إليه من نِينَوَى، وأن نبى الله ﷺ قال: «إنى أمرت أن أقرأ على الجن فأيكم يتبعنى؟» فأطرقوا، ثم استتبعهم فأطرقوا، ثم استتبعهم الثالثة فقال رجل: يا رسول الله، إن ذاك لذو ندبة فأتبعه ابن مسعود أخو هذيل، قال: فدخل النبى ﷺ شعبا يقال له: «شعب الحجون»، وخط عليه، وخط على ابن مسعود ليثبته بذلك، قال: فجعلت أهال وأرى أمثال النسور تمشى فى دفوفها، وسمعت لغطا شديدا، حتى خفت على نبى الله ﷺ، ثم تلا القرآن، فلما رجع رسول الله ﷺ قلت: يا رسول الله، ما اللغط الذى سمعت؟ قال: «اختصموا فى قتيل، فقضى بينهم بالحق». رواه ابن جرير، وابن أبى حاتم[٩].

---

(١) فى ت: «سورة النصر». (٢) فى أ: «يعلى».
(٣) المعجم الكبير للطبرانى (١٠/ ٨١) وفى إسناده يحيى الأسلمى وهو ضعيف.
(٤) فى م، أ: «أن رسول الله ﷺ ليلة الجن». (٥) فى أ: «فكان يجىء أحدهم».
(٦) المسند (١/ ٤٥٥).
(٧) فى م: «الطبرانى».
(٨) وفى إسناده الحكم بن أبان، وهو ضعيف.
(٩) تفسير الطبرى (٢٦/ ٢٠).

www.Quranpdf.blogspot.in

فهذه الطرق كلها تدل(١) على أنه ﷺ ذهب إلى الجن قصدا، فتلا عليهم القرآن، ودعاهم إلى الله، عز وجل، وشرع الله لهم على لسانه ما هم محتاجون إليه فى ذلك الوقت. وقد يحتمل أن أول مرة سمعوه يقرأ القرآن [و](٢)لم يشعر بهم، كما قاله ابن عباس، رضى الله عنهما(٣). ثم بعد ذلك وفدوا إليه كما رواه ابن مسعود. وأما ابن مسعود فإنه لم يكن مع رسول الله ﷺ حال مخاطبته للجن ودعائه إياهم، وإنما كان بعيدا منه، ولم يخرج مع النبى ﷺ أحد سواه، ومع هذا لم يشهد حال المخاطبة، هذه طريقة البيهقى.

وقد يحتمل أن يكون أول مرة خرج إليهم لم يكن معه ابن مسعود ولا غيره، كما هو ظاهر سياق الرواية الأولى من طريق الإمام أحمد، وهى عند مسلم. ثم بعد ذلك خرج معه ليلة أخرى والله أعلم، كما روى ابن أبى حاتم فى تفسير: ﴿قُلْ أُوحِيَ﴾، من حديث ابن جريج قال: قال عبدالعزيز بن عمر: أما الجن الذين لقوه بنخلة فجن نينوى، وأما الجن الذين لقوه بمكة فجن نصيبين، وتأوله البيهقى على أنه يقول: «فبتنا بشر ليلة بات بها قوم»، على غير ابن مسعود ممن لم يعلم بخروجه ﷺ إلى الجن، وهو محتمل على بعد، والله أعلم.

وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقى: أخبرنا أبو عمرو محمد بن عبد الله(٤) الأديب، أخبرنا أبو بكر الإسماعيلى، أخبرنا الحسن بن سفيان، حدثنى سويد بن سعيد، حدثنا عمرو بن يحيى، عن جده سعيد بن عمرو، قال(٥): كان أبو هريرة يتبع رسول الله ﷺ بإداوة لوضوئه وحاجته، فأدركه يوما فقال: «من هذا؟» قال: أنا أبو هريرة. قال: «ائتنى بأحجار أستنج بها، ولا تأتنى بعظم ولا روثة». فأتيته بأحجار فى ثوبى، فوضعتها إلى جنبه حتى إذا فرغ وقام اتبعته، فقلت: يا رسول الله، ما بال العظم والروثه(٦)؟ قال: «أتانى وفد جن نصيبين، فسألونى الزاد، فدعوت الله لهم ألا يمروا بعظم ولا بروثة إلا وجدوا طعاما»(٧).

أخرجه البخارى فى صحيحه، عن موسى بن إسماعيل، عن عمرو بن يحيى، بإسناده قريبا منه(٨). فهذا يدل مع ما تقدم على أنهم وفدوا عليه بعد ذلك. وسنذكر ما يدل على تكرار ذلك.

وقد روى عن ابن عباس غير ما ذكر(٩) عنه أولا من وجه جيد، فقال ابن جرير:

حدثنا أبو كريب، حدثنا عبد الحميد الحمانى، حدثنا النضر بن عربى، عن عكرمة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ﴾ الآية، [قال](١٠): كانوا سبعة نفر من أهل نصيبين، فجعلهم رسول الله ﷺ رسلا إلى قومهم(١١).

فهذا يدل على أنه قد روى القصتين.

---

(١) فى ت: «فهذه الأحاديث التى ذكرناها كلها تدل».
(٢) زيادة من ت.
(٣) فى ت، أ: «عنه».
(٤) فى أ: «عبد الوهاب».
(٥) فى ت: «وقال الحافظ أبو بكر البيهقى بسنده».
(٦) فى ت: «الروث».
(٧) دلائل النبوة للبيهقى (٢/ ٢٣٣).
(٨) صحيح البخارى برقم (٣٨٦٠).
(٩) فى أ: «ما روى».
(١٠) زيادة من أ.
(١١) تفسير الطبرى (٢٦/ ٢٢).

www.Quranpdf.blogspot.in

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا سويد بن عبد العزيز، حدثنا رجل سماه، عن ابن جريج، عن مجاهد: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ الآية، قال: كانوا سبعة نفر، ثلاثة من أهل حران، وأربعة من أهل نصيبين، وكانت أسماؤهم حيى وحسى ومسى، وشاصر وناصر، والأرد وإبيان والأحقم.

وذكر أبو حمزة الثمالى أن هذا الحى من الجن كان يقال لهم: بنو الشيصبان، وكانوا أكثر الجن عددا وأشرفهم نسبا، وهم كانوا عامة جنود إبليس.

وقال سفيان الثورى، عن عاصم، عن ذَرّ، عن ابن مسعود: كانوا تسعة، أحدهم زوبعة، أتوه من أصل نخلة.

وتقدم عنه أنهم كانوا خمسة عشر، وفى رواية: أنهم كانوا على ستين راحلة. وتقدم عنه أن اسم سيدهم وردان، وقيل: كانوا ثلاثمائة، وتقدم عن عكرمة أنهم كانوا اثنى عشر ألفا، فلعل هذا الاختلاف دليل على تكرر وفادتهم عليه صلوات الله وسلامه عليه، ومما يدل على ذلك ما قاله[(١)] البخارى فى صحيحه:

حدثنا يحيى بن سليمان، حدثنى ابن وهب، حدثنى عمر ـ هو ابن محمد ـ أن سالما حدثه، عن عبد الله بن عمر قال: ما سمعت عمر يقول لشىء قط: «إنى لأظنه كذا» إلا كان كما يظن، بينما عمر بن الخطاب جالس، إذ مر به رجل جميل، فقال: لقد أخطأ ظنى ـ أو: إن هذا على دينه فى الجاهلية ـ أو لقد كان كاهنهم ـ على بالرجل، فدعى له[(٢)]، فقال له ذلك، فقال: ما رأيت كاليوم استُقْبل له رجل مسلم. قال: فإنى أعزم عليك إلا ما أخبرتنى. قال: كنت كاهنهم فى الجاهلية. قال: فما أعجب ما جاءتك به جنيّتك. قال: بينما أنا يوما فى السوق جاءتنى أعرف فيها الفزع، فقالت:

ألم تَرْ الجنَّ وإبْلاسَهَا ويَأسَهْا من بعد إنْكَاسِها
ولحُوقَها بالقلاص وأَحْلاسها

قال عمر: صدق، بينما أنا نائم عند آلهتهم، إذ جاء رجل بعجل فذبحه، فصرخ به صارخ، لم أسمع صارخا قط أشد صوتا منه، يقول: يا جليح، أمر نجيح، رجل فصيح يقول: «لا إله إلا الله» فوثب[(٣)] القوم، فقلت: لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا؟ ثم نادى يا جليح، أمر نجيح، رجل فصيح يقول: «لا إله إلا الله». فقمت، فما نشبنا أن قيل: هذا نبى.

هذا سياق البخارى[(٤)]، وقد رواه البيهقى من حديث ابن وهب، بنحوه، ثم قال: «وظاهر هذه الرواية يوهم أن عمر بنفسه سمع الصارخ يصرخ من العجل الذى ذبح، وكذلك هو صريح[(٥)] فى رواية ضعيفة عن عمر فى إسلامه، وسائر الروايات تدل على أن هذا الكاهن هو الذى أخبر بذلك عن

(١) فى م: «ما رواه». (٢) فى ت، م، أ: «فدعى فجىء به له». (٣) فى م، أ: «قال: فوثب».
(٤) صحيح البخارى برقم (٣٨٦٦).
(٥) فى ت، م، أ: «صريحا» وهو خطأ.

www.Quranpdf.blogspot.in

رؤيته وسماعه، والله أعلم»[١].

وهذا الذى قاله البيهقى هو المتجه، وهذا الرجل هو سواد بن قارب، وقد ذكرت هذا[٢] مستقصى فى سيرة عمر، رضى الله عنه، فمن أراده فليأخذه من ثَمَّ، ولله الحمد [والمنة][٣].

قال البيهقى: «حديث سواد بن قارب، ويشبه أن يكون هذا هو الكاهن الذى لم يذكر اسمه فى الحديث الصحيح».

أخبرنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب المفسر من أصل سماعه، أخبرنا أبو عبد الله محمد ابن عبد الله الصفار الأصبهانى، قراءة عليه، حدثنا أبو جعفر أحمد بن موسى الحمار الكوفى بالكوفة، حدثنا زياد بن يزيد بن بادويه أبو بكر القصرى، حدثنا محمد بن النواس الكوفى، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن أبى إسحاق، عن البراء [رضى الله عنه][٤] قال: بينما عمر بن الخطاب يخطب الناس على منبر رسول الله ﷺ، إذ قال: أيها الناس، أفيكم سواد بن قارب؟ قال: فلم يجبه أحد تلك السنة، فلما كانت السنة المقبلة قال: أيها الناس، أفيكم سواد بن قارب؟ قال: فقلت: يا أمير المؤمنين، وما سواد بن قارب؟ قال: فقال له عمر: إن سواد بن قارب كان بَدءُ إسلامه شيئا عجيبا، قال: فبينا نحن كذلك إذ طلع سواد بن قارب، قال: فقال له عمر: يا سواد، حدثنا ببدء إسلامك، كيف كان؟ قال سواد: فإنى كنت نازلا بالهند، وكان لى رَئِيٌّ من الجن، قال: فبينا أنا ذات ليلة نائم، إذ جاءنى فى منامى ذلك. قال: قم فافهم واعقل إن كنت تعقل، قد بعث رسول من لؤى بن غالب، ثم أنشأ يقول:

عَجِبتُ للجنِّ وأنْجَاسِها[٥] ... وشدّها العيسَ بأحْلاسها
تَهْوى إلى مكةَ تَبْغى الهُدَى ... مَا مُؤمنو الجنِّ كَأرْجَاسها
فَانْهَض إلى الصَّفْوةِ من هَاشمٍ ... واسْمُ بعينَيْك إلى رَاسِهَا

قال: ثم أنبهنى فأفزعنى، وقال: يا سواد بن قارب، إن الله بعث نبياً فانهض إليه تهتد وترشد. فلما كان من الليلة الثانية أتانى فأنبهنى، ثم أنشأ يقول كذلك:

عَجِبتُ للجنِّ وتَطْلابها ... وَشَدها العِيسَ بأقْتَابِهَا
تَهْوى إلى مكّةَ تَبْغى الهُدَى ... ليسَ قُدامَاها كأذْنَابِها
فانهض إلى الصّفْوةِ من هَاشمٍ ... واسْمُ بعَيْنَيك إلى نَابِها[٦]

فلما كان فى الليلة الثالثة أتانى فأنبهنى، ثم قال:

عَجِبتُ للجنّ وتَخْبارها ... وَشَدَّها العيسَ بأكْوارِهَا
تَهْوى إلى مكَّةَ تَبْغِى الهُدَى ... لَيْسَ ذَوُو الشَّر كَأخْيَارِهَا
فَانْهَضْ إلى الصَّفْوةِ من هَاشمٍ ... مَا مُؤمِنو الجِنِّ كَكُفَّارِهَا

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى (٢/ ٢٤٥).
(٢) فى ت: «ذلك». (٣) زيادة من أ. (٤) زيادة من ت.
(٥) فى أ: «وأجناسها». (٦) فى أ: «يابها».

www.Quranpdf.blogspot.in

قال: فلما سمعته تكرر ليلة بعد ليلة، وقع فى قلبى حب الإسلام من أمر رسول الله ﷺ ما شاء الله، قال: فانطلقت إلى رحلى فشددته على راحلتى، فما حللت [عليه][١] نسعة ولا عقدت أخرى حتى أتيت رسول الله ﷺ، فإذا هو بالمدينة ـ يعنى مكة ـ والناس عليه كعرف الفرس، فلما رآنى النبى ﷺ قال: «مرحبا بك يا سواد بن قارب، قد علمنا ما جاء بك». قال: قلت: يا رسول الله، قد قلت شعرا، فاسمعه منى. قال سواد: فقلت:

أَتَانِى رئِىٌّ بعد لَيلٍ وهَجْعةٍ ... ولم يَكُ فيما قَدْ بَلوتُ بكَاذبِ
ثَلاثِ لَيَال قَولُه كُلَّ لَيْلَة: ... أتاك رسول[٢] من لُؤىّ بن غَالبِ
فَشَمَّرتُ عن سَاقى الإزَارَ ووسطت ... بى الدِّعلب الوَجْنَاءُ عند السَّبَاسبِ
فَأشْهَدُ أنّ اللهَ لا شَىء غَيْرهُ ... وأنّكَ مَأْمُونٌ عَلَى كُلِّ غَائبِ
وأنَّك أَدْنَى المُرْسَلِينَ شَفَاعَة ... إلى اللهِ يا ابنَ الأكرَمينَ الأَطايبِ
فَمُرنَا بمَا يَأتيْك يا خَيرَ مُرْسل[٣] ... وإنْ كَانَ فِيمَا جَاءَ شَيبُ الذّوَائبِ
وَكُنْ لى شَفِيْعا يَومَ لا ذُو شَفَاعةٍ ... سِوَاك بِمغْنٍ عن سَوَاد بن قَاربِ

قال: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، وقال لى: «أفلحت يا سواد»: فقال له عمر: هل يأتيك رئيك الآن؟ فقال: منذ قرأت القرآن لم يأتنى، ونعم العوض كتاب الله من الجن[٤].

ثم أسنده البيهقى من وجهين آخرين[٥]. ومما يدل على وفادتهم إليه، عليه السلام[٦]، بعد ما هاجر إلى المدينة، الحديث الذى رواه الحافظ أبو نعيم فى كتاب «دلائل النبوة» [فقال][٧]:

حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا محمد بن عبدة المصيصى، حدثنا أبو تَوْبَة الربيع بن نافع، حدثنا معاوية بن سلام، عن زيد بن أسلم: أنه سمع أبا سلام يقول: حدثنى من حدثه عمرو بن غيلان الثقفى قال: أتيت عبد الله بن مسعود فقلت له: حدثت أنك كنت مع رسول الله ﷺ ليلة وفد الجن؟ قال: أجل. قلت: حدثنى كيف كان شأنه؟ فقال: إن أهل الصفة أخذ كلَّ رجلٍ منهم رجل[٨] يعشيه، وتركت فلم يأخذنى أحد منهم، فمر بى رسول الله ﷺ فقال: «من هذا؟». فقلت: أنا ابن مسعود. فقال: «ما أخذك أحد يعشيك؟» فقلت: لا. قال: «فانطلق لعلى أجد لك شيئاً». قال: فانطلقنا حتى أتى حجرة أم سلمة فتركنى [٩] ودخل إلى أهله، ثم خرجت الجارية فقالت: يا ابن مسعود، إن رسول الله لم يجد لك عشاء، فارجع إلى مضجعك. قال: فرجعت إلى المسجد، فجمعت حصباء المسجد فتوسدته، والتفت بثوبى، فلم ألبث إلا قليلا حتى جاءت الجارية، فقالت:

(١) زيادة من أ. (٢) فى ت، م: «نبى». (٣) فى ت: «من مشى».
(٤) دلائل النبوة للبيهقى (١/ ٢٤٨).
(٥) دلائل النبوة للبيهقى (١/ ٢٥٢).
(٦) فى أ: «على الإسلام». (٧) زيادة من أ. (٨) فى ت، أ: «رجلاً» وهو خطأ.
(٩) فى أ: «فتركنى قائما».

www.Quranpdf.blogspot.in

أجب رسول الله [١]. فاتبعتها وأنا أرجو العشاء، حتى إذا بلغت مقامى، خرج رسول الله ﷺ وفى يده عسيب من نخل، فعرض به على صدرى فقال: «أتنطلق أنت معى[٢] حيث انطلقت؟» قلت: ما شاء الله. فأعادها على ثلاث مرات، كل ذلك أقول: ما شاء الله. فانطلق وانطلقت معه، حتى أتينا بقيع الغرقد، فخط بعصاه خطا، ثم قال: «اجلس فيها، ولا تبرح حتى آتيك». ثم انطلق يمشى وأنا أنظر إليه خلال النخل، حتى إذا كان من حيث لا أراه ثارت[٣] العَجَاجة السوداء، ففرقت فقلت: ألحق برسول الله ﷺ، فإنى أظن أن[٤] هوازن مكروا برسول الله ﷺ ليقتلوه، فأسعى إلى البيوت، فأستغيث الناس. فذكرت أن رسول الله ﷺ أوصانى: ألا أبرح مكانى الذى أنا فيه، فسمعت رسول الله ﷺ يقرعهم بعصاه ويقول: «اجلسوا». فجلسوا حتى كاد ينشق عمود الصبح، ثم ثاروا وذهبوا، فأتانى رسول الله ﷺ فقال: «أنمت بعدى؟» فقلت: لا [٥]، ولقد فزعت الفزعة الأولى،حتى رأيت أن آتى البيوت فأستغيث الناس حتى سمعتك تقرعهم بعصاك، وكنت أظنها هوازن، مكروا برسول الله ﷺ ليقتلوه. فقال: «لو أنك خرجت من هذه الحلقة ما آمنهم[٦] عليك أن يختطفك بعضهم، فهل رأيت من شىء منهم؟» فقلت: رأيت رجالا سودا مستشعرين[٧] بثياب بيض. فقال رسول الله ﷺ: «أولئك وفد جن نصيبين، أتونى فسألونى الزاد والمتاع،فمتعتهم بكل عظم حائل أو روثة أو بعرة». قلت: وما يغنى عنهم ذلك؟ قال: «إنهم لا يجدون عظما إلا وجدوا عليه لحمه الذى كان عليه يوم أكل، ولا روثة إلا وجدوا فيها حبها الذى كان فيها يوم أكلت، فلا يستنقى أحد منكم بعظم ولا بعرة[٨]»[٩].

وهذا إسناد غريب جداً[١٠]، ولكن فيه رجل مبهم لم يسم [والله أعلم][١١]، وقد روى الحافظ أبو نعيم من حديث بقية بن الوليد، حدثنى نمير بن زيد القنبر[١٢]، حدثنا أبى، حدثنا قحافة بن ربيعة، حدثنى الزبير بن العوام قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح فى مسجد المدينة، فلما انصرف قال: «أيكم يتبعنى إلى وفد الجن الليلة؟» فأسكت القوم ثلاثا، فمر بى فأخذ بيدى، فجعلت أمشى معه حتى حبست عنا جبال المدينة كلها، وأفضينا إلى أرض براز فإذا برجال طوال كأنهم الرماح، مستشعرين [١٣] بثيابهم من بين أرجلهم، فلما رأيتهم غشيتنى رعدة شديدة، ثم ذكر نحو حديث ابن مسعود المتقدم[١٤]، وهذا حديث غريب، والله أعلم.

ومما يتعلق بوفود الجن ما رواه الحافظ أبو نعيم: حدثنا أبو محمد بن حيان، حدثنا أبو الطيب أحمد بن روح، حدثنا يعقوب الدَّوْرَقى، حدثنا الوليد بن بكير التميمى، حدثنا حصين بن عمر[١٥]،

---

(١) فى ت: «رسول الله ﷺ».
(٢) فى ت، م: «انطلق معى»، وفى أ: «انطلق أنت معى».
(٣) فى ت، م، أ: «ثارت مثل العجاجة».
(٤) فى ت، م، أ: «هذه».
(٥) فى أ: «لا والله».
(٦) فى ت، م: «ما أمنت»، وفى أ: «ما آمن».
(٧) فى ت، أ: «مستثفرين».
(٨) فى ت: «ولا روثة».
(٩) لم أجده فى دلائل النبوة المطبوعة لأبى نعيم.
(١٠) فى ت، أ: «وهذا سياق غريب».
(١١) زيادة من ت، أ.
(١٢) فى ت، أ: «حدثنى بهز بن يزيد الليثى».
(١٣) فى ت، أ: «مستثفرين».
(١٤) لم أجده فى دلائل النبوة المطبوعة لأبى نعيم.
(١٥) فى م: «عمير».

www.Quranpdf.blogspot.in

أخبرنى عبيد المُكتب، عن إبراهيم قال: خرج نفر من أصحاب عبد الله[(١)] يريدون الحج، حتى إذا كانوا فى بعض الطريق، إذا هم بحية تنثنى [(٢)]على الطريق أبيض، ينفخ منه ريح المسك، فقلت لأصحابى: امضوا، فلست ببارح حتى أنظر إلى ما يصير إليه أمر هذه الحية. قال: فما لبثت أن ماتت، فعمدت إلى خرقة بيضاء فلففتها فيها، ثم نحيتها عن الطريق فدفنتها، وأدركت أصحابى فى المتعشى. قال: فوالله إنا لقعود إذ أقبل[(٣)] أربع نسوة من قبل المغرب، فقالت واحدة منهن: أيكم دفن عمراً؟ قلنا: ومن عمرو، قالت: أيكم دفن الحية؟ قال: قلت: أنا. قالت: أما والله لقد دفنت صواما قواما، يأمر بما أنزل الله، ولقد آمن بنبيكم، وسمع صفته من [(٤)] السماء قبل أن يبعث بأربعمائة عام. قال الرجل فحمدنا[(٥)] الله، ثم قضينا حجتنا[(٦)]، ثم مررت بعمر بن الخطاب فى المدينة فأنبأته بأمر الحية، فقال: صدقت، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لقد آمن بى قبل أن أبعث بأربعمائة سنة»[(٧)].

وهذا حديث غريب جدا، والله أعلم.

قال أبو نعيم: وقد روى الثورى، عن أبى إسحاق، عن الشعبى، عن رجل من ثقيف، بنحوه. وروى عبد الله بن أحمد والطِّهرانى، عن صفوان بن المعطل ـ هو الذى نزل ودفن تلك الحية من بين الصحابة ـ وأنهم قالوا: أما إنه آخر التسعة موتا الذين أتوا رسول الله ﷺ يستمعون القرآن[(٨)].

وروى أبو نعيم من حديث الليث بن سعد، عن عبد العزيز بن أبى سلمة الماجِشُون، عن عمه[(٩)]، عن معاذ بن عُبَيْد الله[(١٠)] بن معمر قال: كنت جالسا عند عثمان بن عفان، فجاء رجل فقال: يا أمير المؤمنين، إنى كنت بفلاة من الأرض، فذكر أنه رأى ثعبانين[(١١)] اقتتلا ثم قتل أحدهما الآخر، قال: فذهبت إلى المعترك، فوجدت حيات كثيرة مقتولة، وإذا ينفح من بعضها ريح المسك، فجعلت أشمُّها واحدة واحدة، حتى وجدت ذلك من حية صفراء رقيقة، فلففتها فى عمامتى ودفنتها. فبينا أنا أمشى إذ نادانى[(١٢)] مناد: يا عبد الله، لقد هُدِيتَ! هذان حيان[(١٣)] من الجن بنو أشعيبان وبنو أقيش التقوا، فكان من القتلى ما رأيت، واستشهد الذى دفنته، وكان من الذين سمعوا الوحى من رسول الله ﷺ. قال: فقال عثمان لذلك الرجل: إن كنت صادقا فقد رأيت عجبا، وإن كنت كاذبا فعليك كذبك[(١٤)].

فقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ أى: طائفة من الجن، ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا

(١) فى م: «عبيد الله». (٢) فى أ: «تمشى». (٣) فى ت، م: «جاء».
(٤) فى ت: «فى». (٥) فى أ: «فحمدت». (٦) فى ت، م، أ: «حجنا».
(٧) دلائل النبوة لأبى نعيم (ص٣٠٦).
(٨) لم أجده فى دلائل النبوة المطبوعة لأبى نعيم. (٩) فى ت: «وروى أبو نعيم بإسناده».
(١٠) فى ت، م، أ: «عبد الله». (١١) فى ت، أ، م: «إعصارين».
(١٢) فى أ: «هذا جان». (١٣) فى ت، م: «نادى».
(١٤) دلائل النبوة لأبى نعيم (ص٣٠٥).

www.Quranpdf.blogspot.in

حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ﴾ أى: استمعوا(١) وهذا أدب منهم.

وقد قال الحافظ البيهقى: حدثنا الإمام أبو الطيب سهل بن محمد بن سليمان، أخبرنا أبو الحسن محمد بن عبد الله الدقاق، حدثنا محمد بن إبراهيم البُوشَنْجى، حدثنا هِشام بن عمار الدمشقى، حدثنا الوليد بن مسلم، عن زهير بن محمد، عن محمد بن المُنْكَدِر، عن جابر بن عبد الله قال: قرأ رسول الله ﷺ سورة «الرحمن» حتى ختمها، ثم قال: «ما لى أراكم سكوتا، لَلْجنّ كانوا أحسن منكم رداً، ما قرأت عليهم هذه الآية من مرة: ﴿**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**﴾ إلا قالوا: ولا بشىء من آلائك ـ أو نعمك ـ ربنا نكذب، فلك الحمد».

ورواه الترمذى فى التفسير، عن أبى مسلم عبد الرحمن بن واقد، عن الوليد بن مسلم، به(٢). قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه، فقرأ عليهم سورة الرحمن، فذكره، ثم قال الترمذى: «غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد، عن زهير» كذا قال. وقد رواه البيهقى من حديث مروان بن محمد الطاطرى، عن زهير بن محمد، به مثله(٣) (٤).

وقوله: ﴿**فَلَمَّا قُضِيَ**﴾ أى: فرغ. كقوله: ﴿**فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ**﴾[الجمعة: ١٠]، ﴿**فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ**﴾ [فصلت: ١٢]، ﴿ **فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ** ﴾ [البقرة: ٢٠٠] ﴿**وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ**﴾ أى: رجعوا إلى قومهم فأنذروهم ما سمعوه من رسول الله ﷺ، كقوله: ﴿**لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**﴾ [التوبة: ١٢٢].

وقد استدل بهذه الآية على أنه فى الجن نُذُرٌ، وليس فيهم رسل: ولا شك أن الجن لم يبعث الله منهم رسولا؛ لقوله: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ**﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقال: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ**﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقال عن إبراهيم الخليل: ﴿**وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ**﴾ [العنكبوت: ٢٧].

فكل نبى بعثه الله بعد إبراهيم فمن ذريته وسلالته، فأما قوله تعالى فى [سورة](٥) الأنعام: ﴿**يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ**﴾ [الأنعام: ١٣٠]، فالمراد من مجموع الجنسين، فيصدق على أحدهما وهو الإنس، كقوله: ﴿**يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ**﴾ [الرحمن: ٢٢] أى: أحدهما. ثم إنه تعالى فسر إنذار الجن لقومهم فقال مخبراً عنهم: ﴿**قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ [مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ]**(٦)﴾، ولم يذكروا عيسى؛ لأن عيسى، عليه السلام، أنزل عليه الإنجيل فيه مواعظ وترقيقات وقليل من التحليل والتحريم، وهو فى الحقيقة كالمتمم لشريعة التوراة، فالعمدة هو التوراة؛ فلهذا قالوا: أنزل من بعد موسى. وهكذا قال ورقة بن نوفل، حين أخبره النبى

(١) فى ت، م: «استمعوه».
(٢) دلائل النبوة للبيهقى (١/ ٢٣٢) ،وسنن الترمذى برقم (٣٢٩١).
(٣) فى ت: «بمعناه».
(٤) دلائل النبوة للبيهقى (١/ ٢٣٢).
(٥) زيادة من ت. (٦) زيادة من أ.

www.Quranpdf.blogspot.in

ﷺ بقصة نزول جبريل [عليه السلام][(١)] عليه أول مرة، فقال: بَخ بَخ، هذا الناموس الذى كان يأتى موسى، يا ليتنى أكون فيها جَذَعاً.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أى: من الكتب المنزلة قبله على الأنبياء. وقولهم: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ أى: فى الاعتقاد والإخبار، ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: فى الأعمال، فإن القرآن يشتمل على شيئين[(٢)] خبر وطلب[(٣)]، فخبره صدق، وطلبه عدل، كما قال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣]، فالهدى هو: العلم النافع، ودين الحق: هو العمل الصالح. وهكذا قالت الجن: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ فى الاعتقادات، ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أى: فى العمليات.

﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾: فيه دلالة على أنه تعالى أرسل محمدًا صلوات الله وسلامه عليه[(٤)] إلى الثقلين الإنس والجن حيث دعاهم إلى الله، وقرأ عليهم السورة التى فيها خطاب الفريقين، وتكليفهم ووعدهم ووعيدهم، وهى سورة الرحمن؛ ولهذا قال[(٥)]: ﴿أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ﴾.

وقوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾: قيل: إن «من» هاهنا زائدة، وفيه نظر؛ لأن زيادتها فى الإثبات قليل. وقيل: إنها على بابها للتبعيض، ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أى: ويقيكم من عذابه الأليم.

وقد استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الجن المؤمنين لا يدخلون الجنة، وإنما جزاء صالحيهم أن يجاروا من عذاب النار يوم القيامة؛ ولهذا قالوا هذا فى هذا المقام، وهو مقام تبجح ومبالغة، فلو كان لهم جزاء على الإيمان أعلى من هذا لأوشك أن يذكروه.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، قال: حُدثت عن جرير، عن ليث، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: لا يدخل مؤمنو الجن الجنة؛ لأنهم من ذرية إبليس، ولا تدخل ذرية إبليس الجنة.

والحق أن مؤمنَهم كمؤمنى الإنس يدخلون الجنة، كما هو مذهب جماعة [(٦)] من السلف، وقد استدل بعضهم لهذا بقوله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٧٤]، وفى هذا الاستدلال نظر، وأحسن منه قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ. فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦، ٤٧]، فقد امتن تعالى على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجنة، وقد قابلت الجنّ هذه الآية بالشكر القولى أبلغ من الإنس، فقالوا: «ولا بشَىء من آلائك ربنا نكذبْ، فلك الحمد» فلم يكن تعالى ليمتنّ عليهم بجزاء لا يحصل لهم، وأيضا فإنه إذا كان يجازى كافرهم بالنار ـ وهو مقام عدل ـ فَلأنْ يجازى مؤمنهم بالجنة ـ وهو مقام فَضْل ـ بطريق الأولى والأحرى. ومما يدل أيضا على ذلك عمومُ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧]، وما

---

(١) زيادة من أ. (٢) فى ت: «نوعين». (٣) فى أ: «خبرًا وطلبًا».
(٤) فى ت: «ﷺ». (٥) فى م: «قالوا». (٦) فى ت، أ: «طائفة».

www.Quranpdf.blogspot.in

أشبه ذلك من الآيات. وقد أفردت هذه المسألة فى جزء على حدة، ولله الحمد والمنة. وهذه الجنة لا يزال فيها فضل حتى ينشئ الله لها خلقا، أفلا يسكنها من آمن به وعمل له صالحا؟ وما ذكروه هاهنا من الجزاء على الإيمان من تكفير الذنوب والإجارة من العذاب الأليم، هو يستلزم دخول الجنة؛ لأنه ليس فى الآخرة إلا الجنة أو النار، فمن أجير من النار دخل الجنة لا محالة. ولم يرد معنا نص صريح ولا ظاهر عن[1] الشارع أن مؤمنى الجن لا يدخلون الجنة وإن أجيروا من النار، ولو صح لقلنا به، والله أعلم. وهذا نوح، عليه السلام، يقول لقومه: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ[2] إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [نوح: ٤]، ولا خلاف أن مؤمنى قومه فى الجنة، فكذلك هؤلاء. وقد حكى فيهم أقوال غريبة فعن عُمَر بن عبد العزيز: أنهم لا يدخلون بُحْبُوحَةَ الجنة، وإنما يكونون فى رَبَضها وحولها وفى أرجائها. ومن الناس من زعم أنهم فى الجنة يراهم بنو آدم ولا يرون هم بنى آدم عكس ما كانوا عليه فى الدار الدنيا. ومن الناس من قال: لا يأكلون فى الجنة ولا يشربون، وإنما يلهمون التسبيح والتحميد والتقديس، عِوَضاً عن الطعام والشراب كالملائكة، لأنهم من جنسهم. وكل هذه الأقوال فيها نظر، ولا دليل عليها.

ثم قال مخبرا عنه: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أى: بل قدرة الله شاملة له ومحيطة به، ﴿وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾ أى: لا يجيرهم منه أحدٌ ﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وهذا مقامُ تهديد وترهيب، فَدَعَوا قومهم بالترغيب والترهيب؛ ولهذا نجع فى كثير منهم، وجاؤوا إلى رسول الله ﷺ وفودا وفودا، كما تقدم بيانه.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥)﴾ .

يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أى: هؤلاء المنكرون للبعث يوم القيامة، المستبعدون لقيام الأجساد يوم المعاد ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ أى: ولم يكرثهُ خَلْقُهن، بل قال لها: «كونى» فكانت، بلا ممانعة ولا مخالفة، بل طائعة مجيبة خائفة وجلة، أفليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى؟ كما قال فى الآية الأخرى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧] ،ولهذا قال: ﴿بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

---

(١) فى أ: «من».

(٢) فى ت، أ: «ويجركم» وهو خطأ.

www.Quranpdf.blogspot.in

ثم قال متهددا ومتوعدا لمن كفر به: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ أى: يقال لهم: أما هذا حق؟ أفسحر هذا؟ أم أنتم لا تبصرون؟ ﴿قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا﴾ أى: لا يسعهم إلا الاعتراف، ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، ثم قال تعالى آمراً رسوله[١] بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه، ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ أى: على تكذيب قومهم لهم. وقد اختلفوا فى تعداد أولى العزم على أقوال، وأشهرها أنهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وخاتم الأنبياء كلهم محمد ﷺ، قد نص الله على أسمائهم من بين الأنبياء فى آيتين من[٢] سُورَتَى «الأحزاب» و«الشورى»، وقد يحتمل أن يكون المراد بأولى العزم جميع الرّسُل، وتكون ﴿مِنَ﴾ فى قوله: ﴿مِنَ الرُّسُلِ﴾ لبيان الجنس، والله أعلم. وقد قال ابن أبى حاتم:

حدثنا محمد بن الحجاج الحضرمى، حدثنا السرى بن حَيَّان، حدثنا عباد بن عباد، حدثنا مجالد ابن سعيد، عن الشعبى، عن مسروق قال: قالت لى عائشة [رضى الله عنها][٣]: ظل رسول الله ﷺ صائما ثم طواه، ثم ظل صائما ثم طواه، ثم ظل صائما، [ثم][٤] قال: «يا عائشة، إن الدنيا لا تنبغى لمحمد ولا لآل محمد. يا عائشة، إن الله لم يرض من أولى العزم من الرسل إلا بالصبر على مكروهها والصبر عن محبوبها، ثم لم يرض منى إلا أن يكلفنى ما كلفهم، فقال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ وإنى ـ والله ـ لأصبرن كما صبروا جَهدى، ولا قوة إلا بالله»[٥].

﴿وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ أى: لا تستعجل لهم حلول العقوبة بهم، كقوله: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً﴾ [المزمل: ١١]، وكقوله: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق: ١٧].

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾، كقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٦]، وكقوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [يونس: ٤٥]، [وحاصل ذلك أنهم استقصروا مدة لبثهم فى الدنيا وفى البرزخ حين عاينوا يوم القيامة وشدائدها وطولها][٦]

وقوله: ﴿بَلاغٌ﴾: قال ابن جرير: يحتمل معنيين، أحدهما: أن يكون تقديره: وذلك لبَثَ بلاغ. والآخر: أن يكون تقديره: هذا القرآن بلاغ.

وقوله: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أى: لا يهلك على الله إلا هالك، وهذا من عدله تعالى أنه لا يعذب إلا من يستحق العذاب.

آخر تفسير سورة الأحقاف

(١) فى ت: «لرسوله». (٢) فى ت: «فى». (٣) زيادة من ت.
(٤) زيادة من ت، م، أ.
(٥) ورواه الديلمى فى مسند الفردوس برقم (٨٦٢٨) «مكرر» من طريق محمد بن حجاج الحضرمى به.
(٦) زيادة من ت، أ.

www.Quranpdf.blogspot.in

تفسير سورة القتال

[وهى مدنية][(١)] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٣)﴾ .

يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: بآيات الله، ﴿وَصَدُّوا﴾ غيرهم ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أى: أبطلها وأذهبها، ولم يجعل لها جزاء ولا ثوابا، كقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى: آمنت قلوبهم وسرائرهم، وانقادت جوارحهم وبواطنهم وظواهرهم، ﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾، عطف خاص على عام، وهو دليل على أنه شرط فى صحة الإيمان بعد بعثته صلوات الله وسلامه عليه.

وقوله: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ جملة معترضة حسنة؛ ولهذا قال: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ قال ابن عباس: أى أمرهم. وقال مجاهد: شأنهم. وقال قتادة وابن زيد: حالهم. والكل متقارب. وقد جاء فى حديث تشميت العاطس: «يهديكم الله، ويصلح بالكم»[(٢)].

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾ أى: إنما أبطلنا أعمال الكفار، وتجاوزنا عن سيئات الأبرار، وأصلحنا شؤونهم؛ لأن الذين كفروا اتبعوا الباطل، أى: اختاروا الباطل على الحق، ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ أى: يبين لهم مآل أعمالهم، وما يصيرون إليه فى معادهم.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم

---

(١) زيادة من ت، م، أ.

(٢) رواه أبو داود فى السنن برقم (٥٠٣٨)، والترمذى فى السنن برقم (٢٧٣٩)، وابن ماجه فى السنن برقم (٣٧١٥)، وقال الترمذى: «هذا حديث حسن صحيح».

www.Quranpdf.blogspot.in

بَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾ ﴾.

يقول تعالى مرشدا للمؤمنين إلى ما يعتمدونه فى حروبهم مع المشركين: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ أى: إذا واجهتموهم فاحصدوهم حصدا بالسيوف، ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا﴾ أى: أهلكتموهم قتلا ﴿فَشُدُّوا﴾ [وثاق][1] الأسارى الذين تأسرونهم، ثم أنتم بعد انقضاء الحرب وانفصال المعركة مخيرون فى أمرهم، إن شئتم مننتم عليهم فأطلقتم أساراهم مجانا، وإن شئتم فاديتموهم بمال تأخذونه منهم وتشارطونهم عليه. والظاهر أن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر، فإن الله، سبحانه، عاتب المؤمنين على الاستكثار من الأسارى يومئذ ليأخذوا منهم الفداء، والتقلّل من القتل يومئذ فقال: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ[2] لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧، ٦٨].

ثم قد ادعى بعض العلماء أن هذه الآية ـ المخيرة بين مفاداة الأسير والمن عليه ـ منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ [وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ][3]﴾الآية [التوبة: ٥]، رواه العوفى عن ابن عباس. وقاله قتادة، والضحاك، والسدى، وابن جُرَيْج.

وقال الآخرون ـ وهم الأكثرون ـ: ليست منسوخة.

ثم قال بعضهم: إنما الإمام مُخَيَّر بين المن على الأسير ومفاداته فقط، ولا يجوز له قتله.

وقال آخرون منهم: بل له أن يقتله إن شاء، لحديث قتل النبى ﷺ النضر بن الحارث وعقبة بن أبى مُعَيط من أسارى بدر، وقال ثمامة بن أثال لرسول الله ﷺ حين قال له: «ما عندك يا ثمامة؟» فقال: إن تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذا دَمٍ، وإن تمنن تمنن على شاكر، وإن كنت تريد المال فَسَلْ تعطَ منه ما شئت[4].

وزاد الشافعى، رحمه الله، فقال: الإمام مخير بين قتله أو المن عليه، أو مفاداته أو استرقاقه أيضا. وهذه المسألة مُحَرَّرة فى علم الفروع، وقد دللنا على ذلك فى كتابنا «الأحكام»، ولله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾: قال مجاهد: حتى ينزل عيسى ابن مريم [عليه

(١) زيادة من ت، أ. (٢) فى ت، م: «تكون». (٣) زيادة من أ.
(٤) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٣٧٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

www.Quranpdf.blogspot.in

السلام][١]. وكأنه أخذه من قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق حتى يقاتل آخرهم الدجال»[٢].

وقال الإمام أحمد: حدثنا الحكم بن نافع، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن إبراهيم بن سليمان، عن الوليد بن عبد الرحمن الجُرَشى[٣]، عن جُبَير بن نُفَير؛ أن سلمة بن نُفَيل أخبرهم: أنه أتى رسول الله ﷺ فقال: إنِّى سَيَّبْتُ الخيل، وألقيت السلاح، ووضعت الحرب أوزارها، وقلت: «لا قتال» فقال له النبى ﷺ: «الآن جاء القتال، لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الناس يُزيغ[٤] الله قلوب أقوام فيقاتلونهم: ويرزقهم الله[٥] منهم، حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك. ألا إن عُقْرَ دار المؤمنين الشام، والخيلُ معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة».

وهكذا رواه النسائى من طريقين، عن جُبَيْر بن نُفَير، عن سلمة بن نُفَيْل السكونى، به[٦].

وقال أبو القاسم البغوى: حدثنا داود بن رُشَيْد، حدثنا الوليد بن مسلم، عن محمد بن مهاجر عن الوليد بن عبد الرحمن الجُرَشى، عن جبير بن نُفَير، عن النواس بن سمعان قال: لما فتح على رسول الله ﷺ فَتْح فقالوا: يا رسول الله، سيبت الخيل، ووضعت السلاح، ووضعت الحرب أوزارها، قالوا: لا قتال، قال: «كذبوا، الآن، جاء القتال، لا يزال الله يُرَفِّع[٧] قلوب قوم يقاتلونهم، فيرزقهم منهم، حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك، وعُقْر دار المسلمين بالشام».

وهكذا رواه الحافظ أبو يعلى الموصلى عن داود بن رُشَيْد، به[٨]. والمحفوظ أنه من رواية سلمة ابن نُفَيْل كما تقدم. وهذا يقوى القول بعدم النسخ، كأنه شرع هذا الحكم فى الحرب إلى ألاّ يبقى حرب.

وقال قتادة: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾: حتى لا يبقى شرك. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾[البقرة: ١٩٣]. ثم قال بعضهم: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أى: أوزار المحاربين، وهم المشركون، بأن يتوبوا إلى الله عز وجل. وقيل: أوزار أهلها[٩] بأن يبذلوا الوسع فى طاعة الله، عز وجل.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ أى: هذا ولو شاء الله لانتقم من الكافرين بعقوبة ونكَال من عنده، ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ أى: ولكن شرع لكم الجهاد وقتال الأعداء ليختبركم، ويبلو أخباركم. كما ذكر حكمته فى شرعية الجهاد فى سورتى «آل عمران» و«براءة» فى قوله: ﴿أَمْ

---

(١) زيادة من ت.

(٢) رواه أبو داود فى السنن برقم (٢٤٨٤) من حديث عمران بن حصين رضى الله عنه.

(٣) فى ت: «وروى الإمام أحمد بإسناده». (٤) فى أ: «يرفع». (٥) فى أ: «قاتلونهم ويرزقه الله».

(٦) المسند (٤/ ١٠٤) وسنن النسائى (٦/ ٢١٤).

(٧) فى أ: «يرفع».

(٨) ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (١٦١٧) «موارد» من طريق أبى يعلى عن داود بن رشيد به، ورواه النسائى فى السنن (٦/ ٢١٤) من طريق إبراهيم بن أبى عبلة، عن الوليد بن عبد الرحمن الجرشى، عن جبير بن نفير عن سلمة بن نفيل مرفوعًا بنحوه.

(٩) فى ت، أ: «وقيل: أوزارها».

www.Quranpdf.blogspot.in

حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

وقال فى سورة براءة: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ . وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥].

ثم لما كان من شأن القتال أن يُقتل كثيرٌ من المؤمنين، قال: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أى: لن يذهبها بل يكثرها وينميها ويضاعفها. ومنهم من يجرى عليه عمله فى طول بَرْزَخه، كما ورد بذلك الحديث الذى رواه الإمام أحمد فى مسنده، حيث قال:

حدثنا زيد بن يحيى الدمشقى، حدثنا ابن ثَوْبان، عن أبيه، عن مكحول، عن كثير بن مُرّة(١)، عن قيس الجذامى ـ رجل كانت له صحبة ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «يعطى الشهيد ست خصال عند أول قطرة من دمه: يُكَفَّر عنه كل خطيئة، ويرى مقعده من الجنة، ويزوج من الحور العين، ويُؤَمَّن من الفزع الأكبر، ومن عذاب القبر، ويحلى حُلَّة(٢) الإيمان»(٣). تفرد(٤) به أحمد، رحمه الله.

حديث آخر: قال أحمد(٥) أيضا: حدثنا الحكم بن نافع، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن بَحِير(٦) ابن سعيد، عن خالد بن مَعْدان، عن المقدام بن معد يكرب الكندى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن للشهيد عند الله ست خصال: أن يغفر له فى أول دَفْعَة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويحلى حُلَّة(٧) الإيمان، ويزوج من الحور العين، ويجار من عذاب القبر، ويَأمَن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويُشَفَّع فى سبعين إنسانا من أقاربه».

وقد أخرجه الترمذى وصححه ابن ماجه(٨).

وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عَمْرو، وعن أبى قتادة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «يُغفر للشهيد كل شىء إلا الدَّيْن»(٩) .وروى من حديث جماعة من الصحابة، وقال أبو الدرداء: قال رسول الله ﷺ: «يشفع الشهيد فى سبعين من أهل بيته». ورواه أبو داود(١٠) .والأحاديث فى فضل الشهيد(١١) كثيرة جدا.

وقوله: ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ أى: إلى الجنة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [يونس: ٩].

---

(١) فى ت: «أحمد بإسناده». (٢) فى أ: «بحلة».
(٣) المسند (٤/ ٢٠٠) قال الهيثمى فى المجمع (٥/ ٢٩٣): «فيه عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان، وثقه أبو حاتم وجماعة وضعفه جماعة».
(٤) فى ت: «انفرد». (٥) فى ت: «وروى أحمد». (٦) فى م، أ: «يحيى».
(٧) فى ت، م، أ: «حلية».
(٨) المسند (٤/ ١٣١) ،وسنن الترمذى برقم (١٦٦٣) ،وسنن ابن ماجه برقم (٢٧٩٩).
(٩) صحيح مسلم برقم (١٨٨٦).
(١٠) سنن أبى داود برقم (٢٥٢٢).
(١١) فى ت، م: «الشهداء».

www.Quranpdf.blogspot.in

وقوله: ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ أى: أمرهم وحالهم، ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ أى: عرفهم بها وهداهم إليها.

قال مجاهد: يهتدى أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم، وحيث قسم الله لهم منها، لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا، لا يستدلون عليها أحدا. وروى مالك عن ابن زيد بن أسلم نحو هذا.

وقال محمد بن كعب: يعرفون بيوتهم إذا دخلوا الجنة، كما تعرفون بيوتكم إذا انصرفتم من الجمعة.

وقال مقاتل بن حَيَّان: بلغنا أن الملك الذى كان وُكِل بحفظ عمله فى الدنيا يمشى بين يديه فى الجنة، ويتبعه ابن آدم حتى يأتى أقصى منزل هو له، فيعرّفه كلّ شىء أعطاه الله فى الجنة، فإذا انتهى إلى أقصى منزله فى الجنة دخل [إلى][١] منزله وأزواجه، وانصرف الملك عنه، ذكرهن[٢] ابن أبى حاتم، رحمه الله.

وقد ورد الحديث الصحيح بذلك أيضا، رواه البخارى من حديث قتادة، عن أبى المتوكل الناجى، عن أبى سعيد الخدرى [رضى الله عنه][٣]؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار، يتقاصّون مظالم كانت بينهم فى الدنيا، حتى إذا هُذّبوا ونقوا أذن لهم فى دخول الجنة، والذى نفسى بيده، إن أحدهم بمنزله فى الجنة أهدى منه بمنزله كان فى الدنيا»[٤].

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾، كقوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠]، فإن الجزاء من جنس العمل؛ ولهذا قال: ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾، كما جاء فى الحديث: «من بَلَّغ ذا سلطان حاجة مَنْ لا يستطيع إبلاغها، ثبت الله قدمه على الصراط يوم القيامة».

ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾، عكس تثبيت الأقدام للمؤمنين الناصرين لله ولرسوله ﷺ. وقد ثبت فى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «تَعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد القَطيفة ـ [وفى رواية: تعس عبد الخميصة][٥] ـ تعس وانتكس، وإذا شيكَ فلا انتقش»، أى: فلا شفاه الله.

وقوله: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أى: أحبطها وأبطلها؛ ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ أى: لا يريدونه ولا يحبونه، ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ

(١) زيادة من ت، م، أ. (٢) فى ت: «ذكر هذا». (٣) زيادة من ت.
(٤) صحيح البخارى برقم (٦٥٣٥).
(٥) زيادة من ت، أ.

www.Quranpdf.blogspot.in

وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾ .

يقول تعالى: ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا**﴾ يعنى: المشركين بالله المكذبين لرسوله ﴿**فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ**﴾ أى: عاقبهم بتكذيبهم وكفرهم، أى: ونجى المؤمنين من بين أظهرهم؛ ولهذا قال: ﴿**وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا**﴾، ثم قال: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ**﴾، ولهذا قال أبو سفيان صخرُ بن حرب رئيس المشركين يوم أحد حين سأل عن النبى ﷺ، وعن أبى بكر وعمر فلم يجب، وقال: أما هؤلاء فقد هلكوا، وأجابه عمر بن الخطاب فقال: كذبت يا عدو الله، بل أبقى الله لك ما يسوؤك، وإن الذين عَدَدت لأحياء [كلهم][1]. فقال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، أما إنكم ستجدون مُثْلَةً لم آمر بها ولم تسؤنى، ثم ذهب يرتجز ويقول: اعل هُبَل، اعل هُبَل. فقال رسول الله ﷺ: «ألا تجيبوه؟» قالوا: يا رسول الله، وما نقول؟ قال: «قولوا: الله أعلى وأجلّ» ثم قال أبو سفيان: لنا العزى، ولا عُزّى لكم. فقال: «ألا تجيبوه؟» قالوا: وما نقول يا رسول الله؟ قال: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم»[2].

ثم قال [تعالى][3]: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ**﴾ أى: يوم القيامة، ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ**﴾ أى: فى دنياهم، يتمتعون بها ويأكلون منها كأكل الأنعام، خَضْما وقضما ليس لهم همة إلا فى ذلك. ولهذا ثبت فى الصحيح: «المؤمن يأكل فى معىً واحد، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء»[4].

ثم قال: ﴿**وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ**﴾ أى: يوم جزائهم.

وقوله: ﴿**وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ**﴾ يعنى: مكة، ﴿**أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ**﴾، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لأهل مكة، فى تكذيبهم لرسول الله ﷺ، وهو سيد المرسلين[5] وخاتم الأنبياء، فإذا كان الله، عز وجل، قد أهلك الأمم الذين كذبوا الرسل قبله، بسببهم، وقد كانوا أشد قوة من هؤلاء، فماذا ظن هؤلاء أن يفعل الله بهم فى الدنيا والأخرى؟ فإن رفع عن كثير منهم العقوبة فى الدنيا لبركة وجود الرسول نبى الرحمة، فإن العذاب يوفر على

(١) زيادة من أ.
(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٠٤٣) من حديث البراء رضى الله عنه.
(٣) زيادة من أ.
(٤) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٣٩٣) ، ومسلم فى صحيحه برقم (٢٠٦٠) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما.
(٥) فى ت: «الرسل».

www.Quranpdf.blogspot.in

الكافرين به فى معادهم، ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠].

وقوله: ﴿مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ أى: الذين أخرجوك من بين أظهرهم.

وقال ابن أبى حاتم: ذكر أبى، عن محمد بن عبد الأعلى، عن المعتمر بن سليمان، عن أبيه، عن حَنَش[١]، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن النبى[٢] ﷺ لما خرج من مكة إلى الغار أراه قال: التفت[٣] إلى مكة ـ وقال: «أنت أحب بلاد الله إلى الله، وأنت أحبّ بلاد الله إلىّ، ولو أن المشركين لم يخرجونى لم أخرج منك»[٤]. فأعدى الأعداء من عدَا على الله فى حرمه، أو قتل غير قاتله، أو قتل بذُحُول الجاهلية، فأنزل الله على نبيه ﷺ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ﴾

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٤) مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥)﴾.

يقول: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ أى: على بصيرة ويقين فى أمر الله ودينه، بما أنزل الله فى كتابه من الهدى والعلم، وبما جَبَله الله عليه من الفطرة المستقيمة، ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم﴾ أى: ليس هذا، كهذا كقوله: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾ [الرعد: ١٩]، وكقوله: ﴿لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠].

ثم قال: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ :قال عكرمة: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ أى: نعتها[٥]: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ قال ابن عباس، والحسن، وقتادة: يعنى غير متغير. وقال قتادة، والضحاك، وعطاء الخراسانى: غير منتن. والعرب تقول: أسِنَ الماء، إذا تَغَيَّر ريحه.

وفى حديث مرفوع أورده ابن أبى حاتم: ﴿غَيْرِ آسِنٍ﴾ يعنى: الصافى الذى لا كَدَر فيه.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا وَكِيع، عن الأعمش، عن عبد الله بن مُرَّة[٦]، عن مسروق قال: قال عبد الله: أنهار الجنة تُفَجَّر من جبل من مسك.

---

(١) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بسنده». (٢) فى ت: «أن رسول الله». (٣) فى ت، م: «وداراه».
(٤) ورواه الطبرى فى تفسيره (٢٦/ ٣١).
(٥) فى ت، م، أ: «نعيمها». (٦) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بسنده».

www.Quranpdf.blogspot.in

﴿ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ أى: بل فى غاية البياض والحلاوة والدسومة. وفى حديث مرفوع: «لم يخرج من ضُرُوع الماشية».

﴿ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾ أى: ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر الدنيا، بل [هى][1] حسنة المنظر والطعم والرائحة والفعل، ﴿ لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٧]، ﴿ لا يُصَدَّعُونَ عَنهَا وَلاَ يُنْزِفُونَ﴾ [الواقعة: ١٩]، ﴿ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴾ [الصافات: ٤٦]، وفى حديث مرفوع: «لم تعصرها الرجال بأقدامها».

[قوله][2]: ﴿ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ أى: وهو فى غاية الصفاء، وحسن اللون والطعم والريح، وفى حديث مرفوع: «لم يخرج من بطون النحل».

وقال[3] الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا الجُرَيرى، عن حكيم بن معاوية، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «فى الجنة بحر اللبن، وبحر الماء، وبحر العسل، وبحر الخمر، ثم تشقق الأنهار منها بعد».

ورواه الترمذى فى «صفة الجنة»، عن محمد بن بَشار، عن يزيد بن هارون، عن سعيد بن إياس الجَريرى، به[4]. وقال: حسن صحيح.

وقال أبو بكر بن مردويه[5]: حدثنا أحمد بن محمد بن عاصم، حدثنا عبد الله بن محمد بن النعمان، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا الحارث بن عبيد أبو قدامة الإيادى، حدثنا أبو عمران الجَوْنى، عن أبى بكر بن عبد الله بن قيس، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «هذه الأنهار تَشخُبُ من جنة عدن فى جَوْبَة، ثم تصدع بعد أنهارا»[6].

وفى الصحيح: «إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، ومنه تُفَجَّر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن»[7].

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى: حدثنا مصعب بن إبراهيم بن حمزة الزبيرى، وعبد الله بن الصقر السكرى قالا: حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامى، حدثنا عبد الرحمن بن المغيرة، حدثنى عبد الرحمن بن عياش، عن دلهم بن الأسود بن عبد الله بن حاجب بن عامر بن المنتفق العقيلى، عن أبيه، عن عمه لقيط بن عامر، قال دلهم: وحدثنيه أيضا أبو الأسود، عن عاصم بن لقيط أن لقيط

(١) زيادة من ت، أ.
(٢) زيادة من ت.
(٣) فى ت: «وروى».
(٤) المسند (٥/٥) وسنن الترمذى برقم (٢٥٧١) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٦/٢٠٤) عن طريق الجريرى به، وقال: «غريب عن الجريرى تفرد به عن حكيم».
(٥) فى ت: «وروى ابن مردويه».
(٦) ورواه أبو نعيم فى صفة الجنة برقم (٣١٤) من طريق معلى بن أسد عن الحارث بن عبيد به.
(٧) سبق تخريج الحديث عند تفسير الآية: ١٣٣ من سورة آل عمران.

www.Quranpdf.blogspot.in

ابن عامر خرج وافدا إلى رسول الله ﷺ، قلت: يا رسول الله، فعلام نطلع من الجنة؟ قال: «على أنهار عسل مصفى، وأنهار من خمر[١] ما بها صداع ولا ندامة، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وماء غير آسن، وفاكهة، لعمر إلهك ما تعلمون وخير من مثله، وأزواج مطهرة» قلت: يا رسول الله، أو لنا فيها أزواج مصلحات؟ قال: «الصالحات للصالحين، تلذونهن مثل لذاتكم فى الدنيا ويلذونكم، غير ألا توالد»[٢].

وقال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبى الدنيا: حدثنا يعقوب بن عبيدة[٣]، عن يزيد بن هارون، أخبرنى الجريرى، عن معاوية بن قرة، عن أبيه[٤]، عن أنس بن مالك قال: لعلكم تظنون أن أنهار الجنة تجرى فى أخدود فى الأرض، والله إنها لتجرى سائحة على وجه الأرض، حافاتها قباب اللؤلؤ، وطينها المسك الأذْفَر[٥].

وقد رواه أبو بكر ابن مَرْدُويه، من حديث مهدى بن حكيم، عن يزيد بن هارون، به مرفوعا[٦].

وقوله: ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾، كقوله: ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴾ [الدخان: ٥٥]. وقوله: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢].

وقوله: ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أى: مع ذلك كله.

وقوله: ﴿ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ أى: أهؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم من الجنة كمن هو خالد فى النار؟ ليس هؤلاء كهؤلاء، أى: ليس من هو فى الدرجات كمن هو[٧] فى الدركات، ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾ أى: حارا[٨] شديد الحر، لا يستطاع. ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ أى: قطع ما فى بطونهم من الأمعاء والأحشاء، عياذا بالله من ذلك.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى

(١) فى ت،م، أ: «كأس».

(٢) المعجم الكبير (١٩/ ٢١١) من حديث طويل كان الحافظ اختصره، وصورة السند فى المعجم الكبير: «حدثنا مصعب بن إبراهيم بن حمزة الزبيرى وعبد الله بن الصقر العسكرى ـ وصوابه: السكرى ـ قالا: حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامى، حدثنا عبد الرحمن بن المغيرة بن عبد الله بن خالد بن حزام، حدثنى عبد الرحمن بن عياش الأنصارى ثم المسعودى عن دلهم بن الأسود عن عاصم بن لقيط أن لقيط بن عامر خرج. . . . الحديث». وهناك عطف بالواو يوهم أن هناك إسنادًا آخر رواه الطبرانى، وليس عنده إلا من هذا الطريق، وقد رواه عبد الله بن الإمام أحمد فى زوائد المسند (٤/ ١٣) من طريق إبراهيم بن حمزة بن مصعب بن الزبير عن عبدالرحمن بن المغيرة الحزامى عن عبد الرحمن بن عياش عن دلهم بن الأسود بن عبد الله بن حاجب بن عامر بن المنتفق العقيلى عن أبيه عن عمه لقيط بن عامر فذكره.

(٣) فى م: «عبيد».

(٤) فى ت: «وروى ابن أبى الدنيا بسنده».

(٥) وذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب (٤/٥١٨) وقال: «الموقوف أشبه بالصواب».

(٦) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٦/ ٢٠٥) من طريق محمد بن أحمد الزهرى عن مهدى بن حكيم بن مهدى به مرفوعًا.

(٧) فى م: «هو خالد».

(٨) فى ت: «صار».

www.Quranpdf.blogspot.in

وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (١٨) فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (١٩)﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن المنافقين فى بلادتهم وقلة فهمهم، حيث كانوا يجلسون إلى رسول الله ﷺ ويستمعون كلامه ولا يفهمون منه شيئا، فإذا خرجوا من عنده ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ من الصحابة: ﴿مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾ أى: الساعة، لا يعقلون ما يقال[١]، ولا يكترثون له.

قال الله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أى: فلا فهم صحيح، ولا قصد صحيح.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ أى: والذين قصدوا الهداية وفقهم الله لها فهداهم إليها، وثبتهم عليها وزادهم منها، ﴿وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ أى: ألهمهم رُشْدَهم.

وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أى: وهم غافلون عنها، ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أى: أمارات اقترابها، كقوله تعالى: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الأُولَىٰ . أَزِفَتِ الآزِفَةُ﴾ [النجم: ٥٦، ٥٧]، وكقوله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١] وقوله: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، وقوله: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]، فبعثة رسول الله ﷺ من أشراط الساعة؛ لأنه خاتم الرسل الذى أكمل الله به الدين، وأقام به الحجة على العالمين. وقد أخبر ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بأمارات الساعة وأشراطها، وأبان عن ذلك وأوضحه بما لم يؤته نبى قبله، كما هو مبسوط فى موضعه.

وقال الحسن البصرى: بعثة محمد ﷺ من أشراط الساعة. وهو كما قال؛ ولهذا جاء فى أسمائه، عليه السلام، أنه نبى التوبة، ونبى الملحمة، والحاشر الذى يُحشَر الناس على قدميه، والعاقب الذى ليس بعده نبى.

وقال[٢] البخارى: حدثنا أحمد بن المقدام، حدثنا فضيل بن سليمان، حدثنا أبو حازم، حدثنا[٣] سهل بن سعد قال: رأيتُ رسول الله ﷺ قال بأصبعيه هكذا، بالوسطى والتى تليها: «بعثت أنا والساعة كهاتين»[٤].

ثم قال تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ أى: فكيف للكافرين بالتذكر[٥] إذا جاءتهم القيامة، حيث لا ينفعهم ذلك[٦]، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر:

(١) فى أ: «ما يقول». (٢) فى ت: «وروى». (٣) فى ت: «عن».
(٤) صحيح البخارى برقم (٤٩٣٦).
(٥) فى أ: «بالتذكير». (٦) فى ت: «التذكير».

www.Quranpdf.blogspot.in

٢٣]، ﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبأ: ٥٢].

وقوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾: هذا إخبار بأنه لا إله إلا الله، ولا يتأتى[١] كونه آمرا بعلم ذلك؛ ولهذا عطف عليه بقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾. وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى، وإسرافى فى أمرى، وما أنت أعلم به منى. اللهم اغفر لى هَزْلى وجدّى، وخَطَئى وعَمْدى، وكل ذلك عندى»[٢]. وفى الصحيح أنه كان يقول فى آخر الصلاة: «اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت، وما أنت أعلم به منى، أنت إلهى لا إله إلا أنت»[٣]. وفى الصحيح أنه قال: «يأيها الناس، توبوا إلى ربكم، فإنى أستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة»[٤].

وقال[٥] الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عاصم الأحول قال: سمعت[٦] عبد الله، بن سرجس قال: أتيتُ رسول الله ﷺ فأكلت معه من طعامه، فقلت: غفر الله لك يا رسول الله فقلت: أستغفر لك[٧]؟ فقال: «نعم، ولكم»، وقرأ: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾، ثم نظرت إلى نُغْض كتفه الأيمن ـ أو: كتفه الأيسر، شعبة الذى شك ـ فإذا هو كهيئة الجمع عليه الثآليل.

رواه مسلم، والترمذى، والنسائي[٨]، وابن جرير، وابن أبى حاتم، من طرق، عن عاصم الأحول، به[٩].

وفى الحديث الآخر الذى رواه أبو يعلى: حدثنا مُحَرَّز بن عون[١٠]، حدثنا عثمان بن مطر، حدثنا عبد الغفور، عن أبى نَصيرَة، عن أبى رجاء، عن أبى بكر الصديق، رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار، فأكثروا منهما، فإن إبليس قال: أهلكت[١١] الناس بالذنوب، وأهلكونى بـ «لا إله إلا الله»، والاستغفار فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء، فهم يحسبون أنهم مهتدون»[١٢].

وفى الأثر المروى: «قال إبليس: وعزتك وجلالك لا أزال أغويهم ما دامت أرواحهم فى

---

(١) فى أ: «إلا هو ولا ينافى».
(٢) صحيح البخارى برقم (٦٣٩٨).
(٣) صحيح مسلم برقم (٧٦٩).
(٤) صحيح البخارى برقم (٦٣٠٧).
(٥) فى ت: «وروى». (٦) فى ت: «عن».
(٧) فى ت، م، أ: «أستغفر لك رسول الله ﷺ».
(٨) فى ت: «والنسائى وابن ماجه».
(٩) المسند (٥/ ٨٢) ،وصحيح مسلم برقم (٢٣٤٦) والشمائل للترمذى برقم (٢٢) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٩٦).
(١٠) فى م: «محمد بن عوف» وفى هـ:«محمد بن عون». والتصويب من مسند أبى يعلى.
(١١) فى م: «قال: إنما أهلكت».
(١٢) مسند أبى يعلى (١/ ١٢٣) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٠٧): «فيه عثمان بن مطر وهو ضعيف».

www.Quranpdf.blogspot.in

أجسادهم. فقال الله عز وجل: وعزتى وجلالى ولا أزال أغفر لهم ما استغفرونى»[(١)].

والأحاديث فى فضل الاستغفار كثيرة جدا.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ أى: يعلم تصرفكم فى نهاركم ومستقركم فى ليلكم، كقوله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، وكقوله: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود: ٦]. وهذا القول ذهب إليه ابن جريج، وهو اختيار ابن جرير. وعن ابن عباس: متقلبكم فى الدنيا، ومثواكم فى الآخرة.

وقال السدى: متقلبكم فى الدنيا، ومثواكم فى قبوركم.

والأول أولى وأظهر، والله أعلم.

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ (٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ (٢٣) ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن المؤمنين أنهم تمنوا شرعية الجهاد، فلما فرضه الله، عز وجل[(٢)]، وأمر به نكل عنه كثير من الناس، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ [النساء: ٧٧].

وقال هاهنا: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ﴾ أى: مشتملة على حُكْم القتال؛ ولهذا قال: ﴿ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أى: من فزعهم ورعبهم وجبنهم من لقاء الأعداء. ثم قال مشجعا لهم: ﴿ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ. طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أى: وكان الأولى بهم أن يسمعوا ويطيعوا، أى: فى الحالة الراهنة، ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ﴾ أى: جد الحال، وحضر القتال، ﴿ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾ أى : أخلصوا له النية، ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

وقوله: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أى: عن الجهاد ونكلتم عنه، ﴿أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا

(١) رواه أحمد فى مسنده (٣/ ٢٩) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه.

(٢) فى ت: «الله تعالى».

www.Quranpdf.blogspot.in

أَرْحَامَكُمْ ﴾ أى: تعودوا إلى ما كنتم فيه من الجاهلية الجهلاء، تسفكون الدماء، وتقطعون الأرحام؛ ولهذا قال: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾، وهذا نهى عن الإفساد فى الأرض عموما، وعن قطع الأرحام خصوصا، بل قد أمر [الله][1] تعالى بالإصلاح فى الأرض وصلة الأرحام، وهو الإحسان إلى الأقارب فى المقال والفعال وبذل الأموال. وقد وردت الأحاديث الصحاح والحسان بذلك عن رسول الله ﷺ، من طرق عديدة، ووجوه كثيرة.

قال البخارى: حدثنا خالد بن مَخْلَد، حدثنا سليمان، حدثنى معاوية بن أبى مُزَرّد، عن سعيد ابن يسار[2]، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «خلق الله الخلق، فلما فرغ منه قامت الرحم فأخذت بحقو الرحمن عز وجل، فقال: مه! فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة. فقال: ألا ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى. قال: فذاك[3]». قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾[4].

ثم رواه البخارى من طريقين آخرين، عن معاوية بن أبى مزرد، به.قال رسول الله ﷺ: «اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾»[5]. ورواه مسلم من حديث معاوية بن أبى مزرد، به[6].

وقال[7] الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، أخبرنا عيينة بن عبد الرحمن بن جوشن، عن أبيه، عن أبى بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من ذنب أحرى أن يعجل الله عقوبته فى الدنيا، مع ما يدخر لصاحبه فى الآخرة، من البغى وقطيعة الرحم».

رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه، من حديث إسماعيل ـ هو ابن عُلَيَة ـ به[8]. وقال الترمذى: هذا حديث صحيح.

وقال[9] الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بكر، حدثنا ميمون أبو محمد المرئى، حدثنا محمد بن عباد المخزومى، عن ثوبان، عن رسول الله ﷺ قال: «من سره النِّساء فى الأجل، والزيادة فى الرزق، فليصل رحمه»[10]. تفرد به أحمد، وله شاهد فى الصحيح.

(١) زيادة من ت، م، أ.

(٢) فى ت: «فروى البخارى بسنده».

(٣) فى أ: «فذلك لك».

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٨٣٠).

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٨٣١، ٤٨٣٢) لكن زاد أبو الحباب بين معاوية وسعيد بن يسار.

(٦) صحيح مسلم برقم (٢٥٥٤) من طريق معاوية بن أبى مزرد عن عمه أبى الحباب عن سعيد بن يسار به.

(٧) فى ت: «وروى».

(٨) المسند (٥/ ٣٨) ،وسنن أبى داود برقم (٤٩٠٢) ،وسنن الترمذى برقم (٢٥١١) ، وسنن ابن ماجه برقم (٤٢١١)

(٩) فى ت:«وروى».

(١٠) المسند (٥/ ٢٧٩) وشاهده حديث أنس بن مالك رضى الله عنه مرفوعا: «من سره أن يبسط عليه رزقه، أو ينسأ فى أثره، فليصل رحمه». رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٩٨٦)، ومسلم فى صحيحه برقم (٢٥٥٧) واللفظ لمسلم.

www.Quranpdf.blogspot.in

وقال[١] أحمد أيضا: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا حجاج بن أرطاة، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن لي ذوى أرحام، أصل ويقطعون، وأعفو ويظلمون، وأحسن ويسيئون، أفأكافئهم؟ قال: «لا، إذن تتركون جميعا، ولكن جُدْ بالفضل وصلهم؛ فإنه لن يزال معك ظهير من الله، عز وجل، ما كنت على ذلك»[٢].

تفرد به من هذا الوجه، وله شاهد[٣] من وجه آخر.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يَعْلَى، حدثنا فِطْر، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو[٤] قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرحم معلقة بالعرش، وليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذى إذا قطعت رحمه وصلها»، رواه البخارى[٥] [٦].

وقال أحمد: حدثنا بهز، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا قتادة، عن أبى ثمامة الثقفى، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «توضع الرحم يوم القيامة لها حُجْنَة كحجنة المغزل، تتكلم بلسان طُلَقٍ ذُلَقٍ، فتصل من وصلها وتقطع من قطعها»[٧].

وقال[٨] الإمام أحمد: حدثنا سفيان، حدثنا عمرو، عن أبى قابوس، عن عبد الله بن عمرو ـ يبلغ به النبى ﷺ ـ قال: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض[٩] يرحمكم أهل السماء، والرحم شُجْنَة من الرحمن، من وصلها وصلته، ومن قطعها بتته».

وقد رواه أبو داود[١٠] والترمذى، من حديث سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، به[١١]. وهذا هو الذى يروى بتسلسل الأولية[١٢]، وقال الترمذى: حسن صحيح.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا هشام الدَّسْتَوائى، عن يحيى بن أبى كثير، عن إبراهيم بن عبد الله بن قارظ؛ أن أباه حدثه: أنه دخل على عبد الرحمن بن عوف وهو مريض، فقال له عبد الرحمن: وصلتك رَحِمٌ، إن رسول الله ﷺ قال: «قال الله عز وجل: أنا الرحمن، خلقت الرحم وشققت لها من اسمى، فمن يصلها أصله، ومن يقطعها أقطعه فأبته ـ أو قال: من يبتها أبته».

تفرد به من هذا الوجه[١٣]. ورواه أحمد أيضا من حديث الزهرى، عن أبى سلمة، عن الرداد ـ

(١) فى ت: «وروى».
(٢) المسند (٢/ ١٨١).
(٣) فى أ: «شواهد».
(٤) فى ت: «عن ابن عمر».
(٥) فى ت: «انفرد به».
(٦) المسند (٢/ ١٦٣)، وصحيح البخارى برقم (٥٩٩١).
(٧) المسند (٢/ ١٨٩)، قال الهيثمى فى المجمع (٨/ ١٥٠): «رجال أحمد رجال الصحيح غير أبى ثمامة الثقفى، وثقه ابن حبان».
(٨) فى ت: «رواه».
(٩) فى أ: «ارحموا من فى الأرض».
(١٠) فى ت: «وقد رواه أحمد وأبو داود».
(١١) المسند (٢/ ١٦٠)، وسنن أبى داود برقم (٤٩٤١)، وسنن الترمذى برقم (١٩٢٤).
(١٢) وأروى هذا الحديث بالإجازة مسلسلاً بأول ما سمع، إلا أن الأولية تنقطع فيما فوق سفيان، وعلى هذا فشرط المسلسل غير متحقق عند التدقيق.
(١٣) المسند (١/ ١٩١).

www.Quranpdf.blogspot.in

أو أبى الردّاد ـ عن عبد الرحمن بن عوف، به[١]. ورواه أبو داود والترمذى، من رواية أبى سلمة، عن أبيه[٢]. والأحاديث فى هذا كثيرة.

وقال الطبرانى: حدثنا على بن عبد العزيز، حدثنا محمد بن عمار الموصلى، حدثنا عيسى بن يونس، عن محمد بن عبد الله بن علاثة[٣]، عن الحجاج بن الفُرَافِصَة، عن أبى عمر البصرى، عن سلمان[٤] قال: قال رسول الله ﷺ: «الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»[٥].

وبه قال رسول الله ﷺ: «إذا ظهر القول، وخزن العمل، وائتلفت الألسنة، وتباغضت القلوب، وقطع كل ذى رحم رحمه، فعند ذلك لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم»[٦].

﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ (٢٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨)﴾.

يقول تعالى آمراً بتدبر القرآن وتفهمه، وناهيا عن الإعراض عنه، فقال: **﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾** أى: بل على قلوب أقفالها، فهى مُطْبَقَة لا يخلص إليها شىء من معانيه.

قال ابن جرير: حدثنا بشر، قال: حدثنا يزيد قال: حدثنا سعيد قال: حدثنا[٧] حماد بن زيد، حدثنا هشام بن عروة، عن أبيه قال: تلا رسول الله ﷺ يوما: **﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾**، فقال شاب من أهل اليمن: بل عليها[٨] أقفالها حتى يكون الله عز وجل يفتحها أو يفرجها. فما زال الشاب فى نفس عمر، رضى الله عنه، حتى ولى، فاستعان به[٩].

ثم قال تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم﴾** أى: فارقوا الإيمان ورجعوا إلى الكفر، **﴿مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾** أى: زين لهم ذلك وحسنه، **﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾** أى: غرهم

---

(١) المسند (١/ ١٩٤) وقال الترمذى فى السنن: «روى معمر عن الزهرى هذا الحديث عن أبى سلمة عن رداد الليثى عن عبد الرحمن ابن عوف، قال محمد ـ يعنى البخارى ـ: حديث معمر خطأ» والصحيح الرواية الآتية فى السنن.

(٢) سنن أبى داود برقم (١٦٢٤)، وسنن الترمذى برقم (١٩٠٧).

(٣) فى هـ: «الحجاج بن يونس». والتصويب من المعجم الكبير. (٤) فى هـ: «سليمان» والتصويب من المعجم الكبير.

(٥) المعجم الكبير (٦/ ٢٦٣)، وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٢٨٧): «فيه جماعة لم أعرفهم». وله شاهد من حديث أبى هريرة رواه أحمد فى المسند (٢/ ٢٩٥).

(٦) المعجم الكبير (٦/ ٢٦٣) والكلام عليه كالذى قبله.

(٧) فى ت، م: «ابن». (٨) فى ت، م: «بل على قلوب».

(٩) تفسير الطبرى (٢٦/ ٣٧).

www.Quranpdf.blogspot.in

وخدعهم، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ﴾ أى: مالئوهم وناصحوهم فى الباطن على الباطل، وهذا شأن المنافقين يظهرون خلاف ما يبطنون؛ ولهذا قال الله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ أى: [يعلم][1] ما يسرون وما يخفون، الله مطلع عليه وعالم به، كقوله: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ [النساء: ٨١].

ثم قال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ أى: كيف حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم وتعصت الأرواح فى أجسادهم، واستخرجتها الملائكة بالعنف والقهر والضرب، كما قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ الآية [الأنفال: ٥٠]، وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ أى: بالضرب ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (٣١)﴾.

يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ أى: اعتقد[2] المنافقون أن الله لايكشف أمرهم لعباده المؤمنين؟ بل سيوضح أمرهم ويجليه حتى يفهمهم[3] ذوو البصائر، وقد أنزل تعالى فىَ ذلك سورة «براءة»، فبين فيها فضائحهم وما يعتمدونه من الأفعال الدالة على نفاقهم؛ ولهذا إنما كانت تسمى الفاضحة. والأضغان: جمع ضغن، وهو ما فى النفوس من الحسد والحقد للإسلام وأهله والقائمين بنصره.

وقوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ يقول تعالى: ولو نشاء يا محمد لأريناك أشخاصهم، فعرفتهم[4] عيانا، ولكن لم يفعل تعالى ذلك فى جميع المنافقين سترا منه على خلقه، وحملا للأمور على ظاهر السلامة، ورد السرائر إلى عالمها، ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ أى: فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم، يفهم المتكلم من أى الحزبين هو بمعانى كلامه وفحواه، وهو المراد من لحن القول، كما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضى الله عنه: ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه، وفلتات لسانه. وفى الحديث: «ما أسر أحد سريرة إلا كساه الله

(١) زيادة من ت.
(٢) فى م: «أيعتقد».
(٣) فى أ: «يفهمه».
(٤) فى ت: «تعرفهم».

www.Quranpdf.blogspot.in

جلبابها، إن خيرا فخير، وإن شرًا فشر»[١]. وقد ذكرنا ما يستدل به على نفاق الرجل، وتكلمنا على نفاق العمل والاعتقاد[٢] فى أول «شرح البخارى»، بما أغنى عن إعادته هاهنا. وقد ورد فى الحديث تعيين جماعة من المنافقين. قال الإمام أحمد:

حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن سلمة، عن عياض بن عياض، عن أبيه، عن أبى مسعود عقبة ابن عمرو، رضى الله عنه، قال: خطبنا رسول الله ﷺ خطبة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إن منكم[٣] منافقين، فمن سميت فليقم». ثم قال: «قم يا فلان، قم يا فلان، قم يا فلان». حتى سمى ستة وثلاثين رجلا ثم قال: «إن فيكم ـ أو: منكم[٤] ـ فاتقوا الله». قال: فمر عمر برجل ممن سمى مقنع قد كان يعرفه، فقال: ما لك؟ فحدثه بما قال رسول الله ﷺ، فقال: بعداً لك سائر اليوم[٥].

وقوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ أى: ولنختبرنكم بالأوامر والنواهى، ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾. وليس فى تقدم علم الله تعالى بما هو كائن أنه سيكون شك ولا ريب، فالمراد: حتى نعلم وقوعه؛ ولهذا يقول ابن عباس فى مثل هذا: إلا لنعلم، أى: لنرى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (٣٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٣٤) فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (٣٥)﴾.

يخبر تعالى عمن كفر وصد عن سبيل الله، وخالف الرسول وشاقه، وارتد عن الإيمان من بعد ما تبين له الهدى: أنه لن يضر الله شيئاً، وإنما يضر نفسه ويخسرها يوم معادها، وسيحبط الله عمله فلا يثيبه على سالف ما تقدم من عمله الذى عقبه بردته مثقال بعوضة من خير، بل يحبطه ويمحقه بالكلية، كما أن الحسنات يذهبن السيئات.

وقد قال الإمام محمد بن نصر المروزى فى كتاب الصلاة: حدثنا أبو قدامة، حدثنا وكيع، حدثنا أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية قال[٦]: كان أصحاب رسول الله ﷺ يظنون أنه لا يضر مع «لا إله إلا الله» ذنب، كما لا ينفع مع الشرك عمل، فنزلت: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾، فخافوا أن يبطل الذنب العمل.

---

(١) سيأتى تخريج هذا الحديث عند تفسير الآية: ٢٩ من سورة الفتح.
(٢) فى أ: «النفاق العملى والاعتقادى». (٣) فى ت: «فيكم». (٤) فى ت: «ومنكم».
(٥) المسند (٥/ ٢٧٣) قال الهيثمى فى المجمع (١/ ١١٢): «فيه عياض بن أبى عياض عن أبيه ولم أر من ترجمهما».
(٦) فى ت: «روى الإمام أحمد بإسناده».

www.Quranpdf.blogspot.in

ثم روى من طريق عبد الله بن المبارك: أخبرنى بكير بن معروف، عن مقاتل بن حيان، عن نافع، عن ابن عمر قال: كنا معشر أصحاب رسول الله ﷺ نرى أنه ليس شىء من الحسنات إلا مقبول حتى نزلت: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾. فقلنا: ما هذا الذى يبطل أعمالنا؟ فقلنا: الكبائر الموجبات والفواحش، حتى نزلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فلما نزلت كففنا عن القول فى ذلك، فكنا نخاف على من أصاب الكبائر والفواحش، ونرجو لمن لم يصيبها[١].

ثم أمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله التى هى سعادتهم فى الدنيا والآخرة، ونهاهم عن الارتداد الذى هو مبطل للأعمال؛ ولهذا قال: ﴿وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ أى: بالردة؛ ولهذا قال بعدها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾، كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ الآية .

ثم قال لعباده المؤمنين: ﴿فَلا تَهِنُوا﴾ أى: لا تضعفوا عن الأعداء، ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾ أى: المهادنة والمسالمة، ووضع القتال بينكم وبين الكفار فى حال قوتكم وكثرة عَدَدكم وعُدَدكم؛ ولهذا قال: ﴿فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾ أى: فى حال علوكم على عدوكم، فأما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة[٢] بالنسبة إلى جميع المسلمين، ورأى الإمام فى المعاهدة والمهادنة مصلحة، فله أن يفعل ذلك، كما فعل رسول الله ﷺ حين صده كفار قريش عن مكة، ودعوه إلى الصلح ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين، فأجابهم إلى ذلك.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾: فيه بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء، ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ أى: ولن يحبطها ويبطلها ويسلبكم إياها، بل يوفيكم ثوابها ولا ينقصكم منها شيئا.

﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦) إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (٣٧) هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم (٣٨)﴾ .

يقول تعالى تحقيراً لأمر الدنيا وتهوينا لشأنها: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أى: حاصلها ذلك إلا ما كان منها لله عز وجل؛ولهذا قال: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ أى: هو غنى عنكم لا يطلب منكم شيئا، وإنما فرض عليكم الصدقات من الأموال مواساة لإخوانكم

(١) تعظيم قدر الصلاة للمروزى برقم (٦٩٨، ٦٩٩).
(٢) فى ت: «فئة كثيرة».

www.Quranpdf.blogspot.in

الفقراء، ليعود نفع ذلك عليكم، ويرجع ثوابه إليكم.

ثم قال: ﴿ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا﴾ أى: يحرجكم[١] تبخلوا: ﴿ وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴾.

قال قتادة: «قد علم الله أن فى إخراج الأموال إخراج الأضغان». وصدق قتادة فإن المال محبوب، ولا يصرف إلا فيما هو أحب إلى الشخص منه.

وقوله: ﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ أى: لا يجيب إلى ذلك ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ﴾ أى: إنما نقص نفسه من الأجر، وإنما يعود وبال ذلك عليه، ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ﴾ أى: عن كل ما سواه، وكل شىء فقير إليه دائما؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ﴾ أى: بالذات إليه. فوصفه بالغنى وصف لازم له، ووصف الخلق بالفقر وصف لازم لهم، [أى][٢]لا ينفكون عنه.

وقوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا﴾ أى: عن طاعته واتباع شرعه[٣] ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ أى: ولكن يكونون سامعين مطيعين له ولأوامره.

وقال[٤] ابن أبى حاتم، وابن جرير: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، أخبرنى مسلم بن خالد، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبى هريرة [رضى الله عنه][٥] أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾، قالوا: يا رسول الله، من هؤلاء الذين إن تولينا استبدل بنا ثم لا يكونوا أمثالنا؟ قال: فضرب بيده على كتف سلمان الفارسى ثم قال: «هذا وقومه، ولو كان الدين عند الثريا لتناوله رجال من الفرس»[٦].

تفرد به مسلم بن خالد الزنجى، ورواه عنه غير واحد، وقد تكلم فيه بعض الأئمة، والله أعلم.

آخر تفسير سورة القتال

(١) فى أ: «يحوجكم». (٢) زيادة من ت.

(٣) فى ت: «شرعته»، وفى أ: «شريعته».

(٤) فى ت: «وروى».

(٥) زيادة من ت.

(٦) تفسير الطبرى (٢٦/٤٣)، ومسلم بن خالد الزنجى ضعفه ابن معين، وقال البخارى: منكر الحديث لكنه لم ينفرد به، فقد توبع:

١ـ تابعه شيخ من أهل المدينة عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه به، أخرجه الترمذى برقم (٣٢٦٠) وقال: «هذا حديث غريب فى إسناده مقال».

٢ـ وتابعه عبد الله بن جعفر بن نجيح عن العلاء عن أبيه به، أخرجه الترمذى برقم(٣٢٦١) وعبد الله بن جعفر والد على بن المدينى ضعيف.

www.Quranpdf.blogspot.in

تفسير سورة الفتح

وهى مدنية.

قال الإمام أحمد[١]: حدثنا وَكيع، حدثنا شُعْبَة، عن معاوية بن قرة قال: سمعت عبد الله بن مغفل يقول: قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح فى مسيره سورة الفتح على راحلته فرجَّع فيها ـ قال معاوية: لولا أنى أكره أن يجتمع الناس علينا لحكيت لكم قراءته، أخرجاه من حديث شعبة به[٢].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٢) وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣)﴾.

نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية فى ذى القعدة من سنة ست من الهجرة، حين صده المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام ليقضى عمرته فيه، وحالوا بينه وبين ذلك، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة، وأن يرجع عامه هذا ثم يأتى من قابل، فأجابهم إلى ذلك على تكرُّه من جماعة من الصحابة، منهم عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، كما سيأتى تفصيله فى موضعه من تفسير هذه السورة إن شاء الله. فلما نحر هديه حيث أحصر ورجع، أنزل الله، عز وجل، هذه السورة فيما كان من أمره وأمرهم، وجعل ذلك الصلح فتحًا باعتبار ما فيه من المصلحة، وما آل الأمر إليه، كما روى عن ابن مسعود، رضى الله عنه، وغيره أنه قال: إنكم تعدون الفتح فتح مكة، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية.

وقال الأعمش، عن أبى سفيان، عن جابر قال: ما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبية[٣].

وقال[٤] البخارى: حدثنا عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن البراء قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحًا، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية، كنا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة مائة، والحديبية بئر. فنزحناها فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأتاها فجلس عل شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ، ثم تمضمض ودعا، ثم صبه فيها، فتركناها غير بعيد، ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركائبنا[٥].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو نوح، حدثنا مالك بن أنس، عن زيد بن أسلم، عن أبيه[٦]، عن عمر بن الخطاب قال: كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر، قال: فسألته عن شىء ـ ثلاث مرات ـ فلم

(١) فى ت: «وروى البخارى ومسلم والإمام أحمد».
(٢) المسند (٥/ ٢٤) وصحيح البخارى برقم (٤٨٣٥) وصحيح مسلم برقم (٧٩٤).
(٣) رواه الطبرى (٢٦/ ٤٤).
(٤) فى ت: «وروى».
(٥) صحيح البخارى برقم (٤١٥٠).
(٦) فى ت: «وروى الإمام أحمد بإسناده».

www.Quranpdf.blogspot.in

يرد على، قال: فقلت لنفسى: ثكلتك أمك يا ابن الخطاب، نزرت رسول الله ﷺ ثلاث مرات فلم يرد عليك؟ قال: فركبت راحلتى فتقدمت مخافة أن يكون نزل فى شىء، قال: فإذا أنا بمناد ينادى: يا عمر، أين عمر؟ قال: فرجعت وأنا أظن أنه نزل فى شىء، قال: فقال النبى ﷺ: «نزلت[(١)] على الليلة[(٢)] سورة هى أحب إلى من الدنيا وما فيها: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا . لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾».

ورواه البخارى، والترمذى، والنسائى من طرق، عن مالك، رحمه الله[(٣)]، وقال على بن المدينى: هذا إسناد مدينى [جيد][(٤)] لم نجده إلا عندهم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن قتادة، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، قال: نزلت على النبى ﷺ: ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ مرجعه من الحديبية، قال النبى ﷺ: «لقد أنزلت على آية أحب إلى مما على الأرض»، ثم قرأها عليهم النبى ﷺ فقالوا: هنيئا مريئا يا نبى الله، لقد بين الله، عز وجل، ماذا يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟ فنزلت عليه: ﴿ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ ﴾ حتى بلغ: ﴿ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٥]، أخرجاه فى الصحيحين من رواية قتادة به[(٥)].

وقال[(٦)] الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا مُجَمِّعُ بن يعقوب، قال: سمعت أبى يحدث عن عمه عبد الرحمن بن أبى يزيد الأنصارى عن عمه مجمع بن جارية الأنصارى ـ وكان أحد[(٧)] القراء الذين قرؤوا القرآن ـ قال: شهدنا الحديبية فلما انصرفنا عنها إذا الناس ينفرون الأباعر، فقال الناس بعضهم لبعض: ما للناس؟ قالوا: أوحى إلى رسول الله ﷺ، فخرجنا مع الناس نوجف، فإذا رسول الله ﷺ على راحلته عند كراع الغميم، فاجتمع الناس عليه، فقرأ عليهم: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾، قال: فقال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ: أى رسول الله، وفتح هو؟ قال: «إى والذى نفس محمد بيده، إنه لفتح». فقسمت خيبر على أهل الحديبية لم يدخل معهم فيها أحد إلا من شهد الحديبية، فقسمها رسول الله ﷺ على ثمانية عشر سهما، وكان الجيش ألفا وخمسمائة فارس، فأعطى الفارس سهمين، وأعطى الراجل سهما.

رواه أبو داود فى الجهاد عن محمد بن عيسى، عن مجمع بن يعقوب، به[(٨)].

وقال[(٩)] ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الله بن بزيع، حدثنا أبو بحر، حدثنا شعبة، حدثنا جامع بن شداد، عن عبد الرحمن بن أبى علقمة، قال: سمعت عبد الله بن مسعود يقول[(١٠)]: لما

---

(١) فى م: «نزل». (٢) فى ت، م: «البارحة».

(٣) المسند (١/ ٣١) وصحيح البخارى برقم (٤٨٣٣) وسنن الترمذى برقم (٣٢٦٢) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٩٩).

(٤) زيادة من م.

(٥) المسند (٣/ ١٩٧) وصحيح البخارى برقم (٤١٤٨) وصحيح مسلم برقم (١٧٨٦).

(٦) فى ت: «وروى». (٧) فى ت: «أحب».

(٨) المسند (٣/ ٤٢٠) وسنن أبى داود برقم (٢٧٣٦).

(٩) فى ت: «وروى». (١٠) فى ت: «عن ابن مسعود قال».

www.Quranpdf.blogspot.in

أقبلنا من الحديبية أعرسنا فنمنا، فلم نستيقظ إلا بالشمس قد طلعت، فاستيقظنا ورسول الله ﷺ نائم، قال: فقلنا: «امضوا»[(١)]. فاستيقظ رسول الله ﷺ: فقال: «افعلوا كما كنتم تفعلون وكذلك [يفعل][(٢)] من نام أو نسى». قال: وفقدنا ناقة رسول الله ﷺ، فطلبنها، فوجدناها قد تعلق خطامها بشجرة، فأتيته بها فركبها[(٣)]، فبينا نحن نسير إذ أتاه الوحى، قال: وكان إذا أتاه [الوحى][(٤)] اشتد عليه، فلما سرى عنه أخبرنا أنه أنزل عليه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾.

وقد رواه أحمد وأبو داود، والنسائى من غير وجه، عن جامع بن شداد به[(٥)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان عن زياد بن علاقة، قال: سمعت المغيرة ابن شعبة[(٦)] يقول: كان النبى[(٧)] ﷺ يصلى حتى ترم قدماه، فقيل له: أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً».

أخرجاه[(٨)] وبقية الجماعة إلا أبا داود من حديث زياد به[(٩)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا هارون بن معروف، حدثنا ابن وهب، حدثنى أبو صخر، عن ابن قسيط، عن عروة بن الزبير، عن عائشة، قالت: كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تتفطر رجلاه[(١٠)].

فقالت له عائشة: يا رسول الله، أتصنع هذ وقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «يا عائشة، أفلا أكون عبداً شكوراً؟».

أخرجه مسلم فى الصحيح من رواية عبد الله بن وهب، به[(١١)].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا عبد الله بن عون الخراز ـ وكان ثقة بمكة ـ حدثنا محمد بن بشر[(١٢)] حدثنا مسعر، عن قتادة، عن أنس، قال: قام رسول الله ﷺ حتى تورمت قدماه ـ أو قال: ساقاه ـ فقيل له: أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟». غريب من هذا الوجه[(١٣)].

---

(١) فى م: «أنصتوا».
(٢) زيادة من ت، أ.
(٣) فى ت: «فركب».
(٤) زيادة من م.
(٥) تفسير الطبرى (٢٦/ ٤٣) والمسند (١/ ٤٦٤) وسنن أبى داود برقم (٤٤٧) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٨٨٥٣).
(٦) فى ت: «وروى الإمام أحمد بسنده».
(٧) فى أ: «رسول الله».
(٨) فى ت: «أخرجه البخارى ومسلم».
(٩) المسند (٤/ ٥٥) وصحيح البخارى برقم (٤٨٣٦) وصحيح مسلم برقم (٢٨١٩) وسنن الترمذى برقم (٤١٢) وسنن النسائى (٣/ ٢١٩) وسنن ابن ماجه برقم (١٤١٩).
(١٠) فى أ: «ينفطر قدماه».
(١١) المسند (٦/ ١١٥) وصحيح مسلم برقم (٢٨٢٠).
(١٢) فى أ: «بشير».
(١٣) ورواه أبو يعلى فى المسند (٥/ ٢٨٠) من طريق عبد الله بن عون الخراز به، ورواه البزار فى مسنده برقم (٢٣٨٠) «كشف الأستار» من طريق الحسين بن الأسود عن محمد بن بشر به، وقال البزار: «لا نعلم أحدا حدث بهذا الحديث بهذا الإسناد إلا الحسين بن بشر وعبد الله بن عون الخراز، وقد رواه غيرهما عن محمد بن بشر عن مسعر، عن زياد بن علاقة، عن المغيرة بن شعبة، وهو الصواب» ،فكلام الإمام البزار هنا موضح لقول الحافظ ابن كثير: «غريب من هذا الوجه».

www.Quranpdf.blogspot.in

فقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ أى: بينا ظاهرا، والمراد به صلح الحديبية فإنه حصل بسببه خير جزيل، وآمن الناس واجتمع بعضهم ببعض[1]، وتكلم المؤمن مع الكافر، وانتشر العلم النافع والإيمان.

وقوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾: هذا من خصائصه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ التى لا يشاركه فيها غيره. وليس صحيح فى ثواب الأعمال لغيره غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله ﷺ، وهو ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فى جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التى لم ينلها بشر سواه، لا من الأولين ولا من الآخرين، وهو أكمل البشر على الإطلاق، وسيدهم فى الدنيا والآخرة. ولما كان أطوع خلق الله لله، وأكثرهم[2] تعظيما لأوامره[3] ونواهيه، قال حين بركت به الناقة: «حبسها حابس الفيل»، ثم قال: «والذى نفسى بيده، لا يسألونى اليوم شيئا يعظمون به حرمات الله إلا أجبتهم إليها»[4]. فلما أطاع الله فى ذلك وأجاب إلى الصلح، قال الله له: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا. لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ أى: فى الدنيا والآخرة، ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أى: بما يشرعه لك من الشرع العظيم والدين القويم، ﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ أى: بسبب خضوعك لأمر الله يرفعك الله وينصرك على أعدائك، كما جاء فى الحديث الصحيح: «وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»[5]. وعن عمر بن الخطاب [رضى الله عنه][6] أنه قال: ما عاقبت ـ أى فى الدنيا والآخرة ـ أحدا عصى الله تعالى فيك بمثل أن تطيع الله فيه.

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤) لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (٥) وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٦) وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (٧)﴾.

يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ﴾ أى: جعل الطمأنينة. قاله ابن عباس، وعنه: الرحمة.

وقال قتادة: الوقار فى قلوب المؤمنين. وهم الصحابة يوم الحديبية، الذين استجابوا لله ولرسوله، وانقادوا لحكم الله ورسوله، فلما اطمأنت قلوبهم لذلك، واستقرت، زادهم إيمانًا مع إيمانهم.

---

(١) فى م: «بعضا». (٢) فى ت، أ: «وأشدهم». (٣) فى ت: «لأوامر الله».
(٤) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢).
(٥) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٥٨٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.
(٦) زيادة من ت.

www.Quranpdf.blogspot.in

وقد استدل بها البخارى وغيره من الأئمة على تفاضل الإيمان فى القلوب.

ثم ذكر تعالى أنه لو شاء لانتصر من الكافرين، فقال: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أى: ولو أرسل عليهم ملكا واحدا لأباد خضراءهم، ولكنه تعالى شرع لعباده المؤمنين الجهاد والقتال، لما له فى ذلك من الحكمة البالغة والحجة القاطعة، والبراهين الدامغة؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، ثم قال تعالى: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾، قد تقدم حديث أنس: قالوا: هنيئا لك يا رسول الله، هذا لك فما لنا؟ فأنزل الله: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى: ماكثين فيها أبدا، ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أى: خطاياهم وذنوبهم، فلا يعاقبهم عليها، بل يعفو ويصفح ويغفر، ويستر ويرحم ويشكر، ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾، كقوله: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقوله: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ أى: يتهمون الله فى حكمه، ويظنون بالرسول وأصحابه أن يقتلوا ويذهبوا بالكلية؛ ولهذا قال: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾ أى: أبعدهم من رحمته، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾.

ثم قال مؤكدا لقدرته على الانتقام من الأعداء ـ أعداء الإسلام من الكفرة والمنافقين ـ: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٩) إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١٠)﴾.

يقول تعالى لنبيه محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه[1] ـ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾ أى: على الخلق، ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ أى: للمؤمنين، ﴿وَنَذِيرًا﴾ أى: للكافرين. وقد تقدم تفسيرها فى سورة «الأحزاب»[2] ﴿لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيُعَزِّرُوهُ﴾، قال ابن عباس وغير واحد: يعظموه، ﴿وَيُوَقِّرُوهُ﴾، من التوقير وهو الاحترام والإجلال والإعظام، ﴿وَيُسَبِّحُوهُ﴾ أى: يسبحون الله، ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ أى: أول النهار وآخره.

ثم قال تعالى لرسوله ﷺ تشريفا له وتعظيما وتكريما: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾، كقوله: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أى: هو حاضر معهم يسمع أقوالهم ويرى مكانهم، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، فهو تعالى هو المبايع بواسطة رسوله

(١) فى ت، م: «صلى الله عليه وسلم».
(٢) عند الآية الخامسة والأربعين.

www.Quranpdf.blogspot.in

ﷺ، كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

وقد قال[١] ابن حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا الفضل بن يحيى الأنبارى، حدثنا على بن بكار، عن محمد بن عمرو، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من سل سيفه فى سبيل الله، فقد بايع الله»[٢].

وحدثنا أبى، حدثنا يحيى بن المغيرة، أخبرنا جرير، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ فى الحجر: «والله ليبعثه الله يوم القيامة له عينان ينظر بهما، ولسان ينطق به، ويشهد على من استلمه بالحق، فمن استلمه فقد بايع الله»، ثم قرأ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [٣].

ولهذا قال هاهنا: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ أى: إنما يعود وبال ذلك على الناكث، والله غنى عنه، ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أى: ثوابا جزيلاً. وهذه البيعة هى بيعة الرضوان، وكانت تحت شجرة سَمُر بالحديبية، وكان الصحابة الذين بايعوا رسول الله ﷺ يومئذ قيل: ألف وثلثمائة. وقيل: أربعمائة. وقيل: وخمسمائة. والأوسط[٤] أصح.

ذكر الأحاديث الواردة فى ذلك:

قال البخارى: حدثنا قتيبة، حدثنا سفيان، عن عمرو، عن جابر قال: كنا يوم الحديبية ألفا وأربعمائة.

ورواه مسلم من حديث سفيان بن عيينة، به[٥]. وأخرجاه أيضا من حديث الأعمش، عن سالم ابن أبى الجعد، عن جابر قال: كنا يومئذ ألفا وأربعمائة، ووضع يده فى ذلك الماء، فنبع الماء من بين أصابعه، حتى رووا كلهم[٦].

وهذا مختصر من سياق آخر حين ذكر قصة عطشهم يوم الحديبية، وأن رسول الله ﷺ أعطاهم سهما من كنانته، فوضعوه فى بئر الحديبية، فجاشت بالماء، حتى كفتهم، فقيل لجابر: كم كنتم يومئذ؟ قال: كنا ألفا وأربعمائة، ولو كنا مائة ألف لكفانا[٧]. وفى رواية [فى][٨] الصحيحين عن جابر: أنهم كانوا خمس عشرة مائة[٩].

(١) فى ت: «وروى».
(٢) ورواه ابن مردويه كما فى الجامع الصغير، ورمز له السيوطى بالضعف.
(٣) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٩٦١) من طريق قتيبة عن جرير بإسناده إلى قوله: «يشهد على من استلمه بالحق» ولم يذكر الآية، وقال الترمذى: «هذا حديث حسن».
(٤) فى ت: «والأول».
(٥) صحيح البخارى برقم (٤٨٤٠) وصحيح مسلم برقم (١٨٥٦).
(٦) صحيح البخارى برقم (٤١٥٤) وصحيح مسلم برقم (١٨٥٦).
(٧) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٦٣٩).
(٨) زيادة من م، أ.
(٩) صحيح البخارى برقم (٤١٥٢) وصحيح مسلم برقم (١٨٥٦).

www.Quranpdf.blogspot.in

وروى البخارى من حديث قتادة، قلت لسعيد بن المسيب: كم كان الذين شهدوا بيعة الرضوان؟ قال: خمس عشرة مائة.

قلت: فإن جابر بن عبد الله، رضى الله عنهما، قال: كانوا أربع عشرة مائة. قال رحمه الله: وهم، هو حدثنى أنهم كانوا خمس عشرة مائة[١].

قال البيهقى: هذه الرواية تدل على أنه كان فى القديم يقول: خمس عشرة مائة، ثم ذكر الوهم فقال: أربع عشرة مائة[٢].

وروى العوفى عن ابن عباس: أنهم كانوا ألفا وخمسمائة وخمسة وعشرين. والمشهور الذى رواه غير واحد عنه: أربع عشرة مائة، وهذا هو الذى رواه البيهقى، عن الحاكم، عن الأصم، عن العباس الدورى، عن يحيى بن معين، عن شبابة بن سوار، عن شعبة، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، عن أبيه قال: كنا مع رسول الله ﷺ تحت الشجرة ألفا وأربعمائة[٣]. وكذلك هو فى رواية سلمة بن الأكوع، ومعقل بن يسار، والبراء بن عازب. وبه يقول غير واحد من أصحاب المغازى والسير. وقد أخرج صاحبا الصحيح من حديث شعبة، عن عمرو بن مرة قال: سمعت عبد الله بن أبى أوفى يقول: كان أصحاب الشجرة ألفا وأربعمائة، وكانت أسلم يومئذ ثمن المهاجرين[٤].

وروى محمد بن إسحاق فى السيرة، عن الزهرى، عن عروة بن الزبير، عن المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم، أنهما حدثاه قالا: خرج رسول الله ﷺ عام الحديبية يريد زيارة البيت، لا يريد قتالا، وساق معه الهدى سبعين بدنة، وكان الناس سبعمائة رجل، كل بدنة عن عشرة نفر، وكان جابر بن عبد الله فيما بلغنى عنه يقول: كنا أصحاب الحديبية أربع عشرة مائة[٥].

كذا قال ابن إسحاق وهو معدود من أوهامه، فإن المحفوظ فى الصحيحين أنهم كانوا بضع عشرة مائة.

ذكر سبب هذه البيعة العظيمة:

قال محمد بن إسحاق بن يسار فى السيرة: ثم دعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة ليبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له، فقال: يا رسول الله، إنى أخاف قريشا على نفسى، وليس بمكة من بنى عدى بن كعب من يمنعنى، وقد عرفت قريش عداوتى إياها، وغلظى[٦] عليها، ولكنى أدلك على رجل أعز بها منى، عثمان بن عفان، فبعثه إلى أبى سفيان وأشراف قريش، يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه جاء زائرا لهذا البيت ومعظما لحرمته.

(١) صحيح البخارى برقم (٤١٥٣).
(٢) دلائل النبوة للبيهقى (٤/٩٧).
(٣) دلائل النبوة للبيهقى (٤/٩٨).
(٤) صحيح البخارى برقم (٤١٥٥)، وصحيح مسلم برقم (١٨٥٧).
(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/٣٠٨).
(٦) فى ت،م: «غلظتى».

www.Quranpdf.blogspot.in

فخرج عثمان إلى مكة، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة، أو قبل أن يدخلها، فحمله بين يديه، ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول الله [ﷺ][١] ما أرسله به، فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف. فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ. واحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان قد قتل.

قال ابن إسحاق: فحدثنى عبد الله بن أبى بكر: أن رسول الله ﷺ قال حين بلغه أن عثمان قد قتل: «لا نبرح حتى نناجز القوم». ودعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة. فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله ﷺ على الموت. وكان جابر بن عبد الله يقول: إن رسول الله ﷺ لم يبايعهم على الموت، ولكن بايعنا على ألاَّ نفر.

فبايع الناس، ولم يتخلف أحد من المسلمين حضرها إلا الجد بن قيس أخو بنى سلمة، فكان جابر يقول: والله لكأنى أنظر إليه لاصقا بإبط ناقته، قد ضبأ إليها يستتر بها من الناس، ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذى كان من أمر عثمان باطل.[٢]

وذكر ابن لهيعة، عن الأسود[٣]، عن عروة بن الزبير قريبا من هذا السياق، وزاد فى سياقه : أن قريشا بعثوا وعندهم عثمان [بن عفان][٤] سهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى، ومكرز بن حفص إلى رسول الله ﷺ، فبينما هم عندهم إذا وقع كلام بين[٥] بعض المسلمين وبعض المشركين، وترامو بالنبل والحجارة، وصاح الفريقان كلاهما، وارتهن كل من الفريقين من عنده من الرسل، ونادى منادى رسول الله ﷺ: ألا إن روح القدس قد نزل على رسول الله ﷺ، وأمر بالبيعة، فاخرجوا على اسم الله فبايعوا، فسار المسلمون إلى رسول الله ﷺ وهو تحت الشجرة فبايعوه على ألا يفروا أبدا، فأرعب ذلك المشركين[٦]، وأرسلوا من كان عندهم من المسلمين، ودعوا إلى الموادعة والصلح.

وقال الحافظ أبو بكر البيهقى: أخبرنا على بن أحمد بن عبدان، أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار، حدثنا تمتام[٧]، حدثنا الحسن بن بشر[٨]، حدثنا الحكم بن عبد الملك، عن قتادة، عن أنس[٩] بن مالك، قال: لما أمر رسول الله ﷺ ببيعة الرضوان كان عثمان بن عفان [رضى الله عنه][١٠] رسول رسول الله ﷺ إلى أهل مكة، فبايع الناس، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم إن عثمان فى حاجة الله وحاجة رسوله». فضرب بإحدى يديه على الأخرى، فكانت يد رسول الله ﷺ لعثمان خيرا من أيديهم لأنفسهم[١١].

---

(١) زيادة من ت،م.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٣١٥).

(٣) فى ت: «أبى الأسود».

(٤) زيادة من أ.

(٥) فى م «من».

(٦) فى ت: «المشركون» وهو خطأ.

(٧) فى أ،م: «هشام».

(٨) فى أ: «بشير».

(٩) فى ت: «وروى البيهقى بسنده».

(١٠) زيادة من ت.

(١١) لم أجده فى دلائل النبوة، ولعله فى غيره.

www.Quranpdf.blogspot.in

قال ابن هشام[١]: وحدثنى من أثق به عمن حدثه بإسناد له، عن ابن أبى مليكة[٢]، عن ابن عمر قال: بايع رسول الله ﷺ لعثمان، فضرب بإحدى يديه على الأخرى.

وقال عبد الملك بن هشام النحوى: فذكر وكيع، عن إسماعل بن أبى خالد، عن الشعبى: أن أول من بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان أبو سنان الأسدى[٣].

وقال أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدى: حدثنا سفيان، حدثنا ابن أبى خالد، عن الشعبى، قال: لما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة، كان أول من انتهى إليه أبو سنان [الأسدى رضى الله عنه][٤]، فقال: ابسط يدك أبايعك. فقال النبى ﷺ: «علام تبايعنى؟». فقال أبو سنان: على ما فى نفسك. هذا أبو سنان [بن][٥] وهب الأسدى [رضى الله عنه][٦] [٧].

وقال البخارى: حدثنا شجاع بن الوليد، سمع النضر بن محمد: حدثنا صخر [بن الربيع][٨]، عن نافع، قال: إن الناس يتحدثون أن ابن عمر أسلم قبل عمر، وليس كذلك، ولكن عمر يوم الحديبية أرسل عبد الله إلى فرس له عند رجل من الأنصار أن يأتى به ليقاتل عليه، ورسول الله ﷺ يبايع عند الشجرة، وعمر لا يدرى بذلك، فبايعه عبد الله، ثم ذهب إلى الفرس فجاء به إلى عمر، وعمر يستلئم للقتال، فأخبره أن رسول الله ﷺ يبايع تحت الشجرة، فانطلق، فذهب معه حتى بايع رسول الله ﷺ، وهى التى يتحدث الناس أن ابن عمر[٩] أسلم قبل عمر.

ثم قال البخارى: وقال هشام بن عمار: حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا عمر بن محمد العمرى، أخبرنى نافع، عن ابن عمر، أن الناس كانوا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية قد تفرقوا فى ظلال الشجر، فإذا الناس محدقون بالنبى ﷺ فقال ـ يعنى عمر ـ: يا عبد الله، انظر ما شأن الناس قد أحدقوا برسول الله ﷺ. فوجدهم يبايعون، فبايع ثم رجع إلى عمر فخرج فبايع.

وقد أسنده البيهقى عن أبى[١٠] عمرو الأديب، عن أبى بكر الإسماعيلى، عن الحسن بن سفيان، عن دحيم: حدثنى الوليد بن مسلم فذكره[١١].

وقال الليث، عن أبى الزبير، عن جابر، قال: كنا يوم الحديبية ألفا وأربعمائة فبايعناه، وعمر آخذ بيده تحت الشجرة وهى سمرة، وقال: بايعناه على ألا نفر، ولم نبايعه على الموت. رواه مسلم، عن قتيبة، عنه[١٢].

وروى مسلم عن يحيى بن يحيى، عن يزيد بن زريع، عن خالد، عن الحكم بن عبد الله بن الأعرج، عن معقل بن يسار، قال: لقد رأيتنى يوم الشجرة والنبى ﷺ يبايع الناس[١٣]، وأنا رافع

(١) فى أ: «شهاب». (٢) فى أ: « عن أبى بكر بن أبى مليكة».
(٣) السيرة النبوية (٢/ ٣١٦).
(٤) زيادة من أ . (٥، ٦) زيادة من م،أ.
(٧) ورواه البيهقى فى دلائل النبوة (٤/ ١٣٧) من طريق الحميدى به.
(٨) زيادة من ت، أ. (٩) فى أ: «عبد الله بن عمر». (١٠) فى أ: «ابن».
(١١) صحيح البخارى برقم (٤١٨٧).
(١٢) صحيح مسلم برقم (١٨٥٦).
(١٣) فى م: «والناس يبايعون النبى».

www.Quranpdf.blogspot.in

غصنا من أغصانها عن رأسه، ونحن أربع عشرة مائة، قال: ولم نبايعه على الموت، ولكن بايعناه على ألا نفر[١].

وقال البخارى: حدثنا المكى بن إبراهيم، عن زيد بن أبى عبيد، عن سلمة بن الأكوع، قال: بايعت رسول الله ﷺ تحت الشجرة. قال يزيد: قلت: يا أبا مسلم[٢]، على أى شىء كنتم تبايعون يومئذ؟ قال: على الموت[٣].

وقال البخارى أيضا: حدثنا أبو عاصم، حدثنا يزيد بن أبى عبيد عن سلمة، قال: بايعت رسول الله ﷺ يوم الحديبية ثم تنحيت، فقال: «ياسلمة، ألا تبايع؟» قلت: بايعت، قال: «أقبل فبايع». فدنوت فبايعته. قلت: علام بايعته ياسلمة؟ قال: على الموت. وأخرجه مسلم من وجه آخر عن يزيد ابن أبى عبيد[٤]. وكذا روى البخارى عن عباد بن تميم، أنهم بايعوه على الموت[٥].

وقال البيهقى: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو الفضل بن إبراهم، حدثنا أحمد بن سلمة، حدثنا إسحاق بن إبراهم، حدثنا أبو عامر العقدى عبد الملك بن عمرو، حدثنا عكرمة بن عمار اليمامى، عن إياس بن سلمة، عن أبيه سلمة[٦] بن الأكوع قال: قدمنا الحديبية مع رسول الله ﷺ ونحن أربع عشرة مائة، وعليها خمسون شاة لا ترويها، فقعد رسول الله ﷺ على جباها ـ يعنى الركى ـ فإما دعا وإما بصق فيها، فجاشت، فسقينا واستقينا. قال: ثم إن رسول الله ﷺ دعا إلى البيعة فى أصل الشجرة. فبايعته أول الناس، ثم بايع وبايع، حتى إذا كان فى وسط الناس قال ﷺ: «بايعنى يا سلمة». قال: قلت: يا رسول الله، قد بايعتك فى أول الناس. قال: «وأيضا». قال: ورآنى رسول الله ﷺ عزلا فأعطانى حجفة ـ أو درقة ـ ثم بايع حتى إذا كان فى آخر الناس قال ﷺ: «ألا تبايع يا سلمة؟». قال: قلت: يا رسول الله، قد بايعتك[٧] فى أول الناس وأوسطهم. قال: «وأيضا». فبايعته الثالثة، فقال: «يا سلمة، أين حجفتك أو درقتك التى أعطيتك؟». قال: قلت: يا رسول الله، لقينى عامر عزلا فأعطيتها إياه: فضحك رسول الله ﷺ ثم قال: «إنك كالذى قال الأول: اللهم أبغنى حبيبا هو أحب إلى من نفسى» قال: ثم إن المشركين من أهل مكة راسلونا فى الصلح حتى مشى بعضنا فى بعض فاصطلحنا. قال: وكنت خادما لطلحة بن عبيد الله، رضى الله عنه، أسقى فرسه وأحسه[٨] وآكل من طعامه، وتركت أهلى ومالى مهاجرا إلى الله ورسوله. فلما اصطلحنا نحن وأهل مكة، واختلط بعضنا ببعض، أتيت شجرة فكسحت شوكها، ثم اضطجعت[٩] فى أصلها فى ظلها، فأتانى أربعة من مشركى أهل مكة، فجعلوا يقعون فى رسول الله ﷺ فأبغضتهم، وتحولت إلى شجرة أخرى فعلقوا سلاحهم واضطجعوا، فبينما هم كذلك إذا نادى مناد من أسفل الوادى: يا للمهاجرين، قتل ابن زنيم. فاخترطت سيفى، فشددت على أولئك الأربعة وهم

---

(١) صحيح مسلم برقم (١٨٥٨).
(٢) فى م: «سلمة».
(٣) صحيح البخارى برقم (٢٩٦٠).
(٤) صحيح مسلم برقم (١٨٦٠).
(٥) صحيح البخارى برقم (٢٩٥٩).
(٦) فى ت: «وقال البيهقى بسنده عن سلمة».
(٧) فى ت: «بايعت».
(٨) فى ت، م: «وأجنبه».
(٩) فى ت،م،أ: «واضطجعت»

www.Quranpdf.blogspot.in

رقود، فأخذت سلاحهم وجعلته ضغثا فى يدى، ثم قلت[١]: والذى كرم وجه محمد ﷺ، لايرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذى فيه عيناه، قال: ثم جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله ﷺ، قال: وجاء عمى عامر برجل من العبَلات يقال له: «مكرز» من المشركين يقوده، حتى وقفنا بهم على رسول الله ﷺ فى سبعين من المشركين، فنظر إليهم رسول الله ﷺ وقال: «دعوهم يكن لهم بدء الفجور وثناه»، فعفا عنهم رسول الله ﷺ، وأنزل الله [عز وجل][٢]: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ الآية [الفتح: ٢٤].

وهكذا رواه مسلم عن إسحاق بن إبراهيم بن راهويه بسنده نحوه، أو قريبا منه[٣].

وثبت فى الصحيحين من حديث أبى عوانة، عن طارق، عن سعيد بن المسيب، قال: كان أبى ممن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة. قال: فانطلقنا من قابل حاجين، فخفى علينا مكانها، فإن كان تبينت لكم، فأنتم أعلم[٤].

وقال أبو بكر الحميدى: حدثنا سفيان، حدثنا أبو الزبير، حدثنا[٥] جابر، قال: لما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة، وجدنا رجلا منا يقال له «الجد بن قيس» مختبئا تحت إبط بعيره».

رواه مسلم من حديث ابن جريج، عن ابن الزبير، به[٦].

وقال الحميدى أيضا: حدثنا سفيان[٧]، عن عمرو، سمع جابرا، قال: كنا يوم الحديبية ألفا وأربعمائة، فقال لنا رسول الله ﷺ «أنتم خير أهل الأرض اليوم». قال جابر: لو كنت أبصر[٨] لأريتكم موضع الشجرة. قال سفيان: إنهم اختلفوا فى موضعها. أخرجاه من حديث سفيان[٩].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا الليث. عن أبى الزبير، عن جابر، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة»[١٠].

وقال[١١] ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن هارون الفلاس المخرمى، حدثنا سعد بن عمرو الأشعثى، حدثنا محمد بن ثابت العبدى، عن خداش بن عياش، عن أبى الزبير، عن جابر، قال: قال رسول الله ﷺ: «يدخل من بايع تحت الشجرة كلهم الجنة إلا صاحب الجمل الأحمر». قال: فانطلقنا نبتدره فإذا رجل قد أضل بعيره، فقلنا: تعال فبايع. فقال: أصيب بعيرى أحب إلى من أن أبايع[١٢].

---

(١) فى ت،م: «وقلت». (٢) زيادة من ت،م.
(٣) دلائل النبوة للبيهقى (٤/١٣٨)، وصحيح مسلم برقم (١٨٠٧).
(٤) صحيح البخارى برقم (٤١٦٤) ،وصحيح مسلم برقم (١٨٥٩). واللفظ لمسلم.
(٥) فى م: «عن».
(٦) مسند الحميدى (٢/ ٥٣٧) ،وصحيح مسلم برقم (١٨٥٦).
(٧) فى ت: «وفى الصحيحين من حديث سفيان». (٨) فى ت،م: «أنظر».
(٩) مسند الحميدى (٢/ ٥١٤) ،وصحيح البخارى برقم (٤١٥٤)، وصحيح مسلم برقم (١٨٥٦).
(١٠) المسند (٣/ ٣٥٠).
(١١) فى ت: «وروى».
(١٢) وفى إسناده محمد بن ثابت العبدى، ضعفه ابن معين، وشيخه خداش بن عياش وثقه ابن حبان، وقال الترمذى: «لا نعرف خداشًا هذا من هو».

www.Quranpdf.blogspot.in

وقال عبد الله بن أحمد: حدثنا عبيد الله بن معاذ، حدثنا أبى، حدثنا قرة، عن أبى الزبير(١)، عن جابر، عن النبى ﷺ أنه قال: «من يصعد الثنية، ثنية المرار، فإنه يحط عنه ما حط عن بنى إسرائيل». فكان أول من صعد خيل بنى(٢) الخزرج، ثم تبادر الناس بعد، فقال رسول الله ﷺ: «كلكم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر». فقلنا: تعال يستغفر لك رسول الله [ﷺ](٣). فقال: والله لأن أجد ضالتى أحب إلى من أن يستغفر لى صاحبكم. فإذا هو رجل ينشد ضالة(٤). رواه مسلم عن عبيد الله، به(٥).

وقال ابن جريج: أخبرنى أبو الزبير، أنه سمع جابرا يقول: أخبرتنى أم مبشر أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول عند حفصة: «لا يدخل النار ـ إن شاء الله ـ من أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها أحد». قالت: بلى يا رسول الله. فانتهرها، فقالت لحفصة: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]، فقال النبى ﷺ: «قد قال الله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾» [مريم: ٧٢]، رواه مسلم(٦).

وفيه أيضا عن قتيبة، عن الليث، عن أبى الزبير، عن جابر؛ أن عبدًا لحاطب بن أبى بلتعة جاء يشكو حاطبا، فقال: يا رسول الله، ليدخلن حاطب النار، فقال رسول الله ﷺ: «كذبت، لا يدخلها؛ فإنه قد شهد بدرا والحديبية»(٧).

ولهذا قال تعالى فى الثناء عليهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠]، كما قال تعالى فى الآية الأخرى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١١) بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا (١٢) وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (١٣) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٤)﴾.

---

(١) فى ت: «وقال عبد الله بن أحمد بسنده».
(٢) فى أ: «من».
(٣) زيادة من ت.
(٤) فى أ: «ضالته».
(٥) صحيح مسلم برقم (٢٧٨٠).
(٦) صحيح مسلم برقم (٢٤٩٦).
(٧) صحيح مسلم برقم (٢٤٩٤).

www.Quranpdf.blogspot.in

يقول تعالى مخبرا رسوله[١] ـ صلوات الله وسلامه عليه[٢] ـ بما يعتذر به المخلفون من الأعراب الذين اختاروا المقام فى أهليهم وشغلهم[٣]، وتركوا المسير مع رسول الله ﷺ، فاعتذروا بشغلهم بذلك، وسألوا أن يستغفر لهم الرسول[٤] ﷺ، وذلك قول منهم لا على سبيل الاعتقاد، بل على وجه التقية والمصانعة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ أى: لا يقدر أحد أن يرد ما أراده فيكم تعالى وتقدس، وهو العليم بسرائركم وضمائركم، وإن صانعتمونا وتابعتمونا[٥]؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

ثم قال: ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ أى: لم يكن تخلفكم تخلف معذور ولا عاص، بل تخلف نفاق، ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ أى: اعتقدتم أنهم يقتلون وتستأصل شأفتهم، وتستباد خضراؤهم، ولا يرجع منهم مخبر، ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ أى: هلكى. قاله ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد. وقال قتادة: فاسدين. وقيل: هى بلغة عمان.

ثم قال: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أى: من لم يخلص العمل فى الظاهر والباطن لله، فإن الله تعالى سيعذبه فى السعير، وإن أظهر للناس ما يعتقدون خلاف ما هو عليه فى نفس الأمر.

ثم بين تعالى أنه الحاكم المالك المتصرف فى أهل السموات والأرض: ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ أى: لمن تاب إليه وأناب، وخضع لديه.

﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٥) ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن الأعراب الذين تخلفوا عن النبى ﷺ فى غزوة[٦] الحديبية، إذ ذهب النبى ﷺ وأصحابه إلى خيبر يفتتحونها: أنهم يسألون أن يخرجوا معهم إلى المغنم، وقد تخلفوا عن وقت محاربة الأعداء ومجالدتهم ومصابرتهم، فأمر الله رسوله ﷺ ألا يأذن لهم فى ذلك، معاقبة لهم من جنس ذنبهم. فإن الله تعالى وعد أهل الحديبية بمغانم خيبر وحدهم لا يشركهم فيها غيرهم من الأعراب المتخلفين، فلا[٧] يقع غير ذلك شرعا وقدرا؛ ولهذا قال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ﴾ . قال مجاهد، وقتادة، وجويبر: وهو الوعد الذى وعد به أهل الحديبية. واختاره ابن جرير[٨].

---

(١) فى ت،م: «لرسوله». (٢) فى ت: «ﷺ». (٣) فى ت،أ: «والشغل بهم».
(٤) فى م: «رسول الله». (٥) فى ت: «أو نافقتمونا». (٦) فى ت،م،أ: «عمرة».
(٧) فى ت: «ولا».
(٨) تفسير الطبرى (٢٦/ ٥٠).

www.Quranpdf.blogspot.in

وقال ابن زيد: هو قوله: ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴾ [التوبة: ٨٣].

وهذا الذى قاله ابن زيد فيه نظر؛ لأن هذه الآية التى فى «براءة» نزلت فى غزوة تبوك، وهى متأخرة عن غزوة[1] الحديبية.

وقال ابن جريج: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ يعنى: بتثبيطهم المسلمين عن الجهاد.

﴿ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ أى: وعد الله أهل الحديبية قبل سؤالكم[2] الخروج معهم، ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أى: أن نشرككم فى المغانم، ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أى: ليس الأمر كما زعموا، ولكن لا فهم لهم[3].

﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦) لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (١٧) ﴾.

اختلف المفسرون فى هؤلاء القوم الذين يدعون إليهم، الذين هم أولو بأس شديد، على أقوال:

أحدها: أنهم هوازن. رواه شعبة عن أبى بِشْر، عن سعيد بن جبير ـ أو عكرمة[4]، أو جميعا ـ ورواه هُشيم عن أبى بشر، عنهما. وبه يقول قتادة فى رواية عنه.

الثانى: ثقف، قاله الضحاك.

الثالث: بنو حنيفة، قاله جويبر. ورواه محمد بن إسحاق، عن الزهرى. وروى مثله عن سعيد وعكرمة.

الرابع: هم أهل فارس. رواه على بن أبى طلحة، عن ابن عباس، وبه يقول عطاء، ومجاهد، وعكرمة ـ فى إحدى الروايات عنه.

وقال كعب الأحبار: هم الروم. وعن ابن أبى ليلى، وعطاء، والحسن، وقتادة: هم فارس والروم. وعن مجاهد: هم أهل الأوثان. وعنه أيضا: هم رجال أولو بأس شديد، ولم يعين فرقة. وبه يقول ابن جريج، وهو اختيار ابن جرير.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا الأشج، حدثنا عبد الرحمن بن الحسن القواريرى، عن مَعْمَر[5]، عن

---

(١) فى ت، م، أ: «عمرة». (٢) فى ت، م: «قبل أن يسالوكم». (٣) فى ت، أ: «لأنهم عدو لهم».
(٤) فى ت: «هوازن قاله عكرمة». (٥) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بسنده».

www.Quranpdf.blogspot.in

الزهرى، فى قوله: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ قال: لم يأت أولئك بعد.

وحدثنا أبى، حدثنا ابن أبى عمر، حدثنا سفيان، عن ابن أبى خالد، عن أبيه، عن أبى هريرة فى قوله: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ قال: هم البارزون.

قال: وحدثنا سفيان، عن الزهرى، عن سعيد بن المسيب، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوما صغار الأعين، ذلف الآنف، كأن وجوههم المجانّ المطرقة». قال سفيان: هم الترك[١].

قال ابن أبى عمر: وجدت فى مكان[٢] آخر: ابن أبى خالد عن أبيه قال: نزل علينا أبو هريرة ففسر قول رسول الله ﷺ: «تقاتلون قومًا نعالهم الشَّعْر»، قال: هم البارزون، يعنى الأكراد[٣].

وقوله: ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ يعنى: يشرع لكم جهادهم وقتالهم، فلا يزال ذلك مستمرا عليهم، ولكم النصرة عليهم، أو يسلمون فيدخلون فى دينكم بلا قتال بل باختيار.

ثم قال: ﴿فَإِن تُطِيعُوا﴾ أى: تستجيبوا وتنفروا فى الجهاد وتؤدوا الذى عليكم فيه، ﴿يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ يعنى: زمن الحديبية، حيث دعيتم[٤] فتخلفتم، ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

ثم ذكر الأعذار فى ترك الجهاد، فمنها لازم كالعمى والعرج المستمر، وعارض كالمرض الذى يطرأ أياما ثم يزول، فهو فى حال مرضه ملحق بذوى الأعذار اللازمة حتى يبرأ.

ثم قال تعالى مرغبا فى الجهاد وطاعة الله ورسوله: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أى: ينكل عن الجهاد، ويقبل على المعاش ﴿يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فى الدنيا بالمذلة، وفى الآخرة بالنار.

﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩) ﴾.

يخبر تعالى عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة، وقد تقدم ذكر عدتهم، وأنهم كانوا ألفا وأربعمائة، وأن الشجرة كانت سمرة بأرض الحديبية.

---

(١) ورواه ابن أبى شيبة فى المصنف برقم (١٩١٩٩) والبخارى فى صحيحه برقم (٢٩٢٩) من طريق سفيان عن الزهرى بإسناده: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوما كأن وجوههم المجان المطرقة» ورواه البخارى فى صحيحه برقم (٢٩٢٨) من طريق صالح، عن الأعرج عن أبى هريرة بنحوه.

(٢) فى ت: «وقال ابن أبى عمرو وحديث فى موضع».

(٣) وقد ذكر بعض المؤرخين أن أصحاب بابك المخرمى كانوا ينتعلون الشعر، فهم المقصودون بهذا الحديث.

(٤) فى ت: «ذهبتم».

www.Quranpdf.blogspot.in

قال البخاري: حدثنا محمود، حدثنا عبيد الله، عن إسرائيل، عن طارق بن عبد الرحمن قال: انطلقت حاجًا فمررت بقوم يصلون، فقلت[١]: ما هذا المسجد؟ قالوا: هذه الشجرة، حيث بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان. فأتيت سعيد بن المسيب فأخبرته، فقال سعيد: حدثني أبي أنه كان فيمن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة. قال: فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها فلم نقدر عليها، فقال سعيد: إن أصحاب محمد ﷺ لم يعلموها وعلمتموها أنتم، فأنتم أعلم[٢].

وقوله: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: من الصدق والوفاء، والسمع والطاعة، ﴿فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ﴾: وهي الطمأنينة، ﴿عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾: وهو ما أجرى الله على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم، وما حصل بذلك من الخير العام المستمر المتصل بفتح خيبر وفتح مكة، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم عليهم، وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة في الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا[٣] وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

قال[٤] ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد القطان، حدثنا عبيد الله بن موسى، أخبرنا موسى ـ يعني ابن عبيدة ـ حدثني إياس[٥] بن سلمة، عن أبيه، قال: بينما نحن قائلون. إذا نادى منادي رسول الله ﷺ: أيها الناس، البيعة البيعة، نزل روح القدس. قال: فثرنا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه، فذلك قول الله تعالى[٦]: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾[قال][٧]: فبايع لعثمان بإحدى يديه على الأخرى، فقال الناس: هنيئًا لابن عفان، طوف بالبيت ونحن[٨] هاهنا. فقال رسول الله ﷺ: «لو مكث كذا كذا سنة ما طاف حتى أطوف»[٩].

﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾.

---

(١) في م: «وقلت».
(٢) صحيح البخاري برقم (٤١٦٣).
(٣) في ت: «تأخذونها».
(٤) في ت: «وروى».
(٥) في ت: «عن أبان».
(٦) في ت، م: «فذلك قوله تعالى».
(٧) زيادة من ت، م.
(٨) في ت، م: «وذكر».
(٩) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (١/ ٩٠) من طريق عبيد الله بن موسى به، قال الهيثمي في المجمع (٩/ ٨٤): «فيه موسى بن عبيدة وهو ضعيف».

www.Quranpdf.blogspot.in

قال مجاهد فى قوله: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ : هى جميع المغانم إلى اليوم، ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ يعنى: فتح خيبر.

وروى العوفى عن ابن عباس: ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ يعنى: صلح الحديبية.

﴿ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ﴾ أى: لم ينلكم سوء مما كان أعداؤكم أضمروه لكم من المحاربة والقتال. وكذلك كف أيدى الناس [عنكم][1] الذين خلفتموهم وراء أظهركم عن عيالكم وحريمكم، ﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾أى: يعتبرون بذلك، فإن الله حافظهم وناصرهم على سائر الأعداء، مع قلة عددهم، وليعلموا بصنيع الله هذا بهم أنه العليم بعواقب الأمور، وأن الخيرة فيما يختاره لعباده المؤمنين وإن كرهوه فى الظاهر، كما قال: ﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١٦].

﴿ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أى: بسبب انقيادكم لأمره واتباعكم طاعته، وموافقتكم رسوله[2].

وقوله: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ أى: وغنيمة أخرى وفتحا آخر معينا لم تكونوا تقدرون عليها، قد يَسَّرها الله عليكم، وأحاط بها لكم، فإنه تعالى يرزق عباده المتقين له من حيث لا يحتسبون.

وقد اختلف المفسرون فى هذه الغنيمة، ما المراد بها؟ فقال العَوْفى عن ابن عباس: هى خيبر. وهذا على قوله فى قوله تعالى: ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ :إنها صلح الحديبية. وقاله الضحاك، وابن إسحاق، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقال قتادة: هى مكة. واختاره ابن جرير.

وقال ابن أبى ليلى، والحسن البصرى: هى فارس والروم.

وقال مجاهد: هى كل فتح وغنيمة إلى يوم القيامة.

وقال أبو داود الطيالسى: حدثنا شعبة، عن سِمَاك الحنَفَى، عن ابن عباس: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ﴾ قال: هذه الفتوح التى تفتح إلى اليوم[3].

وقوله: ﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ يقول تعالى مبشرا لعباده المؤمنين: بأنه لو ناجزهم المشركون لنصر الله رسوله وعباده المؤمنين عليهم، ولانهزم جيش الكفار[4] فارا مدبرا لا يجدون وليا ولا نصيرا؛ لأنهم محاربون لله ولرسوله ولحزبه[5] المؤمنين.

ثم قال: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أى: هذه سنة الله وعادته فى خلقه، ما تقابل الكفر والإيمان فى موطن فيصل إلى نصر الله الإيمان على الكفر، فرفع الحق ووضع الباطل، كما فعل تعالى يوم بدر بأوليائه المؤمنين نصرهم على أعدائه من المشركين، مع قلة عدد المسلمين وعُدَدهم، وكثرة المشركين وعددهم[6].

(١) زيادة من ت. (٢) فى ت، م: «لرسوله». (٣) فى ت: « إلى يوم القيامة».
(٤) فى م: «الكفر». (٥) فى ت، أ: « ولعباده». (٦) فى ت، م: «ومددهم».

www.Quranpdf.blogspot.in

وقوله: ﴿**وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا**﴾: هذا امتنان من الله على عباده المؤمنين حين كف أيدى المشركين عنهم، فلم يصل[1] إليهم منهم سوء، وكفّ أيدى المؤمنين من المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام، بل صان كلاً من الفريقين، وأوجد بينهم صلحا فيه خيَرَةٌ للمؤمنين، وعاقبة لهم فى الدنيا والآخرة. وقد تقدم فى حديث سلمة بن الأكوع حين جاؤوا بأولئك السبعين الأسارى فأوثقوهم بين يدى رسول الله ﷺ فنظر إليهم وقال: «أرسلوهم يكن لهم بدء الفجور وثِنَاه». قال: وفى ذلك أنزل الله: ﴿**وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم**﴾ الآية.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا حماد، عن ثابت، عن أنس بن مالك قال: لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلا من أهل مكة فى السلاح، من قبل جبل التنعيم، يريدن غرة رسول الله ﷺ، فدعا عليهم فأخذوا ـ قال عفان: فعفا عنهم ـ ونزلت هذه الآية: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ**﴾.

ورواه مسلم وأبو داود فى سننه، والترمذى والنسائى فى التفسير من سننيهما، من طرق، عن حماد بن سلمة، به[2].

وقال أحمد ـ أيضا ـ: حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا الحسين بن واقد، حدثنا ثابت البُنَانى، عن[3] عبد الله بن مُغَفَّل المُزَنى قال: كنا مع رسول الله ﷺ فى أصل الشجرة التى قال الله تعالى فى القرآن، وكان يقع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله ﷺ، وعلى بن أبى طالب. وسهيلُ بن عمرو بين يديه، فقال رسول الله ﷺ لعلى: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم»، فأخذ سهيل بيده وقال: ما نعرف الرحمن الرحيم. اكتب فى قضيتنا ما نعرف. قال: «اكتب بسمك اللهم»، وكتب: «هذا ما صالح عليه محمد رسول الله أهل مكة». فأمسك سهيل بن عمرو بيده وقال: لقد ظلمناك إن كنت رسوله، اكتب فى قضيتنا ما نعرف. فقال: «اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله». فبينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شابا عليهم السلاح، فثاروا فى[4] وجوهنا، فدعا عليهم رسول الله ﷺ، فأخذ الله بأسماعهم، فقمنا إليهم فأخذناهم، فقال رسول الله ﷺ: «هل جئتم فى عهد أحد؟ أو: هل[5] جعل لكم أحد أمانا؟». فقالوا: لا. فخلى سبيلهم، فأنزل الله: ﴿**وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا**﴾. رواه النسائى من حديث حسين بن واقد، به[6].

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حُمَيْد، حدثنا يعقوب القُمّى، حدثنا جعفر، عن ابن أبْزَى قال: لما

---

(١) فى ت: «تصل».

(٢) المسند (٣/١٢٢) وصحيح مسلم برقم (١٨٠٨) وسنن أبى داود برقم (٢٦٨٨) وسنن الترمذى برقم (٣٢٦٤) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٥١٠).

(٣) فى ت: «بن».

(٤) فى ت، م: «إلى».

(٥) فى ت: «وهل».

(٦) المسند (٤/٨٦) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٥١١).

www.Quranpdf.blogspot.in

خرج النبى ﷺ بالهدى وانتهى إلى ذى الحليفة، قال له عمر: يا نبى الله، تدخل على قوم لك حَرْب بغير سلاح ولا كُرَاع؟ قال: فبعث إلى المدينة، فلم يدع فيها كُرَاعا ولا سلاحا إلا حمله، فلما دنا من مكة منعوه أن يدخل، فسار حتى أتى منى، فنزل بمنى، فأتاه عينه أن عكرمة بن أبى جهل قد خرج عليك فى خمسمائة، فقال لخالد بن الوليد: «يا خالد، هذا ابن عمك أتاك فى الخيل[١]»، فقال خالد: أنا سيف الله، وسيف رسوله ـ فيومئذ سمى سيف الله ـ يا رسول الله، ارم بى أين شئت. فبعثه على خيل، فلقى عكرمة فى الشعب فهزمه حتى أدخله حيطان مكة، ثم عاد فى الثانية فهزمه حتى أدخله حيطان مكة، ثم عاد فى الثالثة فهزمه حتى أدخله حيطان مكة، فأنزل الله: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ [مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ]**[٢] ﴾ إلى: ﴿ **عَذَابًا أَلِيمًا** ﴾. قال: فكف الله النبى عنهم من بعد أن أظفره[٣] عليهم لبقايا من المسلمين كانوا بقوا فيها كراهية أن تطأهم الخيل[٤].

ورواه ابن أبى حاتم عن ابن أبزى بنحوه. وهذا السياق فيه نظر؛ فإنه لا يجوز أن يكون عام الحديبية؛ لأن خالدا لم يكن أسلم، بل قد كان طليعة المشركين[٥] يومئذ، كما ثبت فى الصحيح. ولا يجوز أن يكون فى عمرة القضاء، لأنهم قاضوه على أن يأتى من العام المقبل[٦] فيعتمر ويقيم بمكة ثلاثة أيام، فلما قدم لم يمانعوه ولا حاربوه ولا قاتلوه. فإن قيل: فيكون يوم الفتح؟ فالجواب: ولا يجوز أن يكون يوم الفتح؛ لأنه لم يسق عام الفتح هَدياً، وإنما جاء محاربا مقاتلا فى جيش عَرَمْرَم، فهذا السياق فيه خلل، قد وقع فيه شىء فليتأمل، والله أعلم.

وقال ابن إسحاق: حدثنى من لا أتهم، عن عكرمة مولى ابن عباس: أن قريشا بعثوا أربعين رجلا منهم أو خمسين، وأمروهم أن يُطيفُوا بعسكر رسول الله ﷺ ليصيبوا من أصحابه أحداً، فأُخذُوا أخذاً، فأُتى بهم رسول الله ﷺ، فعفا عنهم وخلى سبيلهم، وقد كانوا رموا إلى[٧] عسكر رسول الله ﷺ[٨] بالحجارة والنبل. قال ابن إسحاق: وفى ذلك أنزل الله: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم** ﴾ الآية[٩].

وقال قتادة: ذكر لنا أن رجلاً يقال له: «ابن زُنَيْم» اطلع على الثنية من الحديبية، فرماه المشركون بسهم فقتلوه، فبعث رسول الله ﷺ خيلا، فأتوه باثنى عشر فارسًا من الكفار، فقال لهم: «هل لكم على عهد؟ هل لكم على ذمة؟». قالوا: لا. فأرسلهم، وأنزل الله فى ذلك: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم** ﴾ الآية.

---

(١) فى أ: «الجبل». (٢) زيادة من ت.
(٣) فى أ: «أظفركم».
(٤) تفسير الطبرى (٢٦/٥٩).
(٥) فى أ: «للمشركين».
(٦) فى ت: «قابل». (٧) فى أ: «فى».
(٨) فى ت، م: «عسكر المسلمين».
(٩) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٦/٥٩).

www.Quranpdf.blogspot.in

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٢٦)﴾.

يقول تعالى مخبرًا عن الكفار من مشركى العرب من قريش ومن مالأهم[١] على نصرتهم على رسول الله ﷺ: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: هم الكفار دون غيرهم، ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أى: وأنتم أحق به، وأنتم أهله فى نفس الأمر، ﴿وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ أى: وصدوا الهدى أن يصل[٢] إلى محله، وهذا من بغيهم وعنادهم، وكان الهدىُ سبعين بدنة، كما سيأتى بيانه.

وقوله:﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ﴾ أى: بين أظهرهم ممن يكتم إيمانه ويخفيه منهم خيفة على أنفسهم من قومهم، لكنا سَلَّطناكم عليهم فقتلتموهم وأبدتم خضراءهم، ولكن بين أفنائهم من المؤمنين والمؤمنات أقوام لا تعرفونهم حالة[٣] القتل؛ ولهذا قل: ﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ﴾ أى: إثم وغرامة ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ أى: يؤخر عقوبتهم ليخلص من بين أظهرهم المؤمنين، وليرجع كثير منهم إلى الإسلام.

ثم قال: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ أى: لو تميز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم ﴿لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أى: لسلطناكم عليهم فلقتلتموهم قتلا ذريعا.

قال الحافظ أبو القاسم الطبرانى: حدثنا أبو الزِّنْباع ـ روح بن الفرج ـ حدثنا عبد الرحمن بن أبى عباد المكى، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله[٤] أبو سعيد ـ مولى بنى هاشم ـ حدثنا حُجْر بن خلف: سمعت عبد الله بن عوف[٥] يقول[٦]: سمعت[٧] جنيد بن سبع يقول[٨]: قاتلت رسول الله ﷺ أول النهار كافرا، وقاتلت معه آخر النهار مسلما، وفينا نزلت:﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ﴾. قال: كنا تسعة نفر: سبعة رجال وامرأتين[٩].

ثم رواه من طريق أخرى عن محمد بن عباد المكى به، وقال فيه: عن أبى جمعة جنيد بن سبع، فذكره[١٠] والصواب أبو جعفر:حبيب بن سباع.ورواه ابن أبى حاتم من حديث حجر بن خلف[١١]،

---

(١) فى ت،أ:«ولا هم». (٢) فى ت:«يبلغ». (٣) فى أ:«حال».
(٤) فى م،أ:« عبيد الله». (٥) فى أ:«عمرو». (٦) فى ت:«روى الحافظ الطبرانى بسنده».
(٧) فى ت:«عن». (٨) فى ت:«قال».
(٩) المعجم الكبير (٢/ ٢٩٠).
(١٠) المعجم الكبير (٤/ ٢٤).
(١١) فى أ:«حنيف».

www.Quranpdf.blogspot.in

به. وقال: كنا ثلاثة[١] رجال وتسع نسوة، وفينا نزلت: ﴿وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ﴾.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا محمد بن إسماعيل البخارى، حدثنا عبد الله ابن عثمان بن جبلة، عن أبى حمزة[٢]، عن عطاء، عن سعيد بن جبير[٣]، عن ابن عباس: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يقول: لو تزيل الكفار من المؤمنين، لعذبهم الله عذابا أليما بقتلهم إياهم.

وقوله: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾، وذلك حين أبوا أن يكتبوا «بسم الله الرحمن الرحيم»، وأبوا أن يكتبوا: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله»، ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾، وهى قول: «لا إله إلا الله»، كما قال ابن جرير، وعبد الله ابن الإمام أحمد: حدثنا الحسن بن قزعة أبو على البصرى، حدثنا سفيان بن حبيب، حدثنا شعبة، عن ثوير[٤]، عن أبيه، عن الطفيل ـ يعنى: ابن أبى بن كعب[٥] [رضى الله عنه][٦] ـ عن أبيه، [أنه][٧] سمع رسول الله ﷺ يقول: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾، قال: «لا إله إلا الله».

وكذا رواه الترمذى عن الحسن بن قزعة، وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديثه، وسألت أبا زُرْعَة عنه فلم يعرفه إلا من هذا الوجه[٨].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن منصور الرمادى، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثنى الليث، حدثنى عبد الرحمن بن خالد، عن ابن شهاب[٩]، عن سعيد بن المسيب، أن أبا هريرة أخبره، أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله، فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله»، وأنزل الله فى كتابه، وذكر قوما فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾[الصافات: ٣٥]، وقال الله جل ثناؤه: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ وهى: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، فاستكبروا عنها واستكبر عنها المشركون[١٠] يوم الحديبية، وكاتبهم رسول الله ﷺ على قضية المدة.

وكذا رواه بهذه الزيادات ابن جرير من حديث الزهرى[١١]، والظاهر أنها مدرجة من كلام الزهرى، والله أعلم.

وقال مجاهد: ﴿كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾: الإخلاص. وقال عطاء بن أبى رباح: هى لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير.

---

(١) فى م: «ثلاث». (٢) فى أ: «عن أبى هريرة». (٣) فى ت: «روى ابن أبى حاتم بسنده».
(٤) فى أ: «ثور». (٥) فى ت: «كما روى ابن جرير بسنده عن أبى بن كعب».
(٦) زيادة من ت. (٧) زيادة من ت، م.
(٨) تفسير الطبرى (٢٦/ ٦٦) وزوائد عبد الله على المسند (٥/ ١٣٨) وسنن الترمذى برقم (٣٢٦٥).
(٩) فى ت: «وروى بن أبى حاتم بسنده». (١٠) فى أ: «قريش».
(١١) تفسير الطبرى (٢٦/ ٦٦).

www.Quranpdf.blogspot.in

وقال يونس بن بكير، عن ابن إسحاق، عن الزهرى، عن عروة، عن المسور: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ قال: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له.

وقال الثورى، عن سلمة بن كهيل، عن عَبَاية بن رِبْعِى، عن على: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ قال: لا إله إلا الله، والله أكبر. وكذا قال ابن عمر، رضى الله عنهما.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ قال: يقول: شهادة أن لا إله إلا الله، وهى رأس كل تقوى.

وقال سعيد بن جبير: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ قال: لا إله إلا الله، والجهاد فى سبيله.

وقال عطاء الخراسانى: هى: لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

وقال عبد الله بن المبارك، عن مَعْمَر، عن الزهرى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ قال: بسم الله الرحمن الرحيم.

وقال قتادة: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ قال: لا إله إلا الله.

﴿ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾: كان المسلمون أحق بها، وكانوا أهلها.

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أى: هو عليم بمن يستحق الخير من يستحق الشر.

وقد قال النسائى: حدثنا إبراهيم بن سعيد، حدثنا شبابة بن سوار، عن أبى رزين، عن عبد الله ابن العلاء بن زبر، عن بسر بن عبيد الله، عن أبى إدريس، عن أبى بن كعب أنه كان يقرأ: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [الفتح:٢٦]، ولو حميتم كما حموا لفسد المسجد الحرام. فبلغ ذلك عمر فأغلظ له، فقال: إنك لتعلم أنى كنت أدخل على رسول الله ﷺ فيعلمنى مما علمه الله. فقال عمر: بل أنت رجل عندك علم وقرآن، فاقرأ وعلم مما علمك الله ورسوله[(١)].

وهذا ذكر الأحاديث الواردة فى قصة الحديبية وقضية الصلح:

قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا محمد بن إسحاق بن يَسَار، عن الزهرى، عن عُرْوَة بن الزبير، عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قالا: خرج رسول الله ﷺ عام الحديبية يريد زيارة البيت، لا يريد قتالا، وساق معه الهدى سبعين بدنة، وكان الناس سبعمائة رجل، فكانت كل بدنة عن عشرة، وخرج رسول الله ﷺ حتى إذ كان بعسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبى[(٢)]، فقال: يا رسول الله، هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجت معها العُوذ المطافيل، قد لبست جلود النمور، يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم عنوة أبداً، وهذا خالد بن الوليد فى خيلهم قد قدموه إلى كراع الغميم، فقال رسول الله ﷺ: «يا ويح قريش! قد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر

(١) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٥٠٥).
(٢) فى ت: «بشر بن كعب الكلبى».

www.Quranpdf.blogspot.in

الناس؟ فإن أصابونى كان الذى أرادوا، وإن أظهرنى الله [عليهم][1] دخلوا فى الإسلام وهم وافرون، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فماذا تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهدهم على الذى بعثنى الله به حتى يظهرنى الله أو تنفرد هذه السالفة». ثم أمر الناس فسلكوا ذات اليمين بين ظهرى الحمض على طريق تخرجه[2] على ثنية المرار والحديبية من أسفل مكة. قال: فسلك بالجيش تلك الطريق، فلما رأت خيل قريش قترة الجيش قد خالفوا عن طريقهم، ركضوا راجعين إلى قريش، فخرج رسول الله ﷺ، حتى إذا سلك ثنية المرار، بركت ناقته، فقال الناس: خلأت. فقال رسول الله ﷺ: «ما خلأت، و ما ذلك[3] لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، والله لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألونى فيها صلة الرحم، إلا أعطيتهم إياها». [ثم][4] قال للناس: «انزلوا». قالوا: يا رسول الله، ما بالوادى من ماء ينزل عليه الناس. فأخرج رسول الله ﷺ سهماً من كنانته فأعطاه رجلا من أصحابه، فنزل فى قليب من تلك القلب، فغرزه فيه فجاش بالماء حتى ضرب الناس عنه بعطن. فلما اطمأن رسول الله ﷺ، إذا بُدَيل بن ورقاء فى رجال من خزاعة، فقال لهم كقوله لبشر بن سفيان، فرجعوا إلى قريش فقالوا: يا معشر قريش، إنكم تعجلون على محمد، وإن محمداً لم يأت لقتال، إنما جاء زائراً لهذا البيت معظماً لحقه، فاتهموهم.

قال محمد بن إسحاق: قال الزهرى: [و][5] كانت خزاعة فى عَيْبَة رسول الله ﷺ مشركها ومسلمها، لا يخفون على رسول الله ﷺ شيئاً كان بمكة، فقالوا: وإن كان إنما جاء لذلك فوالله لا يدخلها أبداً علينا عَنْوة، ولا يتحدث بذلك العرب. ثم بعثوا إليه مِكْرَز بن حفص، أحد بنى عامر بن لؤى، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «هذا رجل غادر». فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ كلمه رسول الله ﷺ بنحو ما كَلَّم به أصحابه، ثم رجع إلى قريش فأخبرهم بما قال له رسول الله [ﷺ][6]؛ فبعثوا إليه الحليس بن علقمة الكنانى، وهو يومئذ سيد الأحابيش، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «هذا من قوم يتألهون، فابعثوا الهَدْى» فى وجهه، فبعثوا الهدى، فلما رأى الهدى يسيل عليه من عُرْض الوادى فى قلائده قد أكل أوتاره من طول الحبس عن محله، رجع ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاماً لما رأى[7]، فقال: يا معشر قريش، قد رأيت ما لا يحل صَدَه، الهدى فى قلائده قد أكل أوتاره من طول الحبس عن محله. قالوا: اجلس، إنما أنت أعرابى لا علم لك. فبعثوا إليه عروة بن مسعود الثقفى، فقال: يا معشر قريش، إن قد رأيت ما يلقى منكم من تبعثون إلى محمد إذا جاءكم، من التعنيف وسوء اللفظ، وقد عرفتم أنكم والد وأنى ولد، وقد سمعت بالذى نابكم، فجمعت من أطاعنى من قومى، ثم جئت حتى آسيتكم بنفسى. قالوا: صدقت، ما أنت عندنا بمتهم. فخرج[8] حتى أتى رسول الله ﷺ فجلس بين يديه، فقال: يا محمد، جمعت أوباش الناس، ثم جئت بهم لبيضتك لتفضها، إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل، قد لبسوا جلود النمور، يعاهدون الله

---

(١) زيادة من أ.
(٢) فى أ: «يحرصه».
(٣) فى ت: «وما ذاك».
(٤) زيادة من ت، م، أ.
(٥) زيادة من ت، م.
(٦) زيادة من ت، م.
(٧) فى ت: «فلما رجع إلى أصحابه».
(٨) فى أ: «ثم خرج».

www.Quranpdf.blogspot.in

ألا تدخلها عليهم عنوة أبدا، وايم الله لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدا. قال: وأبو بكر قاعد خلف رسول الله ﷺ، فقال: امصص بظر اللات! أنحن ننكشف عنه؟! قال: من هذا يا محمد؟ قال: «هذا ابن أبى قحافة». قال: أما والله لولا يد كانت لك عندى لكافأتك بها، ولكن هذه بها. ثم تناول لحية رسول الله ﷺ، والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله ﷺ فى الحديد[١]، قال: فقرع يده. ثم قال: أمسك يدك عن لحية رسول الله ﷺ قبل ـ والله ـ لا تصل إليك. قال: ويحك! ما أفظعك وأغلظك! فتبسم رسول الله ﷺ. قال: من هذا يا محمد؟ قال ﷺ: «هذا ابن أخيك المغيرة ابن شعبة». قال: أغدر، وهل غسلت سوأتك إلا بالأمس؟! قال فكلمه رسول الله ﷺ بمثل ما كلم به أصحابه، وأخبره أنه لم يأت يريد حربا. قال: فقام من عند رسول الله [ﷺ][٢] وقد رأى ما يصنع به أصحابه، لا يتوضأ وضوءًا إلا ابتدروه، ولا يبصق بصاقا إلا ابتدروه، ولا يسقط من شعره شىء إلا أخذوه. فرجع إلى قريش فقال: يا معشر قريش، إنى جئت كسرى فى ملكه، وجئت قيصر والنجاشى فى ملكهما، والله ما رأيت مَلكا قط مثل محمد فى أصحابه، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشىء أبدا، فروا رأيكم. قال: وقد كان رسول الله ﷺ قبل ذلك قد بعث خراش بن أمية الخزاعى إلى مكة، وحمله على جمل له يقال له: «الثعلب»، فلما دخل مكة عقرت[٣] به قرش، وأرادوا قتل خراش، فمنعتهم الأحابيش، حتى أتى رسول الله ﷺ، فدعا عمر ليبعثه إلى مكة، فقال: يا رسول الله، إنى أخاف قريشًا على نفسى، وليس بها من بنى عدى أحد يمنعنى، وقد عرفت قرش عداوتى إياها وغلظتى عليها، ولكن أدلك على رجل هو أعز منى: عثمان بن عفان. قال: فدعاه رسول الله ﷺ، فبعثه إلى قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب أحد، وإنما جاء زائرا لهذا البيت، معظما لحرمته. فخرج عثمان حتى أتى مكة، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص، فنزل عن دابته وحمله بين يديه وردف خلفه، وأجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش، فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به، فقالوا لعثمان: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف به، فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله [ﷺ][٤] قال: واحتبسته قريش عندها، قال: وبلغ رسول الله أن عثمان قد قتل.

قال محمد: فحدثنى الزهرى: أن قريشاً بعثوا سهيل بن عمرو، وقالوا: ائت محمداً فصالحه ولا يكون فى صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تحدث العرب أنه دخلها علينا عنوة أبداً. فأتاه سهيل بن عمرو فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل». فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ تكلما وأطالا الكلام، وتراجعا حتى جرى بينهما الصلح، فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب، وثب عمر بن الخطاب فأت أبا بكر فقال: يا أبا بكر، أو ليس برسول الله؟ أو لسنا بالمسلمين؟ أو ليسوا بالمشركين؟ قال: بلى. قال: فعلام نعطى الذلة فى ديننا؟ فقال أبو بكر: يا عمر،

---

(١) فى ت: «بالحدد».
(٢) زيادة من ت، أ.
(٣) فى ت: «عثرت».
(٤) زيادة من ت، أ.

www.Quranpdf.blogspot.in

الزم غرزه حيث كان، فإنى أشهد أنه رسول الله. [ثم](١) قال عمر: وأنا أشهد. ثم أتى رسول الله فقال: يا رسول الله، أو لسنا بالمسلمين أو ليسوا بالمشركين؟ قال: «بلى». قال: فعلام نعطى الذلة فى ديننا؟ فقال: «أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره ولن يضيعنى». ثم قال عمر: مازلت أصوم وأصلى وأتصدق وأعتق من(٢) الذى صنعت مخافة كلامى الذى تكلمت به يومئذ حتى رجوت أن يكون خيرا. قال: ثم دعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب [رضى الله عنه](٣) فقال: اكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم». فقال سهيل بن عمرو: ولا أعرف هذا، ولكن اكتب: «باسمك اللهم، فقال رسول الله: «اكتب باسمك اللهم. هذا ما صلح(٤) عليه محمد رسول الله، سهل بن عمرو»، فقال سهيل بن عمرو: ولو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله، وسهيل ابن عمرو، على وضع الحرب عشر سنين، يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى رسول الله(٥) من أصحابه بغير إذن وليه، رده عليهم، ومن أتى قريشا ممن مع رسول الله ﷺ(٦) لم يردوه عليه وأن بيننا عيبة مكفوفة، وأنه لا أسلال ولا أغلال، وكان فى شرطهم حين كتبوا الكتاب: أنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده، دخل فيه، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه، فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن فى عقد رسول الله وعهده، وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن فى عقد قريش وعهدهم، وأنك ترجع عنا عامنا هذا فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فتدخلها بأصحابك، وأقمت بها ثلاثاً معك سلاح الراكب لا تدخلها بغير السيوف فى القرب، فبينا رسول الله ﷺ يكتب الكتاب، إذا جاءه أبو جندل بن سهيل بن عمرو فى الحديد قد انفلت إلى رسول الله ﷺ(٧) قال: وقد كان أصحاب رسول الله خرجوا وهم لا يشكون فى الفتح، لرؤيا رآها رسول الله ﷺ فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع، وما تحمل رسول الله [ﷺ](٨) على نفسه، دخل الناس من ذلك أمر عظيم، حتى كادوا أن يهلكوا. فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وقال: يا محمد، قد لجّت(٩) القضية بينى وبينك قبل أن يأتيك هذا. قال: «صدقت». فقام إليه فأخذ بتلابيبه. قال: وصرخ أبو جندل بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أتردوننى إلى أهل الشرك فيفتنونى فى دينى؟ قال: فزاد الناس شرا إلى ما بهم، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا فأعطيناهم على ذلك وأعطونا عليه عهدا(١٠)، وإنا لن نغدر بهم». قال: فوثب إليه عمر بن الخطاب فجعل يمشى مع [أبى](١١) جندل إلى جنبه وهو يقول: اصبر أبا جندل، فإنما هم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب، قال: ويدنى قائم السيف منه، قال: يقول: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه قال: فضن الرجل بأبيه. قال: ونفذت القضية، فلما فرغا من الكتاب،

---

(١) زيادة من م، أ.
(٢) فى ت: «عن».
(٣) زيادة من ت.
(٤) فى أ: «ما صالح».
(٥) فى أ: «محمداً».
(٦) زيادة من ت.
(٧) زيادة من ت.
(٨) زيادة من ت، أ.
(٩) فى ت، أ: «تمت».
(١٠) فى ت، م، أ: « عهدنا».
(١١) زيارة من ت، م، أ.

www.Quranpdf.blogspot.in

وكان رسول الله ﷺ يصلى فى الحرم، وهو مضطرب فى الحل، قال: فقام رسول الله ﷺ فقال: «يأيها الناس، انحروا[١] واحلقوا». قال: فما قام أحد. قال: ثم عاد بمثلها، فما قام رجل حتى عاد ﷺ بمثلها، فما قام رجل.

فرجع رسول الله ﷺ فدخل على أم سلمة فقال: «يا أم سلمة، ما شأن الناس؟». قالت: يا رسول الله، قد دخلهم ما رأيت، فلا تُكَلِّمهن[٢] منهم إنساناً، واعمد إلى هديك حيث كان فانحره واحلق، فلو قد فعلت ذلك فعل الناس ذلك. فخرج رسول الله ﷺ لا يكلم أحداً حتى أتى هديه فنحره، ثم جلس فحلق، قال: فقام الناس ينحرون ويحلقون. قال: حتى إذا كان بين مكة والمدينة فى وسط الطريق نزلت سورة الفتح.

هكذا ساقه أحمد من هذا الوجه، وهكذا رواه يونس بن بُكَيْر وزياد البكائى، عن ابن إسحاق، بنحوه[٣]، وفيه إغراب، وقد رواه أيضاً عن عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن الزهرى، به نحوه[٤] وخالفه فى أشياء وقد رواه البخارى، رحمه الله، فى صحيحه، فساقه سياقة[٥] حسنة مطولة بزيادات جيدة، فقال فى كتاب الشروط[٦] من صحيحه:

حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر: أخبرنى الزهرى: أخبرنى عُرْوَة بن الزبير، عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم، يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه، قالا: خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية فى بضع عشرة مائة من أصحابه، فلما أتى ذا الحليفة قلد الهدى وأشعره، وأحرم منها بعمرة وبعث عيناً له من خزاعة، وسار حتى إذا كان بغدير الأشطاط أتاه عينه، فقال: إن قريشاً قد جمعوا لك جموعاً، وقد جمعوا لك الأحابيش وهم مقاتلوك وصادوك ومانعوك. فقال: « أشيروا أيها الناس علىّ، أترون أن نميل عل عيالهم، وذرارى هؤلاء الذين يريدون أن صدونا عن البيت؟»، وفى لفظ: «أترون أن نميل على ذرارى هؤلاء الذين أعانوهم. فإن يأتونا كان الله قد قطع عُنُقا من المشركين وإلا تركناهم محزونين»، وفى لفظ: «فإن قعدوا قعدوا موتورين مجهودين محرُوبين وإن نجوا يكن عنقا قطعها الله، أم ترون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه؟». فقال أبو بكر [رضى الله عنه][٧]: يا رسول الله، خرجت عامداً لهذا البيت، لا نريد قتل أحد ولا حرباً، فتوجه له، فمن صدنا عنه قاتلناه. وفى لفظ: فقال أبو بكر، رضى الله عنه: الله ورسوله علم إنما جئنا معتمرين، ولم نجئ لقتال أحد، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه. فقال النبى ﷺ: «فروحوا إذن»، وفى لفظ: «فامضوا على اسم الله».

حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال النبى ﷺ: «إن خالد بن الوليد فى خيل لقريش طليعة،

(١) فى ت،أ: «انحروا فى الحرم». (٢) فى ت،أ: «فلا تكلمن».
(٣) المسند (٤/ ٣٢٣) والسيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٣١٦).
(٤) رواه أحمد فى مسنده (٤/ ٣٢٨) من طريق عبد الرزاق به.
(٥) فى م: «بسياقات». (٦) فى ت،م: «الشرط». (٧) زيادة من أ.

www.Quranpdf.blogspot.in

فخذوا ذات اليمين». فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقَتَرة الجيش، فانطلق يركض نذيراً لقريش، وسار النبى ﷺ حتى إذا كان بالثنية التى يهبط عليهم منها، بركت به راحلته. فقال الناس: حل حل فألحت، فقالوا: خلأت القصواء، خلأت القصواء، فقال النبى ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل». ثم قال: « والذى نفسى بيده، لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمات الله، إلا أعطيتهم إياها». ثم زجرها فوثبت، فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء، يتبرضه الناس تبرضاً، فلم يلبث[(١)] الناس حتى نزحوه، وشكى[(٢)] إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع من كنانته سهماً ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالرى حتى صدروا عنه، فبينما هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعى فى نفر من قومه من خزاعة، وكانوا عيبة نصح رسول الله [ﷺ][(٣)] من أهل تهامة، فقال: إنى تركت كعب بن لؤى وعامر بن لؤى، نزلوا أعداد مياه الحديبية معهم العوذ المطافيل، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت. فقال النبى ﷺ: «إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكن جئنا معتمرين، وإن قريشا قد نهكتهم الحرب فأضرت بهم، فإن شاؤوا ماددنهم مدة ويخلوا بينى وبين الناس، فإن أظهر فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جموا، وإن هم أبوا فوالذى نفسى بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى، ولينفذن[(٤)] الله أمره». قال بديل: سأبلغهم ما تقول، فانطلق حتى أتى قريشا فقال: إنا قد جئنا من عند هذا الرجل، وسمعناه يقول قولا، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا، فقال سفهاؤهم: لاحاجة لنا أن تخبرنا عنه بشىء. وقال: ذوو الرأى منهم: هات ما سمعته يقول. قال: سمعته يقول كذا وكذا، فحدثهم بما قال رسول الله ﷺ، فقام عروة بن مسعود فقال: أى قوم، ألستم بالوالد؟ قالوا: بلى. قال: أولست بالولد؟ قالوا: بلى. قال: فهل تتهمونى؟ قالوا: لا. قال: ألستم تعلمون أنى استنفرت أهل عكاظ، فلما بلحوا على جئتكم بأهلى وولدى ومن أطاعنى؟ قالوا: بلى. قال: فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ودعونى آته. قالوا: ائته. فأتاه فجعل يكلم رسول الله ﷺ، فقال النبى ﷺ له نحوا من قوله لبديل بن ورقاء. فقال عروة عند ذلك: أى محمد، أرأيت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك؟ وإن تك الأخرى فإنى والله لأرى وجوها، وإنى لأرى أشوابا[(٥)] من الناس خليقا أن يفروا ويدعوك، فقال أبو بكر، رضى الله عنه: امصص بَظْر اللات! أنحن نفر وندعه؟! قال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر. قال: أما والذى نفسى بيده لو لا يد كانت لك عندى لم أجزك بها، لأجبتك. قال: وجعل يكلم النبى ﷺ فكلما كلمه أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة، رضى الله عنه قائم على رأس النبى ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبى ﷺ ضرب يده بنعل السيف، وقال له: أخر يدك من لحية النبى ﷺ. فرفع عروة رأسه وقال: من هذا؟ قال: المغيرة بن شعبة. فقال: أى غدر، ألست أسعى فى غدرتك؟! وكان المغيرة بن شعبة صحب قوما فى الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبى ﷺ: «أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه فى شىء».

---

(١) فى ت، م: «يلبثه». (٢) فى أ: «شكوا». (٣) زيادة من م.
(٤) فى ت، م: « أو لينفذن». (٥) فى أ: « أوباشاً».

www.Quranpdf.blogspot.in

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبى ﷺ بعينيه(١)، قال: فوالله ما تنخم رسول الله [ﷺ](٢) نخامة إلاوقعت فى كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون النظر إليه، تعظيما له ﷺ، فرجع عروة إلى أصحابه فقال: أى قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على كسرى وقيصر والنجاشى، والله إن رأيت ملكا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت فى كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحدون النظر إليه تعظيما له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشْد فاقبلوها. فقال رجل منهم من بنى كنانة: دعونى آته. فقالوا: ائته، فلما أشرف على النبى ﷺ وأصحابه، قال النبى ﷺ: «هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البُدْن، فابعثوها له» فبُعِثَتْ له، واستقبله الناس يُلَبُّون، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله! ما ينبغى لهؤلاء أن يصدوا عن البيت. فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البُدْن قد قُلِّدت وأشعرت، فما أرى أن يُصَدُّوا عن البيت. فقال(٣) رجل منهم يقال له: «مِكْرَز بن حفص»، فقال: دعونى آته. فقالوا: ائته. فلما أشرف عليهم قال النبى ﷺ: «هذا مكرز [بن حفص](٤) وهو رجل فاجر»، فجعل يكلم النبى ﷺ، فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو.

وقال معمر: أخبرنى أيوب، عن عِكْرِمَةَ أنه قال: لما جاء سهيل بن عمرو قال النبى ﷺ: «قد سَهُل لكم من أمركم».

قال معمر: قال الزهرى فى حديثه: فجاء سهيل بن عمرو فقال: هات اكتب بيننا وبينك(٥) كتابا فدعا النبى ﷺ الكاتب، فقال النبى ﷺ: «[اكتب](٦): بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل [بن عمرو](٧): أما «الرحمن» فوالله ما أدرى ما هو، ولكن اكتب: «باسمك اللهم»، كما كنت تكتب. فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا: «بسم الله الرحمن الرحيم». فقال النبى ﷺ: «اكتب: باسمك اللهم». ثم قال: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله». فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولاقاتلناك، ولكن اكتب: «محمد بن عبد الله»، فقال النبى ﷺ: «والله إنى لرسول الله وإن كذبتمونى. اكتب محمد بن عبد الله» قال الزهرى: وذلك لقوله: «والله لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها». فقال له النبى ﷺ: «على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به». فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضُغْطَةً، ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب، فقال سهيل: «وعلى أنه لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا». فقال المسلمون: سبحان الله! كيف يُرَدُّ إلى المشركين وقد جاء مسلما؟! فبينما هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل

---

(١) فى ت: «بعينه». (٢) زيادة من ت. (٣) فى أ: «فقام».
(٤) زيادة من أ. (٥) فى ت: «بينكم».
(٦) زيادة من أ. (٧) زيادة من ت، م.

www.Quranpdf.blogspot.in

ابن عمرو يرسُفُ فى قيوده، قد[1] خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن تَرُدَّه إلى، فقال النبى ﷺ: «إنا لم نَقْضِ الكتاب بعد». قال: فوالله إذًا لا أصالحك على شىء أبدا. فقال النبى ﷺ: «فأجزه لى» فقال: ما أنا بمجيز ذلك لك، قال: «بلى فافعل». قال: ما أنا بفاعل. قال مكرز: بلى قد أجزناه لك. قال أبو جندل: أى معشر المسلمين، أُرَدّ إلى المشركين وقد جئت مسلما؟ ألا ترون ما قد لقيت؟! وكان قد عُذِّبَ عذابا شديدا فى الله عز وجل. قال عمر [بن الخطاب][2] رضى الله عنه: فأتيت نبى الله ﷺ، فقلت: ألست نبى الله حقا؟ قال ﷺ: «بلى». قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: «بلى». قلت: فلم نعطى الدنية فى ديننا إذا؟ قال: «إنى رسول الله، ولستُ أعصيه، وهو ناصرى»، قلت: أو لست كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به؟ قال: «بلى، أفأخبرتك أنا نأتيه[3] العام؟». قلت: لا، قال: «فإنك آتيه ومُطوِّف به». قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر أليس هذا نبى الله حقا؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلم نعطى الدنية فى ديننا إذا؟ قال: أيها الرجل، إنه رسول الله، وليس يعصى ربه، وهو ناصره، فاستمسك بغَرْزه، فوالله إنه على الحق. قلت: أو ليس كان يحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به؟ قال: بلى، قال: أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا. قال: فإنك تأتيه وتطوف به.

قال الزهرى: قال عمر: فعملت لذلك أعمالا. قال: فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول[4] الله ﷺ لأصحابه: «قوموا فانحروا ثم احلقوا». قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات!! فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقى من الناس، قالت له أم سلمة: يا نبى الله، أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحدا منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلم أحدا منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما، ثم جاءه نسوة مؤمنات، فأنزل الله، عز جل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ ﴾ حتى بلغ: ﴿بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾[الممتحنة: ١٠]. فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له فى الشرك، فتزوج إحداهما معاوية بن أبى سفيان، والأخرى صفوان بن أمية. ثم رجع النبى ﷺ إلى المدينة فجاءه أبو بصير ـ رجل من قريش ـ وهو مسلم، فأرسلوا فى طلبه رجلين، فقالوا: العهد الذى جعلت لنا، فدفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إنى لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً، فاستله الآخر، فقال: أجل! والله إنه لجيد، لقد جربت منه ثم جربت، فقال أبو بصير: أرنى أنظر إليه، فأمكنه منه فضربه حتى بَرَد، وفَرّ الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله[5] ﷺ حين رآه: «لقد رأى هذا ذُعراً»، فلما انتهى إلى النبى ﷺ قال:

---

(١) فى ت: «حتى». (٢) زيادة من ت. (٣) فى ت: «أنك تأتيه».
(٤) فى ت: «النبى». (٥) فى م: «النبى».

www.Quranpdf.blogspot.in

قتل والله صاحبى، وإنى لمقتول. فجاء أبو بصير فقال: يا رسول الله، قد ـ والله ـ أوفى الله ذمتك، قد رددتنى إليهم ثم نجانى الله منهم، فقال النبى ﷺ: «ويل أمِّه مِسْعَرُ حرب! لو كان له أحد». فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر، قال: وتفلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبى بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبى بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم، وأخذوا أموالهم. فأرسلت قريش إلى النبى ﷺ، تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم: «فمن أتاه منهم فهو آمن». فأرسل النبى ﷺ إليهم، وأنزل الله عز جل: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ حتى بلغ: ﴿حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾، وكانت حميتهم أنهم لم يقروا أنه رسول الله، ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت.

هكذا ساقه البخارى هاهنا(١)، وقد أخرجه فى التفسير، وفى عمرة الحديبية، وفى الحج، وغير ذلك من حديث معمر وسفيان بن عيينة، كلاهما عن الزهرى، به(٢) ووقع فى بعض الأماكن عن الزهرى، عن عروة، عن مروان والمِسْوَر بن [مَخْرَمة](٣)، عن رجال من أصحاب النبى ﷺ بذلك(٤). وهذا أشبه والله أعلم، ولم يسقه أبسط من هاهنا، وبينه وبين سياق ابن إسحاق تباين فى مواضع، وهناك فوائد ينبغى إضافتها إلى ما هاهنا، ولذلك سقنا تلك الرواية وهذه، والله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم.

وقال البخارى فى التفسير: حدثنا أحمد بن إسحاق السُّلَمى، حدثنا يعلى، حدثنا عبد العزيز بن سياه، عن حبيب بن أبى ثابت، قال: أتيت أبا وائل أسأله فقال: كنا بصفين فقال رجل: ألم تر إلى الذين يدعون إلى كتاب الله؟ فقال على بن أبى طالب: نعم. فقال سهل بن حُنَيْف: اتهمُوا أنفسكم، فلقد رأيتنا يوم الحديبية ـ يعنى: الصلح الذى كان بين النبى ﷺ والمشركين ـ ولو نرى قتالا لقاتلنا، فجاء عمر فقال: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار؟ فقال: «بلى». قال: ففيم نعطى الدنية فى ديننا، ونرجع ولما يحكم الله بيننا؟ فقال: «يا ابن الخطاب، إنى رسول الله، ولن يضيعنى الله أبدا»، فرجع متغيظا، فلم يصبر حتى جاء أبا بكر فقال: يا أبا بكر، ألسنا على الحق وهم على الباطل، فقال: يا ابن الخطاب، إنه رسول الله، ولن يضيعه الله أبدا، فنزلت سورة الفتح(٥).

وقد رواه البخارى أيضا فى مواضع أخر ومسلم والنسائى من طرق أخر عن أبى وائل سفيان(٦)

---

(١) صحيح البخارى برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢).
(٢) صحيح البخارى برقم (٤١٨٠).
(٣) زيادة من م.
(٤) رواه البخارى فى صحيحه فى أول الشروط برقم (٢٧١١).
(٥) صحيح البخارى برقم (٤٨٤٤) .
(٦) فى هـ: «شقيق».

www.Quranpdf.blogspot.in

ابن سلمة، عن سهيل[١] بن حنيف به[٢]، وفى بعض ألفاظه: «يأيها الناس، اتهموا الرأى، فلقد رأيتنى يوم أبى جندل ولو أقدر على أن أرد على رسول الله ﷺ أمره لرددته» وفى رواية: فنزلت سورة الفتح، فدعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب فقرأها عليه.

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، عن ثابت، عن أنس، أن قريشا صالحوا النبى ﷺ، فيهم سهيل بن عمرو، فقال النبى ﷺ لعلى: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل: لا ندرى ما بسم الله الرحمن الرحيم، ولكن اكتب ما نعرف: «باسمك اللهم». فقال: «اكتب من محمد رسول الله». قال: لو نعلم[٣] أنك رسول الله لاتبعناك، ولكن اكتب: اسمك واسم أبيك. فقال النبى ﷺ: «اكتب: من محمد بن عبد الله». واشترطوا على النبى ﷺ أن[٤] من جاء منكم لا نرده عليكم، ومن جاءكم منا رددتموه علينا، فقال: يا رسول الله، أتكتب هذا؟ قال: «نعم، إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله» . رواه مسلم من حديث حماد بن سلمة، به[٥].

وقال أحمد أيضا: حدثنا عبد الرحمن بن مهدى، حدثنا عكرمة بن عمار قال: حدثنى سماك، عن عبد الله بن عباس قال: لما خرجت الحرورية اعتزلوا، فقلت لهم: إن رسول الله ﷺ يوم الحديبية صالح المشركين، فقال لعلى: «اكتب يا على: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله» قالوا: لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك، فقال رسول الله: «امح يا على، اللهم إنك تعلم أنى رسولك، امح يا على، واكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله». والله لرسول الله خير من على، وقد محا نفسه، ولم يكن محوه ذلك يمحاه من النبوة، أخرجت من هذه؟ قالوا: نعم.

ورواه أبو داود من حديث عكرمة بن عمار اليمامى، بنحوه[٦].

وروى الإمام أحمد، عن يحيى بن آدم: حدثنا زهير، عن محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى، عن الحكم، عن مِقْسَم، عن ابن عباس، رضى الله عنهما، قال: نحر رسول الله ﷺ يوم الحديبية سبعين بدنة فيها جمل لأبى جهل، فلما صُدَّت عن البيت حَنَّتْ كما تَحِنُّ إلى أولادها[٧].

﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨) ﴾ .

(١) فى م: «سهل».
(٢) صحيح البخارى برقم (٣١٨١، ٧٣٠٨، ٤١٨٩، ٣١٨٢) وصحيح مسلم برقم (١٧٨٥) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٥٠٤).
(٣) فى م: «علمنا». (٤) فى م: «أنه».
(٥) المسند (٣/ ٢٦٨) وصحيح مسلم برقم (١٧٨٤).
(٦) المسند (١/ ٣٤٢) وسنن أبى داود برقم (٤٠٣٧).
(٧) المسند (١/ ٣١٤).

www.Quranpdf.blogspot.in

كان رسول الله ﷺ قد أُرِىَ فى المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة، فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تتفسر[١] هذا العام، فلما قع ما وقع من قضية الصلح ورجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا من قابل، وقع فى نفوس بعض الصحابة من ذلك شىء، حتى سأل عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، فى ذلك، فقال له فيما قال: أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتى البيت ونطوف به؟ قال: «بلى، أفأخبرتك أنك تأتيه[٢] عامك هذا» قال: لا، قال: «فإنك آتيه ومطوف به». وبهذا أجاب الصديق، رضى الله عنه، أيضا حَذْو القُذَّة بالقُذَّة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ﴾: [و][٣] هذا لتحقيق الخبر وتوكيده، وليس هذا من الاستثناء فى شىء، [وقوله][٤]: ﴿آمِنِينَ﴾ أى: فى حال دخولكم. وقوله: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾، حال مقدرة؛ لأنهم فى حال حرمهم[٥] لم يكونوا محلقين ومقصرين، وإنما كان هذا فى ثانى الحال، كان منهم من حلق رأسه ومنهم من قصره، وثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «رحم الله المحلقين»، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟قال: «رحم الله المحلقين». قالوا: والمقصرين يا رسول الله ؟ قال: «رحم الله المحلقين». قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: «والمقصرين» فى الثالثة أو الرابعة[٦].

وقوله: ﴿لا تَخَافُونَ﴾: حال مؤكدة فى المعنى، فأثبت لهم الأمن حال الدخول، ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم فى البلد لا يخافون من أحد. وهذا كان فى عمرة القضاء فى ذى القعدة سنة سبع، فإن النبى ﷺ لما رجع من الحديبية فى ذى القعدة رجع إلى المدينة فأقام بها ذا الحجة والمحرم، وخرج فى صفر إلى خيبر ففتحها الله عليه بعضها عنوة وبعضها صلحا، وهى إقليم عظيم كثير النخل[٧] والزروع، فاستخدم[٨] من فيها من اليهود عليها على الشطر، وقسمها بين أهل الحديبية وحدهم، ولم يشهدها أحد غيرهم إلا الذين قدموا من الحبشة، جعفر بن أبى طالب وأصحابه، وأبو موسى الأشعرى وأصحابه، ولم يغب منهم أحد، قال ابن زيد: إلا أبا دجانة سِمَاك بن خَرَشَة، كما هو مقرر فى موضعه ثم رجع إلى المدينة، فلما كان فى ذى القعدة [فى][٩] سنة سبع خرج إلى مكة معتمرا هو وأهل الحديبية، فأحرم من ذى الحليفة، وساق معه الهدى، قيل: كان ستين بدنة، فلبى وسار وأصحابه يلبون. فلما كان قريبا من مر الظهران بعث محمد بن مسلمة بالخيل والسلاح أمامه، فلما رآه المشركون رعبوا رعبا شديدا، وظنوا أن رسول الله ﷺ يغزوهم، وأنه قد نكث العهد الذى بينه وبينهم من وضع القتال عشر سنين، وذهبوا فأخبروا أهل مكة، فلما جاء رسول الله ﷺ فنزل بمر الظهران حيث ينظر إلى أنصاب الحرم، بعث السلاح من القسى والنبل والرماح إلى بطن يأجج، وسار إلى مكة بالسيف مغمدة فى قربها، كما شارطهم عليه. فلما كان فى أثناء الطريق بعثت قريش مِكْرَز

---

(١) فى أ: «تتعين». (٢) فى ت،م: «آتيه». (٣) زيادة من ت.
(٤) زيادة من ت،م. (٥) فى م،أ: «دخولهم».
(٦) صحيح البخارى برقم (١٧٢٧) وصحيح مسلم برقم (١٣٠١) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما.
(٧) فى أ: «النخيل». (٨) فى ت: «واستخدم». (٩) زيادة من ت.

www.Quranpdf.blogspot.in

ابن حفص فقال: يا محمد، ما عرفناك تنقض العهد. قال: «وما ذاك؟». قال[١]: دخلت: علينا بالسلاح والقسى والرماح. فقال: «لم يكن ذلك، وقد بعثنا به إلى يأجج»، فقال: بهذا عرفناك، بالبر والوفاء. وخرجت رؤوس الكفار من مكة لئلا ينظروا إلى رسول الله ﷺ و[لا][٢] إلى أصحابه غيظا وحنقا، وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان فجلسوا فى الطرق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فدخلها عليه الصلاة والسلام، وبين يديه أصحابه يلبون، والهدى قد بعثه إلى ذى طوى، وهو راكب ناقته القصواء التى كان راكبها يوم الحديبية، وعبد الله بن رواحة الأنصارى آخذ بزمام ناقة رسول الله ﷺ يقودها، وهو يقول:

باسم الذى لا دين إلا دينُه ... باسم الذى محمدٌ رسوله
خَلُّوا بنى الكُفَّار عَنْ سَبِيله ... اليوم نضربكم على تَأْويله
كما ضربناكم على تنزيله ... ضرباً يزيلُ الهام عَن مَقِيله
ويُذْهِل الخليل عن خليله ... قد أنزل الرحمن فى تنزيله
فى صُحف تتلى على رسُوله ... بأن خير القَتْل فى سبيله

يا رب إنى مؤمن بقيله

فهذا مجموع من روايات متفرقة.

قال يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق: حدثنى عبد الله بن أبى بكر[٣] بن حزم قال: لما دخل رسول الله ﷺ مكة فى عمرة القضاء، دخلها وعبد الله بن رواحة آخذ بخطام ناقته ﷺ[٤]، وهو يقول:

خلّوا بنى الكفار عن سبيله ... إنى شَهيدٌ أنه رَسُولُهُ
خلوا فكل[٥] الخير فى رسوله ... يا رب إنى مؤمن بقيله
نحن قتلناكم على تأويله ... كما قتلناكم على تنزيله
ضرباً يُزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله[٦]

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الزهرى، عن أنس بن مالك قال: لما دخل رسول الله ﷺ مكة فى عمرة القضاء، مشى عبد الله بن رواحة بين يديه، وفى رواية وابن رواحة آخذ بغرزه، وهو يقول:

---

(١) فى ت، م: «فقال».
(٢) زيادة من ت، م، أ.
(٣) فى ت: «محمد».
(٤) فى ت: «مشى عبد الله بن رواحة بين يديه».
(٥) فى ت: «وكل».
(٦) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٣٧١).

www.Quranpdf.blogspot.in

خلوا بنـى الكفـار عن سبيله قـد نـزل الرحمن فى تنزيله
بأن خير القتـل فـى سبيله يا رب إنـى مؤمـن بقيـله
نحـن قتلناكـم على تأويله كمـا قتلناكـم عـلى تنزيله
ضرباً يزيل الهـام عـن مقيله ويذهـل الخليل عـن خليله

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن الصباح، حدثنا إسماعيل ـ يعنى: ابن زكريا ـ عن عبد الله ـ يعنى: ابن عثمان ـ عن أبى الطُّفَيْل(١)، عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ لما نزل مرّ الظهران فى عمرته، بلغ أصحاب رسول الله ﷺ أن قريشا [تقول](٢): ما يتباعثون من العَجَف. فقال أصحابه: لو انتحرنا من ظهرنا، فأكلنا من لحمه، وحَسَونا من مَرَقه، أصبحنا غدا حين ندخل على القوم وبنا جَمَامَة. قال: «لا تفعلوا، ولكن اجمعوا لى(٣) من أزوادكم». فجمعوا له وبسطوا الأنطاع، فأكلوا حتى تركوا وحثا كل واحد منهم فى جرابه، ثم أقبل رسول الله ﷺ حتى دخل المسجد، وقعدت قريش نحو الحجر، فاضطبع بردائه، ثم قال: «لا يرى(٤) القوم فيكم غميرة» فاستلم الركن ثم رَمَل، حتى إذا تغيب بالركن اليمانى مشى إلى الركن الأسود، فقالت قريش: ما ترضون بالمشى أما إنكم لتنقُزُون نَقْزَ الظباء، ففعل ذلك ثلاثة أشواط، فكانت سُنَّة. قال أبو الطفيل: فأخبرنى ابن عباس: أن رسول الله ﷺ فعل ذلك فى حجة الوداع(٥).

وقال(٦) أحمد أيضا: حدثنا يونس؛ حدثنا حماد بن زيد، حدثنا أيوب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قدم رسول الله ﷺ وأصحابه مكة، وقد وهنتهم حُمّى يثرب، ولقوا منها سوءا، فقال المشركون: إنه يقدم عليكم قوم قد وهنتهم حمى يثرب، ولقوا منها شرا، وجلس المشركون من الناحية التى تلى الحجر، فأطلع الله نبيه ﷺ على ما قالوا، فأمر رسول الله ﷺ [أصحابه](٧) أن يرملوا الأشواط الثلاثة؛ ليرى المشركون جلدهم، قال: فرملوا ثلاثة أشواط، وأمرهم أن يمشوا بين الركنين حيث لا يراهم المشركون، ولم يمنع النبى ﷺ أن يرملوا الأشواط كلها إلا إبقاء عليهم، فقال المشركون: أهؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم؟ هؤلاء أجلد من كذا وكذا.

أخرجاه فى الصحيحين من حديث حماد بن زيد، به(٨) وفى لفظ: قدم النبى ﷺ وأصحابه صبيحة رابعة، أى من ذى القعدة، فقال المشركون: إنه يقدم عليكم وفد قد وهنتهم حمى يثرب، فأمرهم النبى ﷺ أن يرملوا الأشواط الثلاثة، ولم يمنعهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم.

---

(١) فى ت: «وروى الإمام أحمد بسنده».
(٢) زيادة من ت، أ.
(٣) فى ت، أ: «إلىَّ».
(٤) فى ت: «ألا ترى».
(٥) المسند (١/ ٣٠٥).
(٦) فى ت: «وروى».
(٧) زيادة من ت.
(٨) المسند (١/ ٢٩٥) وصحيح البخارى برقم (٤٢٥٦) وصحيح مسلم برقم (٢٢٦٦).

www.Quranpdf.blogspot.in

قال البخارى: وزاد ابن سلمة ـ يعنى: حماد بن سلمة ـ عن أيوب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما قدم النبى ﷺ لعامه الذى استأمن قال: «ارملوا». ليرى المشركون قوتهم، والمشركون من قبل قعيقعان.

وحدثنا محمد، حدثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عطاء، عن ابن عباس قال: إنما سعى النبى ﷺ بالبيت وبالصفا والمروة، ليرى المشركون قوته(١).

ورواه فى مواضع أخر، ومسلم والنسائى، من طرق، عن سفيان بن عيينة، به(٢).

وقال أيضا: حدثنا على بن عبد الله، حدثنا سفيان، حدثنا إسماعيل بن أبى خالد، سمع ابن أبى أوفى يقول: لما اعتمر رسول الله ﷺ سترناه من غلمان المشركين ومنهم؛ أن يؤذوا رسول الله ﷺ. انفرد به البخارى دون مسلم(٣).

وقال(٤) البخارى أيضا: حدثنا محمد بن رافع، حدثنا سريج بن النعمان، حدثنا فليح، وحدثنى محمد بن الحسين بن إبراهيم، حدثنا أبى، حدثنا فليح بن سليمان، عن نافع، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ خرج معتمرا، فحال كفار قريش بينه وبين البيت، فنحر هديه وحلق رأسه بالحديبية، وقاضاهم على أن يعتمر العام المقبل، ولا يحمل سلاحا عليهم إلا سيوفا، ولا يقيم بها إلا ما أحبوا. فاعتمر من العام المقبل، فدخلها كما كان صالحهم، فلما أن قام بها ثلاثا ، أمروه أن يخرج فخرج.

وهو فى صحيح مسلم أيضا(٥):

وقال البخارى أيضا: حدثنا عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن البراء، قال: اعتمر النبى ﷺ فى ذى القعدة، فأبى أهل مكة أن يَدَعوه يدخل مكة حتى قاضاهم على أن يقيم بها ثلاثة أيام، فلما كتبوا الكتاب كتبوا: «هذا ما قاضانا عليه محمد رسول الله». قالوا: لا نقر بهذا، ولو نعلم أنك رسول الله ما منعناك شيئاً، ولكن أنت محمد بن عبد الله. قال: «أنا رسول الله، وأنا محمد بن عبد الله». ثم قال لعلى بن أبى طالب: «امح رسول الله». قال: لا، والله لا أمحوك أبدا. فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب، وليس يحسن يكتب، فكتب: «هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله: لا يدخل مكة السلاح إلا السيف فى القراب، وألا يخرج من أهلها بأحد أراد أن يتبعه، وألا يمنع من أصحابه أحدا إن أراد أن يقيم بها» فلما دخلها ومضى الأجل، أتوا عليا فقالوا: قل لصاحبك: اخرج عنا فقد مضى الأجل، فخرج النبى ﷺ فتبعته ابنة حمزة تنادى: يا عم، يا عم. فتناولها على فأخذ بيدها، وقال لفاطمة: دونك ابنة عمك فحملتها، فاختصم فيها على وزيد

(١) صحيح البخارى برقم (٤٢٥٧).

(٢) صحيح البخارى برقم(١٦٤٩) وصحيح مسلم برقم (١٢٦٦) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٣٩٧٣).

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٢٥٥).

(٤) فى ت: «روى».

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٢٥٢).

www.Quranpdf.blogspot.in

وجعفر، فقال علىّ: أنا أخذتها وهى ابنة عمى، وقال جعفر: ابنة عمى وخالتها تحتى، وقال زيد: ابنة أخى، فقضى بها النبى ﷺ لخالتها، وقال: «الخالة بمنزلة الأم»، وقال لعلى: «أنت منى وأنا منك»، وقال لجعفر: « أشبهت خلقى وخلقى» وقال لزيد: « أنت أخونا ومولانا». قال على: ألا تتزوج ابنة حمزة؟ قال: «إنها ابنة أخى من الرضاعة» انفرد به من هذا الوجه[1].

وقوله: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أى: فعلم الله تعالى من الخيرة والمصلحة فى صرفكم عن مكة ودخولكم إليها عامكم ذلك ما لم تعلموه أنتم، ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ﴾ أى: قبل دخولكم الذى وعدتم به فى رؤيا النبى ﷺ، ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾: وهو الصلح الذى كان بينكم وبين أعدائكم من المشركين.

ثم قال تعالى، مبشرا للمؤمنين بنصرة الرسول صلوات الله [وسلامه][2] عليه على عدوه وعلى سائر أهل الأرض: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أى: بالعلم النافع والعمل الصالح؛ فإن الشريعة تشتمل على شيئين: علم وعمل، فالعلم الشرعى صحيح، والعمل الشرعى مقبول، فإخباراتها حق وإنشاءاتها عدل، ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أى: على أهل جميع الأديان من سائر أهل الأرض، من عرب وعجم، ومليين[3] ومشركين، ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أى: أنه رسوله، وهو ناصره.

﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)﴾.

يخبر تعالى عن محمد صلوات الله عليه[4]، أنه رسوله حقا بلا شك ولا ريب، فقال: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ﴾، وهذا مبتدأ وخبر، وهو مشتمل على كل وصف جميل، ثم ثنى بالثناء على أصحابه فقال: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديدا عنيفاً على الكفار، رحيما براً بالأخيار، غضوباً عبوساً فى وجه الكافر، ضحوكا بشوشاً فى وجه أخيه المؤمن، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣]، وقال النبى ﷺ: « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٢٥١).

(٢) زيادة من ت. (٣) فى أ: « مسلمين».

(٤) فى ت: «ﷺ»، وفى م: «صلوات الله وسلامه عليه».

www.Quranpdf.blogspot.in

منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمَّى والسَّهر»[١]، وقال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا» وشبك بين أصابعه[٢] كلا الحديثين فى الصحيح.

وقوله: ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾: وصفهم بكثرة العمل وكثرة[٣] الصلاة، وهى خير الأعمال، ووصفهم بالإخلاص فيها لله، عز جل، والاحتساب عند الله جزيل الثواب، وهو الجنة[٤] المشتملة على فضل الله، وهو سعة الرزق عليهم، ورضاه، تعالى، عنهم وهو أكبر من الأول، كما قال: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

وقوله: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾: قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾ يعنى: السمت الحسن.

وقال مجاهد وغير واحد: يعنى: الخشوع والتواضع.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا على بن محمد الطُّنَافسى، حدثنا حسين الجَعْفى، عن زائدة[٥]، عن منصور، عن مجاهد: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ قال: الخشوع، قلت: ما كنت أراه إلا هذا الأثر فى الوجه، فقال: ربما كان بين عينى من هو أقسى قلبا من فرعون.

وقال السدى: الصلاة تحسن وجوههم.

وقال بعض السلف: من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار.

وقد أسنده ابن ماجه فى سننه، عن إسماعيل بن محمد الطَّلْحى، عن ثابت بن موسى، عن شريك، عن الأعمش، عن أبى سفيان، عن جابر قال: قال رسول الله[٦] ﷺ: «من كَثُرَتْ صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار» والصحيح أنه موقوف[٧].

وقال بعضهم: إن للحسنة نورا فى القلب، وضياء فى الوجه، وسعة فى الرزق، ومحبة فى قلوب الناس.

وقال أمير المؤمنين عثمان: ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صَفَحَات وجهه، وفَلَتَات لسانه.

والغرض أن الشىء الكامن فى النفس يظهر على صفحات الوجه، فالمؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله أصلح الله ظاهره للناس، كما روى عن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، أنه قال: من أصلح سريرته أصلح الله علانيته.

وقال أبو القاسم الطبرانى: حدثنا محمود بن محمد المروزى، حدثنا حامد بن آدم المروزى،

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٦٠١١) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه.
(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٨١) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٥٨٥) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه.
(٣) فى ت، م: «وذكر».
(٤) فى م: «المحبة».
(٥) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بسنده».
(٦) فى ت: «عن النبى».
(٧) سنن ابن ماجة برقم (١٣٣٣).

www.Quranpdf.blogspot.in

حدثنا الفضل بن موسى، عن محمد بن عبيد الله العَرْزَمى، عن سلمة بن كُهَيْل[١]، عن جُنْدَب بن سفيان البَجَلى قال: قال النبى ﷺ: «ما أسر أحد سريرة إلا ألبسه الله رداءها، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر»، العرزمى متروك[٢].

وقال[٣] الإمام أحمد: حدثنا حسن بن[٤] موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج، عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة، لخرج عمله للناس كائنا ما[٥] كان»[٦].

وقال[٧] الإمام أحمد [أيضا][٨]: حدثنا حسن، حدثنا زُهَيْر، حدثنا قابوس بن أبى ظَبْيَان: أن أباه حدثه عن ابن عباس، عن النبى ﷺ، قال: «إن الهدى الصالح، والسمت الصالح، والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءا من النبوة» ورواه أبو داود عن عبد الله بن محمد النفيلى، عن زهير، به[٩].

فالصحابة [رضى الله عنهم][١٠] خلصت نياتهم وحسنت أعمالهم، فكل من نظر إليهم أعجبوه فى سمتهم وهديهم.

وقال مالك، رحمه الله: بلغنى أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام يقولون: «والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا». وصدقوا فى ذلك، فإن هذه الأمة معظمة فى الكتب المتقدمة، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله ﷺ، وقد نوه الله بذكرهم فى الكتب المنزلة والأخبار المتداولة[١١]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ﴾، ثم قال: ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ [فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ ﴾: ﴿ أَخْرَجَ شَطْأَهُ][١٢]﴾ أى: فراخه، ﴿ فَآزَرَهُ ﴾ أى: شده ﴿ فَاسْتَغْلَظَ ﴾ أى: شب وطال، ﴿ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ ﴾ أى: فكذلك أصحاب محمد ﷺ آزروه وأيدوه ونصروه فهم معه كالشطء مع الزرع، ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾.

ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك ـ رحمه الله، فى رواية عنه ـ بتكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة، قال: لأنهم يغيظونهم، ومن غاظ الصحابة فهو كافر لهذه الآية. ووافقه طائفة من العلماء على ذلك. والأحاديث فى فضائل الصحابة والنهى عن التعرض لهم بمساءة كثيرة[١٣]، ويكفيهم ثناء الله عليهم، ورضاه عنهم.

---

(١) فى ت: «وروى أبو القاسم الطبرانى بإسناده».
(٢) المعجم الكبير (٢/ ١٧١) وحامد بن آدم كذاب.
(٣) فى ت: «وروى».
(٤) فى أ: «عن».
(٥) فى ت: «من».
(٦) المسند (٣/ ٢٨).
(٧) فى ت: «وروى».
(٨) زيادة من ت.
(٩) المسند (١/ ٢٩٦) وسنن أبى داود برقم (٤٧٧٦).
(١٠) زيادة من ت، م، أ.
(١١) فى م: «المقدسة».
(١٢) زيدة من م.
(١٣) فى م: «كبيرة».

www.Quranpdf.blogspot.in

ثم قال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم﴾ «من» هذه لبيان الجنس ، ﴿مَّغْفِرَةً﴾ أى: لذنوبهم. ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ أى: ثوابا جزيلا ورزقا كريما، ووعد الله حق وصدق، لا يخلف ولايبدل، وكل من اقتفى أثر الصحابة فهو فى حكمهم، ولهم الفضل والسبق والكمال الذى لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة، رضى الله عنهم وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس مأواهم[١]، وقد فعل.

قال مسلم فى صحيحة: حدثنا يحيى بن يحيى، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أصحابى، فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحدٍ ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه»[٢] .

آخر تفسير سورة الفتح، ولله الحمد والمنة

(١) فى ت، م، أ: «مثواهم».
(٢) صحيح مسلم برقم (٢٥٤٠).

www.Quranpdf.blogspot.in

تفسير سورة الحجرات

وهى مدنية(١).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣)﴾.

هذه آداب(٢)، أدب بها الله عباده المؤمنين فيما يعاملون به الرسول ﷺ من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ [وَاتَّقُوا اللَّهَ](٣)﴾، أى: لا تسرعوا فى الأشياء بين يديه، أى: قبله، بل كونوا تبعا له فى جميع الأمور، حتى يدخل فى عموم هذا الأدب الشرعى حديثُ معاذ، [إذ](٤) قال له النبى ﷺ حين بعثه إلى اليمن: «بم تحكم؟» قال: بكتاب الله. قال: «فإن لم تجد؟». قال: بسنة رسول الله. قال: «فإن لم تجد؟». قال: أجتهد رأيى، فضرب فى صدره وقال: «الحمد لله الذى وفق رسولَ رسولِ الله، لما يرضى رسول الله».

وقد رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وابن ماجه(٥). فالغرض منه أنه أخر رأيه ونظره واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة، ولو قدمه قبل البحث عنهما لكان من باب التقديم بين يدى الله ورسوله.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة.

وقال العَوْفى عنه: نهى(٦) أن يتكلموا بين يدى كلامه.

وقال مجاهد: لا تفتاتوا على رسول الله ﷺ بشىء، حتى يقضى الله على لسانه.

وقال الضحاك: لا تقضوا أمرا دون الله ورسوله من شرائع دينكم.

وقال سفيان الثورى: ﴿لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ بقول ولا فعل.

---

(١) فى أ: «وهى مدنية ثمان عشرة آية».
(٢) فى م: «آيات».
(٣) زيادة من م.
(٤) زيادة من ت، وفى أ: «حيث».
(٥) سبق الكلام عليه فى مقدمة الكتاب.
(٦) فى ت، م، أ: «نهوا».

www.Quranpdf.blogspot.in

وقال الحسن البصرى: ﴿لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ قال: لا تدعوا قبل الإمام.

وقال قتادة: ذكر لنا أن ناسا كانوا يقولون: لو أنزل فى كذا كذا، وكذا لو صنع كذا، فكره الله ذلك، وتقدم فيه.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أى: فيما أمركم به، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ أى: لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتكم.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾: هذا أدب ثان أدب الله به المؤمنين ألاّ يرفعوا أصواتهم بين يدى النبى ﷺ [فوق صوته] [١]. وقد روى أنها نزلت فى الشيخين أبى بكر وعمر، رضى الله عنهما.

وقال البخارى: حدثنا بَسْرَة بن صفوان اللَّخْمِى، حدثنا نافع بن عمر، عن ابن أبى مُلَيْكَة قال: كاد الخيِّران أن يهلكا، أبو بكر وعمر، رضى الله عنهما، رفعا أصواتهما عند النبى ﷺ حين قدم عليه ركب بنى تميم، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخى بنى مجاشع، وأشار الآخر برجل آخر ـ قال نافع: لا أحفظ اسمه ـ فقال أبو بكر لعمر: ما أردتَ إلا خلافى. قال: ما أردت خلافك. فارتفعت أصواتهما فى ذلك، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ الآية، قال ابن الزبير: فما كان عمر يُسمعُ رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه، ولم يذكر ذلك عن أبيه: يعنى أبا بكر، رضى الله عنه. انفرد به دون مسلم [٢].

ثم قال البخارى: حدثنا الحسن بن محمد، حدثنا حَجَّاج، عن ابن جُرَيْج، حدثنى ابن أبى مليكة: أن عبد الله بن الزبير أخبره: أنه قَدِم ركب من بنى تميم على النبى ﷺ، فقال أبو بكر: أمِّر القعقاعَ بن مَعْبد. وقال عمر: بل أمِّر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر: ما أردت إلى ـ أو: إلا ـ خلافى. فقال عمر: ما أردتُ خلافَك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزلت فى ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، حتى انقضت الآية، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾ الآية [الحجرات: ٥].

وهكذا رواه هاهنا منفردا به أيضا [٣].

وقال [٤] الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده: حدثنا الفضل بن سهل، حدثنا إسحاق بن منصور، حدثنا حصين بن عُمَر، عن مُخَارق، عن طارق بن شهاب، عن أبى بكر الصديق قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾، قلت: يا رسول الله، والله لا أكلمك إلا كأخى السِّرار [٥].

(١) زيادة من ت، م، أ.

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٨٤٥).

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٨٤٧).

(٤) فى ت: «وروى».

(٥) مسند البزار برقم (٢٢٥٧) «كشف الأستار» وقال: «لا نعلمه يروى متصلاً إلا عن أبى بكر، وحصين حدث بأحاديث لم يتابع عليها، ومخارق مشهور، ومن عداه أجلاء».

www.Quranpdf.blogspot.in

حصين بن عمر هذا ـ وإن كان ضعيفًا ـ لكن قد رويناه من حديث عبد الرحمن بن عوف، وأبي هريرة [رضى الله عنه][١] بنحو ذلك، والله أعلم[٢].

وقال البخاري: حدثنا على بن عبد الله، حدثنا أزهر بن سعد، أخبرنا ابن عون، أنبأني موسى ابن أنس[٣]، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس، فقال رجل: يا رسول الله، أنا أعلم لك علمه. فأتاه فوجده فى بيته مُنَكِّسًا رأسه، فقال له: ما شأنك؟ فقال: شر، كان يَرْفَعُ صوته فوق صوت النبي ﷺ، فقد حبط عمله، فهو من أهل النار. فأتى الرجل النبي ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا، قال موسى: فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة فقال: «اذهب إليه فقل له: إنك لست من أهل النار، ولكنك من أهل الجنة» تفرد به البخاري من هذا الوجه[٤].

وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا[٥] سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ إلى: ﴿وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾، وكان ثابت بن قيس بن الشماس رفيع الصوت فقال: أنا الذى كنت أرفع صوتى على رسول الله ﷺ حبط عملى، أنا من أهل النار، وجلس فى أهله حزينا، ففقده رسول الله ﷺ، فانطلق بعض القوم إليه فقالوا له: تفقدك رسول الله ﷺ، ما لك؟ قال: أنا الذى أرفع صوتى فوق صوت النبي ﷺ، وأجهر له بالقول، حبط عملى، أنا من أهل النار. فأتوا النبي ﷺ فأخبروه بما قال، فقال: «لا، بل هو من أهل الجنة». قال أنس: فكنا نراه يمشى بين أظهرنا، ونحن نعلم أنه من أهل الجنة. فلما كان يوم اليمامة كان فينا بعض الانكشاف، فجاء ثابت بن قيس بن شماس، وقد تحنط ولبس كفنه، فقال: بئسما تُعوّدون أقرانكم . فقاتلهم حتى قُتل[٦] [٧].

وقال مسلم: حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة، حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت البُناني، عن أنس بن مالك قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ إلى آخر الآية، جلس ثابت فى بيته، قال: أنا من أهل النار. واحتبس عن النبي ﷺ، فقال[٨] النبي ﷺ لسعد بن معاذ: «يا أبا عمرو، ما شأن ثابت؟ أشتكى؟» فقال سعد: إنه لجارى، وما علمت له بشكوى. قال: فأتاه سعد فذكر له قول رسول الله[٩] ﷺ، فقال ثابت: أُنْزِلَت هذه الآية، ولقد علمتم أنى من أرفعكم صوتا على رسول الله ﷺ، فأنا من أهل النار. فذكر ذلك سعد للنبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «بل، هو من أهل الجنة».

---

(١) زيادة من أ.

(٢) أما حديث أبى هريرة، فرواه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٤٦٢) من طريق محمد بن عمرو عن أبى سلمة عنه، وقال: «صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه» ووافقه الذهبى.

(٣) فى ت: «وروى البخاري بسنده».

(٤) صحيح البخاري برقم (٤٨٤٦).

(٥) فى ت: «ابن».

(٦) فى ت: «حتى قتل رحمه الله».

(٧) المسند (٣/ ١٣٧).

(٨) فى م: « فسأل».

(٩) فى م: «النبى».

www.Quranpdf.blogspot.in

ثم رواه مسلم عن أحمد بن سعيد[١] الدارمي، عن حَيَّان بن هلال، عن سليمان بن المغيرة، به، قال: ولم يذكر سعدَ بن معاذ. وعن قطن بن نُسَير عن جعفر بن سليمان[٢]، عن ثابت، عن أنس بنحوه. وقال: ليس فيه ذكر سعد بن معاذ.

حدثنا هُرَيم[٣] بن عبد الأعلى الأسدى، حدثنا المعتمر بن سليمان، سمعت أبى يذكر، عن ثابت، عن أنس قال: لما نزلت هذه الآية، واقتص الحديث، ولم يذكر سعد بن معاذ، وزاد: فكنا نراه يمشى بين أظهرنا رَجلٌ من أهل الجنة[٤].

فهذه الطرق الثلاث مُعَلّلة لرواية حماد بن سلمة، فيما تفرد به من ذكر سعد بن معاذ. والصحيح: أن حال نزول هذه الآية لم يكن سعد بن معاذ موجوداً؛ لأنه كان قد مات بعد بنى قريظة بأيام قلائل سنة خمس، وهذه الآية نزلت فى وفد بنى تميم، والوفود إنما تواتروا فى سنة تسع من الهجرة، والله أعلم.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا زيد بن الحُبَاب، حدثنا أبو ثابت بن ثابت بن قيس بن شمَّاس، حدثنى عمى إسماعيل بن محمد بن ثابت بن قيس بن شماس، عن أبيه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾ قال: قعد ثابت بن قيس[٥] فى الطريق يبكى، قال: فمر به عاصم بن عدى من بنى العَجلان، فقال: ما يبكيك يا ثابت؟ قال: هذه الآية، أتخوف أن تكون نزلت فىَّ وأنا صيت، رفيع الصوت. قال: فمضى عاصم بن عدى إلى رسول الله ﷺ قال: وغلبه البكاء، فأتى امرأته جميلة ابنة عبد الله بن أبى بن سلول فقال لها: إذا دخلتُ بيت فَرَسى فشدّى عَلَىّ الضبَّة بمسمار، فضربته بمسمار حتى إذا خرج عطفه، وقال: لا أخرج حتى يتوفانى الله، عز وجل،أو يرضى عنى رسول الله ﷺ. قال: وأتى عاصم رسولَ الله ﷺ فأخبره خبره، فقال:«اذهب فادعه لى». فجاء عاصم إلى المكان فلم يجده، فجاء إلى أهله فوجده فى بيت الفَرَس، فقال له: إن رسول الله ﷺ يدعوك. فقال: اكسر الضبة. قال: فخرجا فأتيا[٦] النبى ﷺ فقال له رسول الله ﷺ:«ما يبكيك يا ثابت؟». فقال: أنا صيت وأتخوف أن تكون هذه الآية نزلت فى: ﴿لا تَرْفَعُوا [٧] أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾. فقال له رسول الله ﷺ:«أما ترضى أن تَعيش حَميداً، وتقتل شهيدا، وتدخل الجنة؟». فقال: رضيت ببشرى الله ورسوله ﷺ، ولا أرفع صوتى أبدا على صوت النبى ﷺ. قال:وأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى [٨]﴾[٩].

وقد ذكر هذه القصة غير واحد من التابعين كذلك، فقد نهى الله عز وجل، عن رفع الأصوات

---

(١) فى أ: «سعد». (٢) فى م: «مسلم». (٣) فى م: «هدبة».
(٤) صحيح مسلم برقم (١١٩).
(٥) فى أ: «ثابت بن قيس بن شماس». (٦) فى أ: «حتى أتيا».
(٧) فى أ: «يأيها الذين آمنوا لاترفعوا». (٨) فى أ بعدها: ﴿لهم مغفرة وأجر عظيم﴾ بدل «الآية».
(٩) تفسير الطبرى (٢٦/ ٧٥).

www.Quranpdf.blogspot.in

بحضرة رسول الله ﷺ، وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب [رضى الله عنه][١] أنه سمع صَوت رجلين فى مسجد رسول الله[٢] ﷺ قد ارتفعت أصواتهما، فجاء، فقال: أتدريان أين أنتما؟ ثم قال: مِن أين أنتما؟ قالا: من أهل الطائف. فقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضربا[٣].

وقال العلماء: يكره رفع الصوت عند قبره، كما كان يكره فى حياته؛ لأنه محترم حيا وفى قبره، صلوات الله وسلامه عليه[٤]، دائما. ثم نهى عن الجهر له بالقول كما يجهر الرجل لمخاطبه ممن عداه، بل يخاطب بسكينة ووقار وتعظيم؛ ولهذا قال: ﴿وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾، كما قال: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣].

وقوله: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ أى: إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده خشية أن يغضب من ذلك، فيغضب الله لغضبه، فيحبط الله عمل من أغضبه وهو لا يدرى، كما جاء فى الصحيح: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يُلقى لها بَالاً يكتب له بها الجنة. وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سَخَط الله لا يُلقى لها بالا يَهْوِى بها فى النار أبعد ما بين السموات والأرض»[٥].

ثم ندب الله عز وجل[٦]، إلى خفض الصوت عنده، وحَثّ على ذلك، وأرشد إليه، ورغَّب فيه، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ أى: أخلصها لها وجعلها أهلاً ومحلا، ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

وقد قال[٧] الإمام أحمد فى كتاب الزهد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن منصور، عن مجاهد، قال: كُتب إلى عمر[٨]: يا أمير المؤمنين، رجل لا يشتهى المعصية ولا يعمل بها، أفضل، أم رجل يشتهى المعصية ولا يعمل بها؟ فكتب عمر، رضى الله عنه: إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[٩].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥)﴾ .

ثم إنه تعالى ذَمّ الذين ينادونه من وراء الحجرات، وهى بيوت نسائه، كما يصنع أجلاف الأعراب، فقال: ﴿أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾.

ثم أرشد إلى الأدب فى ذلك فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أى:

---

(١) زيادة من ت. (٢) فى ت، م: «النبى».
(٣) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٧٠) من طريق السائب بن يزيد فذكره.
(٤) فى ت: « ﷺ».
(٥) صحيح البخارى برقم (٦٤٧٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.
(٦) فى ت: «سبحانه وتعالى».
(٧) فى ت: «وقد روى». (٨) فى ت: «عمر بن الخطاب رضى الله عنه».
(٩) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٧/ ٥٥٢) وعزاه لأحمد فى الزهد.

www.Quranpdf.blogspot.in

لكان لهم فى ذلك الخيرة والمصلحة فى الدنيا والآخرة.

ثم قال داعيا لهم إلى التوبة والإنابة: ﴿**وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾.

وقد ذُكر أنها نزلت فى الأقرع بن حابس التميمى، فيما أورده غير واحد، قال الإمام أحمد:

حدثنا عفان، حدثنا وُهَيْب، حدثنا موسى بن عقبة، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن، عن الأقرع ابن حابس؛ أنه نادى رسول الله ﷺ من وراء الحجرات، فقال: يا محمد، يا محمد ـ وفى رواية: يا رسول الله ـ فلم يجبه. فقال: يا رسول الله، إن حمدى لزين، وإن ذمى لشين، فقال: «ذاك الله، عز وجل»(١).

وقال ابن جرير: حدثنا أبو عمار الحسين بن حُرَيْث المروزى، حدثنا الفضل بن موسى، عن الحسين بن واقد، عن أبى إسحاق(٢)، عن البراء فى قوله: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ**﴾ قال: جاء رسول الله(٣) فقال: يا محمد، إن حمدى زين، وذمى شين. فقال: «ذاك الله، عز وجل»(٤).

وهكذا ذكره الحسن البصرى، وقتادة مرسلا.

وقال سفيان الثورى، عن حبيب بن أبى عَمْرَة قال: كان بِشْر بن غالب ولَبِيد بن عُطَارِد ـ أو بشر ابن عطارد ولبيد بن غالب ـ وهما عند الحجاج جالسان ـ فقال بشر بن غالب للبيد بن عُطَارد: نزلت فى قومك بنى تميم: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ**﴾ قال: فذكرت ذلك لسعيد بن جبير فقال: أما إنه لو علم بآخر الآية أجابه: ﴿**يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا**﴾[الحجرات:١٧] ، قالوا: أسلمنا، ولم يقاتلك بنو أسد(٥).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عَمرو بن على الباهلى، حدثنا المعتمر بن سليمان: سمعت داود الطفاوى يحدث عن أبى مسلم(٦) البجلى(٧)، عن زيد بن أرقم قال: اجتمع أناس من العرب فقالوا: انطلقوا بنا إلى هذا الرجل، فإن يك نبيا فنحن أسعد الناس به، وإن يك ملكا نعش بجناحه. قال: فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بما قالوا، فجاؤوا إلى حجرته فجعلوا ينادونه وهو فى حجرته: يا محمد، يا محمد. فأنزل الله [عز وجل](٨): ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ**﴾. قال: فأخذ رسول الله ﷺ بأذنى فمدها، فجعل يقول: «لقد صدق الله قولك يا زيد، لقد صدق الله قولك يا زيد».

---

(١) المسند (٣/٤٨٨)، وقال الهيثمى فى المجمع (٧/١٠٨): «إسناد أحمد رجاله رجال الصحيح إن كان أبو سلمة سمع من الأقرع بن حابس، وإلا فهو مرسل».

(٢) فى ت: «وروى ابن جرير بسنده».

(٣) فى ت، أ: «رسول الله ﷺ».

(٤، ٥) تفسير الطبرى (٢٦/٧٧).

(٦) فى م، أ: «سلمة». (٧) فى ت: « وروى ابن جرير بسنده».

(٨) زيادة من أ.

www.Quranpdf.blogspot.in

ورواه ابن جرير، عن الحسن بن عرفة، عن المعتمر بن سليمان، به[١].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ ﴾.

يأمر تعالى بالتثبت فى خبر الفاسق ليُحتَاطَ له، لئلا يحكم بقوله فيكون ـ فى نفس الأمر ـ كاذباً أو مخطئاً، فيكون الحاكم بقوله قد اقتفى وراءه، وقد نهى الله عن اتباع سبيل المفسدين، ومن هاهنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال لاحتمال فسقه فى نفس الأمر، وقبلها آخرون لأنا إنما أمرنا بالتثبت عند خبر الفاسق، وهذا ليس بمحقق الفسق لأنه مجهول الحال. وقد قررنا[٢] هذه المسألة فى كتاب العلم من شرح البخارى، ولله الحمد والمنة.

وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت فى الوليد بن عقبة بن أبى معيط، حين بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بنى المصطلق. وقد روى ذلك من طرق، ومن أحسنها ما رواه الإمام أحمد فى مسنده من رواية ملك بنى المصطلق، وهو الحارث بن ضِرَار، والدجُوَيرية[٣] بنت الحارث أم المؤمنين، رضى الله عنها، قال الإمام أحمد:

حدثنا محمد بن سابق، حدثنا عيسى بن دينار، حدثنى أبى أنه سمع الحارث بن ضرار الخزاعى يقول: قدمت على رسول الله ﷺ، فدعانى إلى الإسلام، فدخلت فيه وأقررت به، ودعانى إلى الزكاة فأقررت بها، وقلت: يا رسول الله، أرجع إليهم فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة، فمن استجاب لى جمعت زكاته، ويُرسل إلىَّ رسول الله رسولا لإبَّان كذا وكذا ليأتيك ما جمَعتُ من الزكاة. فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له، وبلغ الإبان الذى أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه، احتبس عليه الرسول فلم يأته، فظن الحارث أنه قد حدث فيه سخْطَةٌ من الله ورسوله، فدعا بسَرَاوت قومه، فقال لهم: إن رسول الله ﷺ كان وَقَّت لى وقتا يرسل إلى رسوله ليقبض ما كان عندى من الزكاة، وليس من رسول الله ﷺ الخُلْف، ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطة كانت، فانطلقوا فنأتى رسول الله ﷺ، وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فَرَق ـ أى: خاف ـ فرجع فأتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إن الحارث منعنى الزكاة وأراد قتلى. فضرب رسول الله ﷺ البعث إلى الحارث. وأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقبل البعث وفَصَل عن المدينة لقيهم الحارث، فقالوا: هذا الحارث، فلما

(١) تفسير الطبرى (٢٦/ ٧٧)، ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٥/ ٢١٠) من طريق إسحاق بن راهويه عن معتمر بن سليمان به، قال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١٠٨): «فيه داود الطفاوى وثقه ابن حبان، وضعفه ابن معين، وبقية رجاله ثقات».

(٢) فى ت: «قررت».

(٣) فى أ: «ميمونة».

www.Quranpdf.blogspot.in

غشيهم قال لهم: إلى من بُعثتم؟ قالوا: إليك. قال: ولم؟ قالوا: إن رسول الله ﷺ كان بعث إليك الوليد بن عقبة، فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله. قال: لا، والذى بعث محمدا بالحق ما رأيته بَتَّةً ولا أتانى. فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال: «منعت الزكاة وأردت قتل رسولى؟». قال: لا، والذى بعثك بالحق ما رأيته ولا أتانى، وما أقبلت إلا حين احتبس على رسول رسول الله[(١)] ﷺ، خشيت أن يكون كانت سخطة من الله ورسوله. قال: فنزلت الحجرات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ﴾ إلى قوله: ﴿حَكِيمٌ﴾.

ورواه ابن أبى حاتم عن المنذر بن شاذان التمار، عن محمد بن سابق به. ورواه الطبرانى من حديث محمد بن سابق، به[(٢)]، غير أنه سماه الحارث بن سرار، والصواب: الحارث بن ضرار، كما تقدم.

وقال[(٣)] ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا جعفر بن عَوْن، عن موسى بن عبيدة، عن ثابت مولى أم سلمة، عن أم سلمة قالت: بعث رسول الله ﷺ رجلا فى صدقات بنى المصطلق بعد الوقيعة[(٤)]، فسمع بذلك القوم، فتلقوه يعظمون أمر رسول الله ﷺ، قالت: فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله، قالت: فرجع إلى رسول الله[(٥)] فقال: إن بنى المصطلق قد منعونى[(٦)] صدقاتهم. فغضب رسول الله ﷺ والمسلمون. قالت: فبلغ القوم رجوعه فأتوا رسول الله ﷺ، فصفوا له حين صلى الظهر، فقالوا: نعوذ بالله من سخط الله وسخط رسوله، بعثت إلينا رجلاً مصدقاً، فسررنا بذلك، وقرت به أعيننا، ثم إنه رجع من بعض الطريق، فخشينا أن يكون ذلك غضبا من الله ومن رسوله، فلم يزالوا يكلمونه حتى جاء بلال فأذن بصلاة العصر، قالت: ونزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾[(٧)].

وروى ابن جرير أيضا من طريق العَوْفى، عن ابن عباس فى هذه الآية قال: كان رسول الله ﷺ بعث الوليد بن عقبة بن أبى مُعَيْط إلى بنى المصطلق ليأخذ منهم الصدقات، وإنهم لما أتاهم الخبر فرحوا وخرجوا يتلقون رسول رسول الله ﷺ، وإنه لما حُدِّثَ الوليد أنهم خرجوا يتلقونه، رجع الوليد إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن بنى المصطلق قد منعوا الصدقة. فغضب رسول الله ﷺ من ذلك غضبا شديدا، فبينا هو يحدث نفسه أن يغزوهم إذ أتاه الوفد فقالوا: يا رسول الله، إنا حدثنا أن رسولك رجع من نصف الطريق، وإنا خشينا أن ما رده كتاب جاء منك لغضب غضبته علينا، وإنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله. وإن النبى ﷺ استغشهم وهمّ بهم، فأنزل الله[(٨)] عذرهم فى الكتاب، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ إلى آخر الآية[(٩)].

---

(١) فى ت: «احتبس على يا رسول الله».

(٢) المسند (٤/ ٢٧٩) والمعجم الكبير (٣/ ٢٧٤)، قال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١٠٩): «رجال أحمد ثقات»، وهذا متعقب، فإن دينار والدعيسى لم يوثقه إلا ابن حبان، ولا يعرف له راويا غير ابنه عيسى.

(٣) فى ت: «وروى». (٤) فى ت: «الوقعة». (٥) فى ت، م، أ: «رسول الله ﷺ».

(٦) فى ت، م: «منعوا».

(٧) تفسير الطبرى (٢٦/ ٧٨) وفى إسناده موسى بن عبيدة الربذى وهو ضعيف، وثابت مولى أم سلمة مجهول.

(٨) فى م: «الله عز وجل».

(٩) تفسير الطبرى (٢٦/ ٧٨).

www.Quranpdf.blogspot.in

وقال مجاهد وقتادة: أرسل رسول الله الوليد بن عقبة إلى بنى المصطلق ليُصدِّقهم، فتلقوه بالصدقة، فرجع فقال: إن بنى المصطلق قد جمعت لك لتقاتلك ـ زاد قتادة: وإنهم قد ارتدوا عن الإسلام ـ فبعث رسول الله خالد بن الوليد إليهم، وأمره أن يتثبت ولا يعجل. فانطلق حتى أتاهم ليلا، فبعث عيونه، فلما جاؤوا أخبروا خالدا أنهم مستمسكون بالإسلام، وسمعوا أذانهم وصلاتهم، فلما أصبحوا أتاهم خالد فرأى الذى يعجبه، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، فأنزل الله هذه الآية. قال قتادة: فكان رسول الله ﷺ يقول: «التَّبيُّن من الله، والعَجَلَة من الشيطان».

وكذا ذكر غير واحد من السلف، منهم: ابن أبى ليلى، ويزيد بن رومان، والضحاك، ومقاتل ابن حَيَّان، وغيرهم فى هذه الآية: أنها نزلت فى الوليد بن عقبة، والله أعلم(١).

وقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أى: اعلموا أن بين أظهركم رسولَ الله فعظِّموه ووقروه، وتأدبوا معه، وانقادوا لأمره، فإنه أعلم بمصالحكم، وأشفق عليكم منكم. ورأيه فيكم أتَمّ من رأيكم لأنفسكم، كما قال تعالى: ﴿النبي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

ثم بَيَّن [تعالى](٢) أن رأيهم سخيف بالنسبة إلى مراعاة مصالحهم فقال: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ أى: لو أطاعكم فى جميع ما تختارونه لأدى ذلك إلى عنتكم وحَرَجكم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٧١].

وقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أى: حببه إلى نفوسكم وحسنه فى قلوبكم.

قال(٣) الإمام أحمد: حدثنا بَهْز، حدثنا على بن مَسْعَدة، حدثنا قتادة، عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «الإسلام علانية، والإيمان فى القلب» قال: ثم يشير بيده إلى صدره ثلاث مرات، ثم يقول: «التقوى هاهنا، التقوى هاهنا»(٤).

﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ أى: وبغض إليكم الكفر والفسوق، وهى: الذنوب

(١) وقد ذهب إلى ذلك كثير من المفسرين، وهذا القول فيه نظر؛ فإن الروايات التى ساقت القصة معلولة، وأحسنها وهى رواية أحمد عن الحارث بن ضرار الخزاعى، فى إسنادها مجهول، وقد أنكر القاضى أبو بكر بن العربى فى كتابه «العواصم من القواصم» (ص١٠٢) هذه القصة قال: «وقد اختلف فيه، فقيل: نزلت فى ذلك ـ أى فى شأن الوليد. وقيل: فى على، والوليد فى قصة أخرى ـ وقيل: إن الوليد سيق يوم الفتح فى جملة الصبيان إلى رسول الله ﷺ فمسح رؤوسهم وبرك عليهم إلا هو فقال: إنه كان على رأسى خلوق، فامتنع ﷺ من مسه، فمن يكون فى مثل هذه السن يرسل مصدقا، وبهذا الاختلاف يسقط العلماء الأحاديث القوية، وكيف يفسق رجل هذا الكلام؟ فكيف برجل من أصحاب محمد ﷺ» وللشيخ عبد الرحمن المعلمى رحمه الله كلام على الوليد بن عقبة فى الأنوار الكاشفة (ص٢٦٣) أثبت فيه أنه لم يؤثر له رواية عن رسول الله ﷺ ومن جملة ما نفاه هذا الحديث الذى ذكره ابن العربى.

(٢) زيادة من ت.

(٣) فى ت: «وروى».

(٤) المسند (٣/ ١٣٤) قال الهيثمى فى المجمع (١/ ٥٢): «رجاله رجال الصحيح ما خلا على بن مسعدة، وقد وثقه ابن حبان وأبو داود الطيالسى وأبو حاتم وابن معين وضعفه آخرون».

www.Quranpdf.blogspot.in

الكبار. والعصيان وهى جميع المعاصى. وهذا تدريج لكمال النعمة.

وقوله: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ أى: المتصفون بهذه الصفة هم الراشدون، الذين قد آتاهم الله رشدهم.

قال[١] الإمام أحمد: حدثنا مروان بن معاوية الفزارى، حدثنا عبد الواحد بن أيمن المكى، عن ابن رفاعة الزرقى، عن أبيه قال: لما كان يوم أحد[٢] وانكفأ المشركون، قال رسول الله ﷺ: «استووا حتى أثنى على ربى، عز وجل» فصاروا خلفه صفوفاً، فقال: « اللهم، لك الحمد كله. اللهم، لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادى لمن أضللت، ولا مُضل لمن هديت. ولا معطى لما منعت، ولا مانع لما أعطيت. ولا مقرب لما باعدت، ولا مباعد لما قربت. اللهم، ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك. اللهم، إنى أسألك النعيم المقيم الذى لا يحول ولا يزول. اللهم، إنى أسألك النعيم يوم العَيْلَة، والأمن يوم الخوف. اللهم، إنى عائذ بك من شر ما أعطيتنا، ومن شر ما منعتنا. اللهم، حبب إلينا الإيمان وزينه فى قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين. اللهم، توفنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين. اللهم، قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك. اللهم، قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب، إله الحق».

ورواه النسائى فى اليوم والليلة عن زياد بن أيوب، عن مَرْوَان بن معاوية، عن عبد الواحد بن أيمن، عن عُبَيْد بن رِفاعة، عن أبيه، به[٣].

وفى الحديث المرفوع: « من سرته حسنته، وساءته سيئته، فهو مؤمن»[٤].

ثم قال: ﴿فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ أى: هذا العطاء[٥] الذى منحكموه هو فضل منه عليكم ونعمة من لدنه، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أى: عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية، حكيم فى أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره.

﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠) ﴾ .

(١) فى ت: « روى». (٢) فى أ: «الحديبية».

(٣) المسند (٣/ ٤٢٤) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٤٤٥).

(٤) رواه أحمد فى مسنده (١/ ١٨) والترمذى فى السنن برقم (٢١٦٥) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه، قال الترمذى: «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه».

(٥) فى ت: «القضاء» .

www.Quranpdf.blogspot.in

يقول تعالى آمراً بالإصلاح بين المسلمين[١] الباغين بعضهم على بعض: **﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾**، فسماهم مؤمنين مع الاقتتال. وبهذا استدل البخاري وغيره على أنه لا يخرج من الإيمان بالمعصية وإن عظمت، لا كما يقوله الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة ونحوهم. وهكذا ثبت في صحيح البخاري من حديث الحسن، عن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ خطب يوما ومعه على المنبر الحسن بن علي، فجعل ينظر إليه مرة وإلى الناس أخرى ويقول: «إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»[٢]. فكان كما قال، صلوات الله وسلامه عليه، أصلح الله به بين أهل الشام وأهل العراق، بعد الحروب الطويلة والواقعات المهولة.

وقوله: **﴿فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾** أي: حتى ترجع إلى أمر الله [٣] وتسمع للحق وتطيعه، كما ثبت في الصحيح عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «انصر أخاك ظالما أو مظلوما». قلت: يا رسول الله، هذا نصرته مظلوما فكيف أنصره ظالما؟ قال: «تمنعه من الظلم، فذاك نصرك إياه»[٤].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عارم، حدثنا معتمر قال: سمعت أبي يحدث: أن أنساً قال: قيل للنبي ﷺ، لو أتيت عبد الله بن أبي؟ فانطلق إليه نبي الله ﷺ وركب حماراً، وانطلق المسلمون يمشون، وهي أرض سبخة، فلما انطلق إليه النبي ﷺ قال: «إليك عني، فوالله لقد آذاني ريح حمارك» فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله أطيب ريحا منك. قال: فغضب لعبد الله رجال من قومه، فغضب لكل واحد منهما أصحابه، قال: فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال، فبلغنا أنه أنزلت فيهم: **﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾**.

ورواه البخاري في «الصلح» عن مُسَدَّد، ومسلم في «المغازي» عن محمد بن عبد الأعلى، كلاهما عن المعتمر بن سليمان، عن أبيه، به نحوه[٥].

وذكر سعيد بن جبير: أن الأوس والخزرج كان بينهما قتال بالسعف والنعال، فأنزل الله هذه الآية، فأمر بالصلح بينهما.

وقال السدي: كان رجل من الأنصار يقال له: «عمران»، كانت له امرأة تدعى أم زيد[٦]، وإن المرأة أرادت أن تزور أهلها فحبسها زوجها وجعلها في عُلِّيَّة له لا يدخل عليها أحد من أهلها. وإن المرأة بعثت إلى أهلها، فجاء قومها وأنزلوها لينطلقوا بها، وإن الرجل قد كان خرج، فاستعان أهل الرجل، فجاء بنو عمه ليحولوا بين المرأة وبين أهلها، فتدافعوا واجتلدوا بالنعال، فنزلت فيهم هذه

---

(١) في أ: «المقتتلين».

(٢) صحيح البخاري برقم (٢٧٠٤).

(٣) في ت، م: «إلى أمر الله ورسوله».

(٤) صحيح البخاري برقم (٢٤٤٣).

(٥) المسند (٣/١٥٧) وصحيح البخاري برقم (٢٦٩١) وصحيح مسلم برقم (١٧٩٩).

(٦) في أ: «يزيد».

www.Quranpdf.blogspot.in

الآية. فبعث إليهم رسول الله ﷺ وأصلح بينهم، وفاؤوا إلى أمر الله.

وقوله: ﴿فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ أى: اعدلوا بينهم فيما كان أصاب بعضهم لبعض، بالقسط، وهو العدل، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا محمد بن أبى بكر المقدمى، حدثنا عبد الأعلى، عن مَعْمَر، عن الزهرى، عن سعيد بن المسيب[١]، عن عبد الله بن عمرو؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن المقسطين فى الدنيا على منابر من لؤلؤ بين يدى الرحمن، بما أقسطوا فى الدنيا».

ورواه النسائى[٢] عن محمد بن المثنى، عن عبد الأعلى، به[٣]. وهذا إسناد جيد قوى، رجاله على شرط الصحيح.

وحدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد، حدثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عمرو بن أوس، عن عبد الله بن عمرو، عن النبى ﷺ قال: «المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور على يمين العرش، الذين يعدلون فى حكمهم وأهاليهم وما وَلُوا».

ورواه مسلم والنسائى، من حديث سفيان بن عيينة، به[٤].

وقوله: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ أى: الجميع إخوة فى الدين، كما قال رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه»[٥]. وفى الصحيح: «والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه»[٦]. وفى الصحيح أيضا: «إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك: آمين، ولك بمثله»[٧]. والأحاديث فى هذا كثيرة، وفى الصحيح: « مثل المؤمنين فى تَوادِّهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالحُمَّى والسَّهَر». وفى الصحيح أيضا: «المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضا» وشبك بين أصابعه[٨].

وقال أحمد: حدثنا أحمد بن الحجاج، حدثنا عبد الله، أخبرنا مصعب بن ثابت، حدثنى أبو حازم قال: سمعت سهل بن سعد الساعدى يحدث عن رسول الله ﷺ قال: «إن المؤمن من أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، يألم المؤمن لأهل الإيمان، كما يألم الجسد لما فى الرأس»[٩]. تفرد به ولا بأس بإسناده.

---

(١) فى ت: « وروى ابن أبى حاتم بسنده». (٢) فى ت: «مسلم».

(٣) النسائى فى السنن الكبرى برقم (٥٩١٧).

(٤) صحيح مسلم برقم (١٨٢٧) وسنن النسائى (٨/ ٣٢١).

(٥) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٢٤٤٢) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٥٨٠) من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما.

(٦) صحيح مسلم برقم (٢٦٩٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٧) صحيح مسلم برقم (٢٧٣٢) من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه.

(٨) صحيح البخارى برقم (٦٠١١) وصحيح مسلم برقم (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه.

(٩) المسند (٥/ ٣٤٠) وقال الهيثمى فى المجمع (٨/ ١٨٧): «رجال أحمد رجال الصحيح».

www.Quranpdf.blogspot.in

وقوله: ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ يعني: الفئتين المقتتلين، ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أي: في جميع أموركم ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، وهذا تحقيق منه تعالى للرحمة لمن اتقاه.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) ﴾ .

ينهى تعالى عن السخرية بالناس، وهو احتقارهم والاستهزاء بهم، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الكبْر بطر الحق وغَمْص الناس» ويروى: «وغمط الناس»[(١)]. والمراد من ذلك: احتقارهم واستصغارهم، وهذا حرام، فإنه قد يكون المحتقر أعظم قدرا عند الله وأحب إليه من الساخر منه المحتقر له؛ ولهذا قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾، فنص على نهي الرجال وعطف بنهي النساء.

وقوله: ﴿وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لا تلمزوا الناس. والهمَّار اللَّماز من الرجال مذموم ملعون، كما قال [تعالى][(٢)]: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ [الهمزة: ١]، فالهمز بالفعل واللمز بالقول، كما قال: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١١] أي: يحتقر الناس ويهمزهم طاعناً عليهم، ويمشي بينهم بالنميمة وهي: اللمز بالمقال؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾، كما قال: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] أي: لا يقتل بعضكم بعضا[(٣)].

قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، ومقاتل بن حَيَّان: ﴿وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لا يطعن بعضكم على بعض.

وقوله: ﴿وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ﴾ أي: لا تتداعوا بالألقاب، وهي التي يسوء الشخص سماعها.

قال[(٤)] الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا داود بن أبي هند، عن الشعبي قال: حدثني أبو جَبيرة[(٥)] بن الضحاك قال: فينا نزلت في بني سلمة: ﴿وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ﴾ قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة، فكان إذا دُعيَ أحد منهم باسم من تلك الأسماء قالوا: يا رسول الله، إنه يغضب من هذا. فنزلت: ﴿وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ﴾.

ورواه أبو داود عن موسى بن إسماعيل، عن وُهَيْب، عن داود، به[(٦)].

وقوله: ﴿بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ﴾ أي: بئس الصفة والاسم الفسوق وهو: التنابز بالألقاب، كما كان أهل الجاهلية يتناعتون، بعدما دخلتم[(٧)] في الإسلام وعقلتموه، ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾

(١) صحيح مسلم برقم (٩١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.
(٢) زيادة من ت. (٣) في م: «أي: لا يطعن بعضكم على بعض». (٤) في ت: « وروى».
(٥) في ت: «عن أبي جبيرة».
(٦) المسند (٤/ ٢٦٠)، وسنن أبي داود برقم (٤٩٦٢)، ورواه الترمذي في السنن برقم (٣٢٦٨) من طريق داود بن أبي هند به، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».
(٧) في ت: «دخلوا».

www.Quranpdf.blogspot.in

أى: من هذا ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢)﴾.

يقول تعالى ناهيا عباده المؤمنين عن كثير من الظن، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس فى غير محله؛ لأن بعض ذلك يكون إثما محضا، فليجتنب كثير منه احتياطا، وروينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، أنه قال: ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المسلم إلا خيرا، وأنت تجد لها فى الخير محملا(١).

وقال أبو عبد الله بن ماجه: حدثنا أبو القاسم بن أبى ضمرة نصر بن محمد بن سليمان الحِمْصى، حدثنا أبى، حدثنا عبد الله بن أبى قيس النَّصْرى، حدثنا(٢) عبد الله بن عمر(٣) قال: رأيت النبى ﷺ يطوف بالكعبة ويقول: «ما أطيبك وأطيب ريحك، ما أعظمك وأعظم حرمتك. والذى نفس محمد بيده، لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك، ماله ودمه، وأن يظن به إلا خير(٤)». تفرد به ابن ماجه من هذا الوجه(٥).

وقال مالك، عن أبى الزِّناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والظن فإن الظن(٦) أكذب الحديث، ولا تجسسوا ولا تحسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا».

رواه البخارى عن عبد الله بن يوسف، ومسلم عن يحيى بن يحيى، وأبو داود عن العتبى [ثلاثتهم](٧)، عن مالك، به(٨).

وقال سفيان بن عيينة، عن الزهرى، عن أنس [رضى الله عنه](٩) قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقاطعوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخوانا، ولا يحل للمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام».

رواه مسلم والترمذى ـ وصححه ـ من حديث سفيان بن عيينة، به(١٠).

---

(١) رواه أحمد فى الزهد كما فى الدر المنثور (٧/ ٥٦٥).

(٢) فى ت: «وروى ابن ماجه بسنده عن». (٣) فى ت: «بن عمر رضى الله عنه». (٤) فى ت، م: «خيرا».

(٥) سنن ابن ماجه برقم (٣٩٣٢) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ٢٢٣)، «هذا إسناد فيه مقال، نصر بن محمد ضعفه أبو حاتم وذكره ابن حبان فى الثقات، وباقى رجال الإسناد ثقات».

(٦) فى ت، م: « فإنه». (٧) زيادة من أ.

(٨) الموطأ (٢/ ٩٠٨)، وصحيح البخارى برقم (٦٠٦٦)، وصحيح مسلم برقم (٢٥٦٣).

(٩) زيادة من ت.

(١٠) صحيح مسلم برقم (٢٥٥٩)، وسنن الترمذى برقم (١٩٣٥).

www.Quranpdf.blogspot.in

وقال[١] الطبرانى: حدثنا محمد بن عبد الله القِرْمِطى العدوى، حدثنا بكر بن عبد الوهاب المدنى، حدثنا إسماعيل بن قيس الأنصارى، حدثنى عبد الرحمن بن محمد بن أبى الرجال، عن أبيه، عن جده حارثة بن النعمان قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث لازمات لأمتى: الطِّيَرَةُ، والحسد، وسوء الظن». فقال رجل: ما يذهبهن يا رسول الله ممن هن فيه؟ قال: «إذا حسدت فاستغفر الله، وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فَأمض[٢]»[٣].

وقال[٤] أبو داود: حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة، حدثنا أبو معاوية عن الأعمش، عن زيد قال: أتى ابن مسعود، رضى الله عنه، برجل[٥]، فقيل له: هذا فلان تقطر لحيته خمرا. فقال عبد الله: إنا قد نهينا عن التجسس، ولكن إن يظهر لنا شىء نأخذ به[٦].

سماه ابن أبى حاتم فى روايته الوليد بن عقبة بن أبى معيط[٧].

وقال[٨] الإمام أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا لَيْث، عن إبراهيم بن نَشِيط الخَوْلانى، عن كعب بن علقمة، عن أبى الهيثم، عن دُخَيْن كاتب عقبة قال: قلت لعقبة: إن لنا جيرانا يشربون الخمر، وأنا داع لهم الشرط فيأخذونهم. قال: لا تفعل، ولكن عظهم وتهددهم. قال: ففعل فلم ينتهوا. قال: فجاءه دخين فقال: إنى قد نهيتهم فلم ينتهوا، وإنى داع لهم الشرط فيأخذونهم. قال: لا تفعل، ولكن عظهم وتهددهم. قال: ففعل فلم ينتهوا. قال: فجاءه دُخَين فقال: إنى قد نهيتهم فلم ينتهوا، وإنى داع لهم الشرط فتأخذهم. فقال له عقبة: ويحك لا تفعل، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من ستر عورة مؤمن فكأنما استحيا موءودة من قبرها».

ورواه أبو داود والنسائى من حديث الليث بن سعد، به نحوه[٩].

وقال سفيان الثورى، عن ثور، عن راشد بن سعد، عن معاوية قال: سمعت النبى ﷺ يقول: «إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم» أو: «كدت أن تفسدهم». فقال أبو الدرداء: كلمة سمعها معاوية من رسول الله ﷺ، نفعه الله بها. رواه أبو داود منفردا به من حديث الثورى، به[١٠].

وقال أبو داود أيضا: حدثنا سعيد بن عمرو الحضرمى، حدثنا إسماعيل بن عياش، حدثنا ضَمْضَم بن زُرْعَة، عن شُرَيْح بن عبيد، عن جُبَيْر بن نُفَيْر، وكثير بن مُرَّة، وعمرو بن الأسود، والمقدام بن معد يكرب[١١]، وأبى أمامة، عن النبى ﷺ قال: «إن الأمير إذا ابتغى الريبة فى الناس،

---

(١) فى ت: «وروى». (٢) فى ت: « وإذا نظرت فاغضض»، وفى م، أ: «وإذا تطيرت فاعمض».

(٣) المعجم الكبير (٣/٢٢٨) ،قال الهيثمى فى المجمع (٨/٧٨): «فيه إسماعيل بن قيس الأنصارى وهو ضعيف».

(٤) فى ت: «وروى».

(٥) لفظة «برجل» غير موجودة بسنن أبى داود.

(٦) سنن أبى داود برقم (٤٨٩٠).

(٧) وذلك لما أكثر الناس فى الوليد بن عقبة، وقد كان ابن مسعود على بيت المال فى ولاية الوليد بن عقبة فى عهد عثمان رضى الله عنه، وقصة جلد الوليد على الخمر مشهورة فى الصحيحين.

(٨) فى ت: «وروى».

(٩) المسند (٤/١٥٣) ،وسنن أبى داود برقم (٤٨٩٢) ،والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٧٢٨٣).

(١٠) سنن أبى داود برقم (٤٨٨٨).

(١١) فى م: «معدى كرب».

www.Quranpdf.blogspot.in

أفسدهم»[١].

[وقوله][٢]: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ أى: على بعضكم بعضا. والتجسس غالبا يطلق فى الشر، ومنه الجاسوس. وأما التحسس فيكون غالبا في الخير، كما قال تعالى إخبارا عن يعقوب [عليه السلام][٣] أنه قال: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ [يوسف:٨٧]، وقد يستعمل كل منهما فى الشر، كما ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا»[٤].

وقال الأوزاعى: التجسس: البحث عن الشيء. والتحسس: الاستماع إلى حديث القوم وهم له كارهون، أو يتسمع على أبوابهم. والتدابر: الصَّرْم. رواه ابن أبى حاتم.

وقوله: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾: فيه نهى عن الغيبة، وقد فسرها الشارع كما جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود: حدثنا القَعْنَبى، حدثنا عبد العزيز بن محمد، عن العلاء، عن أبيه، عن أبى هريرة [٥] قال: قيل: يا رسول الله، ما الغيبة؟ قال: «ذكرك أخاك بما يكره». قيل: أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته».

ورواه الترمذى عن قتيبة، عن الدَّرَاوَرْدى، به[٦]. وقال: حسن صحيح. ورواه ابن جرير عن بُنْدَار، عن غُنْدَر، عن شعبة، عن العلاء[٧]. وهكذا قال ابن عمر، ومسروق، وقتادة، وأبو إسحاق، ومعاوية بن قُرَّة.

وقال[٨] أبو داود: حدثنا مُسَدَّد، حدثنا يحيى، عن سفيان، حدثنى على بن الأقمر، عن أبى حذيفة، عن عائشة قالت: قلت للنبى ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا !ـ قال غير مسدد: تعنى قصيرة ـ فقال: «لقد قلت كلمة لو مُزِجَتْ بماء. البحر لمزجته». قالت: وحكيت له إنسانا، فقال ﷺ: «ما أحب أنى حكيت إنساناً، وإن لى كذا وكذا».

ورواه الترمذى من حديث يحيى القَطَّان، وعبد الرحمن بن مَهْدِىّ، ووَكِيع، ثلاثتهم عن سفيان الثورى، عن على بن الأقمر، عن أبى حذيفة سلمة بن صهيبة الأرحبى، عن عائشة، به. وقال: حسن صحيح[٩].

وقال ابن جرير: حدثنى ابن أبى الشوارب: حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا سليمان الشيبانى، حدثنا حسان بن المخارق[١٠]؛ أن امرأة دخلت على عائشة، فلما قامت لتخرج أشارت عائشة بيدها

---

(١) سنن أبى داود برقم (٤٨٨٩).
(٢، ٣) زيادة من ت.
(٤) صحيح البخارى برقم (٢٤٤٢).
(٥) فى ت: «أبى هريرة رضى الله عنه».
(٦) سنن أبى داود برقم (٤٨٧٤)، وسنن الترمذى برقم (١٩٣٥).
(٧) تفسير الطبرى (٨٦/٢٦).
(٨) فى ت: «وروى».
(٩) سنن أبى داود برقم (٤٨٧٥)، وسنن الترمذى برقم(٢٥٠٢، ٢٥٠٣).
(١٠) فى ت: « وروى ابن جرير بسنده».

www.Quranpdf.blogspot.in

إلى النبى ﷺ ـ أى: إنها قصيرة ـ فقال النبى ﷺ: «اغتبتيها»[١].

والغيبة محرمة بالإجماع، ولا يستثنى من ذلك إلا ما رجحت مصلحته، كما فى الجرح والتعديل والنصيحة، كقوله ﷺ[٢]، لما استأذن عليه ذلك الرجل الفاجر: «ائذنوا له، بئس أخو العشيرة»[٣]، وكقوله لفاطمة بنت قيس ـ وقد خطبها معاوية وأبو الجهم ـ: «أما معاوية فصعلوك[٤]، وأما أبو الجهم فلا يضع عصاه عن عاتقه»[٥]. وكذا ما جرى مجرى ذلك. ثم بقيتها على التحريم الشديد، وقد ورد فيها الزجر الأكيد[٦]؛ ولهذا شبهها تعالى بأكل اللحم من الإنسان الميت، كما قال تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾؟ أى: كما تكرهون هذا طبعا، فاكرهوا ذاك شرعا؛ فإن عقوبته أشد من هذا وهذا من التنفير عنها والتحذير منها، كما قال، عليه السلام، فى العائد فى هبته: «كالكلب يقىء ثم يرجع فى قيئه»، وقد قال: «ليس لنا مثل السوء». وثبت فى الصحاح[٧] والحسان والمسانيد من غير وجه أنه، عليه السلام، قال فى خطبة [حجة][٨] الوداع: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، فى شهركم هذا، فى بلدكم هذا»[٩].

وقال[١٠] أبو داود: حدثنا واصل بن عبد الأعلى، حدثنا أسباط بن محمد، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبى صالح، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل المسلم على المسلم حرام: ماله وعرضه ودمه، حسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم».

ورواه الترمذى[١١] عن عبيد بن أسباط بن محمد، عن أبيه، به[١٢]. وقال: حسن غريب.

وحدثنا عثمان بن أبى شيبة[١٣]، حدثنا الأسود بن عامر، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن الأعمش، عن سعيد بن عبد الله[١٤] بن جريج، عن أبى برزة الأسلمى قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم؛ فإنه من يتبع عوراتهم يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه فى بيته».

تفرد به أبو داود[١٥]. وقد روى من حديث البراء بن عازب، فقال الحافظ أبو يعلى فى مسنده: حدثنا إبراهيم بن دينار، حدثنا مصعب بن سلام، عن حمزة بن حبيب الزيات، عن أبى إسحاق

(١) تفسير الطبرى (٢٦/ ٨٧).
(٢) فى ت: «عليه السلام».
(٣) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٦١٣٢) من حديث عائشة رضى الله عنها.
(٤) فى أ: «فصعلوك لا مال له».
(٥) رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٤٨٠).
(٦) فى ت، م: «الشديد».
(٧) فى ت، م: «الصحيح».
(٨) زيادة من ت، م، أ.
(٩) رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٢١٨) من حديث جابر رضى الله عنه.
(١٠) فى ت: «وروى».
(١١) فى ت: «رواه الترمذى وحسنه».
(١٢) سنن أبى داود برقم (٤٨٨٢)، وسنن الترمذى برقم (١٩٢٧).
(١٣) فى ت: «وروى أبو داود».
(١٤) فى أ: «عبيد الله».
(١٥) سنن أبى داود برقم (٤٨٨٠).

www.Quranpdf.blogspot.in

السَّبِيعى[(١)]، عن البراء بن عازب [(٢)] قال: خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمع العواتق فى بيوتها ـ أو قال: فى خدورها ـ فقال: « يا معشر من آمن بلسانه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عورة أخيه يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه[(٣)] فى جوف بيته»[(٤)].

طريق أخرى عن ابن عمر: قال أبو بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلى: أخبرنا عبد الله بن ناجية، حدثنا يحيى بن أكثم، حدثنا الفضل بن موسى الشيبانى، عن الحسين بن واقد، عن أوفى بن دَلْهَم، عن نافع، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يُفْضِ الإيمانُ إلى قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم؛ فإنه من يتبع عورات المسلمين يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف رحله». قال: ونظر ابن عمر يوما إلى الكعبة فقال: ما أعظمك وأعظم حرمتك، وللمؤمن أعظمُ حرمة عند الله منك[(٥)].

قال أبو داود: وحدثنا حَيْوَة بن شُرَيْح، حدثنا بَقِيَّة، عن ابن ثوبان، عن أبيه، عن مكحول، عن وقاص بن ربيعة، عن المستورد؛ أنه حدثه: أن النبى ﷺ قال: «من أكل برجل مسلم أكلة فإن الله يطعمه مثلها فى[(٦)] جهنم[(٧)]، ومن كُسى ثوبا برجل مسلم فإن الله يكسوه مثله فى[(٨)] جهنم. ومن قام برجل مقام سمعةٍ ورياء فإن الله يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيامة». تفرد به أبو داود[(٩)].

وحدثنا ابن مصفى، حدثنا بقية وأبو المغيرة قالا: حدثنا صفوان، حدثنى راشد بن سعد وعبد الرحمن بن جبير، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عُرِج بى مررت بقوم لهم أظفار من نحاس، يخمشون وجوههم وصدورهم، قلت: من هؤلاء يا جبرائيل[(١٠)]؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون فى أعراضهم».

تفرد به أبو داود، وهكذا رواه الإمام أحمد، عن أبى المغيرة عبد القدوس بن الحجاج الشامى، به[(١١)].

وقال[(١٢)] ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أحمد بن عبدة، حدثنا أبو عبد الصمد عبد العزيز ابن عبد الصمد العمى، حدثنا أبو هارون العَبْدِىّ، عن أبى سعيد الخدري [رضى الله عنه][(١٣)] قال: قلنا يا رسول الله، حَدّثنا ما رأيت ليلة أسرىَ بك؟. . . قال: «ثم انطلق بى إلى خلق من خلق الله كثير، رجال ونساء مُوَكَّل بهم رجال يعمدون إلى عُرْض جنَب أحدهم فَيَحْذُون منه الحُذْوَة من مثل النعل ثم يضعونه فى فىّ أحدهم، فيقال له: «كل كما[(١٤)] أكلت»، وهو يجد من أكله الموت ـ يا

(١) فى ت: «وروى الحافظ أبو يعلى فى مسنده بسنده».
(٢) فى ت: «البراء بن عازب رضى الله عنه».
(٣) فى ت: «يفضحه ولو فى».
(٤) مسند أبى يعلى (٣/ ٢٣٧) ، قال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٩٣): «رجاله ثقات».
(٥) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٢٠٣٢) من طريق الفضل بن موسى به، وقال: «هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الحسين بن واقد».
(٦) فى ت، م، أ: «من».
(٧) فى ت: «فى نار جهنم».
(٨) فى أ: «من».
(٩) سنن أبى داود برقم (٤٨٨١).
(١٠) فى ت، م: «جبريل».
(١١) سنن أبى داود برقم (٤٨٧٨)، والمسند (٣/ ٢٢٤) .
(١٢) فى ت: «وروى».
(١٣) زيادة من ت.
(١٤) فى ت: «اما».

www.Quranpdf.blogspot.in

محمد ـ لو يجد الموت وهو يكره عليه فقلت: يا جبرائيل[١]، من هؤلاء: قال: هؤلاء الهمَّازون اللمَّازون أصحاب النميمة. فيقال[٢]: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾وهو يكره على أكل لحمه.

هكذا أورد هذا الحديث، وقد سقناه بطوله فى أول تفسير «سورة سبحان» ولله الحمد[٣].

وقال أبو داود الطيالسى فى مسنده: حدثنا الربيع، عن يزيد، عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن يصوموا يوما ولا يفطرن أحدٌ حتى آذن له. فصام الناس، فلما أمسوا جعل الرجل يجىء إلى رسول الله ﷺ فيقول: ظللت منذ اليوم صائما، فائذن لى. فأفطر فيأذن له، ويجىء الرجل فيقول ذلك، فيأذن له، حتى جاء رجل فقال: يا رسول الله، إن فتاتين من أهلك ظلتا منذ اليوم صائمتين، فائذن لهما فَلْيفطرا فأعرض عنه، ثم أعاد، فقال رسول الله ﷺ: «ما صامتا، وكيف صام من ظل يأكل لحوم الناس؟ اذهب، فمر هما إن كانتا صائمتين أن يستقيئا». ففعلتا، فقاءت كل واحدة منهما عَلَقةً علقةً فأتى النبى ﷺ فأخبره، فقال رسول الله ﷺ: «لو ماتتا وهما فيهما لأكلتهما النار»[٤].

إسناد ضعيف، ومتن غريب. وقد رواه الحافظ البيهقى من حديث يزيد بن هارون: حدثنا سليمان التيمى قال: سمعت رجلا يحدث فى مجلس أبى عثمان النَّهْدى عن عبيد ـ مولى رسول الله[٥] ـ أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله ﷺ، وأن رجلا أتى رسول الله فقال: يا رسول الله، إن هاهنا امرأتين صامتا، وإنهما كادتا تموتان من العطش ـ أُرَاهُ قال: بالهاجرة ـ فأعرض عنه ـ أو: سكت عنه ـ فقال: يا نبى الله، إنهما ـ والله قد ماتتا أو كادتا تموتان[٦]. فقال: ادعهما. فجاءتا، قال: فجىء بقدح ـ أو عُسّ ـ فقال لإحداهما: قيئى. فقاءت من قيح ودم وصديد، حتى قاءت نصف القدح. ثم قال للأخرى: قيئى فقاءت قيحا ودما وصديدا ولحما ودما عبيطا وغيره حتى ملأت القدح. فقال: إن هاتين صامتا عما أحل الله لهما، وأفطرتا على ما حرم الله عليهما، جلست إحداهما إلى الأخرى فجعلتا تأكلان لحوم الناس.

وهكذا قد رواه الإمام أحمد عن يزيد بن هارون وابن أبى عدى، كلاهما عن سليمان بن طِرْخان التيمى، به مثله أو نحوه[٧]. ثم رواه أيضا من حديث مُسَدَّد، عن يحيى القَطَّان، عن عثمان بن غياث، حدثنى رجل أظنه فى حلقة أبى عثمان، عن سعد ـ مولى رسول الله ﷺ ـ أنهم أمروا بصيام، فجاء رجل فى نصف النهار فقال: يا رسول الله، فلانة وفلانة قد بلغتا الجهد. فأعرض عنه مرتين أو ثلاثا، ثم قال: «ادعهما». فجاء بعُس ـ أو: قَدَحٍ ـ فقال لإحداهما: «قيئى»، فقاءت لَحْماً ودماً عبيطا وقيحا، وقال للأخرى مثل ذلك، فقال: «إن هاتين صامتا عما أحل الله لهما، وأفطرتا على ما حرم الله عليهما، أتت إحداهما للأخرى فلم تزالا تأكلان لحوم الناس حتى امتلأت أجوافهما

(١) فى ت، م: «جبريل». (٢) فى أ: «فقال». (٣) عند الآية الأولى.
(٤) مسند الطيالسى برقم (٢١٠٧).
(٥) فى ت، م: «رسول الله ﷺ». (٦) فى ت: «أن تموتا».
(٧) المسند (٥/ ٤٣١) ورواه ابن أبى الدنيا فى الصمت برقم (١٧١) من طريق يزيد بن هارون عن سليمان التيمى به.

www.Quranpdf.blogspot.in

قيحا»[١].

وقال البيهقى: كذا قال «عن سعد»، والأول ـ وهو عبيد ـ أصح.

قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا عمرو بن الضحاك بن مَخْلَد، حدثنا أبى أبو عاصم، حدثنا ابن جُرَيْج، أخبرنى أبو الزبير[٢] عن ابن عَمّ لأبى هريرة أن ماعزاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنى قد زنيت فأعرض عنه ـ قالها أربعا ـ فلما كان فى الخامسة قال: «زنيت»؟ قال: نعم. قال: «وتدرى ما الزنا؟» قال: نعم، أتيت منها حراما ما يأتى الرجل من امرأته حلالا. قال: «ما تريد إلى هذا القول؟» قال: أريد أن تطهرنى. قال: فقال رسول الله ﷺ: «أدخلت ذلك منك فى ذلك منها كما يغيب المِيل فى المكحلة والرِّشاء[٣] فى البئر؟» قال: نعم، يا رسول الله. قال: فأمر برجمه فرجم، فسمع النبى ﷺ رجلين يقول أحدهما لصاحبه: ألم تر إلى هذا الذى ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رجُمَ رجم الكلب. ثم سار النبى ﷺ حتى مَرّ بجيفة حمار فقال: «أين فلان وفلان؟ أنزلا فكلا من جيفة هذا الحمار» قالا: غفر الله لك يا رسول الله، وهل يُؤكل هذا؟ قال: فما نلتما من أخيكما[٤] آنفا أشد أكلا من، والذى نفسى بيده، إنه الآن لفى أنهار الجنة ينغمس فيها»[٥] [إسناده صحيح][٦].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنى أبى، حدثنا واصل ـ مولى ابن عيينة ـ حدثنى خالد بن عُرْفُطَة، عن طلحة بن نافع، عن جابر بن عبد الله قال: كنا مع النبى ﷺ فارتفعت ريح جيفة منتنة، فقال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما هذه الريح؟ هذه ريح الذين يغتابون المؤمنين[٧]»[٨].

طريق أخرى: قال عبد بن حُميد فى مسنده: حدثنا إبراهيم بن الأشعث، حدثنا الفُضيل بن عياض، عن سليمان، عن أبى سفيان ـ وهو طلحة بن نافع ـ عن جابر قال: كنا مع النبى ﷺ فى سفر فهاجت ريح منتنة[٩]، فقال النبى ﷺ: «إن نفراً من المنافقين اغتابوا ناسا من المسلمين، فلذلك بعثت هذه الريح» وربما قال: «فلذلك هاجت هذه الريح»[١٠].

وقال السدى فى قوله: ﴿**أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا**﴾: زعم أن سلمان الفارسى كان مع رجلين من أصحاب النبى ﷺ فى سفر يخدمهما ويخف لهما، وينال من طعامهما، وأن سلمان لما سار الناس ذات يوم وبقى سلمان نائما، لم يسر معهم، فجعل صاحباه يكلمانه[١١] فلم يجداه، فضربا الخِباء فقالا: ما يريد سليمان ـ أو: هذا العبد ـ شيئا غير هذا: أن يجىء إلى طعام مقدور، وخباء مضروب! فلما جاء سلمان أرسلاه إلى رسول الله ﷺ يطلب لهما إداما، فانطلق فأتى رسول

---

(١) المسند (٥/ ٤٣١).

(٢) فى ت: «وروى الحافظ أبو يعلى بمسنده». (٣) فى ت، م، أ: «والعصا». (٤) فى ت: «من عرض أخيكما».

(٥) مسند أبى يعلى (٦/ ٥٢٤) ورواه البيهقى فى السنن الكبرى (٨/ ٢٢٧) من طريق عمرو بن الضحاك به؛ ورواه أبو داود فى السنن برقم (٤٤٢٩) من طريق الضحاك به.

(٦) زيادة من ت. (٧) فى ت، أ: «الناس».

(٨) المسند (٣/ ٣٥١) قال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٩١): «رجاله ثقات».

(٩) فى م: «ريح شديدة منتنة»

(١٠) المنتخب برقم (١٠٢٦).

(١١) فى م: «يكلماه».

www.Quranpdf.blogspot.in

الله [ﷺ][(١)] ومعه قَدَح له، فقال: يا رسول الله، بعثنى أصحابى لِتؤدِمَهم إن كان عندك؟ قال: «ما يصنع أصحابك بالأُدْم؟ قد ائتدموا». فرجع سلمان يخبرهما بقول رسول الله ﷺ، فانطلقا حتى أتيا رسول الله ﷺ فقالا: لا، والذى بعثك بالحق، ما أصبنا طعاما منذ نزلنا. قال: «إنكما قد ائتدمتما بسلمان بقولكما».

قال: ونزلت: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾، إنه كان نائما[(٢)].

وروى الحافظ الضياء المقدسى فى كتابه «المختارة» من طريق حَبَّان بن هلال، عن حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس بن مالك قال: كانت العرب تخدم بعضها بعضا فى الأسفار، وكان مع أبى بكر وعمر رجل يخدمهما، فناما فاستيقظا ولم يهيىء لها طعاما، فقالا: إن هذا لنؤوم، فأيقظاه، فقالا له: ائت رسول الله فقل له: إن أبا بكر وعمر يقرئانك السلام، ويستأدمانك.

فقال: «إنهما قد ائتدما» فجاءا فقالا: يا رسول الله، بأى شىء ائتدمنا؟ فقال: «بلحم أخيكما، والذى نفسى بيده، إنى لأرى لحمه بين ثناياكما». فقالا: استغفر لنا يا رسول الله فقال: «مُرَاه فليستغفر لكما»[(٣)].

وقال[(٤)] الحافظ أبو يعلى: حدثنا الحكم بن موسى، حدثنا محمد بن مسلم، عن محمد بن إسحاق عن عمه موسى بن يَسار، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أكل من لحم أخيه فى الدنيا، قُرِّب له لحمه فى الآخرة، فيقال له: كله مَيْتًا كما أكلته حَيًّا. قال: فيأكله ويَكْلَح ويصيح». غريب جدا[(٥)].

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أى: فيما أمركم به ونهاكم عنه، فراقبوه فى ذلك واخشوا منه، ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ أى: تواب على من تاب إليه، رحيم بمن رجع إليه، واعتمد عليه.

قال الجمهور من العلماء: طريق المغتاب للناس فى توبته أن يُقلع[(٦)] عن ذلك، ويعزم على ألاّ يعود. وهل يشترط الندم على ما فات؟ فيه نزاع، وأن يتحلل من الذى اغتابه. وقال آخرون: لا يشترط أن يتحلله فإنه إذا[(٧)] أعلمه بذلك ربما تأذى أشد مما إذا لم يعلم بما كان منه، فطريقه إذاً أن يثنى عليه بما فيه فى المجالس التى كان يذمه فيها، وأن يرد عنه الغيبة بحسبه وطاقته، فتكون[(٨)] تلك بتلك، كما قال [(٩)]الإمام أحمد:

حدثنا أحمد بن الحجاج، أخبرنا عبد الله، أخبرنا يحيى بن أيوب، عن عبد الله بن سليمان؛ أن إسماعيل بن يحيى المعَافِرىّ أخبره أن سهل بن معاذ بن أنس الجُهَنىّ أخبره، عن أبيه، عن[(١٠)] النبى

(١) زيادة من ت.
(٢) رواه ابن أبى حاتم فى تفسيره كما فى الدر المنثور (٧/ ٥٧٠).
(٣) المختارة برقم (١٦٩٧). (٤) فى ت: «وروى».
(٥) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٤٩٦١) «مجمع البحرين» من طريق محمد بن سلمة عن محمد بن إسحاق به، وقال: لم يروه عن ابن إسحاق إلا محمد بن سلمة، وقد وقع هنا «محمد بن مسلم» وأظنه تصحيفا، لكنى لا أستطيع الجزم بذلك، قال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٩٢): «فيه ابن إسحاق وهو مدلس ومن لم أعرفه».
(٦) فى م: «يرجع». (٧) فى ت: «لو». (٨) فى ت: «لتكون».
(٩) فى ت: «روى». (١٠) فى ت: «أن».

ﷺ قال: «من حمى مؤمنا من منافق يعيبه[١]، بعث الله إليه ملكا يحمى لحمه يوم القيامة من نار جهنم. ومن رمى مؤمنا بشىء يريد شينه، حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال». وكذا رواه أبو داود من حديث عبد الله ـ وهو ابن المبارك ـ به بنحوه[٢].

وقال[٣] أبو داود أيضا: حدثنا إسحاق بن الصباح، حدثنا ابن أبى مريم، أخبرنا الليث: حدثنى يحيى بن سليم؛ أنه سمع إسماعيل بن بشير يقول: سمعت جابر بن عبد الله، وأبا طلحة بن سهل الأنصارى يقولان: قال[٤] رسول الله ﷺ: «ما من امرئ يخذل امرأ مسلما فى موضع تنتهك فيه حرمته وينتقص فيه من عرضه، إلا خذله الله فى مواطن يحب فيها نصرته. وما من امرئ ينصر امرأ مسلما فى موضع ينتقص فيه من عرضه، وينتهك فيه من حرمته[٥]، إلا نصره الله فى مواطن يحب فيها نصرته». تفرد به أبو داود[٦].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣)﴾.

يقول تعالى مخبراً للناس أنه خلقهم من نفس واحدة، وجعل منها زوجهاً، وهما آدم وحواء، وجعلهم شعوب، وهى أعم من القبائل، وبعد القبائل مراتب أخر كالفصائل والعشائر والعمائر والأفخاذ وغير ذلك.

وقيل: المراد بالشعوب بطون العَجَم، وبالقبائل بطون العرب، كما أن الأسباط بطون بنى إسرائيل. وقد لخصت هذا فى مقدمة مفردة جمعتها من كتاب: «الإنباه» لأبى عمر[٧] بن عبد البر، ومن كتاب «القصد والأمم، فى معرفة أنساب العرب والعجم». فجميع الناس فى الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء سواء، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية، وهى طاعة الله ومتابعة رسوله ﷺ؛ ولهذا قال تعالى بعد النهى عن الغيبة واحتقار بعض الناس بعضاً، منبها على تساويهم فى البشرية: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾** أى: ليحصل التعارف بينهم، كلٌ يرجع إلى قبيلته.

وقال مجاهد فى قوله: **﴿لِتَعَارَفُوا﴾**، كما يقال: فلان بن فلان من كذا وكذا، أى: من قبيلة كذا وكذا.

وقال سفيان الثورى: كانت حِمْير ينتسبون إلى مُخَاليفها، وكانت عرب الحجاز ينتسبون إلى قبائلها.

وقد قال[٨] أبو عيسى الترمذى: حدثنا أحمد بن محمد، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن عبد

---

(١) فى أ: «بغيبة».

(٢) المسند (٣/ ٤٤١)، وسنن أبى داود برقم (٤٨٨٣).

(٣) فى ت: «وروى». (٤) فى ت: «أن». (٥) فى أ: «عرضه».

(٦) سنن أبى داود برقم (٤٨٨٤).

(٧) فى م: «عمرو». (٨) فى ت: «وروى».

www.Quranpdf.blogspot.in

الملك ابن عيسى الثقفى، عن يزيد ـ مولى المنبعث ـ عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم؛ فإن صلة الرحم محبة فى الأهل، مثراة فى المال، منسأة فى الأثر». ثم قال: غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه[١].

وقوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ أى: إنما تتفاضلون عند الله بالتقوى لا بالأحساب. وقد وردت الأحاديث بذلك عن رسول الله ﷺ:

قال[٢] البخارى، رحمه الله: حدثنا محمد بن سلام، حدثنا عبدة، عن عبيد الله، عن سعيد بن أبى سعيد، عن أبى هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ: أى الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند الله أتقاهم». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فأكرم الناس يوسف نبى الله، ابن نبى الله، ابن خليل الله». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فعن معادن العرب تسألونى؟» قالوا: نعم. قال: «فخياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام إذا فَقِهُوا»[٣].

وقد رواه البخارى فى غير موضع من طرق عن عبدة بن سليمان[٤]. ورواه النسائى فى التفسير من حديث عبيد الله ـ وهو ابن عمر العمرى ـ به[٥].

حديث آخر: قال مسلم[٦]، رحمه الله: حدثنا عمرو الناقد، حدثنا كَثير بن هشام، حدثنا جعفر ابن برقان، عن يزيد بن الأصم، عن أبى هريرة [٧] قال: قال رسول الله ﷺ: « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

ورواه ابن ماجه عن أحمد بن سنان، عن كَثير بن هشام، به[٨].

حديث آخر: وقال[٩] الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن أبى هلال، عن بكر، عن أبى ذر قال: إن النبى ﷺ قال له: « انظر، فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى[١٠] ». تفرد به أحمد[١١].

حديث آخر: وقال[١٢] الحافظ أبو القاسم الطبرانى: حدثنا أبو عبيدة عبد الوارث بن إبراهيم العسكرى، حدثنا عبد الرحمن بن عمرو بن جَبَلة، حدثنا عبيد بن حنين الطائى، سمعت محمد بن حبيب بن خِرَاش العَصَرِىّ، يحدث عن أبيه: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول[١٣]: «المسلمون إخوة، لا

---

(١) سنن الترمذى برقم (١٩٧٩).

(٢) فى ت: «فروى».

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٦٨٩).

(٤) صحيح البخارى برقم (٣٣٧٤، ٣٣٨٣).

(٥) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٢٥٠).

(٦) فى ت: «وروى».

(٧) فى ت: «أبى هريرة رضى الله عنه».

(٨) صحيح مسلم برقم (٢٥٦٤)، وسنن ابن ماجه برقم (٤١٤٣).

(٩) فى ت: «وروى».

(١٠) فى ت: «بتقوى الله».

(١١) المسند (٥/١٥٨).

(١٢) فى ت: «وروى».

(١٣) فى ت: «أن رسول الله ﷺ قال».

www.Quranpdf.blogspot.in

فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى»[١].

حديث آخر: قال[٢] أبو بكر البزار فى مسنده: حدثنا أحمد بن يحيى الكوفى، حدثنا الحسن بن الحسين، حدثنا قيس ـ يعنى ابن الربيع ـ عن شبيب بن غَرْقَدَة[٣]، عن المستظل بن حصين، عن حذيفة[٤] قال: قال رسول الله ﷺ: «كلكم بنو آدم. وآدم خلق من تراب، ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم، أو ليكونن أهون على الله من الجِعْلان».

ثم قال: لا نعرفه عن حذيفة إلا من هذا الوجه[٥].

حديث آخر: قال[٦] ابن أبى حاتم: حدثنا الربيع بن سليمان، حدثنا أسد بن موسى، حدثنا يحيى بن زكريا القطان، حدثنا موسى بن عبيدة، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر قال: طاف رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته القَصْواء يستلم الأركان[٧] بمحجن فى يده، فما وجد لها مناخاً فى المسجد حتى نزل ﷺ على أيدى الرجال، فخرج بها إلى بطن المسيل فأنيخت. ثم إن رسول الله ﷺ خطبهم على راحلته، فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل[٨] ثم قال: « يا أيها الناس، إن الله قد أذهب عنكم عُبِّية الجاهلية وتعظمها بآبائها، فالناس رجلان: رجل بر تقى كريم على الله، وفاجر شقى هين على الله. إن الله يقول: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ » ثم قال: «أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم».

هكذا[٩] رواه عبد بن حميد، عن أبى عاصم الضحاك بن مَخْلَد، عن موسى بن عبيدة، به[١٠].

حديث آخر: قال[١١] الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا ابن لَهيعة، عن الحارث بن يزيد، عن على بن رباح عن عقبة بن عامر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن أنسابكم هذه ليست بمسبة على أحد، كلكم بنو آدم طَفُّ الصاع لم يملؤه، ليس لأحد على أحد فضل إلا بدين وتقوى، وكفى بالرجل أن يكون بَذِيّا بخيلاً فاحشاً».

وقد رواه ابن جرير، عن يونس، عن ابن وهب، عن ابن لَهيعة، به[١٢]. ولفظه: «الناس لآدم وحواء، طف الصاع لم يلؤه، إن الله لا يسألكم عن أحسابكم ولا عن أنسابكم يوم القيامة، إن أكرمكم عند الله أتقاكم».

---

(١) المعجم الكبير (٤/ ٢٥) ،وقال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٨٤): «فيه عبد الرحمن بن عمرو بن جبلة، وهو متروك».
(٢) فى ت: «وروى». (٣) فى أ: «عروة». (٤) فى ت: «عن حذيفة رضى الله عنه».
(٥) مسند البزار برقم (٣٥٨٤) ،وقال الهيثمى فى المجمع(٨/ ٨٦): «فيه الحسن بن الحسين العرنى، وهو ضعيف»
(٦) فى ت: «وروى».
(٧) فى ت: «الركن». (٨) فى ت، أ: «بما هو أهله». (٩) فى ت: «وهكذا».
(١٠) المنتخب لعبد بن حميد برقم (٧٩٣) وفيه موسى بن عبيدة الربذى وهو ضعيف.
(١١) فى ت: «وروى».
(١٢) المسند (٤/ ١٥٨)، وتفسير الطبرى (٢٦/ ٨٩)، قال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٨٤): «فيه ابن لهيعة وفيه لين، وبقية رجاله وثقوا».
قلت: الراوى عنه فى رواية الطبرى عبد الله بن وهب، فهذه متابعة قوية ليحيى بن إسحاق.

www.Quranpdf.blogspot.in

وليس هو فى شىء من الكتب الستة من هذا الوجه.

حديث آخر: قال[١] الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن عبد الملك، حدثنا شريك، عن سِماك، عن عبد الله بن عَميرة زوج درة ابنة أبى لهب، عن درة بنت أبى لهب قالت: قام رجل إلى النبى ﷺ وهو على المنبر، فقال: يا رسول الله، أى الناس خير؟ فقال ﷺ: «خير الناس أقرؤهم، وأتقاهم لله، عز وجل، وآمرهم بالمعروف، وأنهاهم عن المنكر، وأوصلهم للرحم»[٢].

حديث آخر: قال[٣] الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا أبو الأسود، عن القاسم بن محمد، عن عائشة قالت: ما أعجب رسول الله ﷺ شىء من الدنيا، ولا أعجبه أحد قط، إلا ذو تقى. تفرد به أحمد رحمه الله[٤].

وقوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ أى: عليم بكم، خبير بأموركم، فيهدى من يشاء، ويضل من يشاء، ويرحم من يشاء، ويعذب من يشاء، ويفضل من يشاء على من يشاء، وهو الحكيم العليم الخبير فى ذلك كله. وقد استدل بهذه الآية الكريمة وهذه الأحاديث الشريفة، من ذهب من العلماء إلى أن الكفاءة فى النكاح لا تشترط، ولا يشترط سوى الدين، لقوله: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾. وذهب الآخرون إلى أدلة أخرى مذكورة فى كتب الفقه، وقد ذكرنا طرفا من ذلك فى «كتاب الأحكام»، ولله الحمد والمنة. وقد روى الطبرانى عن عبد الرحمن أنه سمع رجلا من بنى هاشم يقول: أنا أولى الناس برسول الله. فقال: غيرك أولى به منك، ولك منه نسبه.

﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) ﴾.

---

(١) فى ت: «وروى».
(٢) المسند (٦/ ٤٣٢)، ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٤/ ٢٥٧) من طريق شريك به، وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٢٦٣): «رجالهما ثقات، وفى بعضهم كلام لا يضر».
(٣) فى ت: «وروى».
(٤) المسند (٦/ ٦٩).

www.Quranpdf.blogspot.in

يقول تعالى منكراً على الأعراب الذين أول ما دخلوا فى الإسلام ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يتمكن الإيمان فى قلوبهم بعد: ﴿**قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ**﴾. وقد استفيد من هذه الآية الكريمة: أن الإيمان أخص من الإسلام كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، ويدل عليه حديث جبريل، عليه السلام، حين سأل عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، فترقى من الأعم إلى الأخص، ثم للأخص منه.

قال[١] الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر، عن الزهرى، عن عامر بن سعد بن أبى وقاص، عن أبيه قال: أعطى رسول الله ﷺ رجالا ولم يعط رجلا منهم شيئاً، فقال سعد: يا رسول الله، أعطيت فلاناً وفلانا ولم تُعط فلاناً شيئاً، وهو مؤمن؟ فقال النبى ﷺ: «أو مسلم» حتى أعادها سعد ثلاثا، والنبى ﷺ يقول: «أو مسلم» ثم قال النبى ﷺ: «إنى لأعطى رجالا وأدع من هو أحب إلىّ منهم فلا أعطيه شيئاً؛ مخافة أن يكبوا فى النار على وجوههم».

أخرجاه فى الصحيحين من حديث الزهرى، به[٢].

فقد فرق النبى ﷺ بين المسلم والمؤمن، فدل على أن الإيمان أخص من الإسلام. وقد قررنا ذلك بأدلته فى أول شرح كتاب الإيمان من «صحيح البخارى» ولله الحمد والمنة. ودل ذلك على أن ذاك الرجل كان مسلما ليس منافقاً؛ لأنه تركه من العطاء ووكله إلى ما هو فيه من الإسلام، فدل هذا على[٣] أن هؤلاء الأعراب المذكورين فى هذه الآية ليسوا بمنافقين، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان فى قلوبهم، فادعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه، فأدبوا فى ذلك. وهذا معنى قول ابن عباس وإبراهيم النخعى، وقتادة، واختاره ابن جرير. وإنما قلنا هذا لأن البخارى، رحمه الله، ذهب إلى أن هؤلاء كانوا منافقين يُظهرون الإيمان وليسوا كذلك. وقد روى عن سعيد بن جبير، ومجاهد، وابن زيد أنهم قالوا فى قوله: ﴿**وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا**﴾ أى: استسلمنا خوف القتل والسباء. قال مجاهد: نزلت فى بنى أسد بن خزيمة. وقال قتادة: نزلت فى قوم امتنوا بإيمانهم على رسول الله ﷺ.

والصحيح الأول؛ أنهم قوم ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يحصل لهم بعد، فأدبوا وأعلموا أن ذلك لم يصلوا إليه بعد، ولو كانوا منافقين لعنفوا وفضحوا، كما ذكر المنافقون فى سورة براءة. وإنما قيل لهؤلاء تأديباً: ﴿**قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ**﴾ أى: لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعد.

ثم قال: ﴿**وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ** [**شَيْئًا**][٤]﴾ أى: لا ينقصكم من أجوركم شيئا، كقوله: ﴿**وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ**﴾ [الطور: ٢١].

وقوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ أى: لمن تاب إليه وأناب.

---

(١) فى ت: «وروى».

(٢) المسند (١/ ١٧٦)، وصحيح البخارى برقم (٢٧)، وصحيح مسلم برقم (١٥٠).

(٣) فى ت: «إلى».

(٤) زيادة من ت.

www.Quranpdf.blogspot.in

وقوله: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ أى: إنما المؤمنون الكُمَّل ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ أى: لم يشكوا ولا تزلزلوا، بل ثبتوا[١] على حال واحدة، وهى التصديق المحض، ﴿ وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى: وبذلوا مهجهم[٢] ونفائس أموالهم فى طاعة الله ورضوانه، ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ أى: فى قولهم إذا قالوا: «إنهم مؤمنون»، لا كبعض الأعراب الذين ليس معهم من الدين إلا الكلمة الظاهرة.

وقال[٣] الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن غيلان، حدثنا رِشْدين، حدثنى عمرو بن الحارث، عن أبى السمح، عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد [٤] قال: إن النبى ﷺ قال: «المؤمنون فى الدنيا على ثلاثة أجزاء: [الذين][٥] آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله. والذى يأمنه الناس على أموالهم وأنفسهم. ثم الذى إذا أشرف على طمع تركه لله، عز وجل»[٦].

وقوله: ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ أى: أتخبرونه[٧] بما فى ضمائركم، ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ أى: لا يخفى عليه من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ .

ثم قال [تعالى][٨]: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾، يعنى: الأعراب [الذين][٩] يمنون بإسلامهم ومتابعتهم ونصرتهم على الرسول، يقول الله رداً عليهم: ﴿ قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ﴾ ، فإن نفع ذلك إنما يعود عليكم، ولله المنة عليكم فيه، ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى: فى دعواكم ذلك، كما قال النبى ﷺ للأنصار يوم حنين: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بى؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بى؟ وعالة فأغناكم الله بى؟». كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أَمَنُّ[١٠].

وقال[١١] الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهرى، حدثنا يحيى بن سعيد الأموى، عن محمد بن قيس، عن أبى عون، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس [رضى الله عنهما][١٢] قال: جاءت بنو أسد إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، أسلمنا وقاتلتك العرب، ولم تقاتلك، فقال رسول الله ﷺ: «إن فقههم قليل، وإن الشيطان ينطلق[١٣] على ألسنتهم». و نزلت هذه الآية: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

---

(١) فى ت: «تثبتوا». (٢) فى ت: «مهجتهم». (٣) فى ت: « وروى» .

(٤) فى ت: «أبى سعيد رضى الله عنه». (٥) زيادة من ت، أ، والمسند.

(٦) المسند (٣/٨) وفى إسناده دراج بن أبى السمح عن أبى الهيثم، وهو ضعيف .

(٧) فى ت: «أتخبرون». (٨) زيادة من ت. (٩) زيادة من ت، أ.

(١٠) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٣٣٠) من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم رضى الله عنه.

(١١) فى ت: «وروى». (١٢) زيادة من ت. (١٣) فى أ: «ينطق».

www.Quranpdf.blogspot.in

ثم قال: لا نعلمه يروى إلا من هذا الوجه، ولا نعلم روى أبو عون محمد بن عبيد الله، عن سعيد بن جبير، غير[١] هذا الحديث[٢].

ثم كرر الإخبار بعلمه بجميع الكائنات، وبصره بأعمال المخلوقات فقال: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾.

آخر تفسير الحجرات، ولله الحمد والمنة

(١) في أ: «سوى».

(٢) ورواه النسائي في السنن الكبرى برقم (١١٥١٩) من طريق يحيى بن سعيد الأموي به.

www.Quranpdf.blogspot.in

تفسير سورة ق

وهى مكية.

وهذه السورة هى أول الحزب المفصل على الصحيح،وقيل: من الحجرات. وأما ما يقوله العامة[١]: إنه من (عَمّ) فلا أصل له، ولم يقله أحد من العلماء المعتبرين[٢] فيما نعلم. والدليل على أن هذه السورة هى أول المفصل ما رواه أبو داود فى سننه، باب «تحزيب القرآن» ثم قال:

حدثنا مُسَدَّد، حدثنا قُرَّان بن تمام، (ح) وحدثنا عبد الله بن سعيد أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد سليمان بن حيان ـ وهذا لفظه ـ عن عبد الله بن عبد الرحمن بن يعلى، عن عثمان بن عبد الله ابن أوس، عن جده ـ قال عبد الله بن سعيد: حدثنيه أوس بن حذيفة ـ ثم اتفقا. قال: قدمنا على رسول الله ﷺ فى وفد ثقيف، قال: فنزلت الأحلاف على المغيرة بن شعبة، وأنزل رسول الله ﷺ بنى مالك فى قُبة له ـ قال مسَدَّد: وكان فى الوفد الذين قدموا على رسول الله ﷺ من ثقيف، قال: كان رسول الله [ﷺ][٣] كل ليلة يأتينا بعد العشاء يحدثنا ـ قال أبو سعيد: قائما على رجليه حتى يراوح بين رجليه من طول القيام ـ فأكثر ما يحدثنا ما لقى من قومه قريش، ثم يقول: لا سواء[٤] وكنا مستضعفين مستذلين ـ قال مُسدَّد: بمكة ـ فلما خرجنا إلى المدينة كانت سجال الحرب بيننا وبينهم، ندال عليهم ويدالون علينا . فلما كانت ليلة أبطأ [٥] عن الوقت الذى كان يأتينا فيه، فقلنا: لقد أبطأت عنا[٦] الليلة ! قال: «إنه طرأ على حزبى من القرآن، فكرهت أن أجيء حتى أتمه». قال أوس: سألت أصحاب رسول الله ﷺ: كيف تحزبون القرآن؟ فقالوا: ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة ، وحزب المفصل وحده.

ورواه ابن ماجه عن أبى بكر بن أبى شيبة، عن أبى خالد الأحمر، به. ورواه الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن مهدى، عن عبد الله بن عبد الرحمن، هو ابن[٧] يعلى الطائفى به[٨].

إذا علم هذا، فإذا عددت ثمانيا وأربعين سورة، فالتى بعدهن سورة «ق». بيانه: ثلاث: البقرة، وآل عمران، والنساء. وخمس: المائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال، وبراءة. وسبع: يونس، وهود، ويوسف، والرعد، وإبراهيم، والحجر، والنحل. وتسع: سبحان، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، والحج، والمؤمنون، والنور، والفرقان. وإحدى عشرة: الشعراء، والنمل، والقصص، والعنكبوت، والروم، ولقمان، والم السجدة، والأحزاب، وسبأ، وفاطر، ويس. وثلاث عشرة: الصافات، وص، والزمر، وغافر، وحم السجدة، وحم عسق، والزخرف، والدخان، والجاثية،

(١) فى م، أ: «العوام». (٢) فى أ: «المفسرين». (٣) زيادة من م، أ.
(٤) فى م، أ: « لا أساء». (٥) فى م: «أبطأ علينا». (٦) فى أ: «علينا».
(٧) فى أ: «أبو».
(٨) سنن أبى داود برقم (١٣٩٣) ، وسنن ابن ماجه برقم (١٣٤٥)، والمسند (٤/ ٩).

www.Quranpdf.blogspot.in

والأحقاف، والقتال، والفتح، والحجرات. ثم بعد ذلك الحزب المفصل كما قاله الصحابة، رضى الله عنهم. فتعين أن أوله سورة «ق» وهو الذى قلناه[١]، ولله الحمد والمنة.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدى، حدثنا مالك، عن ضَمْرة بن سعيد، عن عُبَيد الله[٢] بن عبد الله؛ أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثى: ما كان رسول الله ﷺ يقرأ فى العيد؟ قال: بقاف، واقتربت.

ورواه مسلم وأهل السنن الأربعة، من حديث مالك، به[٣]. وفى رواية لمسلم عن فليح[٤] عن ضمرة، عن عبيد الله[٥]، عن أبى واقد قال: سألنى عمر، فذكره[٦].

حديث آخر: وقال أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبى، عن ابن إسحاق، حدثنى عبد الله بن محمد بن أبى بكر بن عمرو بن حزم، عن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن سعد[٧] بن زُرَارة، عن أم هشام بنت حارثة قالت: لقد كان تَنُّورنا وتنور النبى ﷺ واحداً سنتين، أو سنة وبعض سنة، وما أخذت ﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ إلا على لسان رسول الله ﷺ، كان يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس.

رواه مسلم [أيضا][٨] من حديث ابن إسحاق، به[٩].

وقال أبو داود: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن خبيب[١٠]، عن عبد الله بن محمد بن معن، عن ابنة الحارث بن النعمان قالت: ما حفظت «ق» إلا من فِىِّ رسول الله ﷺ، يخطب بها كل جمعة. قالت: وكان تنورنا وتنور رسول الله ﷺ واحداً.

وكذا رواه مسلم، والنسائى، وابن ماجه، من حديث شعبة، به[١١].

والقصد أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهذه السورة فى المجامع الكبار، كالعيد والجمع، لاشتمالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور، والمعاد والقيام، والحساب، والجنة والنار، والثواب والعقاب، والترغيب والترهيب.

﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ (٥) ﴾.

---

(١) فى م: «قدمناه». (٢) فى م: «عبد الله».
(٣) المسند (٥/ ٢١٧)، وصحيح مسلم برقم (٨٩١)، وسنن أبى داود برقم (١١٥٤)، وسنن الترمذى برقم (٥٣٤)، وسنن النسائى(٣/ ١٨٣)، وسنن ابن ماجه برقم (١٢٨٢).
(٤) فى م، أ: «مالك». (٥) فى م: « عبد الله».
(٦) صحيح مسلم برقم (٨٩١).
(٧) فى م، أ: «أسعد». (٨) زيادة من م.
(٩) المسند (٦/ ٤٣٥) وصحيح مسلم برقم (٨٧٣).
(١٠) فى م، أ: «حبيب».
(١١) سنن أبى داود برقم (١١٠٠)، وصحيح مسلم برقم (٨٧٣)، وسنن النسائى (٢/ ١٥٧) لكنه ليس من هذا الطريق.

www.Quranpdf.blogspot.in

﴿قٓ﴾: حرف من حروف الهجاء المذكورة[١] فى أوائل السور، كقوله: (ص، ن، الم، حم، طس) ونحو ذلك، قاله مجاهد وغيره. وقد أسلفنا الكلام عليها، فى أول «سورة البقرة» بما أغنى عن إعادته.

وقد روى عن بعض السلف أنهم قالوا ﴿قٓ﴾: جبل محيط بجميع الأرض، يقال له جبل قاف. وكأن هذا ـ والله أعلم ـ من خرافات بنى إسرائيل التى أخذها عنهم بعض الناس، لما رأى من جواز الرواية عنهم فيما[٢] لا يصدق ولا يكذب. وعندى أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم، يلبسون به على الناس أمر دينهم، كما افترى فى هذه الأمة ـ مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وأئمتها ـ أحاديث عن النبى ﷺ وما بالعهد من قدم، فكيف بأمة بنى إسرائيل مع طول المدى، وقلة الحفاظ النقاد فيهم، وشربهم الخمور[٣]، وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه، وتبديل كتب الله وآياته! وإنما أباح الشارع الرواية عنهم فى قوله: «وحدثوا عن بنى إسرائيل، ولا حرج» فيما قد يجوزه العقل، فأما فيما تُحيله العقول ويحكم عليه بالبطلان، ويغلب على الظنون كذبه، فليس من هذا القبيل ـ والله أعلم.

وقد أكثر كثير من السلف من المفسرين، وكذا طائفة كثيرة من الخلف، من الحكاية عن كتب أهل الكتاب فى تفسير القرآن المجيد، وليس بهم احتياج إلى أخبارهم، ولله الحمد والمنة، حتى إن الإمام أبا محمد عبد الرحمن بن أبى حاتم الرازى، رحمه الله، أورد هاهنا أثراً غريباً لا يصح سنده عن ابن عباس فقال:

حدثنا أبى قال: حدثت عن محمد بن إسماعيل المخزومى: حدثنا ليث بن أبى سليم، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: خلق الله من وراء هذه الأرض بحراً محيطاً، ثم خلق من وراء ذلك جبلا يقال له «ق» السماء الدنيا مرفوفة عليه. ثم خلق الله من وراء ذلك الجبل أرضاً مثل تلك الأرض سبع مرات. ثم خلق من وراء ذلك بحرا محيطاً بها، ثم خلق من وراء ذلك جبلاً يقال له «ق» السماء الثانية مرفوفة عليه، حتى عد سبع أرضين، وسبعة أبحر، وسبعة أجبل، وسبع سموات. قال: وذلك قوله: ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾[لقمان: ٢٧] .

فإسناد هذا الأثر فيه انقطاع، والذى رواه ابن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿قٓ﴾ قال: هو اسم من أسماء الله، عز وجل.

والذى ثبت عن مجاهد: أنه حرف من حروف الهجاء، كقوله: (ص، ن، حم، طس، الم) ونحو ذلك. فهذه تُبْعِد ما تقدم عن ابن عباس.

وقيل: المراد «قضِى الأمر واللهِ»، وأن قوله: ﴿قٓ﴾ دلت على المحذوف من بقية الكلم[٤] كقول

---

(١) فى م: «الذى تقدم ذكرها».
(٢) فى م: «مما».
(٣) فى أ: «الخمر».
(٤) فى م، أ: «الكلمة».

www.Quranpdf.blogspot.in

الشاعر:

قلت لها: قفى فقالت: قاف

وفى هذا التفسير نظر؛ لأن الحذف فى الكلام إنما يكون إذا دل دليل عليه، ومن أين يفهم هذا من ذكر هذا الحرف؟

وقوله: ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ أى: الكريم العظيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

واختلفوا في جواب القسم ما هو؟ فحكى ابن جرير عن بعض النحاة أنه قوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾.

وفى هذا نظر، بل الجواب هو مضمون الكلام بعد القسم، وهو إثبات النبوة، وإثبات المعاد، وتقريره وتحقيقه وإن لم يكن القسم متلقى لفظاً، وهذا كثير فى أقسام القرآن كما تقدم فى قوله: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ. بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ [ص:١، ٢]، وهكذا قال هاهنا: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ. بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أى: تعجبوا من إرسال رسول إليهم من البشر كقوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ﴾ [يونس: ٢] أى: وليس هذا بعجيب؛ فإن الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس.

ثم قال مخبراً عنهم فى عجبهم أيضاً من المعاد واستبعادهم لوقوعه: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾؟ أى: يقولون: أئذا متنا وبلينا، وتقطعت الأوصال منا، وصرنا ترابا، كيف يمكن الرجوع بعد ذلك إلى هذه البنية والتركيب؟ ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ أى: بعيد الوقوع، ومعنى هذا: أنهم يعتقدون استحالته وعدم إمكانه، قال الله تعالى راداً عليهم: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أى: ما تأكل من أجسادهم فى البلى، نعلم ذلك ولا يخفى علينا أين تفرقت الأبدان؟ وأين ذهبت؟ وإلى أين صارت؟ ﴿وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ أى: حافظ لذلك، فالعلم شامل، والكتاب أيضاً فيه كل الأشياء مضبوطة.

قال العوفى، عن ابن عباس فى قوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أى: ما تأكل من لحومهم وأبشارهم، وعظامهم وأشعارهم. وكذا قال مجاهد، وقتادة، والضحاك، وغيرهم.

ثم بين تعالى سبب كفرهم وعنادهم واستبعادهم ما ليس ببعيد فقال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ أى: وهذا حال كل من خرج عن الحق، مهما قال بعد ذلك فهو باطل. والمريج: المختلف المضطرب الملتبس المنكر خلاله، كقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ. يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات: ٨، ٩].

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ⑥ وَالأَرْضَ

www.Quranpdf.blogspot.in

مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ⑦ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ⑧ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ⑨ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ⑩ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ⑪ ﴾ .

يقول تعالى منبها للعباد على قدرته العظيمة التى أظهر بها ما هو أعظم مما تعجبوا مستبعدين لوقوعه: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا﴾؟ أى: بالمصابيح، ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾. قال مجاهد: يعنى من شقوق. وقال غيره: فتوق. وقال غيره: من صدوع. والمعنى متقارب، كقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ. ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣، ٤] أى: كليل، أى: عن أن يرى عيباً أو نقصاً.

وقوله: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ أى: وسعناها وفرشناها، ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ وهى: الجبال؛ لئلا تميد بأهلها وتضطرب؛ فإنها مُقَرة على تيار الماء المحيط بها من جميع جوانبها، ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أى: من جميع الزروع والثمار والنبات والأنواع، ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]، وقوله: ﴿بَهِيجٍ﴾ أى: حسن نضر، ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ أى: ومشاهدة خلق السموات [والأرض][1] وما جعل [الله][2] فيهما من الآيات العظيمة تبصرة ودلالة وذكرى لكل عبد منيب، أى: خاضع خائف وجل رَجَّاع إلى الله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾ أى: نافعاً ، ﴿فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ﴾ أى: حدائق من بساتين ونحوها ، ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ وهو: الزرع الذى يراد لحبه وادخاره.

﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ أى: طوالا شاهقات. وقال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والسدى، وغيرهم: الباسقات الطوال. ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ أى: منضود . ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ أى: للخلق، ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾، وهى الأرض التى كانت هامدة، فلما نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، من أزاهير وغير ذلك، مما يحار الطرف فى[3] حسنها، وذلك بعد ما كانت لا نبات بها، فأصبحت تهتز خضراء، فهذا مثال للبعث بعد الموت والهلاك، كذلك يحيى الله الموتى. وهذا المشاهد من عظيم قدرته بالحس أعظم مما أنكره الجاحدون للبعث[4]، كقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً[5] فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

(١) زيادة من م، أ. (٢) زيادة من أ. (٣) فى م: «من».
(٤) فى م، أ: «البعث». (٥) فى م: «هامدة» وهو خطأ .

www.Quranpdf.blogspot.in

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤) أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥) ﴾ .

يقول تعالى متهددا لكفار قريش بما أحله بأشباههم ونظرائهم وأمثالهم من المكذبين قبلهم، من النقمات والعذاب الأليم فى الدنيا، كقوم نوح وما عذبهم الله به من الغرق العام[1] لجميع أهل الأرض، وأصحاب الرس وقد تقدمت قصتهم فى سورة «الفرقان»[2] ﴿وَثَمُودُ. وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾، وهم أمته الذين بعث إليهم من أهل سدوم ومعاملتها من الغور، وكيف خسف الله بهم الأرض، وأحال أرضهم بحيرة منتنة خبيثة؛ بكفرهم وطغيانهم ومخالفتهم الحق، ﴿وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ﴾ وهم قوم شعيب عليه السلام، ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ وهو اليمانى. وقد ذكرنا من شأنه فى سورة الدخان بما أغنى عن إعادته هاهنا ولله الحمد.

﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ أى: كل من هذه الأمم وهؤلاء القرون كذب رسوله[3]، ومن كذب رسولا[4] فكأنما كذب جميع الرسل، كقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾[الشعراء: ١٠٥]، وإنما جاءهم رسول واحد، فهم فى نفس الأمر لو جاءهم جميع الرسل كذبوهم، ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ أى: فحق عليهم ما أوعدهم الله، على التكذيب من العذاب والنكال فليحذر المخاطبون أن يصيبهم ما أصابهم فإنهم قد كذبوا رسولهم كما كذب أولئك.

وقوله: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ﴾ أى: أفأعجزنا[5] ابتداء الخلق حتى هم فى شك من الإعادة، ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ والمعنى: أن ابتداء الخلق لم يعجزنا والإعادة أسهل منه، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] ،وقال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩]. وقد تقدم فى الصحيح: «يقول الله تعالى: يؤذينى ابن آدم، يقول: لن يعيدنى كما بدأنى، وليس أول الخلق بأهون على من إعادته»[6].

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ

(١) فى م: «العظيم».
(٢) تقدم ذلك فى سورة الفرقان عند الآية رقم (٣٨).
(٣) فى أ: «رسولهم». (٤) فى م: «برسول». (٥) فى م: «فأعجزنا».
(٦) صحيح البخارى برقم (٤٩٧٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

www.Quranpdf.blogspot.in

يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢)﴾ .

يخبر تعالى عن قدرته على الإنسان بأنه خالقه، وعلمه محيط بجميع أموره، حتى إنه تعالى يعلم ما توسوس به نفوس بنى آدم من الخير والشر. وقد ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله [١] تجاوز لأمتى ما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل»[٢].

وقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ يعنى: ملائكته تعالى أقربُ إلى الإنسان من حبل وريده[٣] إليه. ومن تأوله على العلم فإنما فر لئلا يلزم حلول أو اتحاد، وهما منفيان بالإجماع، تعالى الله وتقدس، ولكن اللفظ لا يقتضيه فإنه لم يقل: وأنا أقرب إليه من حبل الوريد، وإنما قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾، كما قال فى المحتضر: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥]، يعنى ملائكته. وكما قال [تعالى][٤]: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، فالملائكة نزلت بالذكر ـ وهو القرآن ـ بإذن الله، عز وجل. وكذلك[٥] الملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه بإقدار[٦] الله لهم على ذلك، فالملك لَمّة فى الإنسان كما أن للشيطان لمة وكذلك: «الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم»، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ يعنى: الملكين اللذين يكتبان عمل الإنسان. ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ أى: مترصد[٧] ﴿مَا يَلْفِظُ﴾ أى: ابن آدم ﴿مِن قَوْلٍ﴾ أى: ما يتلكم بكلمة[٨] ﴿إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ أى: إلا ولها من يراقبها معتد[٩] لذلك يكتبها، لا يترك كلمة ولا حركة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ. كِرَامًا كَاتِبِينَ. يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ـ ١٢].

وقد اختلف العلماء: هل يكتب الملك كل شىء من الكلام؟ وهو قول الحسن وقتادة، أو إنما يكتب ما فيه ثواب وعقاب كما هو قول ابن عباس، على قولين، وظاهر الآية الأول، لعموم قوله: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا محمد بن عمرو بن علقمة الليثى، عن أبيه، عن جده علقمة، عن بلال بن الحارث المزنى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه[١٠]. وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله عليه بها[١١] سخطه إلى يوم يلقاه». قال: فكان علقمة يقول: كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث.

ورواه الترمذى والنسائى وابن ماجه، من حديث محمد بن عمرو به[١٢]. وقال الترمذى: حسن

---

(١) فى أ: «إن الله تعالى».
(٢) صحيح البخارى برقم (٥٢٦٩)، وصحيح مسلم برقم (١٢٧).
(٣) فى أ: «الوريد». (٤) زيادة من م، أ. (٥) فى أ: «ولذلك».
(٦) فى م: «باقتدار». (٧) فى م: «مرصد». (٨) فى م: «بكلام».
(٩) فى م: « معد». (١٠) فى أ: «القيامة». (١١) فى م: «له بها عليه».
(١٢) المسند (٣/ ٤٦٩) وسنن الترمذى برقم (٢٣١٩)، والنسائى فى السنن الكبرى، كما فى تحفة الأشراف (٢/ ١٠٣)، وسنن ابن ماجه برقم (٣٩٦٩).

www.Quranpdf.blogspot.in

صحيح. وله شاهد(١) فى الصحيح(٢).

وقال الأحنف بن قيس: صاحب اليمين يكتب الخير، وهو أمير على صاحب الشمال، فإن أصاب العبد خطيئة قال له: أمسك، فإن استغفر الله تعالى نهاه أن يكتبها، وإن أبى كتبها. رواه ابن أبى حاتم.

وقال الحسن البصرى وتلا هذه الآية: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾: يا ابن آدم، بُسطت لك صحيفة، ووكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك، والآخر عن شمالك، فأما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذى عن يسارك فيحفظ سيئاتك فاعمل(٣) ما شئت، أقلل أو أكثر حتى إذا مت طويت صحيفتك، وجعلت فى عنقك معك فى قبرك، حتى تخرج يوم القيامة، فعند ذلك يقول: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا. اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾. [الإسراء:١٣، ١٤] ثم يقول: عدل ـ والله ـ فيك من جعلك حسيب نفسك.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ قال: يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر، حتى إنه ليكتب قوله: «أكلت، شربت، ذهبت، جئت، رأيت»، حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله، فأقر منه ما كان فيه من خير أو شربت، وألقى سائره، وذلك قوله: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد:٣٩]، وذكر عن الإمام أحمد أنه كان يئن فى مرضه، فبلغه عن طاوس أنه قال: يكتب الملك كل شىء حتى الأنين. فلم يئن أحمد حتى مات رحمه الله(٤).

وقوله: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾، يقول تعالى: وجاءت ـ أيها الإنسان ـ سكرة الموت بالحق، أى: كشفت لك عن اليقين الذى كنت تمترى فيه، ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾أى: هذا هو الذى كنت تفر منه قد جاءك، فلا محيد ولا مناص، ولا فكاك ولا خلاص.

وقد اختلف المفسرون فى المخاطب بقوله: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾، فالصحيح أن المخاطب بذلك الإنسان من حيث هو. وقيل: الكافر، وقيل :غير ذلك.

وقال أبو بكر بن أبى الدنيا: حدثنا إبراهيم بن زياد ـ سَبَلان ـ أخبرنا عَبَّاد بن عَبَّاد عن محمد بن عمرو بن علقمة، عن أبيه، عن جده علقمة بن وقاص(٥) أن عائشة، رضى الله عنها، قالت: حضرت أبى وهو يموت، وأنا جالسة عند رأسه، فأخذته غشيةٌ فتمثلت ببيت من الشعر:

من لا يزال دمعه مُقَنَّعا فإنه لابد مرةً(٦) مدفوق(٧)

---

(١) فى أ: «شواهد».
(٢) شاهده حديث أبى هريرة رضى الله عنه أخرجه البخارى فى صحيحه برقم (٦٤٧٨).
(٣) فى أ: « فاملل».
(٤) رواه صالح بن الإمام أحمد فى سيرة أبيه.
(٥) فى أ: «أبى وقاص» وهو خطأ. انظر ترجمته فى تهذيب التهذيب.
(٦) فى أ: «من دمعه».
(٧) البيت فى النهاية لابن الأثير (٤/ ١١٥) وعنده: لابد يوما أن يهراق.

www.Quranpdf.blogspot.in

قالت: فرفع رأسه فقال: يا بنية، ليس كذلك ولكن كما قال الله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ .

وحدثنا[١] خلف بن هشام؛ حدثنا أبو شهاب [الخياط][٢]، عن إسماعيل بن أبى خالد، عن البهى قال: لما أن ثقل أبو بكر[٣]، رضى الله عنه ،جاءت عائشة، رضى الله عنها، فتمثلت بهذا البيت:

لعمرك ما يغنى الثراء عن الفتى ... إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر[٤]

فكشف عن وجهه وقال: ليس كذلك، ولكن قولى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ . وقد أوردت لهذا الأثر طرقا [كثيرة][٥] فى سيرة الصديق عند ذكر وفاته، رضى الله عنه.

وقد ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ: لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول: «سبحان الله! إن للموت لسكرات». وفى قوله: ﴿ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾قولان:

أحدهما: أن «ما» هاهنا موصولة، أى: الذى كنت منه تحيد ـ بمعنى: تبتعد وتنأى وتفر ـ قد حل بك ونزل بساحتك.

والقول الثانى: أن «ما» نافية بمعنى: ذلك ما كنت تقدر على الفرار منه ولا الحيد عنه.

وقد قال الطبرانى فى المعجم الكبير: حدثنا محمد بن على الصائغ المكى، حدثنا حفص بن عمر الحدى، حدثنا معاذ بن محمد الهُذَلى، عن يونس بن عبيد، عن الحسن،عن سَمُرة قال: قال رسول الله ﷺ:«مثل الذى يفر من الموت مثل الثعلب، تطلبه الأرض يَدْين، فجاء يسعى حتى إذا أعيى وأسهر دخل جحره، فقالت له الأرض: يا ثعلب، دينى. فخرج وله حصاص، فلم يزل كذلك حتى تقطعت عنقه ومات»[٦].

ومضمون هذا المثل: كما لا انفكاك له ولا محيد عن الأرض كذلك الإنسان لا محيد له عن الموت.

وقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾. قد تقدم الكلام على حديث النفخ فى الصور والفزع والصعق والبعث[٧]، وذلك يوم القيامة. وفى الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته، وانتظر أن يؤذن له». قالوا:يا رسول الله كيف نقول؟ قال:«قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل». فقال القوم: حسبنا الله ونعم الوكيل.

---

(١) فى أ:«وحديث». (٢)زيادة من م،أ. (٣) فى م:«أبا بكر».
(٤) البيت لحاتم الطائى، وهو فى ديوانه ص (٥٠) أ.هـ مستفادا من طبعة الشعب. (٥) زيادة من م، أ.
(٦) المعجم الكبير (٧/ ٢٢٢)، وقال الهيثمى فى المجمع (٢/ ٣٢٠): «فيه معاذ بن محمد الهذلى، قال العقيلى: لا يتابع على رفع حديثه».
(٧) فى م:«للفزع وللصعق وللبعث».

www.Quranpdf.blogspot.in

﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ أي: ملك يسوقه إلى المحشر، وملك يشهد عليه بأعماله. هذا هو الظاهر من الآية الكريمة. وهو اختيار ابن جرير، ثم روى من حديث إسماعيل بن أبى خالد عن يحيى بن رافع ـ مولى لثقيف ـ قال: سمعت عثمان بن عفان يخطب[١]، فقرأ هذه الآية: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾، فقال: سائق يسوقها إلى الله، وشاهد يشهد عليها بما عملت. وكذا قال مجاهد، وقتادة، وابن زيد.

وقال مُطَرِّف، عن أبى جعفر ـ مولى أشجع ـ عن أبى هريرة: السائق: الملك، والشهيد: العمل. وكذا قال الضحاك والسدى.

وقال العَوْفى عن ابن عباس: السائق من الملائكة، والشهيد: الإنسان نفسه، يشهد على نفسه. وبه قال الضحاك بن مُزاحِم أيضا.

وحكى ابن جرير ثلاثة أقوال فى المراد بهذا الخطاب فى قوله: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.

أحدها: أن المراد بذلك الكافر. رواه على بن أبى طلحة، عن ابن عباس. وبه يقول الضحاك بن مزاحم وصالح بن كيسان.

والثانى: أن المراد بذلك كل أحد من بر وفاجر؛ لأن الآخرة بالنسبة إلى الدنيا كاليقظة والدنيا كالمنام. وهذا اختيار ابن جرير، ونقله عن حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس.

والثالث: أن المخاطب بذلك النبى ﷺ. وبه يقول زيد بن أسلم، وابنه. والمعنى على قولهما: لقد كنت فى غفلة من هذا الشأن[٢] قبل أن يوحى إليك، فكشفنا عنك غطاءك بإنزاله إليك، فبصرك اليوم حديد.

والظاهر من السياق خلاف هذا، بل الخطاب مع الإنسان من حيث هو، والمراد بقوله: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ يعنى: من هذا اليوم، ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أى: قوى؛ لأن كل واحد يوم القيامة يكون مستبصرا، حتى الكفار فى الدنيا يكونون يوم القيامة على الاستقامة، لكن لا ينفعهم ذلك. قال الله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (٢٣) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦) قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا

(١) فى م: «خطب». (٢) فى أ: «القرآن».

www.Quranpdf.blogspot.in

أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ (٢٩)﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن الملك الموكل بعمل ابن آدم: أنه يشهد عليه يوم القيامة بما فعل[١]، ويقول: ﴿هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ أى: معتد[٢] محضر[٣] بلا زيادة ولا نقصان.

وقال مجاهد: هذا كلام الملك السائق يقول: هذا ابن آدم الذى وكلتنى به، قد أحضرته.

وقد اختار ابن جرير أنه يعم السائق والشهيد، وله اتجاه وقوة.

فعند ذلك يحكم الله، سبحانه وتعالى، فى الخليقة بالعدل فيقول: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

وقد اختلف النحاة فى قوله: ﴿أَلْقِيَا﴾، فقال بعضهم: هى لغة لبعض العرب يخاطبون المفرد بالتثنية، كما روى عن الحجاج أنه كان يقول: يا حرسى، اضربا عنقه، ومما أنشد ابن جرير على هذه اللغة قول الشاعر:

فإن تزجرانى ـ يا ابن عفان ـ أنزجر وإن تتركانى أحم عرضا ممنعا[٤]

وقيل: بل هى نون التوكيد، سهلت إلى الألف. وهذا بعيد؛ لأن هذا إنما يكون فى الوقف، والظاهر أنها مخاطبة مع السائق والشهيد، فالسائق أحضره إلى عرصة الحساب، فلما أدى الشهيد عليه، أمرهما الله تعالى بإلقائه فى نار جهنم وبئس المصير.

﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أى: كثير الكفر والتكذيب بالحق، ﴿عَنِيدٍ﴾ : معاند للحق، معارض له بالباطل مع علمه بذلك. ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ أى: لا يؤدى ما عليه من الحقوق، ولا بر فيه ولا صلة ولا صدقة، ﴿مُعْتَدٍ﴾ أى: فيما ينفقه ويصرفه، يتجاوز فيه الحد.

وقال قتادة: معتد فى منطقه وسيرته وأمره.

﴿مُّرِيبٍ﴾ أى: شاك فى أمره، مريب لمن نظر فى أمره ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أى: أشرك بالله فعبد معه غيره، ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾. وقد تقدم فى الحديث: أن عنقاً من النار يبرز للخلائق فينادى بصوت يسمع الخلائق: إنى وكلت بثلاثة، بكل جبار عنيد، ومن جعل مع الله إلها آخر، وبالمصورين ثم تلوى[٥] عليهم.

قال الإمام أحمد: حدثنا معاوية ـ هو ابن هشام ـ حدثنا شيبان، عن فراس، عن عطية[٦]، عن أبى سعيد الخدرى عن نبى الله ﷺ أنه قال: «يخرج عنق من النار يتكلم، يقول: وكلت اليوم بثلاثة:

---

(١) فى أ: «بما عمل». (٢) فى م، أ: «معد». (٣) فى أ: «محص».
(٤) تفسير الطبرى (٢٦/١٠٣).
(٥) فى م، أ: «تنطوى».
(٦) فى م: «حدثنا شيبان هو ابن هشام عن فراس عن عطية».

www.Quranpdf.blogspot.in

بكل جبار، ومن جعل مع الله إلها آخر، ومن قتل نفسا بغير نفس[١]. فتنطوى عليهم، فتقذفهم فى غمرات جهنم»[٢].

﴿قَالَ قَرِينُهُ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وغيرهم: هو الشيطان الذى وكل به: ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ أى: يقول عن الإنسان الذى قد وافى القيامة كافراً، يتبرأ منه شيطانه، فيقول: ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ أى: ما أضللته، ﴿وَلَكِن كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ أى: بل كان هو فى نفسه ضالا قابلا للباطل معانداً للحق. كما أخبر تعالى فى الآية الأخرى فى قوله: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقوله: ﴿قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ يقول[٣] الرب عز وجل للإنسى وقرينه من الجن، وذلك أنهما يختصمان بين يدى الحق فيقول الإنسى: يا رب، هذا أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى. ويقول الشيطان: ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ أى: عن منهج الحق. فيقول الرب عز وجل لهما: ﴿لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ أى: عندى، ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾ أى: قد أعذرت إليكم على ألسنة الرسل، وأنزلت الكتب، وقامت عليكم الحجج والبينات والبراهين.

﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾: قال مجاهد: يعنى قد قضيت ما أنا قاض، ﴿وَمَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أى: لست أعذب أحدا بذنب أحد، ولكن لا أعذب أحداً إلا بذنبه، بعد قيام الحجة عليه.

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥)﴾.

يخبر تعالى أنه يقول لجهنم يوم القيامة: هل امتلأت؟ وذلك أنه وعدها أن سيملؤها من الجنة والناس أجمعين، فهو سبحانه يأمر بمن[٤] يأمر به إليها، ويلقى وهى تقول: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ أى: هل بقى شىء تزيدونى؟ هذا هو الظاهر من سياق الآية، وعليه تدل الأحاديث:

قال البخارى عند تفسير هذه الآية: حدثنا عبد الله بن أبى الأسود، حدثنا حَرَمى بن عُمَارة حدثنا شعبة، عن قتادة، عن أنس بن مالك، عن النبى ﷺ قال: «يُلقَى فى النار، وتقول: هل من مزيد، حتى يضع قدمه فيها، فتقول: قط قط»[٥].

---

(١) فى م: «حق».
(٢) المسند (٣/ ٤٠).
(٣) فى م: «يقوله».
(٤) فى م: «من».
(٥) صحيح البخارى برقم (٤٨٤٨).

www.Quranpdf.blogspot.in

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الوهاب، عن سعيد، عن قتادة، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع رب العزة فيها قدمه، فينزوى بعضها إلى بعض، وتقول: قط قط، وعزتك وكَرَمِك ولا يزال فى الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقا آخر فيسكنهم فى فضول[١] الجنة»[٢].

ثم رواه مسلم من حديث قتادة، بنحوه[٣]. ورواه أبان العطار وسليمان التيمى، عن قتادة، بنحوه[٤].

حديث آخر: قال[٥] البخارى: حدثنا محمد بن موسى القطان، حدثنا أبو سفيان الحميرى سعيد ابن يحيى بن مهدى، حدثنا عَوْف، عن محمد، عن أبى هريرة ـ رفعه، وأكثر ما كان يوقفه أبو سفيان ـ: «يقال لجهنم: هل امتلأت، وتقول: هل من مزيد، فيضع الرب، عز وجل، قدمه عليها[٦]، فتقول: قط قط»[٧].

رواه أيوب وهشام بن حسان عن محمد بن سيرين، به[٨].

طريق أخرى: قال[٩] البخارى: وحدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر عن همام[١٠]، عن أبى هريرة قال: قال النبى ﷺ: «تحاجت الجنة والنار، فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين. وقالت الجنة: مالى لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقطهم. قال الله، عز وجل، للجنة: أنت رحمتى، أرحم بك من أشاء من عبادى. وقال للنار: إنما أنت عذابى، أعذب بك من أشاء من عبادى، ولكل واحدة منكما ملؤها، فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع رجله، فتقول: قط قط، فهنالك تمتلئ ويزوى[١١] بعضها إلى بعض ولا يظلم الله من خلقه أحدا، وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقا آخر»[١٢].

حديث آخر: قال[١٣] مسلم فى صحيحه: حدثنا عثمان بن أبى شيبة، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «احتجت الجنة والنار، فقالت النار: فىَّ الجبارون والمتكبرون. وقالت الجنة: فىّ ضعفاء الناس ومساكينهم. فقضى بينهما، فقال للجنة: إنما أنت رحمتى، أرحم بك من أشاء من عبادى. وقال للنار: إنما أنت عذابى، أعذب بك من

(١) فى أ: «فضل».
(٢) المسند (٣/ ٢٣٤).
(٣) صحيح مسلم برقم (٢٨٤٨).
(٤) أخرجه الطبرى فى تفسيره (٢٦/ ١٠٦).
(٥) فى م: «وقال».
(٦) فى م: «عليها قدمه».
(٧) صحيح البخارى برقم (٤٨٤٩).
(٨) رواه أحمد فى مسنده (٢/ ٥٠٧) من طريق هشام بن حسان به. ورواه الطبرى فى تفسيره (٢٦/ ١٠٧) من طريق أيوب وهشام بن حسان به.
(٩) فى م: «وقال».
(١٠) فى م: «همام بن منبه».
(١١) فى أ: «ينزوى».
(١٢) صحيح البخارى برقم (٤٨٥٠).
(١٣) فى م: «وقال».

www.Quranpdf.blogspot.in

أشاء من عبادى، ولكل واحدة منكما ملؤها» انفرد به مسلم دون البخارى[١] من هذا الوجه. والله، سبحانه وتعالى، أعلم.

وقد رواه الإمام أحمد من طريق أخرى، عن أبى سعيد بأبسط من هذا السياق فقال:

حدثنا حسن وروح قالا: حدثنا حماد بن سلمة، عن عطاء بن السائب، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن أبى سعيد الخدرى؛ أن رسول الله ﷺ قال: «افتخرت الجنة والنار، فقالت النار: يا رب، يدخلنى الجبابرة والمتكبرون والملوك والأشراف. وقالت الجنة: أى رب، يدخلنى الضعفاء والفقراء والمساكين. فيقول الله، عز وجل، للنار: أنت عذابى، أصيب بك من أشاء. وقال للجنة: أنت رحمتى، وسعت كل شىء، ولكل واحدة منكما ملؤها، فيلقى فى النار أهلها فتقول: هل من مزيد؟ قال: ويلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟ ويلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟ حتى يأتيها[٢] عز وجل، فيضع قدمه عليها، فتزوى وتقول: قدنى، قدنى. وأما الجنة فيبقى فيها ما شاء الله أن يبقى، فينشئ الله لها خلقا ما يشاء»[٣].

حديث آخر: وقال الحافظ أبو يعلى فى مسنده: حدثنا عقبة بن مُكْرَم، حدثنا يونس، حدثنا عبد الغفار بن القاسم، عن عُدى بن ثابت، عن زرِّ بن حُبَيْش، عن أبى بن كعب؛ أن رسول الله ﷺ قال: «يعرفنى الله، عز وجل، نفسه يوم القيامة، فأسجد سجدة يرضى بها عنى، ثم أمدحه مدحة يرضى بها عنى، ثم يؤذن لى فى الكلام، ثم تمر أمتى على الصراط ـ مضروب بين ظهرانى جهنم ـ فيمرون أسرع من الطرف والسهم، وأسرع من أجود الخيل، حتى يخرج الرجل منها يحبو، وهى الأعمال. وجهنم تسأل المزيد، حتى يضع فيها قدمه، فينزوى بعضها إلى بعض وتقول: قط قط! وأنا على الحوض». قيل: وما الحوض يا رسول الله؟ قال: «والذى نفسى بيده، إن شرابه أبيض من اللبن، وأحلى من العسل، وأبرد من الثلج، وأطيب ريحا من المسك. وآنيته أكثر من عدد النجوم، لا يشرب منه إنسان فيظمأ أبدا، ولا يصرف فيروى أبدا»[٤]. وهذا القول هو اختيار ابن جرير.

وقد قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو يحيى الحمَّانى[٥] عن نضر الخزاز، عن عكرمة، عن ابن عباس، ﴿ **يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ** ﴾ قال: ما امتلأت، قال: تقول: وهل فى من مكان يزاد فى.

وكذا روى الحكم بن أبان عن عكرمة: ﴿ **وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ** ﴾: وهل فى مدخل واحد، قد

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٨٤٧).

(٢) فى م: «يأتيها ربها».

(٣) المسند (٣/١٣).

(٤) ورواه ابن أبى عاصم فى السنة برقم (٧٩٠) من طريق عقبة بن مكرم به.
وقال الألبانى: «إسناده موضوع، آفته عبد الغفار بن القاسم، وهو أبو مريم الأنصارى، كان يضع الحديث كما قال ابن المدينى وأبو داود».

(٥) فى م: «الحمان».

www.Quranpdf.blogspot.in

امتلأت.

[و][١] قال الوليد بن مسلم، عن يزيد بن أبى مريم أنه سمع مجاهداً يقول: لا يزال يقذف فيها حتى تقول: قد امتلأت فتقول: هل [فيَّ][٢] من مزيد؟ وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم نحو هذا.

فعند هؤلاء أن قوله تعالى: ﴿هَلِ امْتَلأْت﴾، إنما هو بعد ما يضع عليها قدمه، فتنزوى وتقول حينئذ: هل بقى فى [من] [٣]مزيد؟ يسع شيئاً.

قال العوفى، عن ابن عباس: وذلك حين لا يبقى فيها موضع [يسع][٤] إبرة. فالله[٥] أعلم.

وقوله: ﴿وَأُزْلِفَت الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾: قال قتادة، وأبو مالك، والسدى: ﴿أُزْلِفَت﴾ أدنيت وقربت من المتقين، ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾، وذلك يوم القيامة، وليس ببعيد؛ لأنه واقع لا محالة، وكل ما هو آت آت.

﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ[٦]﴾ أى: رجاع تائب مقلع، ﴿حَفِيظٍ﴾أى: يحفظ العهد فلا ينقضه و[لا][٧] ينكثه.

وقال عبيد بن عمير: الأواب: الحفيظ الذى لا يجلس مجلساً [فيقوم][٨]حتى يستغفر الله، عز وجل.

﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ أى: من خاف الله فى سره حيث لا يراه أحد إلا الله. كقوله [عليه السلام][٩] :«ورجل ذكر الله خاليا، ففاضت عيناه».

﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ أى: ولقى الله يوم القيامة بقلب سليم منيب إليه خاضع لديه.

﴿ادْخُلُوهَا﴾ أى: الجنة ﴿بِسَلامٍ﴾، قال قتادة: سلموا من عذاب الله، وسلم عليهم ملائكة الله.

وقوله: ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ أى: يخلدون فى الجنة فلا يموتون أبداً، ولا يظعنون أبداً، ولا يبغون عنها حولا.

وقوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾ أى: مهما اختاروا وجدوا، من أى أصناف الملاذ طلبوا أحضر لهم.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا عمرو بن عثمان، حدثنا بَقيَّة، عن بَحِير[١٠] بن سعد، عن خالد بن مَعْدان، عن كثير بن مُرَّة قال: من المزيد أن تمر السحابة بأهل الجنة فتقول: ماذا تريدون فأمطره لكم؟ فلا يدعون بشىء إلا أمطرتهم. قال كثير: لئن أشهدنى الله ذلك لأقولن: أمطرينا جوارى مزينات.

(١ـ ٣) زيادة من م. (٤) زيادة من م، أ. (٥) فى م: «والله».
(٦) فى أ: ﴿أواب حفيظ﴾. (٧) زيادة من م. (٨) زيادة من م، أ.
(٩) زيادة من م، أ. (١٠) فى م: «يحيى».

www.Quranpdf.blogspot.in

وفى الحديث عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال له: «إنك لتشتهى الطير فى الجنة، فيخر بين يديك مشوياً»[١].

وقال الإمام أحمد: حدثنا على بن عبد الله، حدثنا معاذ بن هشام، حدثنى أبى، عن عامر الأحول، عن أبى الصديق[٢]، عن أبى سعيد الخدرى؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا اشتهى المؤمن الولد فى الجنة، كان حمله ووضعه وسِنّه فى ساعة واحدة».

ورواه الترمذى وابن ماجه عن بُنْدار، عن معاذ بن هشام، به[٣]. وقال الترمذى: حسن غريب، وزاد «كما يشتهى».

وقوله: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ كقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]. وقد تقدم فى صحيح مسلم عن صُهَيب بن سنان الرومى: أنها النظر إلى وجه الله الكريم. وقد روى البزار وابن أبى حاتم، من حديث شريك القاضى، عن عثمان بن عمير أبى اليقظان، عن أنس بن مالك فى قوله عز وجل: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾قال: يظهر لهم الرب، عز وجل، فى كل جمعة[٤].

وقد رواه الإمام أبو عبد الله الشافعى مرفوعاً فقال فى مسنده: أخبرنا إبراهيم بن محمد، حدثنى موسى بن عبيدة، حدثنى أبو الأزهر معاوية بن إسحاق بن طلحة، عن عبد الله بن عبيد بن عمير[٥] أنه سمع أنس بن مالك يقول: أتى جبرائيل بمرآة بيضاء فيها نكتة إلى رسول الله، فقال النبى[٦] ﷺ: «ما هذه؟». فقال: هذه الجمعة، فُضّلتَ بها أنت وأمتك، فالناس لكم فيها تبع، اليهود والنصارى، ولكم فيها خير، ولكم فيها ساعة لا يوافقها مؤمن[٧] يدعو الله بخير إلا استجيب له، وهو عندنا يوم المزيد. قال النبى ﷺ:«يا جبريل، وما يوم المزيد؟». قال: إن ربك اتخذ فى الفردوس واديا أفيح فيه كثب المسك، فإذا كان يوم الجمعة أنزل الله ما شاء[٨] من ملائكته، وحوله منابر من نور، عليها مقاعد النبيين، وحف تلك المنابر بمنابر من ذهب، مكللة بالياقوت والزبرجد، عليها الشهداء والصديقون[٩] فجلسوا من ورائهم على تلك الكثب، فيقول الله عز وجل: أنا ربكم، قد صدقتكم وعدى، فسلونى أعطكم. فيقولون: ربنا، نسألك رضوانك، فيقول: قد رضيت عنكم، ولكم على ما تمنيتم، ولدى مزيد. فهم يحبون يوم الجمعة لما يعطيهم فيه ربهم من الخير، وهو اليوم الذى استوى فيه ربكم على العرش، وفيه خلق آدم، وفيه تقوم الساعة».

---

(١) رواه الحسن بن عرفة فى جزئه برقم (٢٢) والبزار فى مسنده برقم (٣٥٣٢) «كشف الأستار» وابن عدى فى الكامل (٦/ ٦٨٩) من طريق خلف بن خليفة عن حميد الأعرج عن عبد الله بن الحارث عن ابن مسعود مرفوعاً به.
وفيه حميد الأعرج، قال البخارى: منكر الحديث، وقال ابن حبان: أحاديثه شبه الموضوعة.

(٢) فى م: «عن أبى بكر الصديق».

(٣) المسند (٣/ ٩) وسنن الترمذى برقم (٢٥٦٣) وسنن ابن ماجة برقم (٤٣٣٨).

(٤) فى أ: «جهة».

(٥) فى م: «عن عبيد الله بن عمير»، وفى الأصل:«عبد الله عمير» والتصويب من الأم للشافعى.

(٦) فى م:«رسول الله». (٧) فى أ: «لايوافقها عبد مؤمن» (٨) فى م: «ناساً».

(٩) فى أ: «الصالحون».

www.Quranpdf.blogspot.in

[و][١]هكذا أورده الإمام الشافعي في كتاب «الجمعة» من الأم [٢]،وله طرق على أنس بن مالك، رضي الله عنه. وقد أورد ابن جرير هذا من رواية عثمان بن عمير، عن أنس بأبسط من هذا[٣]، وذكر هاهنا أثراً مطولا عن أنس بن مالك موقوفاً وفيه غرائب كثيرة[٤].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن،حدثنا ابن لَهيعة، حدثنا دَراج عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ قال: «إن الرجل في الجنة ليتكئ في الجنة سبعين سنة قبل أن يتحول ثم تأتيه امرأة فتضرب على منكبه[٥] فينظر وجهه في خدها أصفى من المرآة، وإن أدنى لؤلؤة عليها تضيء ما بين المشرق والمغرب. فتسلم عليه، فيرد السلام، فيسألها: من أنت؟ فتقول: أنا من المزيد. وإنه ليكون عليها سبعون حلة، أدناها مثل النعمان، من طوبى، فينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك، وإن عليها من التيجان، إن أدنى لؤلؤة منها لتضيء ما بين المشرق والمغرب»[٦].

وهكذا رواه عبد الله بن وهب عن عمرو بن الحارث، عن دراج، به[٧].

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ (٣٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧) وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ (٣٨) فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (٤٠) ﴾ .

يقول تعالى: وكم أهلكنا قبل هؤلاء المنكرين[٨]: ﴿مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أي: كانوا أكثر منهم وأشد قوة، وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ﴾: قال ابن عباس: أثروا فيها. وقال مجاهد: ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ﴾: ضربوا في الأرض .وقال قتادة: فساروا في البلاد، أي ساروا فيها يبتغون الأرزاق والمتاجر والمكاسب أكثر مما طفتم أنتم فيها ويقال لمن طوف في البلاد: نقب فيها. قال امرؤ القيس:

لقد نَقَّبْتُ في الآفَاق حتّى ... رضيتُ من الغَنِيمة بالإيَابِ[٩]

---

(١) زيادة من م.
(٢) الأم (١/ ١٨٥).
(٣، ٤) تفسير الطبري (٢٦/ ١٠٩).
(٥) في أ: «منكبيه».
(٦) المسند (٣/ ٧٥) وفيه: دراج عن أبي الهيثم، ضعيف.
(٧) رواه الطبري في تفسيره (٢٦/ ١١٠) والكلام عليه كسابقه.
(٨) في م، أ: «المكذبين».
(٩) البيت في تفسير الطبري (٢٦/ ١١٠).

www.Quranpdf.blogspot.in

وقوله: ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ أى: هل من مفر كان لهم من قضاء الله وقدره؟ وهل نفعهم ما جمعوه ورد عنهم عذاب الله إذ جاءهم لما كذبوا الرسل؟ فأنتم أيضاً لا مفر لكم ولا محيد ولا مناص ولا محيص.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ أى: لعبرة ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أى: لُبٌّ يَعِى به. وقال مجاهد: عقل ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أى: استمع الكلام فوعاه، وتعقله بقلبه وتفهمه بلبه.

وقال مجاهد: ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾ يعنى: لا يحدث نفسه بغيره، ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ وقال: شاهد بالقلب[1].

وقال الضحاك: العرب تقول: ألقى فلان سمعه: إذا استمع بأذنيه وهو شاهد يقول غير غائب. وهكذا قال الثورى وغير واحد.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾: فيه تقرير المعاد؛ لأن من قدر على خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن، قادر على أن يحيى الموتى بطريق الأولى والأحرى.

وقال قتادة: قالت اليهود ـ عليهم لعائن الله ـ: خلق الله السموات والأرض فى ستة أيام، ثم استراح فى اليوم السابع، وهو يوم السبت، وهم يسمونه يوم الراحة، فأنزل الله تكذيبهم فيما قالوه وتأولوه: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ أى: من إعياء ولا نصب ولا تعب، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وكما قال: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧] وقال: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧].

وقوله: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ يعنى: المكذبين، اصبر عليهم واهجرهم هجراً جميلا، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾، وكانت الصلاة المفروضة قبل الإسراء ثنتين قبل طلوع الشمس فى وقت الفجر، وقبل الغروب فى وقت العصر، وقيام الليل كان واجباً على النبى ﷺ وعلى أمته حولاً، ثم نسخ فى حق الأمة وجوبه. ثم بعد ذلك نسخ الله ذلك كله ليلة الإسراء بخمس صلوات، ولكن منهن[2] صلاة الصبح والعصر، فهما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا إسماعيل بن أبى خالد، عن قيس بن أبى حازم[3]، عن جرير بن عبد الله قال: كنا جلوسا عند النبى ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: «أما إنكم ستعرضون على ربكم فترونه كما ترون هذا القمر، لا تضامون فيه، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، فافعلوا». ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾.

---

(١) فى م: «القلب». (٢) فى أ: «بينهن». (٣) فى أ: «حاتم».

www.Quranpdf.blogspot.in

ورواه البخارى ومسلم وبقية الجماعة، من حديث إسماعيل، به[١].

وقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أى: فصل له، كقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء:٧٩].

﴿وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾: قال ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد، عن ابن عباس: هو التسبيح بعد الصلاة.

ويؤيد هذا ما ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة أنه قال: جاء فقراء المهاجرين فقالوا: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالدرجات[٢] العُلَى والنعيم المقيم. فقال:«وما ذاك؟» قالوا: يصلون كما نصلى، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق! قال: «أفلا أعلمكم شيئاً إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من فعل مثل ما فعلتم؟ تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين». قال: فقالوا: يا رسول الله، سمع إخواننا أهل الأموال[٣] بما فعلنا، ففعلوا مثله. قال: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»[٤].

والقول الثانى: أن المراد بقوله: ﴿وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾: هما الركعتان بعد المغرب، روى ذلك عن عمر وعلى، وابنه الحسن وابن عباس، وأبى هريرة، وأبى أمامة،وبه يقول مجاهد، وعكرمة، والشعبى، والنَّخَعِى والحسن وقتادة، وغيرهم.

قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع وعبد الرحمن، عن سفيان، عن أبى إسحاق، عن عاصم بن ضَمْرَة، عن على قال: كان رسول الله ﷺ يصلى على أثر كل صلاة مكتوبة ركعتين[٥] إلا الفجر والعصر. وقال عبد الرحمن: دبر كل صلاة.

ورواه أبو داود والنسائى، من حديث سفيان الثورى، به[٦]. زاد النسائى: ومطرف، عن أبى إسحاق، به[٧].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا هارون بن إسحاق الهمدانى، حدثنا ابن فضيل، عن رشدين بن كريب، عن أبيه عن ابن عباس قال: بت ليلة عند رسول الله ﷺ فصلى ركعتين خفيفتين، اللتين قبل الفجر. ثم خرج إلى الصلاة فقال:« يا ابن عباس، ركعتين قبل صلاة الفجر إدبار النجوم، وركعتين بعد المغرب إدبار السجود».

ورواه الترمذى عن أبى هشام الرفاعى، عن محمد بن فضيل، به[٨]. وقال: غريب لا نعرفه إلا

---

(١) المسند (٤/ ٣٦٥) وصحيح البخارى برقم (٤٨٥١) وصحيح مسلم برقم (٦٣٣) وسنن أبى داود برقم (٣٧٢٩) وسنن الترمذى برقم (٢٥٥١) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٣٣٠) وسنن ابن ماجه برقم (١١٧).

(٢) فى أ: «بالأجور». (٣) فى أ:«الإيمان».

(٤) صحيح البخارى برقم (٦٣٢٩) وصحيح مسلم برقم (٥٩٥).

(٥) فى م: «ركعتين مكتوبة».

(٦) المسند (١/ ١٢٤) وسنن أبى داود برقم (١٢٧٥) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٣٤١).

(٧) النسائى فى السنن الكبرى برقم (٣٤٦).

(٨) سنن الترمذى برقم (٣٢٧٥).

www.Quranpdf.blogspot.in

من هذا الوجه .

وحديث ابن عباس، وأنه بات فى بيت خالته ميمونة وصلى تلك الليلة مع النبى ﷺ ثلاث عشرة ركعة، ثابت فى الصحيحين[(١)] وغيرهما، فأما هذه الزيادة فغريبة [و][(٢)] لا تعرف إلا من هذا الوجه، ورِشْدِين بن كُرَيْب ضعيف، ولعله من كلام ابن عباس موقوفا عليه، والله أعلم.

﴿ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣) يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (٤٤) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥) ﴾ .

يقول تعالى: ﴿وَاسْتَمِعْ﴾ يا محمد ﴿ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ قال قتادة: قال كعب الأحبار: يأمر الله [تعالى][(٣)] ملكاً[(٤)] أن ينادى على صخرة بيت المقدس: أيتها العظام البالية، والأوصال المتقطعة، إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء.

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ يعنى: النفخة فى الصور التى تأتى بالحق الذى كان أكثرهم فيه يمترون. ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴾ أى: من الأجداث، ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ أى: هو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده، وهو أهون عليه، وإليه مصير[(٥)] الخلائق كلهم، فيجازى كلا بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وقوله: ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾: وذلك أن الله تعالى[(٦)] ينزل مطراً من السماء تنبت به أجساد الخلائق فى قبورها، كما ينبت الحب فى الثرى بالماء، فإذا تكاملت الأجساد أمر الله إسرافيل فينفح فى الصور، وقد أودعت الأرواح فى ثقب فى الصور، فإذا نفخ إسرافيل فيه خرجت الأرواح تتوهج بين السماء والأرض، فيقول الله، عز وجل: وعزتى وجلالى، لترجعن كل روح إلى الجسد الذى كانت تعمره، فترجع كل روح إلى جسدها، فتدب فيه كما يدب السم فى اللديغ وتنشق[(٧)] الأرض عنهم، فيقومون إلى موقف الحساب سراعا، مبادرين إلى أمر الله، عز وجل، ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر:٨]، وقال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلا﴾ [الإسراء:٥٢]، وفى صحيح مسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول من تنشق عنه الأرض»[(٨)].

---

(١) صحيح البخارى برقم (١١٩٨) وصحيح مسلم برقم (٧٦٣).
(٢، ٣) زيادة من م. (٤) فى م: «ملكان». (٥) فى م: «تصير».
(٦) فى م: «عز وجل». (٧) فى م: «وتتشقق».
(٨) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٢٧٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ولم أهتد إليه من حديث أنس.

www.Quranpdf.blogspot.in

وقوله: ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ أي: تلك إعادة سهلة علينا، يسيرة لدينا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٨].

وقوله: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ أي: نحن علمنا محيط بما يقول لك المشركون من التكذيب فلا يهيدنك ذلك، كقوله [تعالى][1]: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ . وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٧ـ ٩٩].

وقوله: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ أي: ولست بالذى تجبر هؤلاء على الهدى، وليس ذلك مما كلفت به.

وقال مجاهد، وقتادة، والضحاك: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ أي: لا تتجبر عليهم.

والقول الأول أولى، ولو أراد ما قالوه لقال: ولا تكن جباراً عليهم، وإنما قال: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ بمعنى: وما أنت بمجبرهم على الإيمان إنما أنت مبلغ.

قال الفراء: سمعت العرب تقول: جبر فلان فلانا على كذا[2]، بمعنى أجبره[3].

ثم قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أي: بلغ أنت رسالة ربك، فإنما[4] يتذكر من يخاف الله ووعيده ويرجو وعده، كقوله [تعالى][5]: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، وقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ . لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢]، ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]، ولهذا قال هاهنا: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ كان قتادة يقول: اللهم، اجعلنا ممن يخاف وعيدك، ويرجو موعودك، يا بار، يا رحيم.

آخر تفسير سورة (ق)، والحمد لله وحده، وحسبنا الله ونعم الوكيل

---

(١) زيادة من م.
(٢) فى م: «جبر فلان على فلان كذا».
(٣) انظر تفسير الطبرى (٢٦/ ١١٥).
(٤) فى م: «فأما».
(٥) زيادة من م.

www.Quranpdf.blogspot.in

تفسير سورة الذاريات

وهى مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ (٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (٩) قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤) ﴾ .

قال شعبة[١] بن الحجاج، عن سِماك، عن خالد بن عَرْعَرَة أنه سمع عليا وشعبة أيضاً، عن القاسم بن أبى بزَّة، عن أبى الطُّفَيْل، سمع علياً. وثبت أيضاً من غير وجه، عن أمير المؤمنين على ابن أبى طالب: أنه صعد منبر الكوفة فقال: لا تسألونى عن آية فى كتاب الله، ولا عن سنة عن رسول الله، إلا أنبأتكم بذلك. فقام إليه ابن الكواء فقال: يا أمير المؤمنين، ما معنى قوله تعالى: **﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾**؟ قال: الريح [قال][٢] : **﴿ فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا﴾**؟ قال: السحاب. [قال][٣]: **﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴾**؟ قال: السفن. [قال][٤]: **﴿ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾**؟ قال: الملائكة[٥].

وقد روى فى ذلك حديث مرفوع، فقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا إبراهيم بن هانئ، حدثنا سعيد بن سلام العطار، حدثنا أبو بكر بن أبى سَبْرَة، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب قال: جاء صَبِيغ التميمى إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرنى عن **﴿الذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾**؟ فقال: هى الرياح، ولولا أنى سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته. قال: فأخبرنى عن **﴿الْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾** قال: هى الملائكة، ولولا أنى سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته. قال: فأخبرنى عن **﴿ الْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴾** قال: هى السفن، ولولا أنى سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته. ثم أمر به فضرب مائة، وجعل فى بيت، فلما برأ[٦] [دعا به و][٧]ضربه مائة أخرى، وحمله على قَتَب، وكتب إلى أبى موسى الأشعرى: امنع الناس من مجالسته. فلم يزل كذلك حتى أتى أبا موسى فحلف بالأيمان الغليظة ما يجد فى نفسه مما كان يجد شيئا. فكتب فى ذلك إلى عمر، فكتب عمر: ما إخاله إلا صدق، فخل بينه وبين مجالسة الناس.

(١) فى أ: «سعيد». (٢ـ٤) زيادة من م.
(٥) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٦/ ١١٥) عن محمد بن المثنى عن محمد بن جعفر عن شعبة به.
(٦) فى م: «برد». (٧) زيادة من م،أ.

www.Quranpdf.blogspot.in

قال أبو بكر البزار: فأبو بكر بن أبى سبرة لين، وسعيد بن سلام ليس من أصحاب الحديث[(١)].

قلت: فهذا الحديث ضعيف رفعه، وأقرب ما فيه أنه موقوف على عمر، فإن قصة صَبِيغ بن عسل مشهورة مع عمر[(٢)]، وإنما ضربه لأنه ظهر له من أمره فيما يسأل تعنتا وعنادا، والله أعلم.

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر هذه القصة فى ترجمة صبيغ مطولة[(٣)]. وهكذا فسرها ابن عباس، وابن عمر، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، والسدى، وغير واحد. ولم يحك ابن جرير وابن أبى حاتم غير ذلك.

وقد قيل: إن المراد بالذاريات: الريح كما تقدم، وبالحاملات وقراً: السحاب كما تقدم؛ لأنها تحمل الماء، كما قال زيد بن عمرو بن نفيل:

وَأَسْلَمْتُ نَفْسى لِمَنْ أَسْلَمَتْ ... لَهُ المزْنُ تَحمِلُ عَذْبا زُلالا[(٤)]

فأما الجاريات يسراً، فالمشهور عن الجهور ـ كما تقدم ـ: أنها السفن، تجرى ميسرة فى الماء جريا سهلا. وقال بعضهم: هى النجوم تجرى يسرا[(٥)] فى أفلاكها، ليكون ذلك ترقيا من الأدنى إلى الأعلى، إلى ما هو أعلى منه، فالرياح فوقها السحاب، والنجوم فوق ذلك، والمقسمات أمرا الملائكة فوق ذلك، تنزل بأوامر الله الشرعية والكونية. وهذا قسم من الله عز وجل على وقوع المعاد؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ أى: لخبر صدق، ﴿وَإِنَّ الدِّينَ﴾، وهو: الحساب ﴿لَوَاقِعٌ﴾ أى: لكائن لا محالة.

ثم قال: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾، قال ابن عباس: ذات البهاء والجمال والحسن والاستواء. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جُبَيْر، وأبو مالك[(٦)]، وأبو صالح، والسدى، وقتادة، وعطية العوفى، والربيع بن أنس، وغيرهم.

وقال الضحاك، والمِنْهَال بن عمرو، وغيرهما: مثل تجعد الماء والرمل والزرع إذا ضربته الريح، فينسج بعضه بعضا طرائق [طرائق][(٧)]، فذلك الحبك.

قال ابن جرير: حدثنى يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَيَّة، حدثنا أيوب، عن أبى قلابة، عن رجل من أصحاب النبى ﷺ، عن رسول الله ﷺ؛ أنه قال: «إن من ورائكم الكذاب المضل، وإن رأسه من ورائه حُبُك حُبُك» يعنى بالحبك: الجعودة[(٨)].

وعن أبى صالح: ﴿ذَاتِ الْحُبُكِ﴾: الشدة. وقال خصيف: ﴿ذَاتِ الْحُبُكِ﴾: ذات الصفاقة.

---

(١) مسند البزار برقم (٢٢٥٩) «كشف الأستار» وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١١٢): «فيه أبو بكر بن أبى سبرة، وهو متروك».
(٢) فى م: «مع التميمى عمر».
(٣) تاريخ دمشق (٨/ ٢٣٠) «القسم المخطوط».
(٤) البيت فى سيرة ابن هشام (١/ ٢٣١). (٥) فى أ: «سيراً». (٦) فى م: «وابن مالك».
(٧) زيادة من م، أ.
(٨) تفسير الطبرى (٢٦/ ١١٨) ورواه أحمد فى مسنده (٥/ ٤١٠) من طريق إسماعيل بن علية به.

www.Quranpdf.blogspot.in

وقال الحسن بن أبى الحسن البصرى: ﴿ذَاتِ الْحُبُكِ﴾: حبكت بالنجوم.

وقال قتادة: عن سالم بن أبى الجَعْد، عن مَعْدان بن أبى طلحة، عن عمرو البكالى، عن عبدالله ابن عمرو: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ يعنى: السماء السابعة.

وكأنه ـ والله أعلم ـ أراد بذلك السماء التى فيها الكواكب الثابتة، وهى عند كثير من علماء الهيئة فى الفلك الثامن الذى فوق السابع، والله أعلم. وكل هذه الأقوال ترجع إلى شىء واحد، وهو الحسن والبهاء، كما قال ابن عباس، رضى الله عنهما[١]، فإنها من حسنها مرتفعة شفافة صفيقة، شديدة البناء، متسعة الأرجاء، أنيقة البهاء، مكللة بالنجوم الثوابت والسيارات، موشحة بالشمس والقمر والكواكب الزاهرات.

وقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ أى: إنكم أيها المشركون المكذبون للرسل لفى قول مختلف مضطرب، لا يلتئم ولا يجتمع.

وقال قتادة: إنكم لفى قول مختلف،[يعنى][٢] ما بين مصدق بالقرآن ومكذب به.

﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ أى: إنما يروج على من هو ضال فى نفسه؛ لأنه قول باطل إنما ينقاد له ويضل بسببه ويؤفك عنه من هو مأفوك ضال غَمْر، لا فهم له، كما قال تعالى: ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ. مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ. إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ١٦١ـ ١٦٣].

قال ابن عباس، والسدى: ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾: يضل عنه من ضل. وقال مجاهد: ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ يؤفن عنه من أفن. وقال الحسن البصرى: يصرف عن هذا القرآن من كذب به.

وقوله: ﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ ـ قال مجاهد: الكذابون. قال: وهى مثل التى فى عبس: ﴿قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ [عبس: ١٧] ، والخراصون الذين يقولون لا نبعث ولا يوقنون.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ أى: لعن المرتابون.

وهكذا كان معاذ، رضى الله عنه، يقول فى خطبه: هلك المرتابون. وقال قتادة: الخراصون أهل الغرة والظنون.

وقوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾: قال ابن عباس وغير واحد: فى الكفر والشك غافلون لاهون.

﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾: وإنما يقولون هذا تكذيبا وعنادا وشكا واستبعادا. قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾.

قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وغير واحد: ﴿يُفْتَنُونَ﴾: يعذبون [قال مجاهد][٣]: كما

---

(١) فى م،أ: «عنه». (٢) زيادة من أ. (٣) زيادة من م،أ.

www.Quranpdf.blogspot.in

يفتن الذهب على النار.

وقال جماعة آخرون كمجاهد أيضا، وعكرمة، وإبراهيم النَّخَعِى، وزيد بن أسلم، وسفيان الثورى: ﴿يُفْتَنُونَ﴾: يحرقون.

﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾: قال مجاهد: حريقكم. وقال غيره: عذابكم. ﴿هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أى: يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً وتحقيراً وتصغيراً.

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ (٢٣) ﴾.

يقول تعالى مخبرا عن المتقين لله، عز وجل: إنهم يوم معادهم يكونون فى جنات وعيون، بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من العذاب والنكال، والحريق والأغلال.

وقوله: ﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾: قال ابن جرير: أى عاملين بما آتاهم الله[1] من الفرائض. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ أى: قبل أن يفرض[2] عليهم الفرائض كانوا محسنين فى الأعمال أيضا. ثم روى عن ابن حميد، حدثنا مهْرَان، عن سفيان، عن أبى عمر، عن مسلم البطين، عن ابن عباس فى قوله: ﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ قال: من الفرائض، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾: قبل الفرائض يعملون. وهذا الإسناد ضعيف، ولا يصح[3] عن ابن عباس. وقد رواه عثمان بن أبى شيبة، عن معاوية بن هشام، عن سفيان، عن أبى عمر البزار، عن مسلم[4] البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، فذكره. والذى فسر به ابن جرير فيه نظر؛ لأن قوله: ﴿آخِذِينَ﴾ حال من قوله: ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾، فالمتقون فى حال كونهم فى الجنات والعيون آخذون ما آتاهم ربهم[5]، أى: من النعيم والسرور والغبطة.

وقوله[6]: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾ أى: فى الدار الدنيا ﴿مُحْسِنِينَ﴾، كقوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤] ثم إنه تعالى بيَّن إحسانهم فى العمل فقال: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾، اختلف المفسرون فى ذلك على قولين:

أحدهما: أن «ما» نافية، تقديره: كانوا قليلا من الليل لا يهجعونه. قال ابن عباس: لم تكن

---

(١) فى م: «ربهم». (٢) فى م: «تفرض». (٣) فى م: «لا يصح».
(٤) فى م: «عن أبى مسلم». (٥) فى م: «الله». (٦) فى م: «وقولهم».

www.Quranpdf.blogspot.in

تمضى عليهم ليلة إلا يأخذون منها ولو شيئا. وقال قتادة، عن مطرف بن عبد الله: قلَّ ليلة تأتى عليهم لا يصلون فيها لله، عز وجل، إما من أولها وإما من أوسطها. وقال مجاهد: قلَّ ما يرقدون ليلة حتى[(١)] الصباح لا يتهجدون. وكذا قال قتادة. وقال أنس بن مالك، وأبو العالية: كانوا يصلون بين المغرب والعشاء. وقال أبو جعفر الباقر، كانوا لا ينامون حتى يصلوا العتمة.

والقول الثانى: أن «ما» مصدرية، تقديره: كانوا قليلا من الليل هجوعهم ونومهم. واختاره ابن جرير. وقال الحسن البصرى: ﴿**كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ**﴾: كابدوا قيام الليل، فلا ينامون من الليل إلا أقله، ونشطوا فمدّوا إلى السحر، حتى كان الاستغفار بسحر. وقال قتادة: قال الأحنف بن قيس: ﴿**كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ**﴾: كانوا لا ينامون إلا قليلا، ثم يقول: لست من أهل هذه الآية. وقال الحسن البصرى: كان الأحنف بن قيس يقول: عرضت عملى على عمل أهل الجنة، فإذا قوم قد باينونا بوناً بعيدا، إذا قوم لا نبلغ أعمالهم، كانوا قليلا من الليل ما يهجعون. وعرضت عملى على عمل أهل النار فإذا قوم لا خير فيهم يكذبون [(٢)]بكتاب الله وبرسل الله، يكذبون بالبعث بعد الموت، فوجدت من خيرنا منزلة قوماً خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: قال رجل من بنى تميم لأبى: يا أبا أسامة، صفة لا أجدها فينا، ذكر الله قوما فقال: ﴿**كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ**﴾، ونحن والله قليلا من الليل ما نقوم. فقال له أبى: طوبى لمن رقد إذا نعس، واتقى الله إذا استيقظ.

وقال عبد الله بن سلام: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، انجفل الناس إليه، فكنت فيمن انجفل. فلما رأيت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه رَجُلٍ كذاب، فكان أول ماسمعته يقول: «يأيها الناس، أطعموا الطعام، وصِلُوا الأرحام، وأفشوا السلام، وصَلُّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»[(٣)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لَهيعة، حدثنى حيى بن عبد الله، عن أبى عبد الرحمن الحُبُلى، عن عبد الله بن عمرو؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن فى الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها». فقال أبو موسى الأشعرى: لمن هى يارسول الله؟ قال: «لمن ألان الكلام، وأطعم الطعام، وبات لله قائما، والناس نيام»[(٤)].

وقال مَعْمَر فى قوله: ﴿**كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ**﴾: كان [(٥)] الزهرى والحسن يقولان:

---

(١) فى م: «إلى». (٢) فى م: «فيكذبون».

(٣) رواه أحمد فى المسند (٥/ ٤٥١) والترمذى فى السنن برقم (٢٤٨٥) وابن ماجه فى السنن برقم (١٣٣٤).
قال الترمذى: «حسن صحيح».

(٤) المسند (٢/ ١٧٣) وقال الهيثمى فى المجمع (٥/ ١٦): «فيه ابن لهيعة وحديثه حسن، وبقية رجاله ثقات» ولعل تحسين الحافظ الهيثمى لحديث ابن لهيعة لأنه قد توبع: تابعه عبد الله بن وهب ـ روايته عن ابن لهيعة صحيحة ـ أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير برقم (١٠٣) «الجزء المفقود».

(٥) فى م: «قال».

www.Quranpdf.blogspot.in

كانوا كثيرا من الليل ما يصلون.

وقال ابن عباس، وإبراهيم النَّخَعي: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾: ماينامون.

وقال الضحاك: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ. كَانُوا قَلِيلاً﴾ ثم ابتدأ فقال: ﴿مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُون. وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

وقوله عز وجل: ﴿وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾. قال مجاهد، وغير واحد: يصلون. وقال آخرون: قاموا الليل، وأخروا الاستغفار إلى الأسحار. كما قال تعالى: ﴿والمستغفرين بالأسحار﴾ [آل عمران: ١٧]، فإن كان الاستغفار في صلاة فهو أحسن. وقد ثبت في الصحاح وغيرها عن جماعة من الصحابة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل فيعطى سؤله؟ حتى يطلع الفجر»[(١)].

وقال كثير من المفسرين في قوله تعالى إخبارا عن يعقوب: أنه قال لبنيه: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ [يوسف: ٩٨] قالوا: أخرهم إلى وقت السحر.

وقوله: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾: لما وصفهم بالصلاة ثنى بوصفهم[(٢)] بالزكاة والبر والصلة، فقال: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ[(٣)]﴾ أي: جزء مقسوم قد أفرزوه ﴿لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾، أما السائل فمعروف، وهو الذي يبتدئ بالسؤال، وله حق، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا وَكِيع وعبد الرحمن قالا: حدثنا سفيان، عن مصعب بن محمد، عن يعلى بن أبي يحيى، عن فاطمة بنت الحسين، عن أبيها الحسين بن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «للسائل حق وإن جاء على فرس».

ورواه أبو داود من حديث سفيان الثوري، به[(٤)] ثم أسنده من وجه آخر عن علي بن أبي طالب[(٥)]. وروى من حديث الهِرْماس بن زياد مرفوعا[(٦)].

وأما ﴿الْمَحْرُوم﴾، فقال ابن عباس، ومجاهد: هو المحارف الذي ليس له في الإسلام سهم. يعني: لا سهم له في بيت المال، ولا كسب له، ولا حرفة يتقوت منها.

وقالت أم المؤمنين عائشة: هو المحارَف الذي لا يكاد يتيسر له مكسبه.

وقال الضحاك: هو الذي لا يكون له مال إلا ذهب، قضى الله له ذلك.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم (٧٥٨).

(٢) في م، أ: «وصفهم». (٣) في م، أ: ﴿حق للسائل والمحروم﴾.

(٤) المسند (١/٢٠١) وسنن أبي داود برقم (١٦٦٥).

(٥) سنن أبي داود برقم (١٦٦٦).

(٦) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٢/٢٠٣) من طريق سليمان الدمشقي عن عثمان بن فايد عن عكرمة بن عمار عن الهرماس مرفوعاً به وفيه عثمان بن فايد وهو ضعيف.

www.Quranpdf.blogspot.in

وقال أبو قِلاَبة: جاء سيل باليمامة فذهب بمال رجل، فقال رجل من الصحابة: هذا المحروم.

وقال ابن عباس أيضاً، وسعيد بن المسيَّب، وإبراهيم النخعي، ونافع ـ مولى ابن عمر ـ وعطاء ابن أبى رباح ﴿الْمَحْرُومِ﴾: المحارف.

وقال قتادة، والزهرى: ﴿الْمَحْرُومِ﴾: الذى لا يسأل الناس شيئاً، قال الزهرى وقد قال رسول الله ﷺ: «ليس المسكين بالطوَّاف الذى ترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه، ولا يُفطن له فيتصدق عليه»(١).

وهذا الحديث قد أسنده الشيخان فى صحيحيهما من وجه آخر(٢).

وقال سعيد بن جبير: هو الذى يجىء وقد قُسِّم المغنم، فيرضخ له.

وقال محمد بن إسحاق: حدثنى بعض أصحابنا قال: كنا مع عمر بن عبد العزيز فى طريق مكة فجاء كلب فانتزع عمر كتف شاة فرمى بها إليه، وقال: يقولون: إنه المحروم.

وقال الشعبى: أعيانى أن أعلم ما المحروم.

واختار ابن جرير أن المحروم: [هو] (٣) الذى لا مال له بأى سبب كان، قد ذهب ماله، سواء كان لا يقدر على الكسب، أو قد هلك ماله أو نحوه (٤) بآفة أو نحوها.

وقال الثورى، عن قيس بن مسلم، عن الحسن بن محمد؛ أن رسول الله ﷺ بعث سرية فغنموا، فجاء قوم لم يشهدوا الغنيمة فنزلت هذه الآية: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾(٥).

وهذا يقتضى أن هذه مدنية، وليس كذلك، بل هى مكية شاملة لما بعدها.

وقوله: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ أى: فيها من الآيات الدالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة، مما قد ذرأ فيها من صنوف النبات والحيوانات، والمهاد والجبال، والقفار والأنهار والبحار، واختلاف ألسنة الناس وألوانهم، وما جبلوا عليه من الإرادات والقوى، وما بينهم من التفاوت فى العقول والفهوم والحركات، والسعادة والشقاوة، وما فى تركيبهم من الحكم فى وضع كل عضو من أعضائهم (٦) فى المحل الذى هو محتاج إليه فيه؛ ولهذا قال: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾: قال قتادة: من تفكر فى خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولينت مفاصله للعبادة.

ثم قال: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ يعنى: المطر، ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ يعنى: الجنة. قاله ابن عباس،

(١) تفسير الطبرى (٢٦/ ١٢٥) وسيأتى موصولاً.

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٥٣٩) وصحيح مسلم برقم (١٠٣٩) من طريق شريك بن عبد الله عن عطاء بن يسار عن أبى هريرة مرفوعاً.

(٣) زيادة من م. (٤) فى م: «أو ثمرة».

(٥) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٦/ ١٢٥).

(٦) فى م، أ: «أجسادهم».

www.Quranpdf.blogspot.in

ومجاهد، وغير واحد.

وقال سفيان الثورى: قرأ واصل الأحدب هذه الآية: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ فقال: ألا إنى [(١)] أرى رزقى فى السماء، وأنا أطلبه فى الأرض؟ فدخل خربة فمكث [فيها][(٢)] ثلاثا لا يصيب شيئا، فلما أن كان فى اليوم الثالث إذا هو بِدَوْخَلَة من رطب، وكان له أخ أحسن نية منه، فدخل معه فصارتا دوخلتين، فلم يزل ذلك دأبهما حتى فرق الموت بينهما[(٣)].

وقوله: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾: يقسم تعالى بنفسه الكريمة أن ما وعدهم به من أمر القيامة والبعث والجزاء، كائن لا محالة، وهو حق لا مرية فيه، فلا تشكوا فيه كما لا تشكوا فى نطقكم حين تنطقون. وكان معاذ، رضى الله عنه، إذا حدث بالشىء يقول لصاحبه: إن هذا لحق كما أنك هاهنا.

قال مسدد، عن ابن أبى عَدِىّ، عن عَوْف، عن الحسن البصرى قال: بلغنى أن رسول الله ﷺ قال: «قاتل الله أقواماً أقسم لهم ربهم ثم لم يصدقوا».

ورواه ابن جرير، عن بُنْدَار، عن ابن أبى عدى، عن عوف، عن الحسن، فذكره مرسلاً[(٤)].

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٣٠) ﴾.

هذه القصة قد تقدمت فى سورة «هود» و«الحجر»[(٥)] أيضا. وقوله: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ أى: الذين أرصد لهم الكرامة. وقد ذهب الإمام أحمد وطائفة من العلماء إلى وجوب الضيافة للنزيل، وقد وردت السنة بذلك كما هو ظاهر التنزيل.

وقوله: ﴿قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ﴾: الرفع أقوى وأثبت من النصب، فرده أفضل من التسليم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: ٨٦]، فالخليل اختار الأفضل.

وقوله: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾: وذلك أن الملائكة وهم: جبريل وإسرافيل وميكائيل قدموا عليه فى صور شباب حسان عليهم مهابة عظيمة؛ ولهذا قال: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾.

---

(١) فى م: «لا أرى رزقى». (٢) زيادة من م. (٣) فى م: «بينهما الموت».
(٤) تفسير الطبرى (٢٦/ ١٢٧).
(٥) تقدم تفسير ذلك فى سورة هود عند الآيات: ٦٩ ـ ٧٣، وكذلك فى سورة الحجر عند الآيات: ٥١ ـ ٥٦.

www.Quranpdf.blogspot.in

وقوله: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ ﴾ أى: انسل خفية فى سرعة، ﴿ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ أى: من خيار ماله. وفى الآية الأخرى: ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ [هود:٦٩] أى: مشوى على الرَّضف، ﴿ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ ﴾ أى: أدناه منهم، ﴿ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾: تلطف فى العبارة وعرض حسن.

وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة؛ فإنه جاء بطعامه [(١)] من حيث لا يشعرون بسرعة، ولم يمتن عليهم أولا فقال: «نأتيكم بطعام؟» بل جاء به بسرعة [(٢)] وخفاء، وأتى بأفضل ما وجد من ماله، وهو عجل فتى سمين مشوى، فقربه إليهم، لم يضعه، وقال: اقتربوا، بل ،وضعه بين أيديهم، ولم يأمرهم أمرا يشق على سامعه بصيغة الجزم، بل قال: ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾، على سبيل العرض والتلطف، كما يقول القائل اليوم: إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق، فافعل[(٣)].

وقوله: ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾: هذا محال على ما تقدم فى القصة فى السورة الأخرى، وهو[(٤)] قوله: ﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ. وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾ [هود: ٧٠، ٧١] أى: استبشرت بهلاكهم؛ لتمردهم وعتوهم على الله، فعند ذلك بشرتها الملائكة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب. ﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ. قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٢، ٧٣]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ ﴾، فالبشارة له هى بشارة لها؛ لأن الولد منها، فكل منهما بشر به.

وقوله: ﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ ﴾ أى: فى صرخة عظيمة [(٥)] ورنة، قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وأبو صالح، والضحاك، وزيد بن أسلم، والثورى، والسدى، وهى قولها: ﴿ يَا وَيْلَتَىٰ ﴾. ﴿ فَصَكَّتْ[(٦)] وَجْهَهَا﴾ أى: ضربت بيدها على جبينها، قاله مجاهد وابن [(٧)] سابط.

وقال ابن عباس: لطمت، أى تعجبا كما تتعجب [(٨)] النساء من الأمر الغريب، ﴿ وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أى: كيف ألد وأنا عجوز [عقيم][(٩)]، وقد كنتُ فى حال الصبا عقيما لا أحبل؟ ﴿قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ[(١٠)]﴾ أى: عليم بما تستحقون من الكرامة، حكيم فى أقواله وأفعاله.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ

---

(١) فى م: «بطعام». (٢) فى أ: «فى سرعة».
(٣) وقد توسع الإمام ابن القيم رحمه الله فى كتابه «جلاء الأفهام» (ص ١٨١ ـ ١٨٤) فى الكلام على آداب الضيافة فى هذه الآيات.
(٤) فى م: «وهى». (٥) فى م، أ: «وعيطة». (٦) فى م: «وصكت».
(٧) فى م: «وأبو». (٨) فى م: «يتعجب». (٩) زيادة من أ.
(١٠) فى م: «العليم الحكيم» وهو خطأ.

www.Quranpdf.blogspot.in

المؤمنين (٣٥) فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين (٣٦) وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم (٣٧)﴾ .

قال الله مخبرا عن إبراهيم، عليه السلام: ﴿**فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط. إن إبراهيم لحليم أواه منيب. يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود**﴾ [هود: ٧٤ ـ ٧٦].

وقال هاهنا: ﴿**قال فما خطبكم أيها المرسلون**﴾ أى: ما شأنكم وفيم جئتم؟ ﴿**قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين**﴾ يعنون قوم لوط، ﴿**لنرسل عليهم حجارة من طين. مسومة**﴾ أى: معلمة ﴿**عند ربك للمسرفين**﴾ أى: مكتتبة عنده بأسمائهم، كل حجر عليه اسم صاحبه، فقال فى سورة العنكبوت: ﴿**قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين**﴾ [العنكبوت: ٣٢]. وقال هاهنا: ﴿**فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين**﴾، وهم لوط وأهل بيته إلا امرأته، ﴿**فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين**﴾. احتج بهذه [الآية][(١)] من ذهب إلى رأى المعتزلة، ممن لا يفرق بين مسمى الإيمان والإسلام؛ لأنه أطلق عليهم المؤمنين والمسلمين. وهذا الاستدلال ضعيف؛ لأن هؤلاء كانوا قوما مؤمنين، وعندنا أن كل مؤمن مسلم ولا ينعكس، فاتفق الاسمان هاهنا لخصوصية الحال، ولا يلزم ذلك فى كل حال.

وقوله: ﴿**وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم**﴾ أى: جعلناها عبرة، لما أنزلنا بهم من العذاب والنكال وحجارة السجيل، وجعلنا [(٢)] محلتهم بحيرة منتنة خبيثة، ففى ذلك عبرة للمؤمنين، ﴿**الذين يخافون العذاب الأليم**﴾.

﴿وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين (٣٨) فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون (٣٩) فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم (٤٠) وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم (٤١) ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم (٤٢) وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين (٤٣) فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون (٤٤) فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين (٤٥) وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين (٤٦)﴾ .

يقول تعالى: ﴿**وفي موسى**﴾ [آية][(٣)] ﴿**إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين**﴾ أى: بدليل باهر وحجة قاطعة، ﴿**فتولى بركنه**﴾ أى: فأعرض فرعون عما جاءه [(٤)] به موسى من الحق المبين، استكبارا

(١) زيادة من م. (٢) فى م، أ: «وجعل».
(٣) زيادة من م. (٤) فى م: «جاء».

www.Quranpdf.blogspot.in

وعنادا .

وقال مجاهد: تعزز بأصحابه. وقال قتادة: غلب عدُو الله على قومه. وقال ابن زيد: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ﴾ أى: بجموعه التى معه، ثم قرأ: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[هود: ٨٠].

والمعنى الأول قوى كقوله: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحج: ٩] أى: معرض عن الحق مستكبر، ﴿وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ أى: لا يخلو أمرك فيما جئتنى به من أن تكون ساحرا أو مجنونا، قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ﴾ أى: ألقيناهم فى اليم، وهو البحر، ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أى: وهو ملوم كافر جاحد فاجر معاند.

ثم قال : ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ أى: المفسدة التى لا تنتج شيئا. قاله الضحاك، وقتادة، وغيرهما.

ولهذا قال: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ أى: مما تفسده الريح ﴿إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ أى: كالشىء الهالك البالى.

وقد قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخى ابن وهب، حدثنا عمى عبد الله بن وهب، حدثنى عبد الله ـ يعنى: ابن عياش(١) ـ القتبانى، حدثنى عبد الله بن سليمان، عن دراج، عن عيسى بن هلال الصَّدَفى، عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «الريح مسخرة من الثانية ـ يعنى من الأرض الثانية ـ فلما أراد الله أن يهلك عاداً أمر خازن الريح أن يرسل عليهم ريحا تهلك عادا، قال: أى رَبِّ، أرسل عليهم [من] (٢) الريح قدر منخر الثور؟ قال له الجبار: لا، إذاً تكفأ الأرض ومن عليها، ولكن أرسل [عليهم] (٣) بقدر خاتم. فهى التى يقول (٤) الله فى كتابه: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾.

هذا الحديث رفعه منكر(٥)، والأقرب أن يكون موقوفا على عبد الله بن عمرو، من زاملتيه اللتين(٦) أصابهما يوم اليرموك ، والله أعلم.

قال سعيد بن المسيب وغيره فى قوله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ قالوا: هى الجنوب. وقد ثبت فى الصحيح من رواية شعبة، عن الحكم، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «نصرت بالصّبا، وأهلكت عاد بالدبور»(٧).

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ قال ابن جرير: يعنى إلى وقت فناء آجالكم.

---

(١) فى م: «ابن عباس». (٢، ٣)زيادة من م. (٤) فى م، أ: «قال».

(٥) رواه الحاكم فى المستدرك (٤/ ٥٩٤) وابن منده فى كتاب التوحيد (١/ ١٨٦) من طريق عبد الله بن وهب بأطول منه.

وقال ابن منده: إسناده متصل مشهور ورواته مصريين. وصححه الحاكم وتعقبه الذهبى بقوله: «بل منكر، فيه عبد الله بن عياش، ضعفه أبو داود، وعند مسلم أنه ثقة، ودراج وهو كثير المناكير».

(٦) فى م: «اللذين».

(٧) صحيحه مسلم برقم (٩٠٠).

www.Quranpdf.blogspot.in

والظاهر أن هذه كقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ [فصلت: ١٧].

وهكذا قال هاهنا: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ. فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾، وذلك أنهم انتظروا العذاب ثلاثة أيام وجاءهم في صبيحة اليوم الرابع بُكْرَة النهار ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ﴾ أي: من هَرَبٍ ولا نهوض، ﴿وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾ أي: ولا يقدرون على أن ينتصروا مما هم فيه.

وقوله: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أي: وأهلكنا قوم نوح من قبل هؤلاء ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ وكل هذه القصص قد تقدمت مبسوطة فى أماكن كثيرة، من سور متعددة.

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (٤٨) وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩) فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥١)﴾.

يقول تعالى منبها على خلق العالم العلوى والسفلى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا﴾ أى: جعلناها سقفا [محفوظا][١] رفيعا ﴿بِأَيْدٍ﴾ أى: بقوة. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والثورى، وغير واحد، ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾، أى: قد وسعنا أرجاءها ورفعناها بغير عمد، حتى استقلت كما هى، ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ أى: جعلناها فراشاً للمخلوقات، ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ أى: وجعلناها مهدا لأهلها، ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أى: جميع المخلوقات أزواج: سماء وأرض، وليل ونهار، وشمس وقمر، وبر وبحر، وضياء وظلام، وإيمان وكفر، وموت وحياة، وشقاء وسعادة، وجنة ونار، حتى الحيوانات [جن وإنس، ذكور وإناث][٢] والنباتات؛ ولهذا قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أى: لتعلموا أن الخالق واحدٌ لا شريك له، ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ أى: الجؤوا إليه، واعتمدوا فى أموركم عليه، ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾. ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ أى: [و] [٣] لا تشركوا به شيئا، ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ (٥٤) وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥) وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ

(١) زيادة من م. (٢) زيادة من أ. (٣) زيادة من م.

www.Quranpdf.blogspot.in

أَصْحَابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ (٥٩) فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٦٠) ﴾ .

يقول تعالى مسليا نبيه ﷺ: وكما قال لك هؤلاء المشركون، قال المكذبون الأولون لرسلهم: ﴿**كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ**﴾! قال الله تعالى: ﴿**أَتَوَاصَوْا بِهِ**﴾ أي: أوصى بعضهم بعضا بهذه المقالة؟ ﴿**بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ**﴾ أي: لكن هم قوم طغاة، تشابهت قلوبهم، فقال متأخرهم كما قال متقدمهم. قال الله تعالى: ﴿**فَتَوَلَّ عَنْهُمْ**﴾ أي: فأعرض عنهم يا محمد، ﴿**فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ**﴾ يعني: فما نلومك على ذلك ﴿**وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ أي: إنما تنتفع [١] بها القلوب المؤمنة.

ثم قال: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ أي: إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي، لا لاحتياجي إليهم.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿**إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ أي: إلا ليقروا بعبادتي طوعا أو كرها[٢] وهذا اختيار ابن جرير.

وقال ابن جُرَيْج: إلا ليعرفون. وقال الربيع بن أنس: ﴿**إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ أي: إلا للعبادة. وقال السدي: من العبادة ما ينفع ومنها ما لا ينفع، ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ**﴾ [لقمان: ٢٥] هذا منهم عبادة، وليس ينفعهم مع الشرك. وقال الضحاك: المراد بذلك المؤمنون.

وقوله: ﴿**مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ. إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ**﴾ قال[٣] الإمام أحمد:

حدثنا يحيى بن آدم وأبو سعيد قالا: حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عبد الرحمن بن يزيد[٤]، عن عبد الله بن مسعود قال: أقرأني رسول الله [٥] ﷺ: «إني لأنا الرزاق ذو القوة المتين».

ورواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، من حديث إسرائيل، وقال الترمذي: حسن صحيح[٦].

ومعنى الآية: أنه تعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء، ومن عصاه عذبه أشد العذاب، وأخبر أنه غير محتاج إليهم، بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم، فهو خالقهم ورازقهم.

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبد الله، حدثنا عمران ـ يعني ابن زائدة بن نَشيط ـ عن أبيه، عن أبي خالد ـ هو الوالبي ـ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله: «يا ابن

---

(١) في م، أ: «فإنما ينتفع». (٢) في م: «وكرها».
(٣) في م: «وقال» .
(٤) في أ: «زيد».
(٥) في م: «النبي».
(٦) المسند (١/ ٣٩٤) وسنن أبي داود برقم (٣٩٩٣) وسنن الترمذي برقم (٢٩٤٠) والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٥٢٧).

www.Quranpdf.blogspot.in

آدم، تَفَرّغ لعبادتى أملأ صدرك غِنًى، وأسدّ فقرك، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلا ولم أسد فقرك».

ورواه الترمذى وابن ماجه، من حديث عمران بن زائدة، وقال الترمذى: حسن غريب[(١)].

وقد روى الإمام أحمد عن وكيع وأبى معاوية، عن الأعمش، عن سلام أبى شُرَحْبِيل، سمعت حَبَّة وسواء ابنى خالد يقولان: أتينا رسول الله ﷺ وهو يعمل عملا أو يبنى بناء ـ وقال أبو معاوية: يصلح شيئا ـ فأعناه عليه، فلما فرغ دعا لنا وقال: «لا تيأسا من الرزق ما تهززت رؤوسكما، فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشرة، ثم يعطيه الله ويرزقه»[(٢)]. و[قد ورد][(٣)] فى بعض الكتب الإلهية: «يقول الله تعالى: ابن آدم، خلقتك لعبادتى فلا تلعب، وتكفلت برزقك فلا تتعب فاطلبنى تجدنى؛ فإن وجدتنى وجدت كل شىء، وإن فُتك فاتك كل شىء، وأنا أحب إليك من كل شىء».

وقوله: ﴿**فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا**﴾ أى: نصيبا من العذاب، ﴿**مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ**﴾ أى: فلا يستعجلوا ذلك، فإنه واقع [بهم][(٤)] لا محالة ﴿**فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ**﴾ يعنى: يوم القيامة.

آخر تفسير سورة الذاريات

(١) المسند (٢/٣٥٨) وسنن الترمذى برقم (٢٤٦٦) وسنن ابن ماجه برقم (٤١٠٧).

(٢) المسند (٣/٤٦٩).

(٣) زيادة من م، أ.

(٤) زيادة من أ.

www.Quranpdf.blogspot.in

تفسير سورة الطـور

وهى مكية.

قال مالك، عن الزهرى، عن محمد بن جُبَير بن مطعم، عن أبيه: سمعت النبى ﷺ يقرأ فى المغرب بالطور، فما سمعت أحدا أحسن صوتا ـ أو: قراءة ـ منه.

أخرجاه من طريق مالك (١) وقال البخارى:

حدثنا عبد الله بن يوسف، أخبرنا مالك، عن محمد بن عبد الرحمن بن نَوْفَل، عن عُرْوَةَ، عن زينب بنت أبى سلمة، عن أم سلمة قالت: شكوت إلى رسول الله ﷺ أنى أشتكى، فقال: «طُوفى من وراء الناس وأنت راكبة» فطفت، ورسول الله ﷺ يصلى إلى جنب البيت يقرأ بالطور وكتاب مسطور (٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (٥) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَا لَهُ مِن دَافِعٍ (٨) يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦) ﴾.

يقسم تعالى بمخلوقاته الدالة على قدرته العظيمة: أن عذابه واقع بأعدائه، وأنه لا دافع له عنهم. فالطور هو: الجبل الذى يكون فيه أشجار، مثل الذى كلم الله عليه موسى، وأرسل منه عيسى، وما لم يكن فيه شجر لا يسمى طورا، إنما يقال له: جبل.

﴿وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ﴾ قيل: هو اللوح المحفوظ. وقيل: الكتب المنزلة المكتوبة التى تقرأ على الناس جهارا؛ ولهذا قال: ﴿فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ. وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾. ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال فى حديث الإسراء ـ بعد مجاوزته إلى السماء السابعة ـ: «ثم رفع بى (٣) إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله فى كل يوم سبعون ألفا لا يعودون إليه آخر ما عليهم» يعنى: يتعبدون فيه ويطوفون، كما

(١) صحيح البخارى برقم (٤٨٥٤) وصحيح مسلم برقم (٤٦٣).
(٢) صحيح البخارى برقم (٤٨٥٣) وصحيح مسلم (١٢٧٦).
(٣) فى م: «لى».

www.Quranpdf.blogspot.in

يطوف أهل الأرض بكعبتهم كذلك ذاك البيت، هو كعبة أهل السماء السابعة؛ ولهذا وجد إبراهيم الخليل، عليه السلام، مسندا ظهره إلى البيت المعمور؛ لأنه بانى الكعبة الأرضية، والجزاء من جنس العمل، وهو بحيال الكعبة، وفى كل سماء بيت يتعبد فيه أهلها، ويصلون إليه، والذى فى السماء الدنيا يقال له: بيت العزة. والله أعلم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا روح بن جناح، عن الزهرى، عن سعيد بن المسيب، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «فى السماء السابعة بيت يقال له: «المعمور» بحيال الكعبة، وفى السماء الرابعة نهر يقال له: «الحيوان» يدخله جبريل كل يوم، فينغمس فيه انغماسة، ثم يخرج فينتفض انتفاضة يخر عنه سبعون ألف قطرة، يخلق الله من كل قطرة ملكا يؤمرون أن يأتوا البيت المعمور، فيصلوا [١] فيه فيفعلون، ثم يخرجون فلا يعودون إليه أبدا، ويولى عليهم أحدهم، يؤمر أن يقف بهم من السماء موقفا يسبحون الله فيه إلى أن تقوم الساعة».

هذا حديث غريب جدا، تفرد به روح بن جناح هذا، وهو القرشى الأموى مولاهم أبو سعد الدمشقى، وقد أنكر هذا الحديث عليه جماعة من الحفاظ منهم: الجوزجانى، والعقيلى، والحاكم أبوعبد الله النيسابورى، وغيرهم.

قال الحاكم: لا أصل له من حديث أبى هريرة، ولا سعيد، ولا الزهرى[٢].

وقال ابن جرير: حدثنا هَنَّاد بن السُّرِىّ، حدثنا أبو الأحوص، عن سماك بن حرب، عن خالد ابن [٣] عرعرة؛ أن رجلا قال لعلى: ما البيت المعمور؟ قال: بيت فى السماء يقال له: «الضِّراح»، وهو بحيال الكعبة من فوقها، حرمته فى السماء كحرمة البيت فى الأرض، يصلى فيه كل يوم سبعون ألفا من الملائكة، لا[٤] يعودون فيه أبدا[٥].

وكذا رواه شعبة وسفيان الثورى، عن سِمَاك وعندهما أن ابن الكواء هو السائل عن ذلك. ثم رواه ابن جرير عن أبى كُرَيب، عن طَلْق بن غَنام، عن زائدة، عن عاصم، عن على بن ربيعة قال: سأل ابن الكواء عليا عن البيت المعمور، قال: مسجد فى السماء يقال له: «الضِّراح»، يدخله كل يوم سبعون ألفا من الملائكة، ثم لا يعودون فيه أبدا. ورواه من حديث أبى الطُّفَيْل، عن على بمثله.

وقال العَوْفى، عن ابن عباس: هو بيت حذاء العرش، تعمره الملائكة، يصلى فيه كل يوم سبعون

---

(١) فى م: «فيصلون».

(٢) ورواه ابن عدى فى الكامل (٣/ ١٤٤) من طريق هشام بن عمار به، وقال: «سمعت ابن حماد يقول: قال السعدى: روح بن جناح ذكر عن الزهرى حديثاً معضلا فى البيت المعمور» ثم ساقه بإسناده وتعقبه بقوله: «ولا يعرف هذا الحديث إلا بروح بن جناح عن الزهرى».

(٣) فى م: «عن».

(٤) فى م: «ثم لا».

(٥) تفسير الطبرى (٢٧/ ١٠).

www.Quranpdf.blogspot.in

ألفا من الملائكة ثم لا يعودون إليه. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، والربيع بن أنس، والسدى، وغير واحد من السلف.

وقال قتادة: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال يوما لأصحابه: «هل تدرون ما البيت المعمور؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنه مسجد فى السماء بحيال الكعبة، لو خر لخر عليها، يصلى فيه كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا منه لم يعودوا آخر ما عليهم».

وزعم الضحاك أنه يعمره طائفة من الملائكة يقال لهم: الجن(١)، من قبيلة إبليس(٢)، فالله أعلم.

وقوله: ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾: قال سفيان الثورى، وشعبة، وأبو الأحوص، عن سماك، عن خالد بن عَرْعَرَة، عن على: ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ يعنى: السماء، قال سفيان: ثم تلا: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾[الأنبياء: ٣٢]. وكذا قال مجاهد، وقتادة، والسدى، وابن جُرَيْج، وابن زيد، واختاره ابن جرير.

وقال الربيع بن أنس: هو العرش، يعنى: أنه سقف لجميع المخلوقات، وله اتجاه، وهو يُراد مع غيره كما قاله الجمهور.

وقوله: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾: قال الربيع بن أنس: هو الماء الذى تحت العرش، الذى ينزل [الله](٣) منه المطر الذى يحيى به الأجساد فى قبورها يوم معادها. وقال الجمهور: هو هذا البحر. واختلف فى معنى قوله: ﴿الْمَسْجُورِ﴾، فقال بعضهم: المراد أنه يوقد يوم القيامة نارا كقوله: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦] أى: أضرمت فتصير(٤) نارا تتأجج، محيطة بأهل الموقف. رواه سعيد ابن المسيب، عن على بن أبى طالب، ورُوى عن ابن عباس. وبه يقول سعيد بن جبير، ومجاهد، وعبد الله بن عبيد بن عُمير(٥)، وغيرهم.

وقال العلاء بن بدر: إنما سمى البحر المسجور لأنه لا يُشرب منه ماء، ولا يسقى به زرع، وكذلك البحار يوم القيامة. كذا رواه عنه ابن أبى حاتم.

وعن سعيد بن جُبير: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ يعنى: المرسل. وقال قتادة: ﴿[وَالْبَحْرِ](٦) الْمَسْجُورِ﴾: المملوء. واختاره ابن جرير ووجهه بأنه ليس موقدا اليوم فهو مملوء.

وقيل: المراد به: الفارغ، قال الأصمعى، عن أبى عمرو بن العلاء، عن ذى الرمة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ قال: الفارغ؛ خرجت أمة تستسقى فرجعت فقالت: «إن الحوض مسجور»، تعنى: فارغا. رواه ابن مردويه فى مسانيد الشعراء.

(١) فى م، أ: «الجن».
(٢) تفسير الطبرى (٢٧/ ١١).
(٣) زيادة من م، أ. (٤) فى م: «فصيرت». (٥) فى م: «وعبيد الله بن عمير».
(٦) زيادة من م.

www.Quranpdf.blogspot.in

وقيل: المراد بالمسجور: الممنوع المكفوف عن الأرض؛ لئلا [١] يغمرها فيغرق أهلها. قاله [٢] على ابن أبى طلحة، عن ابن عباس، وبه يقول السدى وغيره، وعليه يدل الحديث الذى رواه الإمام أحمد، رحمه الله، فى مسنده، فإنه قال:

حدثنا يزيد، حدثنا [٣] العوام، حدثنى شيخ كان مرابطا بالساحل قال: لقيت أبا صالح مولى عمر بن الخطاب فقال: حدثنا عمر بن الخطاب ، عن رسول الله ﷺ قال: «ليس من ليلة إلا والبحر يشرف فيها ثلاث مرات، يستأذن الله أن ينفضخ [٤] عليهم، فيكفه الله عز وجل»[٥].

وقال الحافظ أبو بكر الإسماعيلى: حدثنا الحسن بن سفيان، عن إسحاق بن راهويه، عن يزيد ـ وهو ابن هارون ـ عن العوام بن حوشب، حدثنى شيخ مرابط قال: خرجت ليلة لحرسى [٦] لم يخرج أحد من الحرس غيرى، فأتيت الميناء فصعدت، فجعل يخيل إلىَّ أن البحر يشرف يحاذى رؤوس الجبال، فعل ذلك مرارا وأنا مستيقظ، فلقيت أبا صالح فقال: حدثنا عمر بن الخطاب: أن رسول الله ﷺ قال: «ما من ليلة إلا والبحر يشرف ثلاث مرات، يستأذن الله أن ينفضخ عليهم، فيكفه الله عز وجل». فيه رجل مبهم لم يسم[٧].

وقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾: هذا هو المقسم عليه، أى: الواقع[٨] بالكافرين، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿مَا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾ أى: ليس له دافع يدفعه عنهم إذا أراد الله بهم ذلك.

قال الحافظ أبو بكر بن أبى الدنيا: حدثنا أبى، حدثنا موسى بن داود، عن صالح المرى، عن جعفر بن[٩] زيد العبدى قال: خرج عمر يَعسّ المدينة ذات ليلة، فمر بدار رجل من المسلمين، فوافقه قائما يصلى، فوقف يستمع قراءته فقرأ: ﴿وَالطُّورِ﴾ حتى بلغ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ. مَا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾ قال: قسم ـ ورب الكعبة ـ حق. فنزل عن حماره واستند إلى حائط، فمكث مليا، ثم رجع إلى منزله، فمكث شهرا يعوده الناس لا يدرون ما مرضه، رضى الله عنه[١٠].

وقال الإمام أبو عبيد فى «فضائل القرآن»: حدثنا محمد بن صالح، حدثنا هشام بن حسان، عن الحسن: أن عمر قرأ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ. [مَا لَهُ مِن دَافِعٍ][١١]﴾، فربا لها ربوة، عيد منها عشرين يوما[١٢].

وقوله: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾: قال ابن عباس وقتادة: تتحرك تحريكا. وعن ابن عباس: هو تشققها، وقال مجاهد: تدور دورا. وقال الضحاك: استدارتها وتحريكها لأمر الله، وموج بعضها فى

---

(١) فى م: «لا». (٢) فى م: «وقال». (٣) فى م: «بن». (٤) فى م: «ينفضح».
(٥) المسند (١/ ٤٣) ورواه من طريق ابن الجوزى فى العلل المتناهية (١/ ٥٢) وقال: «العوام ضعيف، والشيخ مجهول».
(٦) فى م: «لمحرثى».
(٧) وذكره المؤلف فى مسند عمر (٢/ ٦٠٨) من رواية الإسماعيلى، وقال: «فيه رجل مبهم لم يسم، والله أعلم بحاله».
(٨) فى م: «واقع». (٩) فى أ: «عن».
(١٠) وذكره المؤلف فى مسند عمر (٢/ ٦٠٧) من رواية ابن أبى الدنيا وفى إسناده صالح المرى، ووقع فى مسند عمر «المدنى» فإن كان المرى فهو ضعيف. (١١) زيادة من م.
(١٢) فضائل القرآن لأبى عبيد (ص٦٤).

www.Quranpdf.blogspot.in